التراث

تذكرة الأولياء

فريد الدين العطار النيسابوري

المجلد الثاني

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتورة منال اليمني عبد العزيز

العطار، محمد بن إبراهيم العطار النيسابوري،
١٢٣٠.٠٠
تذكــرة الأوليـــاء/ فــريد الدين العطار
النيسابوري؛ ترجمة وتقديم وتعليق: منال اليمنى
عبد العزيز. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠٠٨ مج ٢، ٢٤ سم.
تدمك ٥ ٦١٤ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ المتصوفون.
(أ) عبد العزيز، منال اليمنى (مقدم ومعلق)
(ب) ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب١٥٢٢٨١/ ٢٠٠٨

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 614 - 5

ديوى٩٢٢,٦٩

تذكرة الأولياء

فريد الدين العطار النيسابوري

ترجمة وتقديم وتعليق
دكتورة منال اليمني عبد العزيز

المجلد الثاني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

التراث

● الكتاب : «تذكرة الأولياء» (المجلد الثاني)
● المؤلف : فريد الدين العطار النيسابوري
● ترجمة وتقديم وتعليق : د. منال اليمني عبد العزيز
● الكتاب مترجم عن اللغة الفارسية الأصل الفارسي طبع عام ١٩٠٥
● الطبعة الأولى: للترجمة ٢٠٠٨ م

● طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
● الخطوط : أوس الأنصاري
● الإخراج الفني والغلاف : أميمة علي أحمد
● مراجعة : أحمد حسن

تقديم

هذا هو الجزء الثانى من كتاب فريد الدين العطار القيم «تذكرة الأولياء» فى تراجم السادة الصوفية. علاوة على ملحقات أضافها مجهول إلى الكتاب. وقد نهضت كاتبة السطور ـ بفضل من الله تعالى وتوفيقه بنقل النص كاملاً من الفارسية مع تحقيقه والتعليق عليه. وقد اعتمدت فى إخراجه كما كان الحال فى الجزء الأول ـ على نشرة المستشرق الإنجليزى نيكلسون.

ويشتمل هذا المجلد على قسمين:

القسم الأول: نقل النصف الثانى من كتاب «تذكرة الأولياء » لفريد الدين العطار إلى العربية، وهو يتضمن اثنين وثلاثين ترجمة لمشايخ الصوفية، ويبدأ بترجمة أحمد بن عاصم الأنطاكى، وينتهى بترجمة الحسين بن منصور الحلاج.

أما القسم الثانى: فهو نقل عن الفارسية للملحق الذى أضيف إلى الكتاب كما ورد فى نشرة نيكلسون.

ويحتوى هذا الملحق على تراجم خمسة وعشرين شيخًا من مشايخ الصوفية الذين عاشوا قبل القرن السادس الهجرى، وهم:

١ ـ إبراهيم الخواص ٢ ـ ممشاد الدينورى ٣ ـ أبو بكر الشبلى

٤ ـ أبو نصر السراج ٥ ـ أبو العباس القصاب ٦ ـ أبو على الدقاق

٧- أبو الحسن الخرقانى ٨ . إبراهيم الشيبانى ٩ . أبو بكر الصيدلانى
١٠ . أبو حمزة البغدادى ١١ . أبو عمرو بن نجيد ١٢ . أبو الحسن بن الصايغ
١٣ . أبو بكر الواسطى ١٤ . أبو على الثقفى ١٥ . أبو جعفر الخلدى
١٦- أبو على الروذبارى ١٧ . أبو الحسن الحصرى ١٨ . أبو اسحق الكازرونى
١٩ . أبو العباس السيارى ٢٠ . أبو عثمان المغربى ٢١ . أبو القاسم النصر آبادى
٢٢. أبو العباس النهاوندى ٢٣ . أبو سعيد بن أبى الخير
٢٤ . أبو الفضل حسن ٢٥ . الإمام محمد الباقر

وقد أضيف هذا الملحق إلى الكتاب فى القرن العاشر أو القرن الحادى عشر الهجرى؛ لأن جميع نسخ الكتاب المخطوطة والمطبوعة فى إيران وأوربا قبل القرن العاشر الهجرى لاتحتوى على هذا الملحق. إلا أنه وقع فى بعض النسخ المتأخرة.

وقيل : إن مصنف هذا الملحق هو: «محمود بن أبى القسم بن عيسى بن حسين بن أبى القسم الكفريابى». فقد عثر ويلهام بيرستش . مؤلف فهرست المخطوطات الفارسية . على نسخة مخطوطة لكتاب «تذكرة الأولياء» فى مكتبة برلين الوطنية، تحتوى على ملحق مكتوب عليه: «ذكر متأخرات مشايخ كبار رحمة الله عليهم أجمعين على يد أضعف الخلايق وأحقرهم الراجى إلى عفو الله . تعالى . وغفرانه محمود بن أبى القسم بن عيسى بن حسين بن أبى القسم الكفريابى.

وقيل: إنه مأخوذ عن كتاب مجهول لأحمد بن محمد بن أحمد الطوسى، وإنها أضيف إلى التذكرة فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى.

وقيل: إن مجهولاً جمع هذه المادة . التى تضمنها الملحق . فى القرن العاشر أو الحادى عشر الهجرى، ثم أضافها إلى التذكرة.

والواقع أنه ليس هناك ما يدل على أن مصنف هذا الملحق هو محمود ابن أبى القسم ، أو غيره. أو أن هذا الملحق نقل عن كتاب لأحمد بن محمد الطوسى؛ لأن هذا الكتاب مجهول ولكن ذكرها فى دراسة الكتاب.

هذا وقد كتب هذا الملحق على غرار «تذكرة الأولياء» للعطار؛ فقد عدد لنا المصنف مناقب المشايخ الذين ترجم لهم، وذكر أقوالهم وآراءهم، وشرح مقاماتهم، وأحوالهم، وكراماتهم.

واتبع المصنف النهج ذاته الذى اتبعه فريد الدين العطار فى تذكرته، فكان يبدأ الترجمة ببعض الجمل المسجعة التى تصف صاحب الترجمة، وتعدد مناقبه، ثم يثنى عليه بمجموعة من العبارات التى تبين مقامه فى التصوف، ثم يسرد مجموعة من الحكايات المتعلقة به، ويذكر بعض الأقوال المأثورة عنه، وكراماته عند الوفاة.

كما يذكر بعض المعلومات المتعلقة بمسقط رأسه، وموطنه، وتاريخ وفاته، ويشير إلى العصر الذى صنف فيه هذا الملحق إشارات عابرة.

وقد حاول المصنف - جاهدًا - محاكاة أسلوب العطار فى التذكرة. لكن الأسلوب الذى كتب به الملحق لايخلو من صعوبة وغموض فى بعض الأحيان.

على أن المصنف أفاد من المراجع ذاتها التى أفاد منها العطار، بالإضافة إلى بعض المراجع الأخرى العربية والفارسية، وبدا ذلك واضحًا فى النص، وإن كان المصنف لم يصرح بعناوين الكتب التى رجع إليها ، أو أسماء مؤلفيها. وقد رددت الأقوال والحكايات التى وردت فى النص إلى أصولها ما أمكن ذلك.

ولقد ظهر أثر العربى جليًا - فى هذا الملحق - فقد كان المصنف ينقل بعض العبارات العربية وأبيات الشعر والأدعية خلال النص الفارسى، وأحيانًا كان يأتى بصفحة كاملة أو أكثر بالعربية. وربما يرجع ذلك إلى نقله عن مصادر عربية. وكانت بعض العبارات بها أخطاء نحوية أو أسلوبية لكنى حرصت على نقلها كما هى فى الترجمة.

كان المصنف يدلى برأيه فى بعض المسائل الصوفية. وأحيانا كان ينقل التعليق عليها من مراجع أخرى خاصة «كشف المحجوب» للهجويرى.

وقد ذكر المصنف المشايخ الذين ترجم لهم . جميعًا . بالكنية ماعدا ثلاثة هم: إبراهيم الخواص، وممشاد الدينورى، وعلى الروذبارى. والجدير بالذكر أن أبا على هى كنية أحمد بن محمد بن القاسم الروذبارى.

على أنه قد يؤخذ على المصنف عدم الدقة فى نقله بعض أقوال المشايخ، وإغفاله ذكر الأسانيد، وعدم اهتمامه بالترتيب التاريخى فى سرد الشخصيات.

كما لم يراع المصنف التناسق عند سرده للشخصيات، فقد أسهب فى ترجمة أبى الحسن الخرقانى فى خمس وخمسين صفحة تقريبًا من الملحق، وأوجز فى ترجمة أبى نصر السراج فى صفحة ونصف تقريبًا من الملحق. وربما يرجع ذلك إلى المادة التى توفرت له عن كل شيخ، أو مكانة هذا الشيخ فى التصوف.

وقد اتسمت بعض أقوال المشايخ بالشطح والمبالغة بل الغرابة أيضًا. خاصة أقوال أبى الحسن الخرقانى وربما كان قد قالها وقد غلبه حال الفناء، وكذا أقوال أبى بكر الواسطى الذى كان مستغرقًا فى التوحيد.

وكما بدأ العطار تذكرته بترجمة الإمام جعفر الصادق، اختتم المصنف ملحقه بترجمة الإمام محمد الباقر معللا ذلك بأن هذه الطائفة كما بدأت بجعفر الصادق وهو من أبناء المصطفى (ﷺ)، فسوف تختم برجل منهم أيضًا هو محمد الباقر.

وأخيرًا أحمد الله الذى وفقنى إلى إتمام ترجمة هذا الكتاب القيم والمهم، الذى هو السجل الحافل بمأثورات كبار مشايخ الصوفية من أقوال وأخبار وآراء وحكايات وكرامات ؛ ليكون متاحًا لدارسى التصوف الإسلامى والمهتمين به، ويسد فراغًا كبيرًا فى المكتبة الشرقية عامة، والمكتبة الصوفية خاصة.

والله ولى التوفيق

ذكر أحمد بن عاصم الأنطاكى(1)
قدس الله روحه العزيز

هو الإمام صاحب الصدارة، والهمام صاحب القدرة، هو المبارز فى الجد والجهد، ومجاهد أهل العهد، هو قديس عالم الطهارة أحمد ابن عاصم الأنطاكى رحمة الله عليه.

كان من قدماء المشايخ، وكبار الأولياء. وكان عالماً بمختلف علوم الظاهر والباطن. وجاهد مجاهدة تامة. وعُمِّر طويلاً، وكان قد أدرك أتباع التابعين.

كان مريداً للمحاسبى، وكان قد رأى بشر (الحافى) والسرى [السقطى]، ولقى الفضيل. وكان أبو سليمان الدارانى يطلق عليه «جاسوس القلوب» لحدة فراسته. وله كلمات عالية، وإشارات لطيفة بديعة.

سأله رجل: هل أنت مشتاق إلى الله؟ قال: لا، فقال له: لماذا؟ قال: لأن الشوق يكون للغائب، ولكن طالما كان الغائب حاضراً، فأى مجال للشوق؟!

قالوا: ما المعرفة؟ قال: للمعرفة ثلاثة منازل: الأول: إثبات الوحدانية للواحد القهار، والثاني: انقطاع القلب عما سوى الله، والثالث: لا يستطيع أحد قط تأويله. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(٢)

قالوا: ما علامة المحبة؟ قال: من كانت عبادته قليلة، وفكره دائماً، وخلوته متصلة، وصمته مستمراً. إذا نظروا إليه، لم يرهم. وإذا نادوا عليه، لم يسمعهم إذا حلت به مصيبة، لم يحزن، وإذا وفق في أمر، لم يفرح. وهو لا يخشى أحداً قط، ولا يأمل في أحد قط.

قالوا: ما الخوف وما الرجاء؟ وما علاماتهما؟ قال: علامة الخوف الفرار، وعلامة الرجاء الطلب، فمن كان صاحب رجاء، ولم يكن صاحب طلب، فهو كاذب. ومن كان صاحب خوف، ولم يكن صاحب فرار، فهو كاذب.

وقال: رأيت أكثر الخلق رجاء في النجاة، أكثرهم خشية على نفسه من ألا يظفر بالنجاة. ووجدت أكثر الخلق خشية من الهلاك، أكثرهم اطمئناناً على نفسه. ألم تر كيف حل العقاب بيونس عليه السلام حين ظن أن الحق تعالى لن يعاتبه؟!.

وقال: أقل يقين إذا وصل إلى القلب، ملأه بالنور، وطهره من الشك. حتى ينبع شكر الله تعالى وخشيته من القلب. واليقين هو: معرفة عظمة الله تعالى. ويمكن أن يكون على قدر الله وعظمته، وعظمة المعرفة هي عظمة الله.

وقال: إذا جالستم أهل الصدق، فجالسوهم بالصدق؛ فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون فى قلوبكم، ويخرجون منها (من حيث لا تحسون).

وقال: علامة الرجاء (فى العبد) أنه: إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجياً لتمام النعمة من الله تعالى عليه فى الدنيا، وتمام عفوه فى الآخرة.

وقال: علامات الزهد أربع: الاعتماد على الحق، والفرار من الخلق، والإخلاص لله، واحتمال الظلم من أجل إعلاء كرامة الدين.

وقال: من علامة قلة معرفة العبد بنفسه: قلة الحياء، وقلة الخوف.

وقال: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف.

وقال: إذا طلبت صلاح قلبك؛ فاستعن عليه بحفظ لسانك.

وقال: أنفع الفقر ما كنت به متجملاً، وبه راضياً.

وقال: أنفع العقل ما عرفك نعم الله تعالى عليك، وأعانك على شكرها، وقام بخلاف الهوى.

وقال: أنفع الإخلاص ما نفى عنك الرياء والتصنع والتزين.

وقال: أنفع التواضع ما نفى عنك الكبر، أمات منك الغضب.

وقال: أضر المعاصى عليك عملك الطاعات بالجهل، وهو أضر عليك من عملك المعاصى بالجهل.

وقال: من يستهن بالقليل، ويستصغره، سرعان ما يقع فى الكثير.

وقال: يغوص الخواص في بحر الفكر، ويحتار العوام، ويضلون في بيداء الغفلة.

وقال: إمام كل عمل علم، وإمام كل علم عناية.

وقال: اليقين: نور يجعله الله تعالى في قلب العبد؛ حتى يشاهد به أمور آخرته، ويخرق بقوته كل حجاب بينه وبين ما في الآخرة؛ حتى يطالع تلك الأمور كالمشاهد لها.

وقال: الإخلاص هو أنك حين تؤدي عملاً، لا تحب أن يذكروك به، ويجلوك بسببه، وألا تطلب أجراً عليه من أحد قط سوى الله تعالى. وهذا هو الإخلاص في العمل.

وقال: اعمل على أن ليس في الأرض أحد غيرك، ولا في السماء أحد غيره.

وقال: هذه غنيمة باردة: وأصلح فيما بقي؛ حتى يغفر لك فيما مضى.

وقال: دواء القلب في خمسة أشياء: مجالسة أهل الصلاح، وقراءة القرآن، وخواء البطن، وقيام الليل والتضرع في السحر.

وقال: العدل عدلان: عدل ظاهر، فيما بينك وبين الناس، وعدل باطن، فيما بينك وبين الله تعالى. وطريق العدل طريق الاستقامة، وطريق الفضل طريق الفضيلة.

وقال: نحن نوافق أهل الصلاح في أعمال الجوارح، ونخالفهم في الهمة.

وقال: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣]. ونحن نستزيد من الفتنة.

يروى أن نيفاً وثلاثين رجلاً من أصحابه اجتمعوا ذات ليلة، ووضعوا المائدة، وكان الخبز قليلاً، فقطعه الشيخ، وحمل السراج، ولما أعيد السراج، كانت قطع الخبز جميعها لا تزال في مكانها، ولم يكن أحد قط قد أكل منها مؤثراً لنفسه. وهكذا كان قد ربى مريديه. رحمة الله عليه.

ذكر عبدالله بن خُبيق[٤]

قدس الله روحه العزيز

هو غواص بحر الدين، وبحر در اليقين، وهو قطب المُكنة، وركن السنة. هو إمام المجذوبين، والسبيق، عبدالله بن خبيق رحمة الله عليه.

كان من زهاد المتصوفة وعابديهم، ومن الورعين المتوكلين. بالغ فى أكل الحلال مبالغة تامة. كان قد صحب يوسف بن أسباط. وهو كوفى الأصل، وكان يسكن فى أنطاكية. وتمذهب بمذهب سفيان بن سعيد الثورى فى الفقه والمعاملة والحقيقة. وكان قد صحب أصحابه. وله كلمات رفيعة.

يقول فتح الموصلى: قال لى عبد الله بن خبيق حين رأيته: يا خراسانى، إنما هى أربع لا غير: عينك ولسانك وقلبك وهواك. فلا تنظر بعينيك إلى ما لا يحل لك. ولا تقل بلسانك شيئاً، يعلم الله خلافه من قلبك. واحفظ القلب عن الخيانة والحقد على المسلمين. ولا تهوى شيئاً من الشر. فإذا لم يكن فيك هذه الأربع خصال، فانثر الرماد على رأسك؛ فقد شقيت.

وقال: خلق الله تعالى القلوب مساكن للذكر، ولما وافقت النفس؛ صارت مساكن للشهوة، ولا تصفى، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

وقال: قل لمن أراد أن يعيش حياً فى حياته، فليزل الطمع عن قلبه، حتى يتحرر من الكل.

وقال: لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً.

وقال: وحشة العباد عن الحق أوحش منهم القلوب، ولو أنسوا بربهم ولزموا الحق، لاستأنس بهم كل أحد.

وقال: أنفع الخوف ما منعك عن المعصية.

وقال: أنفع الرجاء ما سهل عليك عملك.

وقال: طول الاستماع إلى الباطل، يطفئ حلاوة الطاعة من القلب.

وقال: أنفع الخوف ما أطال منك الحزن على ما فاتك من العمر، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك.

وقال: الرجاء ثلاثة: رجل عمل حسنة، فهو يرجو قبولها. ورجل عمل سيئة، ثم تاب، فهو يرجو المغفرة. والثالث: الرجل الكاذب، يتمادى فى الذنوب، ويقول: أرجو المغفرة.

وقال: من داوم على الذكر، ينبغى أن يكون خوفه غالباً على رجائه.

وقال: إخلاص العمل أشد من العمل؛ والعمل يعجز عنه الرجال، ما لم يخلصوا فيه.

وقال: لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق، والصدق مستغن عن الأحوال كلها. ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله حقيقة الصدق؛ لاطلع على خزائن الغيب، ولكان أميناً فى السموات والأرض. وإن استطعت ألا يسبقك أحد إلى مولاك فافعل، ولا تؤثر على مولاك شيئاً؛ فهو الأفضل لك من كل شىء. والسلام.

ذكر الجنيد البغدادى(٥)
قدس الله روحه العزيز

هو الشيخ على الإطلاق، والقطب ذو الاستحقاق، هو منبع الأسرار، ومرتع الأنوار. هو السابق إلى الأستاذية، سلطان الطريقة، الجنيد البغدادى رحمة الله عليه.

كان شيخ مشايخ العالم، وإمام أئمة الدنيا. وكان كاملاً فى فنون العلم، ومفتياً فى الأصول والفروع. سبق الجميع فى المعاملات، والرياضات، والكرامات، والكلمات اللطيفة، والإشارات العالية.

كان مفضلاً منذ أول حاله وحتى آخر زمانه، وكان مقبولاً ومحموداً لدى كل الفرق، واتفق الجميع على إمامته. وكلامه فى الطريقة حجة. وهو ممدوح بكل الألسنة، ولا يستطيع أحد قط مؤاخذته بمخالفة السنة سوى أعمى.

كان قدوة أهل التصوف، وقد أطلقوا عليه: «سيد الطائفة»، وقالوا له: «لسان القوم»، وكتبوا عنه: «أعبد المشايخ»، «وطاووس العلماء»، «وسلطان المحققين».

بلغ فى الشريعة والحقيقة أقصى غاية. وكان فريداً فى الزهد والعشق، ومجتهداً فى الطريقة. وتمذهب أكثر مشايخ بغداد بمذهبه فى حياته وبعد وفاته. وطريقة الجنيد مبنية على الصحو على عكس الطيفوريين أصحاب أبى يزيد. ومذهب الجنيد هو أشهر المذاهب فى الطريقة. وكان مرجع المشايخ فى عصره، وله تصانيف عالية فى الإشارات، والحقائق، والمعانى، وهو أول من روج لعلم الإشارة. وقد اتهمه الأعداء والحاسدون بالكفر مراراً.

وكان قد صحب المحاسبى، وكان ابن أخت السرى السقطى، ومريده.

سئل السرى يوماً: هل يكون لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ؟ قال: نعم، وبرهان هذا ظاهر؛ فللجنيد درجة فوق درجتى.

كان الجنيد مفعماً بالألم والشوق، وحظى بشأن رفيع فى المعرفة، وكشف التوحيد. وكان آية فى المجاهدة، والمشاهدة، والفقر. حتى أنه سأل عن تلك العظمة التى حازها التسترى، فقال: سهل صاحب آيات، وسباق إلى الغايات. لكنه لا يملك القلب؛ فقد كان ملَكى الصفة، لا ملِك الصفة، كما كان آدم عليه السلام مفعماً بالألم، ومشغولاً بالعبادة. أى أن الألم أمر آخر، وهم يعلمون ما يقولون لنا، ولم نعرف لأحد منهم فضلاً على آخر.

كان الجنيد دؤوباً منذ طفولته، وشغوفاً، ومؤدباً، وصاحب فراسة وفكر، كما كان حاد الذكاء أيضاً.

عاد الجنيد من المدرسة إلى البيت يوماً، فوجد أباه يبكى. قال: ما الأمر؟ قال: حملت اليوم شيئاً من الزكاة إلى خالك السرى، فلم يقبلها. وأبكى لأننى قضيت عمرى بحثاً عن هذه الدراهم الخمسة، وهى لا تليق بولِى من أولياء الله. قال الجنيد: اعطها لى، حتى أدفعها إليه. فأخذها وأعطاها له. وذهب الجنيد، وطرق باب بيت خاله، قيل: من؟ قال: الجنيد فلتفتح الباب، وتأخذ هذه الزكاة الواجبة. قال السرى: لن آخذها. فقال له: بالله ـ الذى أنعم عليك بهذا الفضل، وعلى والدى بهذا العدل ـ تأخذها. قال السرى: يا جنيد، أى فضل أنعم به على؟ وأى عدل منّ به عليه؟ قال الجنيد: أنعم عليك بأن وهبك الفقر، وعدل معه بأن جعله مشغولاً بالدنيا. فلتقبلها إن أردت، أو فلترفضها. وسواء أراد أو لم يرد فإن زكاة المال يلزم أن تصل إلى مستحقيها. طاب هذا القول للسرى، فقال: يا بنى، قبلت هذه الزكاة؛ لأننى وافقتك، ثم فتح الباب، وأخذ الزكاة منه، ورقّ له قلبه.

وكان الجنيد فى السابعة من عمره حين أخذه السرى إلى الحج، وبين يديه أربعمائة شيخ يتكلمون فى الشكر، فقالوا أربعمائة قول فى شرح معنى الشكر. قال الجنيد: قل أنت شيئاً أيضاً. فقلت: ألا تعصى الله بنعمة أنعم بها عليك، وتجعل نعمته عليك سبب معصيتك له. عندما قال الجنيد هذا، قال الأربعمائة شيخ: «أحسنت يا قرة عين الصديقين» واتفقوا جميعاً على أنه لا يمكن قول ما هو أفضل من هذا القول. فقال السرى: يا غلام، يوشك أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى. ثم قال السرى: من أين لك هذا؟ فقلت: من مجالستك.

ثم جاء إلى بغداد، وكان يبيع الزجاج، ويذهب إلى (حانوته) كل يوم، ويسبل الستر، ويصلى أربعمائة ركعة. وبعد فترة، ترك الحانوت، وكانت هناك زاوية في دهليز بيت السرى، أقام فيها، وانشغل بمراقبة القلب، وبسط السجادة أثناء المراقبة؛ حتى لا يجول بخاطره شيء سوى الحق. وأمضى أربعين سنة على هذا الحال. وكان يصلى صلاة العشاء وهو واقف على قدميه حتى الصباح طيلة ثلاثين سنة، ويردد: الله، وكان يصلى الصبح بذلك الوضوء. قال: لما انقضت أربعون سنة، ظننت أنني حققت مرادي. فهتف بى هاتف في الحال: يا جنيد، حان الوقت الذى أُبدى لك فيه زنار زاويتك. لما سمعت هذا، قلت: يا إلهى، أى ذنب للجنيد؟ فسمعت نداء: أتريد ذنباً أكبر من أنك الجنيد؟! فتأوه الجنيد، وخجل، وقال:

من لم يكن للوصال أهلا

فكل إحسانه ذنوب

أقام الجنيد في تلك الزاوية، وكان يردد: الله، الله طوال الليل. فتطاولت الألسنة عليه، وحكوا حكايته للخليفة، فقال الخليفة: لا سبيل إلى منعه دون حجة، فقالوا له: إن الخلق يفتتنون بكلامه. وكان للخليفة جارية، اشتراها بثلاثة آلاف دينار، ولم تكن هناك امرأة في جمالها، وكان الخليفة عاشقاً لها. فأمر الخليفة، فزينوها باللباس الفاخر، والجواهر النفيسة، وقالوا لها: اذهبي إلى الجنيد في المكان الفلاني، واكشفي وجهك، واعرضي نفسك، وجواهرك، وثيابك عليه،

وقولى له: إننى أملك مالاً وفيراً، ومللت الدنيا، وقد جئت؛ حتى تخطبنى وأقوم بالطاعة فى صحبتك، وإن قلبى لا يرغب فى أحد قط سواك. واعرضى نفسك عليه، وارفعى الحجاب، وأبدى الجدية التامة فى هذا الأمر. ثم أرسلوا خادماً معها، وجاءت الجارية مع الخادم إلى الشيخ، ونفذت ما اتُّفق عليه بمهارة. ووقعت عين الجنيد على الجارية دون قصد، فصمت ولم يجب عليها قط. كانت الجارية تردد تلك الحكاية، أن الجنيد أطل برأسه، ثم رفعها، وقال: آه، ونفخ فى الجارية، فسقطت فى الحال، وماتت. ومضى الخادم، وأخبر الخليفة بما حدث. فغضب الخليفة، وندم، وقال: من يفعل مع الرجال ما لا ينبغى فعله، يرى ما لا ينبغى أن يراه. ونهض، وذهب إلى الجنيد، وقال: إن مثل هذا الرجل لا يمكن أن نستدعيه. قال للجنيد: أيها الشيخ، طاوعك قلبك، وأحرقت مثل هذه الصورة! قال الجنيد: يا أمير المؤمنين، هكذا أشفقت على المؤمنين، حتى أردت أن تضيع رياضتى وسهدى ومجاهدتى طيلة أربعين سنة هباء.

بعد ذلك علا شأن الجنيد، وذاعت شهرته فى أرجاء العالم، وامتحن فى كل مكان.

يروى أنه قال للناس فى وقت ما: لن أتحدث إليكم؛ ما لم يشر ثلاثون من الأبدال بأنه ينبغى عليك أن تدعو الخلق إلى الله.

وقال: خدمت مائتى شيخ، ولا يجوز الاقتداء بأكثر من سبعة منهم.

وقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، وما أدركناه بالقتال والعراك، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

وقال: ينبغى هذا الطريق لرجل أمسك بكتاب الله بيمينه، وسنة المصطفى ﷺ بيساره، ومضى فى ضوء هاتين الشمعتين؛ حتى لا يقع فى جب الشبهة أو ظلمة البدعة.

وقال: شيخنا فى الأصول والفروع والبلاء على المرتضى رضى الله عنه؛ لأنهم كانوا يحكون عنه حكايات فى خوض الحروب، لا يطيق سماعها أحد قط. وكان الله تعالى قد وهبه العلم والحكمة.

وقال: لو لم يقل المرتضى هذا القول فى الكرامة؛ فماذا كان يفعل أصحاب الطريقة؟ والقول هو: سئل المرتضى: بما عرفت الله؟ قال: بما عرفنى به إياه، فهو الله الذى لا شبيه له قط، ولا يمكن إدراكه بأى وجه، أو مقارنته بأى خلق؛ فهو القريب فى بعده، والبعيد فى قربه، فوق كل شيء، ولا يمكن القول: إن تحته شيئاً، ليس كمثله شيء، وليس من شيء، وليس فى شيء، وليس بشيء. سبحان الله الذى هكذا يكون، ولا يكون سواه هكذا. وإن يشرح أحد هذا الكلام، يؤلف مجلداً. «فهم من فهم».

وقال: اتبع عشرة آلاف مريد صادق طريقة الجنيد، وغاص الجميع فى بحر القهر فى سبيل المعرفة، ورفعوا أبا القاسم الجنيد، وجعلوه شمس فلك الإرادة.

وقال: لو بقيت ألف عام، لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال دونها.

وقال: إننى مؤاخذ بذنوب الأولين والآخرين. وهذا دليل الكلية، فلما يرىَ رجل نفسه الكل، ويرى الخلق بمثابة الأعضاء بالنسبة له، يصل إلى مقام «المؤمنين كنفس واحدة».

ومن أقواله: «ما أوذى نبى مثلما أوذيت».

وقال: هكذا قضيت عمرى وقد بكى علىّ أهل السماء والأرض، إلى حد أننى كنت أبكى غيبتهم. وأصبحت الآن لا أعلم عنهم شيئاً، ولا عن نفسى.

وقال: راقبت القلب ثلاثين سنة، وحفظته فحفظنى القلب عشر سنوات، والآن مضت عشرون سنة لا أعلم شيئاً عن القلب، ولا يعلم القلب شيئاً عنى.

وقال: كلم الله تعالى الجنيد بلسان الجنيد ثلاثين سنة، والجنيد فان، والخلق لا يعلمون.

وقال: تكلمت فى حواشى ذلك العلم ثلاثين سنة، لكننى لم أكشف رموزه؛ لأن اللسان منع من الكلام، والقلب حرم من الإدراك.

وقال: الخوف من الله يقبضنى، والرجاء فيه يبسطنى. إذا قبضنى بالخوف، أفنانى عنى، وإذا بسطنى بالرجاء، ردنى علىّ، (وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى).

وقال: إن قال لى الله تعالى غداً: انظر إلىّ، لا أنظر، وأقول: أحبت عينى الغير، وتحجبنى عن الرؤية الغربة، والغربة من الغيرية، فكيف كنت أرى الدنيا دون العين؟!

وقال: منذ علمت «إن الكلام لفى الفؤاد»(٦)، ظللت ثلاثين سنة أؤدى الصلاة قضاء. وقال: فى العشرين سنة الأولى، لم أكد أكبّر التكبيرة الأولى حتى أنصرف إلى التفكير فى أمور الدنيا؛ فكنت أؤدى تلك الصلاة قضاء. وإذا ورد ذكر الجنة والآخرة؛ كنت أسجد سجود السهو.

قال الجنيد لأصحابه يوماً: لو علمت أن أداء ركعتين تطوعاً أفضل من الجلوس معكم، ما جلست معكم قط.

يروى أن الجنيد كان يصوم دائماً، وعندما كان أصحابه يأتون، كان يفطر معهم، ويقول: إن فضل مساعدة الإخوان، ليس أقل من فضل الصيام.

يروى أن الجنيد وأبا بكر الكسائى تبادلا الرسائل حول الكثير من المسائل. وقال الكسائى حين وافته المنية: لا تعطوا هذه الرسائل لأحد، وضعوها معى فى القبر. قال الجنيد: وأنا أيضاً أحب ألا تقع تلك المسائل فى يد الخلق.

يروى أن الجنيد كان يرتدى لباساً على شاكلة العلماء. فقال الأصحاب: يا شيخ الطريقة، ماذا لو ارتديت الخرقة من أجل خاطر الأصحاب؟ فقال: لو علمت أن أمراً انقضى بالخرقة؛ لجعلت لباسى

من الحديد والنار، وارتديته، ولكن يقع نداء فى باطنى كل لحظة: أن «ليس الاعتبار بالخرقة إنما الاعتبار بالحرقة».

لما علا شأن الجنيد، قال له سرى السقطى: ينبغى عليك أن تعظ، فتردد الجنيد، ولم يكن يرغب فى ذلك، وكان يقول: الكلام فى وجود الشيخ ليس من الأدب. حتى رأى المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى المنام ذات ليلة، فقال له: عظ الخلق. فنهض فى الصباح، حتى يخبر السرى، فرأى السرى يقف على الباب، فقال له: امتنعت (عن الوعظ)؛ لأن الآخرين يقولون لك: عظ. الآن ينبغى القول: إن كلامك سبب نجاة العالم؛ طالما أنك لم تتحدث إلى المريدين بناء على طلبهم، ورددت شفاعة شيوخ بغداد. وقد قلت لك أنا أيضاً، عظ، ولم تعظ. الآن، طالما أمرك الرسول عليه السلام، ينبغى عليك الوعظ. فأطاعه الجنيد، واستغفر، وقال لسرى: ألم تعلم أننى رأيت الرسول ﷺ فى المنام! قال السرى : إننى رأيت الله تعالى فى المنام، وقال لى: إننى أرسلت الرسول عليه السلام؛ ليقول للجنيد: عظ الخلق. فقال الجنيد: أعظ على ألا يكون هناك أكثر من أربعين رجلاً.

وعظ الجنيد فى مجلس يوماً، حضره أربعون رجلاً، أسلم ثمانية عشر منهم الروح، وفقد الباقى صوابهم، فحملوهم على الأعناق إلى بيوتهم.

كان الجنيد يعظ فى المسجد يوماً. فدخل عليه غلام نصرانى متنكراً، وقال له: أيها الشيخ، ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». قال الجنيد: القول هو أن تسلم، وتمزق الزنار، فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام فى الحال.

لما وعظ الجنيد الخلق، وبالغوا في الانفعال؛ فترك الوعظ، واعتزل في بيته، وكلما طلبوه للوعظ، رفض، وقال: يطيب لي ألا أهلك نفسي، وبعد ذلك اعتلى المنبر، وبدأ الوعظ، دون أن يسألوه؛ ثم سألوه: ما الحكمة في هذا؟ قال: وجدت في الحديث أن الرسول عليه السلام قال: زعيم القوم في آخر الزمان أرذلهم، ويعظهم. وأنا أعتبر نفسي أرذل الخلق؛ لذا أعظ مصداقاً لقول الرسول عليه السلام، وحتى لا أخالف قوله.

سأل رجل الجنيد: بما بلغت هذه الدرجة؟ قال: كنت قد وقفت على قدم المجاهدة ليلاً طيلة أربعين سنة. أي على أعتاب السري السقطي.

يروى أنه قال: كان قلبي قد ضاع مني يوماً؛ فقلت: إلهي، أعد إليّ قلبي، فسمعت نداء: لقد اختطفنا قلبك؛ حتى تبقى معنا، وأنت تريد أن تبقى مع غيرنا.

يروى أن الحسين بن منصور الحلاج لما تبرأ منه عمرو بن عثمان المكي ـ في حال غلبته ـ جاء إلى الجنيد. فقال له الجنيد: لِمَ جئت؟ ما فعلته مع سهل التستري، وعمرو بن عثمان المكي لا يجوز.

قال الحسين: الصحو والسكر صفتان للعبد، ولا يفنى العبد بأوصافه عن ربه. فقال الجنيد: أخطأت يا بن منصور؛ فلا خلاف بين الصحو والسكر؛ لأن الصحو صحة حال العبد مع الحق، ولا

يتأتى هذا من صفات الخلق ومكتسباتهم، وإنى أرى يا بن منصور في كلامك فضولاً كثيراً، وعبارات لا طائل من ورائها.

يروى أن الجنيد قال: رأيت شاباً في البادية تحت شجرة «أم غيلان»، فقلت: ما أجلسك ها هنا؟ فقال: اعترانى حال، وضاع منى هنا؛ فلازمت المكان، حتى أعثر عليه. قال الجنيد: فذهبت إلى الحج، ولما عدت إذا أنا بالشاب لا يزال جالساً، فقلت له: ما جلوسك هنا؟ فقال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع؛ فلزمته. قال الجنيد: فلا أدرى أيهما كان أشرف: لزومه لطلب حاله، أو لزومه للموضع الذى نال فيه مراده.

يروى أن الشبلى قال: لو خيرنى الحق تعالى بين الجنة والجحيم، لاخترت الجحيم؛ لأن الجنة مرادى، والجحيم مراد محبوبى، ومن آثر مراده على مراد محبوبه، فليس هذا من المحبة. فأخبروا الجنيد بهذا الكلام فقال: إن الشبلى يتصرف كطفل، ولو خيرونى أنا بين الجنة والجحيم، لما اخترت، وقلت: أى شأن للعبد بالاختيار، سأذهب إلى أى مكان ترسلنى إليه، وأتواجد فى أى مكان تملكه، واختار ما تريده.

يروى أن رجلاً جاء إلى الجنيد يوماً، وقال له: كن حاضراً معى لحظة؛ لأقول لك بضع كلمات. قال الجنيد: أيها العزيز، إنك تطلب منى الشيء الذى أطلبه أنا منذ مدة، فأنا أريد أن أكون حاضراً مع الحق تعالى لحظة، فلا أستطيع، فكيف أستطيع فى هذه الساعة أن أكون حاضراً بك؟

يروى أن رويماً قال: كنت أسير في البادية، فرأيت عجوزاً في يدها عصا، ومعقودة الخصر. فقالت لي: لما تصل إلى بغداد، قل للجنيد: ألا تخجل أن تتكلم عنه أمام العامة. ولما أبلغت الرسالة، قال الجنيد: معاذ الله أن أتكلم عنه أمام الخلق، لكنني أتكلم عن خلقه أمامه، لأنه لا يمكن الكلام عنه.

يروى أن أحد المشايخ رأى الرسول ﷺ في المنام، جالساً، وكان الجنيد حاضراً، وقد طلب رجل الفتوى، فقال الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أعطها للجنيد، حتى يجيب عليها. فقال: يا رسول الله! كيف أعطيها لآخر، وأنت حاضر! قال: إنني أتباهى بالجنيد، مثلما يتباهى الأنبياء بأقوامهم.

يقول جعفر بن نصير: دفع إليّ الجنيد درهماً، وقال: اشتر لي به التين الوزيري. فاشتريته، فلما أفطر عند المغرب، أخذ واحدة، ووضعها في فمه، وبكى، وقال لي: احمله. فقلت له في ذلك. فقال: هتف هاتف في قلبي أما تستحي! شهوة تركتها من أجلي، ثم تعود إليها!. وأنشد هذا البيت:

نون الهوان من الهوى مسروقة

وصريع كل هوى صريع هوان

يروى أنه مرض ذات مرة، فقال: «اللهم اشفني». فهتف به هاتف: يا جنيد، أي شأن لك بين العبد وربه، لا تتدخل بينهما، واعمل بما أمرت به، واصبر على ما ابتليت به، فأي شأن لك بالاختيار؟!.

يروى أنه ذهب ذات مرة لعيادة درويش، وكان الدرويش يتألم. قال: مم تتألم؟ فتأوه الدرويش. فقال الجنيد: على من تصبر هذا الصبر؟ فصاح الدرويش: لا طاقة لى بالألم، ولا قوة لى على الصبر.

يروى أن قدم الجنيد آلمته ذات مرة، فقرأ الفاتحة، ونفخ فى قدمه. فهتف به هاتف: ألا تخجل أن تستهلك كلامنا فى حق نفسك.

يروى أن عين الجنيد آلمته ذات مرة، فقال له الطبيب: إذا أردت شفاء عينك، فلا تغسلها بالماء. وعندما مضى الطبيب، توضأ، وصلى، واستغرق فى النوم، ولما استيقظ، كانت عينه قد شفيت، وسمع صوتاً: ضحى الجنيد بعينه فى سبيل مرضاتنا، ولو طلب منا العفو عن أهل الجحيم بتلك العزيمة، لأجبناه.

لما عاد الطبيب، وجد عين الجنيد قد شفيت؛ فقال: ماذا فعلت؟ قال: توضأت للصلاة. وكان الطبيب نصرانياً، فآمن فى الحال، وقال: هذا علاج الخالق لا المخلوق، وعينى أنا التى أصيبت لا أنت، وكنت أنت الطبيب لا أنا.

يروى أن شيخاً كان يأتى إلى الجنيد، فرأى إبليس يفر من أمامه. ولما وصل الشيخ إلى الجنيد، وجده غاضباً، يؤذى رجلاً. فقال: يا شيخ، لقد سمعت أن إبليس يتسلط على ابن آدم حين يغضب، وأنت الآن غاضب، ورأيت إبليس يفر منك. فقال الجنيد: ألا تسمع أو تعلم أننا لا نغضب بأنفسنا، بل نغضب بالحق، فلا جرم أن إبليس يفر منا،

بينما غضب الآخرون لأنفسهم، وإلا فإن الحق تعالى قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ويقولون إننى لم أستعذ قط.

يروى أنه قال: تمنيت أن أرى إبليس.وكنت واقفاً بباب مسجد، فإذا بشيخ يقبل من بعيد. فلما رأيته، أحسست وحشة فى قلبى، وقلت: من أنت؟ قال: أنا الذى تتمنى رؤيتى. قلت: يا ملعون، ما منعك أن تسجد لآدم؟ قال: يا جنيد، كيف تتصور أنى أسجد لغيره؟! قال الجنيد: فتحيرت لكلامه، فنوديت فى سرى أن: قل له: كذبت، ولو كنت عبداً؛ لأطعته، وما خرجت عن أمره ونهيه. فلما سمع إبليس هذا، صاح صيحة، وقال: أحرقتنى، بالله! وغاب.

يروى أن الشبلى قال بين يدى الجنيد: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فقال له الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء.

قال رجل للجنيد: لقد عزّ إخوة الدين فى زماننا هذا. فقال الجنيد: إن أردت أحداً يتحمل عبئك؛ فهو عزيز. وإن أردت أحداً تحمل عبئه أنت، فهم كثر.

يروى أنه كان يمضى فى طريق ذات ليلة مع مريد، فنبح كلب. فقال الجنيد: لبيك لبيك، قال المريد: أى حال هذا؟ قال الجنيد: رأيت فى قوة الكلب ونباحه، قهر الحق تعالى، وسمعت فى نباحه، صوتاً من قدرة الحق تعالى، ولم أر الكلب موجوداً، فأجبت لبيك لا جرم.

يروى أنه كان يبكى منتحباً يوماً، فسئل عن سبب بكائه، فقال: لو صار بلاؤه أفعى؛ لكنت أول من يجعل نفسه طعمة لها. ومع كل هذا

العمر الذى أنفقته فى طلب البلاء، يقولون لى الآن: ليست هذه هى العبودية التى تليق بابتلائنا.

قالوا: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند النزع. فقال الجنيد: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً. قالوا: أى مقام هذا؟ قال: غاية المحبة، وهذا مقام عزيز، تستغرق فيه العقول، وتنسى فيه النفوس،وهو أسمى مقام، ولا مجال للعلم والمعرفة فى هذا الوقت؛ لأن العبد يصل إلى درجة يعلم فيها أن الله يحبه، فلا جرم يقول هذا العبد: بحقى عليك، وجاهى عندك. ويقول أيضاً: بمحبتك لى. ثم قال الجنيد: هؤلاء قوم يتدللون على الله، ويأنسون به، وترفع الكلفة بينهم وبينه، وهم يقولون كلاماً شنيعاً من وجهة نظر العامة.

وقال الجنيد: رأيت فى المنام ذات ليلة، كأنى واقف بين يدى الله تعالى، فقال لى: من أين لك هذا الكلام الذى تقول؟ فقلت: لا أقول إلا حقاً، فقال: صدقت.

يروى أن ابن شريح[٧] مرّ على مجلس الجنيد، فسئل: هل ما يقوله الجنيد، يقرأه فى العلم؟ فقال: لا أدرى، ولكن ما أعلمه أن لكلامه صولة؛ كأن الحق يسوقه على لسانه.

يروى أن الجنيد عندما كان يتكلم فى التوحيد، كان فى كل مرة، يبدأ كلامه بعبارة جديدة لا يفهمها أحد.

قال الشبلى فى مجلس الجنيد يوماً: الله. فقال الجنيد: لو أن الله غائب، فذكر الغائب غيبة، والغيبة حرام. ولو أنه حاضر، فذكر الحاضر حال مشاهدته، ترك للحرمة.

كان الجنيد يعظ ذات يوم، فنهض رجل، وقال: لا أفهم كلامك. فقال له: ضع طاعة سبعين سنة تحت قدميك. قال: وضعتها، ولم أفهم. قال: ضع رأسك تحت قدميك، وإن لم تفهم؛ فاعلم أن الذنب ليس ذنبى.

امتدح رجل الجنيد كثيراً فى مجلس، فقال الجنيد: إن ما تقوله ليس فىّ، فلتذكر الله، وتثنى عليه.

يروى أن رجلاً نهض فى مجلسه، وقال: متى يُسر القلب؟ قال الجنيد: عندما يكون قلباً.

وجاءه رجل بخمسمائة دينار. قال الجنيد: ألك غيرها؟ فقال: نعم، لدى الكثير. فقال الجنيد: أتريد غير ما تملك؟ فقال: نعم. قال له: خذها، فإنك أحوج إليها منا. فإننى لا أملك شيئاً قط، ولا يلزمنى شىء قط.

يروى أن الجنيد خرج من الجامع بعد الصلاة، فرأى خلقاً غفيراً، فالتفت إلى أصحابه، وقال: كل هؤلاء حشو الجنة، أما الجلساء فهم قوم آخرون.

يروى أن رجلاً نهض فى مجلس الجنيد، وسأل الناس، فقال فى نفسه: هذا الرجل سليم البنية، ويستطيع الكسب، فلماذا يسأل الناس؟ ويذل نفسه هذا المذلة؟ فرأى فى المنام فى تلك الليلة: أنهم وضعوا أمامه وعاء مغطى، وقالوا له: كل. فلما كشف الغطاء، رأى الرجل ميتاً، وقد وضع فى الوعاء. فقال: إننى لا آكل لحوم البشر، قالوا:

ولماذا كنت تأكله بالأمس فى المسجد؟ فعلم الجنيد أنه قد اغتابه فى نفسه؛ فآخذوه على ذلك. قال الجنيد: فاستيقظت من الهيبة، وتطهرت، وصليت ركعتين، وخرجت فى طلب ذلك الدرويش، فرأيته على ساحل دجلة، يلتقط من الماء أوراقاً مما تساقط من غسل البقل، ويأكل فرفع رأسه، فرآنى أتجه صوبه، فقال: هل رجعت يا جنيد عما ظننته فى حقنا؟ قلت: نعم. فقال: امض الآن ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾(٨) وكن حسن النية.

يروى أن الجنيد قال: تعلمت الإخلاص من حجام؛ كنت فى مكة، وكان حجام يصلح شعر سيد، فقلت: أيمكنك إصلاح شعرى بالله عليك. قال: نعم، وامتلأت عينه بالدمع، وترك الرجل قبل أن ينتهى منه، وقال له: انهض، طالما ذُكر الله؛ أهمل الجميع. ثم أجلسنى، وقبَّل رأسى، وأصلح لى شعرى، بعد ذلك أعطانى ورقة بها بعض الفتات، وقال: تناول هذه. فعقدت العزم أن أبرّه عند أول فتح لى. ولم ينقض وقت طويل، حتى وصلت صرة ذهب من البصرة، فحملتها إليه. فقال لى: ما هذا؟ فقلت: كنت قد عقدت العزم أن أبرك من أول فتح يأتينى. فقال: أيها الرجل، ألا تخجل من الله، وقد قلت لى: أصلح لى شعرى من أجل الله، ثم تمنحنى شيئاً. وقد رأيت أنى فعلت شيئاً من أجل الله، وأخذت أجرى عليه.

وقال الجنيد: كنت مشغولاً بالصلاة ليلة، ولم توافقنى نفسى على السجود مهما حاولت، ولم أستطع التفكر أيضاً، فضقت، وأردت

الخروج من البيت. فلما فتحت الباب، رأيت شاباً يرتدى الخرقة، ويعلق بصره بباب البيت. فلما رآنى، قال: كنت فى انتظارك. فقلت: أنت إذن الذى سلبنى القرار. قال: نعم، فأجب عن سؤالى: ماذا تقول فى النفس: أيكون داؤها دواؤها أم لا؟ قال: نعم، عندما تخالف أهواءها. فلما قلت هذا، نظر فى تلابيبه، وقال: أيتها النفس، لقد سمعت منى هذا الكلام مراراً، والآن: اسمعيه من الجنيد. ثم نهض، ومضى، ولم أعلم من أين جاء؟ وإلى أين مضى؟

قال الجنيد: بكى يونس إلى أن أصيب بالعمى، ووقف فى الصلاة إلى أن انحنى ظهره، وقال: بعزتك، لو كان بينى وبينك بحر من النار، وفيه السبيل إليك، أسلكه من شدة اشتياقى إليك.

يروى أن علياً بن سهل كتب رسالة إلى الجنيد فحواها: أن النوم غفلة. والمحب لا نوم له ولا استقرار، فإن نام؛ لم يبلغ مقصده، وغفل عن نفسه ووقته. مثلما أوحى الحق تعالى إلى النبى داود عليه السلام: كذب من ادعى محبتنا. طالما حل الليل، ونام، وترك محبتنا. فأجابه الجنيد: إن يقظتنا هى معاملتنا فى طريق الحق، ونومنا فعل الحق علينا، فما يكون من الحق إلينا بغير اختيارنا، أفضل مما يكون منا باختيارنا إلى الحق، «والنوم موهبة من الله على المحبين». ولكن العجيب أن الجنيد كان صاحب صحو، وهو يهذب أهل السكر بهذه الرسالة، أو أنه يريد هذا الحديث: «نوم العالم عبادة». أو أنه يريد «تنام عيناى ولا ينام قلبى.»(٩).

يروى أن لصاً كان قد علّق فى بغداد، فذهب الجنيد، وقبّل قدميه. فسئل عن السبب؛ فقال: فليرحمه الله؛ فقد أخلص فى عمله، وأداه على الوجه الأكمل، حتى مات فى سبيله.

يروى أن لصاً ذهب إلى بيت الجنيد ليلة، فلم يجد سوى قميص، فحمله، ومضى. وفى اليوم التالى، كان الشيخ يمر فى السوق، فرأى قميصه في يد دلأل يبيعه. وكان المشترى يقول: أريد عارفاً يشهد أنه ملكك؛ حتى اشتريه. فذهب الجنيد، وقال: إننى أشهد أنه ملكه؛ فاشتراه.

يروى أن عجوزاً جاءت إلى الجنيد، وقالت: ابنى غائب؛ فادع الله أن يرده علىّ. قال الجنيد: اصبرى. فمضت العجوز، ومرت عدة أيام، ثم عادت. فقال لها الشيخ: اصبرى، وأمرها بالصبر مراراً. إلى أن جاءت العجوز يوماً، وقالت للجنيد: لم تبق لى طاقة على الصبر قط؛ فادع الله لى. فقال لها الجنيد: إن كنت تصدقين، فقد رجع ابنك؛ لأن الحق تعالى قال: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾(١٠). ثم دعا الله. ولما عادت العجوز إلى البيت، وجدت ابنها كان قد رجع.

يروى أن رجلاً شكا للجنيد من الجوع والعراء. فقال له الجنيد: اذهب، واطمئن؛ فإنه لا يهبهما إلى رجل يشنّع ويشكو. إنما يهبهما لأوليائه ومحبيه، فلا تشكو.

يروى أن الجنيد كان قد جلس مع أصحابه، فدخل ثرى، ودعا درويشاً، وأخذه معه. وبعد مدة عاد الغنى، وقد وضع زنبيلاً به طعام

على رأس الدرويش. فلما رأى الجنيد ذلك، غضب، وأمر بإلقاء ذلك الزنبيل فى وجه الغنى، وقال: ينبغى على الدرويش أن يصبر، ولو أن الدراويش ليست لهم نعمة، فإن لهم همة. ولو أن الدنيا فانية، فالآخرة باقية.

يروى أن أحد الأثرياء لم يكن يتصدق إلا على المتصوفة، وكان يقول: هم قوم، عندما تكون لهم حاجة، تتشتت هممهم، ويعجزون عن طاعة الحق تعالى، والقلب الذى أعينه على طاعة الله تعالى أحب إلىّ من ألف قلب كانت الدنيا همه. أخبروا الجنيد بهذا الكلام، فقال: هذا كلام حبيب من أحباء الله. ثم حدث أن أفلس ذلك الرجل، لأنه لم يكن يأخذ ثمن أى شىء، كان يشتريه منه الدرويش. فمنحه الجنيد مالاً، وقال: إن رجلاً مثلك تجارته لا تبور.

يروى أن مريداً للجنيد، كان قد أنفق مالاً وفيراً فى سبيل الشيخ، ولم يبق له شىء قط إلا بيت. فقال له: يا شيخ، ماذا أفعل؟ قال الشيخ: بعه، وخذ ثمنه، حتى يستقيم أمرك. فمضى المريد، وباع البيت. فقال له الشيخ: ألق بذلك الذهب فى دجلة. فمضى، وألقاه. وذهب لخدمة الشيخ، فطرده، واستبرأ منه، وقال: دعك عنى. وكلما كان يأتيه، كان الشيخ يطرده؛ حتى ينكر نفسه. ولا يقول: لقد خسرت الذهب. وظل على هذا الحال حتى بلغ غايته.

يروى أن حالاً انتاب شاباً فى مجلس الجنيد، فتاب، وضحى بكل ما يملك، ومنح الحق لمستحقيه، وأخذ ألف دينار، وحملها إلى

الجنيد. فقالوا له: إنه زهد الدنيا ولا يمكنك أن تدنسه. فجلس الشاب على شاطئ دجلة، وكان يلقى بالدنانير فى الماء الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق منها شيء قط. ثم نهض، وذهب إلى الخانقاه. فلما رآه الجنيد، قال: القدم التى ينبغى وضعها مرة، تضعها أنت ألف مرة، اذهب، فلم يرد لنا دليل على (صفاء) قلبك، وقد ألقيت به فى الماء، لو فعلت فى هذا الطريق كذلك، سوف تحاسب، ولن تصل إلى مكان. عد، واذهب إلى السوق، حيث تجد المكسب والمنفعة.

يروى أن مريداً من مريدى الجنيد خيل إليه أنه بلغ الكمال، وقال لنفسه: إن الوحدة أفضل لى من الصحبة، واعتكف فى زاوية، قضى فيها مدة. وفى كل ليلة، كانوا يحضرون له ناقة، ويقولون له: سنأخذك إلى الجنة. فكان المريد يمتطى تلك الناقة، ويمضى، حتى يصل إلى مكان بهيج، فيه قوم حسان الصور، وأطعمة طيبة، ومياه جارية. فيظل هناك حتى السحر، ولما استيقظ، فوجد نفسه فى صومعته، فاستشرت فيه رعونة الآدمية وأصابه الوهم، فأطلق لسان الدعوى، وقال: إننى أحمل كل ليلة إلى الجنة. ولما أُبلغ الجنيد بالخبر، نهض، وذهب إلى صومعة المريد، فوجده، وقد ملأه الزهو، فسأله الجنيد عن حاله، فشرحه للشيخ: فقال الشيخ: عندما يحملونك الليلة إلى ذلك المكان، قل: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» ثلاث مرات. فلما جن الليل، حملوه، وكان ينكر [علم] الشيخ فى قلبه، فلما وصل إلى ذلك الموضع، قال: «لا حول ولا قوة» على سبيل التجربة؛ فصرخ أولئك القوم جميعاً، وانصرفوا. ووجد المريد نفسه

فى مزبلة، وقد أحاطت به بعض عظام الرمم. فوقف على خطئه، وتاب، والتحق بصحبة الشيخ، وعلم أن الوحدة للمريد بمثابة السم.

يروى أن الجنيد كان يعظ، فصاح مريد صيحة. فزجره الشيخ، وقال: إن فعلت ذلك مرة أخرى، هجرتك. ثم واصل الشيخ كلامه، وكان ذلك المريد يصمت حتى وصل إلى حال لم يطق معها، وهلك. فالتفتوا إليه، فوجدوه رماداً فى خرقته.

يروى أن مريداً من مريدى الجنيد أساء الأدب، وسافر وأقام فى مسجد الشونيزيه. فمر الجنيد يوماً من هناك، ونظر إليه؛ فسقط المريد فى الحال من هيبة الشيخ، وتحطمت رأسه، وسال دمه، وكانت كل قطرة تكتب الله. فقال الجنيد: إنك تتظاهر أى أنك أدركت مقام الذكر، وجميع الأطفال يتساوون معك فى الذكر. وينبغى على الرجل أن يدرك المذكور. فأثّر فيه هذا الكلام؛ ومات فى الحال، ودفنوه. وبعد مدة شوهد فى المنام، فسئل: كيف وجدت نفسك؟ قال: منذ سنين عدداً وأنا أمضى، والآن أدركت كفرى، وأرى كفرى، والدين بعيد بعيد، وقد كانت كل هذه الأفكار مكر.

يروى أن مريداً كان للجنيد فى البصرة، فارتكب إثماً يوماً وهو فى الخلوة، ونظر فى المرآة فرأى وجهه أسود، فاندهش، ولم تجد أى حيلة فعلها، فتوارى من الخجل، حتى مضت ثلاثة أيام، فكان هذا السواد يزول شيئاً فشيئاً. فجأة، طرق رجل الباب فقال: من؟ قال الرجل: لقد جئتك برسالة من الجنيد. فقرأ الرسالة، وكان قد كتب

فيها: لماذا لا تتأدب فى حضرة العزة، ينبغى لى أن أغسلك ثلاثة أيام بلياليها؛ حتى يتحول سواد وجهك إلى بياض.

يروى أن مريداً كان للجنيد. أعرض الجنيد عنه يوماً، فمضى من الخجل، ولم يأت إلى الخانقاه. وذات يوم كان الجنيد يمر مع أصحابه من السوق، فوقع نظره على ذلك المريد؛ ففر المريد من الخجل. فأعاد الجنيد أصحابه وقال: إنا لنا طير طار من العش، ثم تعقبه. ونظر المريد، فرأى الشيخ قادماً، فأسرع، وكان يسير حتى وصل إلى مكان لا سبيل إليه، وولى وجهه إلى الحائط خجلاً. وفجأة أدركه الشيخ؛ فقال المريد: من أين جئت؟ قال الشيخ: من المكان الذى يولى فيه المريد وجهه إلى الحائط. وبهذا أتم الشيخ عمله، ثم أخذه إلى الخانقاه، فجثى المريد على قدم الشيخ، وطلب المغفرة، ولما رأى الخلق ذلك الحال، أخذتهم الشفقة، وتاب الكثير منهم.

يروى أن الجنيد حل ببادية مع مريد. وكانت خرقة المريد ممزقة، فكانت أشعة الشمس تسقط على عنقه، حتى ألهبته، وسال منه الدم؛ فجرى على لسان المريد: اليوم حار. فنظر إليه الشيخ فى هيبة، وقال: امض؛ فإنك لست أهلاً للصحبة، وتركه.

يروى أن مريداً للجنيد، كان الجنيد يخصه بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره. فغار المريدون الآخرون فعرف الشيخ ذلك بالفراسة، فقال: إنه أكثركم أدباً وفهماً عندى، وسأمتحنه؛ حتى تعرفون. ثم أمر، فأحضروا عشرين طائراً. فقال: ليأخذ كل مريد

طائراً، ويذبحه فى مكان بحيث لا يراه أحد، ويحضره. فمضوا، وذبحوها، وعادوا، إلا ذلك المريد أعاد طائره حياً. فسأله الشيخ: لماذا لم تذبحه؟ قال: كان الشيخ قد قال: يلزم مكان لا يراه أحد، وكل مكان كنت أذهب إليه، كان الحق تعالى يراه. قال الجنيد: أرأيتم كم هو ذكى؛ فطلب الجميع المغفرة.

يروى أن ثمانية مريدين كانوا من خاصة الجنيد كانوا ينجزون أى فكرة تطرأ عليهم بكفاءة، وجال بخاطرهم أنه: ينبغى علينا الجهاد. وفى اليوم التالى، أمر الجنيد الخادم بأن يعد العدة للجهاد. ثم ذهب الشيخ مع مريديه الثمانية إلى الجهاد. فلما اصطفوا للقتال، جاء مقاتل من الكفار، وقتل المريدين. فقال الجنيد: نظرت، فرأيت تسعة هوادج فى الهواء، وضعت روح كل من استشهد من المريدين فى هودج، وبقى هودج فارغاً؛ فقلت: ربما كان هذا لى؛ فقاتلت. وجاء ذلك المقاتل الذى كان قد قتل المريدين، وقال: يا أبا القاسم، إننى أدخر ذلك الهودج لى، فعد إلى بغداد، وكن شيخاً للقوم، واعرض علىّ الإيمان. ثم أسلم، وقتل ثمانية كفار بالسيف الذى كان قد قتل به المريدين ذاته. واستشهد. قال الجنيد: فوضعت روحه فى ذلك الهودج، واختفت.

يروى أنهم قالوا للجنيد: إن فلاناً لم يرفع رأسه من فوق ركبتيه طيلة ثلاثين سنة، ولم يأكل أو يشرب، وسقطت عليه الأرضة، وهو لا يدرى! فماذا تقول فى مثل هذا الرجل؟ أيكون فى جمع الجمع أم لا؟ قال: نعم، يكون «إن شاء الله تعالى».

يروى أنه كان هناك سيد يقولون له «ناصرى» قصد الحج، فلما وصل إلى بغداد، ذهب لزيارة الجنيد، وألقى السلام. فسأله الجنيد: من أين السيد؟ قال: من جيلان. قال: من أبناء من؟ قال: من أبناء أمير المؤمنين على رضى الله عنه. قال: كان أبوك يجاهد بسيفين: أحدهما: يجاهد به الكفار، والآخر: يجاهد به النفس. أيها السيد: إنك ابنه، فبأيهما تجاهد؟ فلما سمع السيد هذا الكلام، بكى منتحباً، وكان يتمرغ أمام الجنيد، ويقول: أيها الشيخ: إن حجى هنا، فارشدنى إلى الطريق إلى الله. فقال له: إن صدرك حرم خاص لله، فلا تدع السبيل لغير محرم إلى الحرم الخاص، قدر ما استطعت.

وللجنيد أقوال عالية:

فقد قال: الفتوة بالشام، والفصاحة بالعراق، والصدق بخراسان.

وقال هناك عيارون كثر فى هذا الطريق، يلقون فيه بثلاثة أنواع من الشباك: شباك المكر والاستدراج، وشباك القهر، وشباك اللطف. وهى لا نهاية لها. الآن ينبغى للمرء أن يفرق بينها.

وقال: يخرج النفس الرحمانى من الرأس، فتموت النفس والصدر والقلب، ولا يمر على شىء، إلا ويحرقه، وإن كان العرش.

وقال: عندما تتجلى القدرة، يمكن أن يكره المرء نفسه. وعندما تتجلى الهيبة، يمتنع عن التأوه. وعندما تتجلى العظمة، فإن من يتأوه هناك، يصير كافراً.

وقال: إن الآهة التى يتأوهها المرء مضطراً، تحرق جميع الحجب بين العبد وربه، وتمحو الذنوب.

وقال: يمكن لصاحب التعظيم أن يتأوه، وآهته تلك إثم، ولا يمكنه استردادها. وصاحب الهيبة صاحب حمد، وهى فى حقه إثم، ولا يمكنه التأوه هنا.

وقال: ما أطيب المرء الذى يحظى بلحظة حضور فى عمره.

وقال: اللحظة كفران، والخطرة إيمان، والإشارة غفران. أى أن اللحظة اختيار.

وقال: العباد قسمان: عباد الحق، وعباد الحقيقة. أما عباد الحق، فيصدقهم القول: «أعوذ بك من سخطك». وأما عباد الحقيقة، فيصدقهم «أعوذ بك منك». والله أعلم.

وقال: يريد الله من عباده علمين: علم العبودية، وعلم الربوبية. وما سواهما هو حظ النفس.

وقال: أشرف الجلسات وأسماها، جلسة فكر فى ميدان التوحيد.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر محمد عليه الصلاة والسلام. ومن لا يحفظ القرآن، ولا يكتب الحديث، لا تقتدوا به؛ لأن العلم يشتد أزره بالكتاب والسنة.

وقال: بين العبد والحق أربعة بحور: لا يصل العبد إلى الحق ما لم يقطعها: الأول: الدنيا، وسفينته الزهد. والثانى: الخلق، وسفينته الاجتناب. والثالث: إبليس، وسفينته البغض. والرابع: الهوى، وسفينته المخالفة.

وقال: الفرق بين هواجس النفس، ووساوس الشيطان هو: أن النفس إذا طالبتك بشىء ألحت،، وأنت تمنعها، فلا تزال تعاودك، ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها. أما الشيطان إذا دعاك إلى ذلة، فخالفته يترك ذلك.

وقال: النفس الأمارة بالسوء: هى الداعية إلى المهالك، المُعينة للأعداء، المتبعة للهوى، المتهمة بأصناف المساوئ.

وقال: لا يُشاهد إبليس فى طاعته، ولا يُعدم المرء مشاهدة ذلته.

وقال: الطاعة ليست علة لما مضى فى الأزل، ولكنها بشارة بما قدر فى الأزل فى حق المطيع الحسن المسلك.

وقال: الرجل بسيرته، لا صورته.

وقال: قلوب أحباء الله موضع أسرار الله. ولا يضع الله سره فى قلب فيه محبة الدنيا.

وقال: الأصل ألا تحقق مراد النفس.

وقال: الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار.

وقال: لا تدرك حقيقة الحرية؛ ما دام فيك شىء من العبودية.

وقال: لا تأنس النفس بالحق قط.

وقال: من عرف نفسه، سهلت عليه العبودية.

وقال: من كان حسناً، دامت رعايته، واستمرت ولايته.

وقال: من كانت معاملته على خلاف الإشارة، فهو مدع وكذاب.

وقال: من قال الله دون مشاهدة، فهو كاذب.

وقال: من عرف الله، لا يُسَرُّ إلا به.

وقال: قل لمن أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فيعزل الناس؛ فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة.

وقال: من لم يصل العلم باليقين، واليقين بالخوف، والخوف بالعمل، والعمل بالورع، والورع بالإخلاص، والإخلاص بالمشاهدة، فهو من الهالكين.

وقال: لقد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً.

وقال: لا يمكن الوصول لرعاية الحقوق، إلا عن طريق بحر القلوب.

وقال: لو كانت الدنيا بأسرها لرجل، لا يضيره ذلك. وإن يطمع في تمره، يضيره ذلك.

وقال: إن استطعت ألا تكون أوانى بيتك إلا خزفاً، فافعل.

وقال: العبد من لا يشكو لأحد قط، ولا يقصر فى الخدمة، والتقصير يكون فى التدبير.

وقال: حين يحضر الأخوة والأصحاب، تسقط النافلة.

وقال: المريد الصادق غنى عن علم العلماء.

وقال: سيحاسب الحق تعالى عباده فى الآخرة، على قدر ما اقترفوه فى الأولى (الدنيا).

وقال: إن الله تعالى يخلص إلى القلوب من بره، حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره؛ فانظر ماذا خالط قلبك؟

وقال: إن عرفوك حق المعرفة؛ سهلوا الطريق عليك. وإن كنت رجلاً، حلت عليك المصائب فى البداية، وكثير من العجائب واللطائف. و«الصبر عند الصدمة الأولى».

وقال: بذل المجهود هو الدليل، ولا يوجد من يطلب الله مثل من يطلبه عن طريقه.

وقال: خلص علم العلماء إلى عبارتين: تصحيح الملة، وتجريد الخدمة.

وقال: من كانت حياته بالنفس، كان موته بقبض الروح. ومن كانت حياته بالله، انتقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل، وهى الحياة الحقيقية. وكل عين لا تعتبر، عماها أفضل. وكل لسان لا يستغرق فى الذكر، خرسه أفضل. وكل أذن لا تنصت إلى الحق، صممها أفضل.وكل بدن لا يداوم على طاعة الله، موته أفضل.

وقال: من ضن بعمله، زلت قدمه. ومن اكتنز ماله، قل ماله، ومن تمسك بطاعة الله تعالى عظم شأنه.

وقال: إذا أراد الحق تعالى بمريد خيراً، أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء.

يروى أنه قال: لا يحل للمريدين أن يتعلموا إلا ما ينتفعون به في الصلاة. والفاتحة، وقل هو الله أحد كافيتان. وكل مريد يتزوج. ويدون العلم، لا يتأتى منه شيء.

وقال: من وضع بينه وبين الله تعالى زنبيل طعام، وأراد الظفر بلذة المناجاة، لن يحظى بها قط.

وقال: الدنيا أمر من الصبر على قلوب المريدين، وعندما تدرك قلوبهم المعرفة، يصبح ذلك الصبر أشهى من العسل.

وقال: تزهو الأرض بالمتصوفة، كما تزهو السماء بالنجوم.

وقال: معاشر الفقراء، إنما تعرفون بالله، وتكرمون لله. فإذا خلوتم به، فانظروا كيف تكونون معه؟

وقال: أفضل الأعمال: تعلم علم الأوقات. وهو أن تصون نفسك، وقلبك، ودينك.

وقال: الخواطر أربعة: خاطر من الحق: يدعو العبد إلى اليقظة، وخاطر من الملائكة: يدعو العبد إلى الطاعة، وخاطر من النفس: يدعوه إلى زينة النفس، ونعيم الدنيا، وخاطر من الشيطان: يدعوه إلى الحقد، والحسد، والعداوة.

وقال: البلاء سراج العارفين، وموقظ المريدين، ومهلك الغافلين.

وقال: الهمة إشارة الله، والإرادة إشارة الملائكة، والخاطر إشارة المعرفة، وزينة الجسد إشارة الشيطان والشهوات إشارة النفس، واللهو إشارة الكفر.

وقال: لا يعاقب الله تعالى صاحب همة قط، إن ارتكب معصية.

وقال: من كان ذا همة فهو بصير، ومن كان ذا إرادة فهو ضرير.

وقال: لا يتقدم أحد على أحد قط، ولا عمل على عمل قط إلا همة صاحب الهمة، فهى تسبق الهمم. وتسبق الهمم غيرها من الأعمال.

وقال: أجمع أربعة آلاف شيخ من مشايخ الطريقة على أن: غاية الرياضة أن تطلب قلبك، فتجده ملازماً للحق.

وقال: من أدرك حقيقة الموافقة، خشى أن يضيع حظه من الله فى شىء آخر.

وقال: المقامات بالشواهد. من حظى بمشاهدة الأحوال، فهو رفيق. ومن حظى بمشاهدة الصفات، فهو أسير. يتألم؛ لأنه يجد نفسه فى موضع ينبغى أن يموت فيه ألف مرة فى ليلة وضحاها. حتى إذا فنى عن نفسه، وتحقق له شهود الحق تعالى، صار أميراً.

وقال: كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن حضور الصديقين، وكلامهم إشارات عن مشاهدات.

وقال: أول حال ينتاب أهل الأحوال: خلوص أفعالهم. من لا تخلص سريرته، لا يصفى له فعل قط.

وقال: الصوفى مثل الأرض، يلقون عليها كل القاذورات، وتخرج هى كل بديع.

وقال: التصوف ذكر فى الاجتماع، ووجد فى الاستماع، وعمل باتباع.

وقال: التصوف هو الاصطفاء. ومن اصطفى ـ عما سوى الله ـ هو الصوفى.

وقال: الصوفى: من سلم قلبه من محبة الدنيا مثل إبراهيم عليه السلام، وأطاع أوامر الله، وكان تسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى فى المناجاة، إخلاصه إخلاص محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال: التصوف نعت أقيم العبد فيه. فقالوا: نعت للحق أم نعت للعبد؟ قال: نعت الحق حقيقته، ونعت العبد رسمه.

وقال: التصوف هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

وقال: التصوف هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة.

وقال: التصوف: ذكر ثم وجد، ثم لا هذا ولا ذاك. وهو لا يبقى، كما أنه لا يكون.

وسئل عن ذات التصوف، فقال: عليك أن تأخذ بظاهره، ولا تسأل عن ذاته.

وقال: المتصوفة قيامهم بالله؛ لأنهم لا يعرفون سواه.

يروى أن شاباً تشاجر مع أصحاب الجنيد، فطأطأ رأسه عدة أيام، ولم يكن يرفعها إلا عند الصلاة. ثم مضى، فأرسل الجنيد مريداً فى إثره، وقال له: سله: كيف يجد الصوفى ـ الموصوف بالصفاء ـ شيئاً لا صفة له؟ فذهب المريد، وسأله، فأجاب: «كن بلا وصف تدرك ما لا وصف له». عندما سمع الجنيد هذا الكلام، استغرق فى عظمته عدة أيام، وقال: يا وا أسفاه، كان طائراً عظيماً، ولم نعرف قدره.

يروى أنه قال: للعارف سبعون مقاماً، أحدها غير موجود، وهو مراد من مرادات هذه الدنيا.

وقال: العارف لا يحصره حال عن حال، ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل.

وقال: العارف: من نطق الحق تعالى عن سره، وهو ساكت.

وقال: العارف يطوى المقامات، ولا يحجبه أى شيء أو يمنعه.

وقال: المعرفة قسمان: معرفة التعرف، ومعرفة التعريف. معرفة التعرف: هى أن يعرفهم. ومعرفة التعريف هى: أن يعرفوه.

وقال المعرفة هى الانشغال بالله تعالى.

وقال: المعرفة مكر الله. أى من ظن أنه عارف، فهو ممكور به.

وقال: معرفة وجودك جهل عند حدوث علمك. فقالوا: له: زدنا. قال: هو العارف والمعروف.

وقال: العلم محيط، والمعرفة محيط. ومن ثم أين الله، وأين العبد؟ أى أن العلم لله، والمعرفة للعبد، وكلاهما محيط. وهذا المحيط يخالف ذلك. وعندما يختلط هذا المحيط بذاك، يبقى الشرك. وطالما تقول: الله والعبد؛ يبقى الشرك. بل إن العارف والمعروف واحد. مثلما قالوا: إنه هو فى الحقيقة. والله هنا فأين العبد؟ أى أن الكل الله.

وقال: العلم أولاً، ثم المعرفة بإنكار، ثم الجحود بإنكار، ثم النفى، ثم الغرق، ثم الهلاك، وحين يرفع الستار، فكل الحجب الله.

وقال: العلم أن تعرف قدر نفسك.

وقال: الإثبات مكر، والعلم بالإثبات مكر، والحركات غدر، وما هو موجود ينطوي على مكر وغدر.

وقال: علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مباين لعلمه.

وقال: علم التوحيد طوى بساطه منذ عشرين سنة، والناس يتكلمون في حواشيه.

وقال: توحيد الله إفراد القدم عن الحدث.

وقال: غاية التوحيد إنكار التوحيد. أي تنكر كل توحيد تعرفه، لأنه ليس بتوحيد.

وقال: المحبة أمانة الله.

وقال: كل محبة كانت لغرض، إذا زال الغرض، زالت تلك المحبة.

وقال: لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وقال: إذا صحت المحبة، سقطت شروط الأدب.

وقال: حرّم الحق تعالى المحبة على صاحب العلاقة.

وقال: المحبة إفراط الميل بلا نيل.

وقال: لا يمكنك إدراك الذات الإلهية بالمحبة، ما لم تجد بروحك في سبيله.

وقال: الأنس بالمواعيد، والتعويل عليها، خلل في الشجاعة.

وقال: يقول أهل الأنس كلاماً فى الخلوة والمناجاة، يبدو كفراً فى نظر العامة، إذا سمعوه، ويكفروهم به. وهم يعاينون فى أحوالهم المزيد منها. ويحتملون كل ما يقال لهم، ويستحقونه.

وقال: المشاهدة غرق، والوجد هلاك.

وقال: الوجد يحيى الجميع، ويبصر به الجميع.

وقال: المشاهدة وجود الحق مع فقدانك.

وقال: المشاهدة معاينة الشىء بوجود ذاته.

وقال: الوجد هلاك الوجد.

وقال: الوجد انقطاع الأوصاف فى ظهور الذات فى السرور. أى تزول أوصاف أنيتك، وتتجلى ذاتك منتصرة.

وقال: القرب بالوجد جمع، والغيبة بالبشرية تفرقة.

وقال: من تحقق فى المراقبة، خاف على فوت حظه من ربه لا غير.

وسئل: ما الفرق بين المراقبة والحياء؟ فقال: المراقبة انتظار الغائب، والحياء: الخجل من الحاضر.

وقال: الوقت إذا فات لا يستدرك. وليس شىء أعز من الوقت.

وقال: لو أقبل صادق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله. أى أنه يمكن أن ينال فى تلك اللحظة، ما لم ينله فى ألف سنة. ومعنى آخر هو أن تلك اللحظة التى تعرض فيها عن الله، لا يمكن تعوضيها بألف سنة من الطاعة والحضور.

وقال: ليس هناك شيء أصعب على الأولياء من حفظ الأنفاس فى الأوقات.

وقال: العبودية خصلتان: صدق الافتقار إلى الله فى السر والعلن، وحُسن الاقتداء برسوله ﷺ.

وقال: العبودية ترك الأشغال، والاشتغال بالشغل الذى هو أصل الفراغة.

قال: العبودية ترك هذين الأمرين: الأول: السكون إلى اللذة، والآخر: الاعتماد على الحركة. فطالما زال هذان الأمران، أُدى حق العبودية.

وقال: الشكر ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

وقال: الشكر فيه علة؛ لأنه طالب لنفسه المزيد، فهو واقف مع الله سبحانه على حظ نفسه.

وقال: الزهد خلو اليد من الملك، والقلب من التتبع.

وقال: حقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقال: لا يطلب أحد الصدق إلا ويجده. وإن لم يجده كله. وجد بعضه.

وقال: الصادق يتقلب فى اليوم أربعين مرة. والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وقال: علامة الفقير الصادق ألا يسأل، ولا يعارض، وإن عورض سكت.

وقال: التصديق يزيد ولا ينقص، والإقرار باللسان لا يزيد ولا ينقص، وعمل الأركان يزيد وينقص.

وقال: الصبر منع النفس عن الله دون أن تجزع.

وقال: غاية الصبر التوكل. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١١).

وقال: الصبر: تجرع المرارة من غير تعبيس.

وقال: التوكل الأكل دون طعام. أى أنه لا يرى الطعام موجوداً.

وقال: كان التوكل حقيقة من قبل، والآن هو علم.

وقال: ليس التوكل اكتساباً أو هبة، لكنه سكون القلب لوعد الحق تعالى.

وقال: اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب، ولا يحول، ولا يتغير فى القلب.

وقال اليقين: ألا تبتغى الرزق، وألا تحزن عليه، ويكفيك هذا. وهو الذى يشغلك بعلم يُلقى على عاتقك، وهو أن رزقك سيصلك يقيناً.

وقال: الفتوة هى ألا تنافر فقيراً، ولاتعارض غنياً.

وقال: الفتوة كف الأذى، وبذل الندى.

وقال: التواضع خفض الجناح للخلق، والاستغناء بالحق.

وقال: الخُلق أربع خصال: السخاء، والألفة، والنصيحة، والشفقة.

وقال: صحبة الفاسقين الأخيار، أحب إلىّ من صحبة القراء الأشرار.

وقال: رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء.

وقال: وجدت العناية قبل الماء والطين.

وقال: الحال أمر يرد على القلب، لكنه لا يدوم.

وقال: الرضا رفع الاختيار.

وقال: الرضا أن تعد البلاء نعمة.

وقال: الفقر بحر البلاء.

وقال: الفقر خلو القلب عن الأشكال.

وقال: الخوف إخراج الحرام من الجوف، وترك العمل بعسى وسوف.

وقال: الصوم نصف الطريقة.

وقال: التوبة على ثلاثة معان: أولها: الندم، والثانى: العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى عنه. والثالث: السعى فى أداء المظالم.

وقال: الحقيقة ذكر فناء الذاكر فى الذكر، والذكر فى مشاهدة المذكور.

وقال: المكر أن يمشى الرجل على الماء، ويطير فى الهواء، ويصدقه الجميع فى هذا، ويقبلون إشاراته فى هذا. وهذا كله مكر لمن يعلم.

وقال: أمنُ المريد المكر من الكبائر. وأمن الواصل المكر كفر.

وسئل عن الإنسان يكون هادئاً، فإذا سمع السماع؛ اضطرب. فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذرية فى الميثاق الأول بقوله: ﴿ألست بربكم﴾[١٢]. استغرقت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع، حركهم ذكر ذلك.

وقال: التصوف صفاء القلب من مراجعة الخلقة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، واجتناب الدواعى النفسية، والتحلى بالصفات الروحانية، والسمو بالعلوم الحقيقية، والانشغال بما هو أولى إلى الأبد، ونصح الأمة جميعها، والوفاء بالحقيقة، واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة.

وسئل عن التصوف، فقال: عنوة لا صلح فيها.

وسأله رويم عن ذات التصوف، فقال: عليك الابتعاد عن هذا الكلام. خذ التصوف من الظاهر، ولا تسأل عن ذاته. فألح رويم عليه فى السؤال، فقال: الصوفية قوم قيامهم بالله، ولا يعرفون سواه.

وسئل عن أسوأ المساوئ، فقال: البخل للصوفى.

وسئل عن التوحيد، فقال: معنى تضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل.

وسئل عن التوحيد مرة أخرى، فقال: توحيد العبد كله ذل وعجز وضعف واستكانة. وتوحيد الرب كله عز وقدرة. والموحد هو من يميّز بين هذا وذاك.

وسئل عن التوحيد أيضاً، فقال: هو اليقين. قالوا: كيف؟ قال: معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم، فعل الله عز وجل وحده، لا شريك له. فإذا فعلت ذاك؛ فقد وحدته.

فسألوه عن الفناء والبقاء، فقال: البقاء للحق، والفناء لما دونه.

قالوا: ما التجريد؟ قال: من كان ظاهره مجرداً عن الأعراض، وباطنه مجرداً من الأغراض.

وسئل عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب. قال رسول الله ﷺ: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً.

وسئل عن الأنس، فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وسئل عن التفكر، فقال: للتفكر وجوه: تفكر فى آيات الله تعالى، وتنبع منه المعرفة. وتفكر فى آلاء الله ونعمائه، وتنبع منه المحبة. وتفكر فى وعد الله وعذابه، وتنبع منه الهيبة. وتفكر فى صفات النفس، وإحسان الله تعالى إليها، وينبع منه الحياء من الله تعالى. وإن قال أحد: لماذا تنبع الهيبة من التفكير فى الوعد؟ أقول: يفر المرء من الله ثقة فى كرمه، وينشغل بالمعصية.

وسئل عن تحقق العبد فى العبودية، فقال: حين يرى العبد الأشياء جميعها ملك الله، ويرى وجود الجميع بفضل الله، وقيامهم بالله، ومرجعهم إلى الله. مثلما قال تبارك وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١٣) فمن تحقق له هذا، فقد وصل إلى صفوة العبودية.

وسئل عن حقيقة المراقبة، فقال: حال ينتظره من يخشى وقوعه. لا جرم أنه خلق. كما أن من يخشى غارة الليل، لا ينام. قال الله تعالى: ﴿فارتقب﴾ (١٤). أى فانتظر.

وسئل عن الصادق والصديق والصدق، فقال:

الصدق صفة الصادق. والصادق إذا رأيته وجدته كما سمعت عنه، بل إن أخباره إن كانت قد بلغتك مرة، تجدها كذلك طوال عمره. والصديق: دائماً ما يصدق فى الأفعال، والأقوال، والأحوال.

وسئل عن الإخلاص، فقال: فرض فى فرض، ونفل فى نفل.

وقال: الإخلاص إخراج الخلق من معاملة الله تعالى، والنفس أول الخلق. أى يدعى الربوبية.

وسئل عن الخوف، فقال: هو توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس.

قالوا: كيف يحل بلاؤه؟ قال: هو بوتقة يغمر فيها الرجل، ومن يغمر فيها، لا يصيبه بلاء قط.

وسئل الجنيد عن الشفقة على الخلق، فقال: تعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا تحملهم ما لا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

قالوا: متى تصح الوحدة؟ فقال: حين تعتزل نفسك، ويصير ما كُتب عليك بالأمس، هو درس اليوم.

قالوا: من هو العزيز فى الخلق؟ قال: الفقير الراضى.

قالوا: من نصحب؟ قال: من ينسى كل معروف أسداه إليك، ويقضى ما عليه.

قالوا: هل هناك شيء أفضل من البكاء؟ قال: البكاء على البكاء.

قالوا: من العبد؟ قال: من تحرر من عبودية الآخرين.

قالوا: من المريد؟ ومن المراد؟ فقال: المريد: تتولاه سياسة العلم، والمراد: تتولاه رعاية الحق سبحانه؛ لأن المريد يسير، والمراد يطير. فمتى يلحق السائر الطائر؟

قالوا: كيف السبيل إلى الله؟ فقال: ترك الدنيا، ومخالفة الهوى، والاتصال بالحق.

قالوا: ما التواضع؟ قال: خفض الرأس، وحط الجانب.

قالوا: إنك تقول: إن الحجب ثلاثة: النفس، والخلق، والدنيا. فقال: هذه حجب العامة، أما حجب الخاصة فهى ثلاثة أيضاً: رؤية الطاعة، ورؤية الثواب، ورؤية الكرامة.

وقال: زلة العالم الميل عن الحلال إلى الحرام، وزلة الزاهد: الميل عن البقاء إلى الفناء. وذلة العارف: الميل عن الكريم إلى الكرامة.

قالوا: ما الفرق بين قلب المؤمن وقلب المنافق؟ فقال: قلب المؤمن يتحول فى اللحظة سبعين مرة، وقلب المنافق يبقى على حالة سبعين سنة.

يروى أن الجنيد شوهد، وكان يقول: يارب، ابعثنى يوم القيامة أعمى. فقالوا: ما هذا الدعاء؟! قال: لأن الذى لا يراك، لا ينبغى أن تراه.

وعندما حلت وفاته، قال: هاتوا المائدة، وضعوها؛ حتى أقدم جمجمة اللسان طعاماً للأصحاب. ولما اشتد عليه الأمر، قال: وضئونى، فنسوا التخليل فى الوضوء، فأمرهم بالتخليل. ثم سجد، وهو

يبكى. قالوا: يا سيد الطريقة، أى وقت للسجود مع هذه الطاعة والعبادة التى أديتها من قبل. قال: ليس هناك وقت أحوج إليه الجنيد من هذه اللحظة. وبدأ تلاوة القرآن فى الحال. فقال مريد وهو يقرأ: أتقرأ القرآن؟ قال: ومن أولى بذلك منى، وهى ذا تطوى صحيفتى، وأرى طاعتى وعبادتى طيلة سبعين سنة معلقة بشعرة فى الهواء، وتهب ريح، وتحركها. ولا أدرى أهى ريح القطيعة، أم رياح الوصل. والصراط على جانب، وملك الموت على الجانب الآخر، ولا يحيد القاضى العادل. وقد أفسحوا طريقاً أمامى، ولا أعلم إلى أى طريق سيحملونى. ثم ختم القرآن، وقرأ سبعين آية من سورة البقرة. واشتد به الأمر. فقالوا له: قل: الله. قال: لم أغفل عن ذكره. ثم أخذ يسبح، وترك المسبحة، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. وأغمض عينيه، وأسلم الروح. ولما أراد المغسل أن يغسل عينيه بالماء عند الغسل، سمع صوتاً أن ارفع يدك عن عين حبيبنا؛ فالعين التى أغمضت على ذكرنا، لا تفتح إلا فى لقائنا. ثم أراد المغسل أن يبسط أصابعه التى كان قد عقدها، فهتف هاتف إن الأصابع التى عقدت على ذكرنا، لا تبسط إلا بأمرنا. ولما رفعوا النعش، حطت حمامة بيضاء على طرفه، ولم تطر مهما دفعوها. حتى هتف هاتف: لا تؤذوا أنفسكم وتؤذونى. فقد ثبتت قبضتى بمسمار العشق فى طرف النعش، وقد بقيت من أجلها، فلا تؤذونى. وجسده اليوم نصيب الملائكة المقربين، وإن لم تكن غوغاؤكم؛ لكان جسده يطير معنا فى الهواء مثل صقر أبيض.

رأى رجل الجنيد فى المنام، فقال له: كيف أجبت على منكر ونكير؟ قال: لما جاءا من حضرة العزة بتلك الهيبة، وقالا: من ربك؟ نظرت إليهما، وابتسمت، وقلت: فى ذلك اليوم الذى سأل فيه: أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟ أجبته: بلى. الآن جئتما تسألان من ربك؟ فمن أجاب السلطان، كيف يجيب الغلام؟ إننى اليوم أقول بلسانه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(١٥) فذهبا عنى فى استيحاء، وقالا: إنه لا يزال فى سكر المحبة حتى الآن.

ورآه رجل آخر فى المنام، فقال: كيف وجدت حالك؟ قال: وجدته غير ما علمت. فإن نيف ومائة ألف نقطة من النبوة ملقاة وصامتة. وقد صمتنا نحن أيضاً؛ لنرى ما سيكون.

قال الجريرى: رأيت الجنيد فى المنام، فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمنى، وطاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وما نفعنا إلا ركعتان كنا نركعهما فى الأسحار.

يروى أن الشبلى كان قد وقف ذات يوم على قبر الجنيد. فسأله شخص سؤالاً، فلم يجبه، وقال:

إنى لأستحييه والتُّربُ بيننا
كما كنت أستحييه وهو يرانى

رحمة الله عليه

ذكر عمرو بن عثمان المكى[16]

هو شيخ شيوخ الطريقة، وأصل الأصول فى الحقيقة. هو شمع العالم، وسراج الحرم. هو الإنسان المكى عمرو بن عثمان المكى رحمة الله عليه.

كان من مشايخ الطريقة، وسادات القوم، ومن أجلة هذه الطائفة. واتبعه الجميع، وقبلوا كلامه. واختص بالرياضة والورع، واتصف بالحقائق واللطائف، وكان ممدوحاً فى زمانه. ولم يسلك سبيل السكر، وسلك سبيل الصحو. وله تصانيف لطيفة فى هذه الطريقة، وكلمات عالية. كان مريداً للجنيد، وأدرك سعيد الخراز بعد ذلك. وكان شيخ الحرم، واعتكف فيه سنوات طويلة.

يروى: أنه رأى الحسين بن منصور الحلاج يكتب شيئاً، فقال له: ماذا تكتب؟ قال: اكتب شيئاً أعارض به القرآن؛ فدعا عليه عمرو بن عثمان، وهجره. قال الشيخ: إن ما حل به من البلاء كان لدعائه عليه.

يروى أنه كان قد كتب ترجمة «كنج نامه» على ورقة، ووضعها تحت السجادة، وذهب ليتوضأ. فذاع الخبر فى الميضأة. فطلب من

خادمه أن يحمله إليه. فلما قدم الخادم، ولم يجده، أخبر الشيخ. فقال الشيخ: لقد سرق، ومضى. ثم قال: إن من سرق «كنج نامه» سرعان ما تقطع يداه ورجلاه، وتضرب رقبته، ويحرق، وينثر رماده، وكان كنج نامه ذلك الذى قال فيه: ذلك الوقت الذى نفخت فيه الروح فى قالب آدم عليه السلام. أمر الملائكة جميعهم بالسجود له؛ فسجدوا. وقال إبليس: لن أسجد، وسأضحى بروحى، وأعرف السر، وإن لعنت، وأطلق علىّ الطاغى والفاسق والمرائى. ولم يسجد، حتى أدرك السر الآدمى، وعرفه. لا جرم أن أحداً قط لم يطلع على السر الآدمى سوى إبليس. ولم يعرف أحد سر إبليس سوى الإنسان. واطلع إبليس على السر الآدمى؛ لأنه لم يسجد حتى يعرفه. وانشغل بمعرفة السر. ورفض الجميع إبليس، لأنهم كانوا قد وضعوا الكنز أمامه. وقالوا: إننا وضعنا الكنز فى التراب، وشرط الكنز: أن يراه رجل، لكنهم يخفون سره، حتى لا يفصح عنه. لذا صاح إبليس امهلنى، ولا تقتلنى. فأنا حارس الكنز، وضع أمام عينى، ولن تسلم هذه العين صمصام لا أبالى. قال ﴿ فإنك من المنظرين ﴾(١٧) حتى يقول ﴿ كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ (١٨) لا جرم أنه ملعون ومطرود ومخذول ومجهول.

وترجمة «كنج نامه» لعمرو بن عثمان كما ذكرها فى كتاب المحبة هى: إن الحق تعالى خلق القلوب قبل الأرواح بسبعة آلاف سنة، واحتفظ بها فى روضة الأنس. وخلق الأسرار قبل القلوب بسبعة الاف سنة، واحتفظ بها فى درجة الوصل. وتجلى على الأرواح بنظرة الكرامة ثلاثمائة وستين مرة كل يوم، واسمعها كلمة المحبة.

وأظهر على القلوب ثلاثمائة وستين لطيفة من لطائف الأنس. وتجلى على السر بكشف الجمال ثلاثمائة وستين مرة كل يوم. ونظرت جميعها إلى الكون، فلم تر أحداً أكرم منها؛ فبدا عليها الزهو والفخر، فامتحنها الحق تعالى بذلك، فسجن السر فى الروح، وحبس الروح فى القلب، وحبس القلب فى الجسد، ثم ركّب العقل فيها، وأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم، وأمر، فبحث كل واحد منهم عن مقامه، وأمرهم الحق تعالى بالصلاة. حتى صار الجسد فى الصلاة، واتصل القلب بالمحبة، ووصلت الروح إلى القرب، واستقر السر فى الوصل.

يروى أنه كتب رسالة من الحرم إلى العراق، إلى الجنيد، والجريرى، والشبلى، قال فيها: إنكم تعلمون أنكم سادة العراق ومشايخها، فقولوا لمن يبتغى أرض الحجاز وجمال الكعبة: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾[١٩]. وقولوا لمن يبتغى بساط القرب وحضرة العزة: «لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأرواح». وكتب فى آخر الرسالة: هذا خط عمرو بن عثمان المكى. ومشايخ الحجاز مع أنفسهم، وفى أنفسهم، وعلى أنفسهم. وإن حظى أحد منكم بهمة عالية، قل له: اسلك هذا الطريق، فإن فيه ألفين من الجبال النارية، وألفين من البحار المغرقة المهلكة. وإن لم تحظوا بهذا المقام، فلا تدعوا؛ فإنهم لا يهبون شيئاً بالادعاء. ولما بلغت الرسالة الجنيد، جمع مشايخ العراق، وقرأها عليهم. ثم قال: تعالوا، وقولوا: ماذا أراد بهذه الجبال؟ قالوا: المراد من هذه الجبال فناء الرجل. فالرجل لا يصل إلى حضرة العزة حتى يفنى ألف مرة، ويبقى ألف مرة. فقال

الجنيد: لم أجتز سوى جبل واحد من هذه الجبال النارية. قال الجريرى: ما أسعدك، فقد قطعت جبلاً. إننى لم أتقدم سوى ثلاثة أقدام حتى الآن. فبكى الشبلى منتحباً، وقال: ما أطيبك يا جنيد، فقد قطعت جبلاً نارياً. وما أطيبك يا جريرى، فقد قطعت ثلاثة أقدام. وإننى حتى الآن لم أر غبارها من بعيد.

يروى أن عمرو بن عثمان حين قدم أصفهان، صحبه شاب. ثم مرض ذلك الشاب، وتعب فترة. فجاء جمع لعيادته يوماً. فأشار على الشيخ، ليقول للقوال أن ينشد شعراً. فقال عمر للقوال: أنشد هذا البيت:

مالى مرضت فلم يعدنى عايد

منكم ويمرض عبدكم فأعود

فلما سمع الشاب البيت، شفى فى الحال، وصار واحداً من شيوخ الطريقة.

سئل عمرو بن عثمان عن معنى: ﴿أفمن شرح الله صدره، للإسلام﴾(٢٠) قال: لما يقع نظر العبد على عظمة علم الوحدانية، وجلال الربوبية، يعمى عن أى شيء بعد ذلك.

وقال: عليك بترك التفكير فى شيء من عظمة الله تعالى، أو شيء من صفاته، فالتفكير فى الله تعالى معصية وكفر.

وقال: الجمع هو أن الحق تعالى خاطب عباده فى الميثاق. والتفرقة: التعبير عنه فى وجوده.

وقال: لا يقع على كيفية الوجد عبارة، لأنه سر الحق تعالى عند المؤمنين.

وقال: أول المشاهدة القرب، والمعرفة بعلم اليقين وحقائقه.

وقال: أول المشاهدة زوائد اليقين، وأول اليقين آخر الحقيقة.

وقال: المحبة داخلة فى الرضا، ولا رضا إلا بمحبة؛ لأنك لا تحب إلا ما ترضى، ولا ترضى إلا بما تحب.

وقال: التصوف أن يكون العبد مشغولاً فى كل وقت، بما هو أولى به فى الوقت.

وقال: الصبر الوقوف مع الله، والرضا بالبلاء، والاستهانة به.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

ذكر أبى سعيد الخراز[٢١]
قدس الله روحه العزيز

هو المحنك فى عالم القدس، والمحترق فى مقام الأنس. هو قدوة سماء الطريقة، والغريق فى بحر الحقيقة. هو معظم عالم الإعزاز، قطب الزمان أبو سعيد الخراز رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ ومتقدميهم، وحاز مكانة كبيرة، وبلغ الغاية فى الورع والرياضة، واختص بالكرامات، وبلغ الكمال فى الحقائق والدقائق، وتبحر فى كل الفنون.

كان أبو سعيد آية فى تهذيب المريدين، وأطلقوا عليه «لسان التصوف»؛ لأن أحداً فى هذه الأمة لم ينطق بالحقيقة مثله. وله أربعمائة كتاب. وكان فريداً فى التجريد والانقطاع.

أصله من بغداد، وكان قد أدرك ذا النون المصرى، وصحب بشراً، والسرى السقطى. وكان مجتهداً فى الطريقة. وهو أول من تحدث فى البقاء والفناء، وطريقته مبنية عليهما.

أنكر عليه بعض علماء الظاهر دقائق العلوم، واتهموه بالكفر؛ بسبب بعض الألفاظ التى وجدوها فى كتابه. وكان أبو سعيد قد سمى

هذا الكتاب «كتاب السر»؛ ولم يفهموا معناه حيث كان قد قال فيه: إن عبداً رجع إلى الله، وتعلق بالله، وسكن فى قرب الله، قد نسى نفسه وما سوى الله. فلو قلت له: من أين أنت؟ وإيش تريد؟ لم يكن له جواب غير الله. ويقول فى وصف هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم: يقول بعضهم: ماذا تريد: فيقول: الله، وإن تكلمت أعضاؤه فى جسده، لقالت جميعها: الله؛ لأن أعضاءه ومفاصله كانت قد غمرت بنور الله، فهو مجذوب إليه. ثم يصل فى القرب إلى حد أن أحداً قط لا يستطيع أن يقول الله أمامه، فكل ما يجرى هناك، يجرى عن الحقيقة إلى الحقيقة، ويمضى من الله إلى الله. طالما أن هذا المكان لا يفرغ من الله تعالى قط؛ فيكف يقول أحد: الله. وحين تصل جميع عقول العقلاء إلى هنا، تصيبها الحيرة.

وقال: صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع خلاف بينى وبينهم؛ لأنى كنت معهم على نفسى.

وقال: خُيِّر الجميع بين القرب والبعد، فاخترت أنا البعد؛ لأننى لا طاقة لى بالقرب. كما قال لقمان: خيرت بين الحكمة والنبوة، فاخترت الحكمة؛ لأننى لا طاقة لى بالنبوة.

وقال: رأيت فى المنام ذات ليلة: كأن ملكين نزلا من السماء، فقالا لى: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد. فقالا لى: صدقت. فعرجا إلى السماء.

وقال: رأيت الرسول ﷺ فى المنام، فقال لى: هل تحبنى؟ قلت له: اعذرنى، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك. فقال: من أحب الله تعالى، فقد أحبنى.

وقال: رأيت إبليس فى المنام، فأمسكت بعصا؛ لأضربه. فهتف بى هاتف: إنه لا يخشى العصا؛ بل يخشى النور الذى فى قلبك. قلت له: تعال فقال: إيش أعمل بكم وقد طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس؟ قلت: وما هو؟ قال: الدنيا، فلما ولى عنى، التفت إلىّ، وقال: غير أن لى فيكم لطيفة! فقلت: وما هى؟ قال: صحبة الأحداث.

وقال: كنت فى دمشق، ورأيت الرسول ﷺ فى المنام قادماً، وهو يستند على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وكنت أردد بيتاً من الشعر فى نفسى، وأضع إصبعى على صدرى. فقال الرسول ﷺ: إن شر هذا أكثر من خيره. أى لا ينبغى السماع.

يروى أن أبا سعيد الخراز كان له ولدان: توفى أحدهما قبله: فرآه فى المنام ذات ليلة، فقال له: يا بنى، ماذا فعل الله تعالى بك؟ قال: أنزلنى إلى جواره، وأكرمنى، قلت له: عظنى. يا بنى، فقال: يا أبت، لا تعامل الله على الجبن. قلت له: زدنى. قال: يا أبت، إن تكلمت، لا تطيق. قلت: إننى أطلب العون من الله تعالى. قال: يا أبت، لا تجعل بينك وبين الله قميصاً. يروى أنه عاش بعدها ثلاثين سنة، ما لبس فيها قميصاً قط.

وقال: وسوست لى نفسى يوماً: أن أطلب من الله تعالى شيئاً، فهتف بى هاتف: أتريد سوى الله تعالى شيئاً آخر! فقال: أخجل من الله أن أدخر القوت بعد أن ضمنه لى.

وقال: كنت أمضى فى البادية، فغلبنى الجوع، وطالبتنى النفس بأن أطلب الطعام من الله تعالى. فقلت: طلب الطعام ليس شأن المتوكلين. ولم أطلب شيئاً. فلما يئست النفس؛ احتالت حيلة أخرى. وقالت: إنك لا تريد الطعام، فاطلب الصبر. فعزمت على طلب الصبر، فعصمنى الحق، وسمعت صوتاً وكأن أحداً يقول: هذا حبيبنا، ونحن أقرب إليه. والمفروض ألا نضيع أحداً يقصدنا، ليطلب منا قوة الصبر، ويصيبه العجز والضعف، ويظن أنه لم يرنا ولم نره. أى يُحجب بطلبه الطعام؛ لأنه طلب غيرنا. ويُحجب بالصبر أيضاً، لأنه صبر على غيرنا.

وقال: دخلت البادية مرة بغير زاد، فأصابتنى فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد، فسررت. وقالت النفس: وجدت السكينة. فآليت ألا أدخل المرحلة، فحفرت حفرة، ودخلت فيها. فسمعت صوتاً يقول: أيها الناس، إن لله تعالى ولياً حبس نفسه فى هذا الرمل؛ فأدركوه فجاءتنى جماعة، فأخرجونى، وحملونى إلى القرية.

وقال: كنت أتناول شيئاً من الطعام مرة كل ثلاثة أيام. فدخلت البادية، فمضى علىَّ ثلاثة أيام ما طعمت شيئاً، وفى اليوم الرابع، وجدت ضعفاً، واشتهيت الطعام؛ فجلست مكانى، فإذا بهاتف يقول:

أيما أحب إليك سبب أم قوة؟ قلت: يا إلهى، سبب. ثم اعترتنى قوة، فطويت اثنى عشر منزلاً.

وقال: رأيت شاباً على ساحل البحر يوماً، عليه مرقعة، وبيده محبرة سيماه ظاهرة، ومعاملته غير ذلك. حين أنظر إليه، أقول: إنه من الواصلين: وحين أنظر إلى المحبرة، أقول: بل هو من طلبة العلم. فقلت: أيها الشاب، ما الطريق إلى الله؟ قال: الطريق طريقان: طريق الخواص، وطريق العوام. لا علم لك بطريق الخواص، أما طريق العوام، فهو الطريق الذى تسلكه، وتجعل معاملتك علة الوصول إلى الحق، وتعد المحبرة حجاباً.

وقال: كنت أمشى فى الصحراء يوماً، فإذا عشرة من كلاب الرعاة المفترسة شدوا على، فلما اقتربوا منى، جعلت استعمل المراقبة، فإذا كلب أبيض قد خرج من بينهم، وحمل عليهم، فطردهم عنى، ولم يفارقنى حتى ابتعدت عن الكلاب، ثم التفت، فلم أره.

يروى أنه كان يتكلم يوماً فى الورع، فمرّ به العباس بن المهتدى[٢٢] وقال: يا أبا سعيد، أما تستحى؛ تجلس تحت سقف بناء الدوانقى، وتشرب من بركة زبيدة، وتتكلم فى الورع؟ فامتثل فى الحال قائلاً: القول قولك.

ومن أقواله: جبلت القلوب عل حب من أحسن إليها.

وقال: واعجباً لمن لم ير محسناً غير الله، كيف لا يميل بكليته إلى الله.

وقال: عداء الفقراء بعضهم لبعض غيرة على الحق، فقد أراد ألا يتفقوا بعضهم مع بعض.

وقال: يطالب الحق تعالى أولياءه بالأعمال ومنذ اختاروه، وفضلوه، لم يقبلوا أن يدخل شيء بينه وبينهم، ولم يوفقوا في أي عمل إلا به.

وقال: إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبداً من عبيده، فتح عليه باب ذكره. فإذا استلذ الذكر، فتح عليه باب القرب، ثم أنزله في دار الوحدانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة، فنى عن نفسه، فوقع في حفظ الله سبحانه.

وقال: أول مقامات العارفين: التحير مع الافتقار، ثم السرور مع الاتصال، ثم الفناء مع الانتباه، ثم البقاء مع الانتظار. ولا يصل مخلوق قط إلى مقام أسمى من هذا. فإن قال أحد: إن الرسول ﷺ لم يصل إلى هذا المقام. نقول: بل وصل لكن بما يليق به. كما أن الحق تعالى يتجلى للجميع، وتجلى لأبي بكر بما يناسبه، ويتجلى لكل شخص بما يناسبه.

وقال: من ظن أنه ببذل الجهد يصل فمتمن، ومن ظن أنه بغير بذل الجهد يصل فمتعن.

وقال: الخلق في قبضة الله تعالى، وملكه. حين تحدث المشاهدة بين العبد والرب، لا يبقى شيء سوى الله في باطن العبد، وإدراكه.

وقال: لا تشغل وقتك العزيز إلا بأعز الأشياء. وأعز أشياء العبد شغله بين الماضى والمستقبل.

وقال: من نظر بنور الفراسة، نظر بنور الحق، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبد.

وقال: هناك قوم من عباد الحق، اسكتتهم خشية الله. وهم الفصحاء والبلغاء فى الحديث عنه.

وقال: من استقرت المعرفة فى قلبه، لا يرى فى الدارين سواه، ولا يسمع سواه، ولا ينشغل بسواه.

وقال: الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية. والبقاء بقاء العبد فى الحضرة الإلهية.

وقال: الفناء الغياب فى الحق. والبقاء الحضور بالحق.

وقال: حقيقة القرب طهارة القلب من كل الأشياء، وسكونه إلى الله تعالى.

وقال: كل باطن يخالفه ظاهره، يكون باطلاً.

وقال: الذكر ثلاثة: ذكر باللسان، يغفل عنه القلب، وهو ذكر العادة. وذكر باللسان، يحضره القلب، وهو طلب الثواب. وذكر يعود القلب على الذكر، ويخرس اللسان. ولا يعرف أحد قدر هذا الذكر سوى الله تعالى.

وقال: أول مقام لمن وجد علم التوحيد، وتحقق بذلك، فناء ذكر الأشياء عن قلبه، وانفراده بالله عز وجل.

وقال: العارف يستعين بكل شيء، فإذا وصل استغنى بالله تعالى عن كل شيء، وافتقر إليه كل شيء.

وقال: حقيقة القرب ألا تستطيع الإحساس بالقلب قط، ولا يمكنك الإحساس بأى شيء.

وقال: العلم ما استعملك، واليقين ما حملك.

وقال: التصوف هو التمكين من الوقت.

وسئل عن التصوف، فقال: الصفاء بالله، والامتلاء بالأنوار، واللذة بالذكر.

وسئل عن التصوف أيضاً، فقال: ما ظنكم بقوم أعطوا حتى بسطوا، ومنعوا حتى فقدوا، ثم نوروا من أسرار قريبة ألا فابكوا علينا.

سئل: هل يصل العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ قال: نعم، إنما البكاء في وقت سيرهم إلى الله عز وجل، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب، ذاقوا طعم الوصول من بره تعالى، وزال عنهم البكاء.

وقال: لا يطيب عيش زاهد انشغل بنفسه.

وقال: الخلق العظيم ألا تكون للمرء أية همة سوى بالله.

وقال: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

وقال: من لا يستطيع التحكم فيما بينه وبين الله بالتقوى والمراقبة، لا يستطيع الوصول إلى الكشف والمشاهدة.

وقال: لا تغتروا بصفاء العبودية، فهو منقطع عن النفس، وساكن بالله تعالى.

قالوا له: لم تأخر عن الفقراء رفق الأغنياء؟ فقال: لثلاث خصال: لأن ما فى أيديهم غير طيب، ولأنهم غير موفقين، ولأن الفقراء مرادون بالبلاء.

رحمة الله عليه

ذكر أبى الحسين النورى[٢٣]

قدس الله روحه العزيز

هو المجذوب إلى الوحدة، والمسلوب عن العزة، هو قبلة الأنوار، ونقطة الأسرار، هو من قتل نفسه ألماً فى البعد. لطيف العالم أبو الحسين النورى رحمة الله عليه.

كان أوحد عصره، وقدوة وقته، وظريف أهل التصوف، وشريف أهل المحبة. وله رياضات عجيبة، ومعاملات حسنة، ونكات عالية، ورموز عجيبة، ونظرة صائبة، وفراسة صادقة، وعشق تام، وشوق لا نهاية له.

أقر المشايخ بسبقه، وكانوا يطلقون عليه «أمير القلوب» و«قمر الصوفية».

كان مريداً للسرى السقطى، وصحب أحمد الحوارى، وكان من أقران الجنيد. وكان مجتهداً فى الطريقة، وصاحب مذهب، ومن صدور علماء المشايخ. وله فى الطريقة براهين قاطعة، وحجج لامعة.

وأساس مذهبه: تفضيل التصوف على الفقر، ووافق الجنيد فى المعاملة. ومن نوادر طريقته: أنه يحرم الصحبة دون إيثار، ويأمر بإيثار حق الصاحب على حقه فى الصحبة.

ويقول: صحبة الفقراء فريضة، والعزلة غير مستحبة، وإيثار الصاحب صاحبه فريضة.

وكانوا يسمونه بالنورى لأنه حين كان يتحدث فى الليل الحالك، كان النور يخرج من فمه، إلى حد أن الدار تضىء.

وأطلقوا عليه النورى أيضاً لأنه كان يعلم أسرار الباطن بنور الفراسة.

وقالوا أيضاً: كانت له صومعة فى الصحراء، كان يتعبد فيها كل ليلة، وكان الخلق يراقبونه، فيجدون نوراً يتلألأ فى الليل، وينبعث من صومعته.

وقال أبو محمد المغازلى(٢٤): لم أر أحداً قط فى عبادة النورى.

وفى أول أمره، كان يخرج فجر كل يوم من البيت، ويذهب إلى الحانوت، ويحمل خبزاً معه، يتصدق به فى الطريق، ويدخل مسجداً فلا يزال يصلى فيه إلى قريب من الظهر. ثم يذهب إلى الحانوت. وكان أهل البيت يظنون أنه يأكل فى الحانوت. وكان أهل الحانوت يظنون أنه أكل شيئاً فى البيت. واستمر على هذه الحال عشرين عاماً، ولم يطلع أحد على حاله.

يروى أنه قال: جاهدت سنوات، وحبست نفسى سنوات، واعتزلت الخلق، وارتضت. ولم ينفتح لى الطريق؛ فقلت لنفسى: ينبغى لى أن أفعل شيئاً مفيداً، أو ابتعد، وأتحرر من هذه النفس. ثم قلت: أيها الجسد، اتبعت هواك ومرادك سنوات، ورأيت، وسمعت، وذهبت، وأخذت، ونمت، وسعدت، واشتهيت. وهذا كله محسوب عليك. الآن ادخل البيت؛ حتى أقيدك، وأقلدك كل حقوق الحق، إن أديتها، سعدت، وإلا فاسلك طريق الحق مرة.

وقال: هكذا فعلت فى طريق الحق تعالى، وكنت قد سمعت أن قلوب هذه الطائفة مرهفة، وكل ما يرونه أو يسمعونه، يعرفون سره. ولم أجد ذلك فى نفسى، فقلت: إن قول الأنبياء والأولياء (حق). ربما قصرت فى المجاهدة، وهذا الخلل منى. فلا سبيل للخلاف هنا. ثم قلت: أنظر إلى نفسى؛ حتى أرى ما الأمر؟ فنظرت إلى نفسى، فكانت الآفة أن نفسى وقلبى كانا قد اتحدا. وحين تتحد النفس مع القلب، يكون البلاء، لأن كل ما يحل على القلب، تأخذ النفس نصيبها منه. فلما رأيت هذا، علمت أننى باق فى مكانى لأن كل ما يحل على القلب من الحضرة الإلهية، تأخذ النفس نصيبها منه. وحينئذ اجتنبت كل ما تميل إليه النفس، وتشبثت بشىء آخر. ومن ذلك أن النفس كانت تأنس بالصلاة، والصوم، والصدقة، والخلوة، ومعاشرة الخلق، فكنت أخالفها. حتى أطحت بكل ذلك، وكبت شهواتى. فكانت الأسرار تنكشف لى، فقلت لها: من أنت؟ قالت: أنا در منجم الحرمان. والآن، قل للمريدين: إن منجمى منجم الحرمان، ودرى

در منجم الحرمان. ثم ذهبت إلى دجلة، وقمت بين زورقين، وقلت: لن أمضى، ما لم تقع سمكة فى شباكى. فخرجت سمكة، وجذبتها، وقلت: الحمد لله، فقد أثمر عملى، ثم ذهبت، وقلت للجنيد: إن فتحاً حل بى. فقال: يا أبا الحسين، إنك اصطدت سمكة، وإن كانت حية، لكانت كرامة لك. لكن لأنك تدخلت؛ فهى خدعة لا كرامة، فالكرامة هى ألا تتدخل. سبحان الله أى رجال كانوا هؤلاء الأحرار!

يروى أن غلام الخليل[٢٥] حين أظهر عداوته نهذه الطائفة، وأخبر الخليفة أن جماعة ظهرت، وهم ينشدون الأناشيد، ويرقصون، ويشطحون، ويتجولون طوال اليوم، ثم يدخلون السراديب خفية، ويتحدثون. وأن هؤلاء القوم من الزنادقة. وإن أمر أمير المؤمنين بقتلهم، تلاشى مذهب الزنادقة. لأنهم زعماء هذه الطائفة. إن فعل أمير المؤمنين هذا، فأنا أضمن له ثواباً جزيلاً. فأمر الخليفة، فأحضروهم فى الحال، وهم: أبو حمزة[٢٦] والرقام[٢٧] والشبلى والنورى والجنيد. ثم أمر الخليفة بقتلهم. فقصد السياف قتل الرقام. فنهض النورى، وتقدم، وجلس مكان الرقام، وقال: اقتلنى أنا أولاً، وهو فى غاية الطرب والسرور. قال السياف: أيها الفتى، لم يأت دورك بعد، والقتل ليس بالشىء الذى يسارعون إليه. فقال النورى: إن طريقتى مبنية على الإيثار، وإننى أوثر أصحابى، والحياة أعز شىء فى الدنيا، وأريد أن أبذل هذه الأنفاس المعدودة فى سبيل هؤلاء الإخوة، حتى أوثر العمر أيضاً، لأن نفساً واحداً فى الدنيا أعز من ألف سنة فى الآخرة، وإن هذه دار الخدمة، وتلك دار القربة،

والقرية تدرك بالخدمة. فلما سمع السياف هذا الكلام منه، نقله إلى الخليفة. فتعجب الخليفة من إنصافه وصدقه. وقال: تمهلوا. ثم ردهم إلى القاضى، لينظر فى أمرهم. فقال القاضى: لا يمكن منعهم دون حجة. وكان قد علم أن الجنيد كامل فى العلوم. سمع كلام النورى. فقال: أسأل هذا المجنون - أى الشبلى - عن شيء فى الفقه، لا يستطيع الإجابة عنه. ثم قال: ما قيمة الزكاة الواجبة على عشرين ديناراً؟ قال الشبلي: عشرون ديناراً ونصف. قال: ومن فرض هذه الزكاة؟ قال: الصديق الأكبر رضي الله عنه. فقد تصدق بأربعين ألف دينار، ولم يحتفظ بشيء قال: وما هذا النصف دينار الذى تحدثت عنه؟ قال: غرامة. فلم أدخر العشرين ديناراً، ما دام ينبغى على التصدق بنصف الدينار. ثم سأل النورى مسألة فى الفقه، فأجاب فى الحال. فخجل القاضى. عندها قال له النورى: أيها القاضى، لقد سألت كل هذه الأسئلة، ولم تسأل بعد: هل لله رجال قيامهم به، وحركتهم وسكونهم به، وحياتهم به، وبقاؤهم بمشاهدته، وإن عجزوا عن مشاهدة الحق لحظة، تفيض روحهم؛ لأنهم به ينامون، وبه يأكلون، وبه يأخذون، وبه يمشون، وبه يسمعون، وبه يكونون. هذا هو العلم، لا ما سألت عنه. فتعجب القاضى، وأرسل إلى الخليفة يقول: إن كان هؤلاء ملاحدة وزنادقة؛ فأنا أحكم بأنه لا يوجد موحد على وجه الأرض. فدعاهم الخليفة، وقال: سلوا حاجتكم، قالوا: إن حاجتنا إليك هى أن تنسانا، ولا تشرفنا بالقبول، ولا تهجرنا بالرد؛ لأن قبولك لنا كهجرك، وهجرك لنا كقبولك. فبكى الخليفة، وأعادهم مكرمين.

يروى أن النورى رأى رجلاً يوماً، يحرك محاسنه فى الصلاة، فقال: ارفع يدك عن محاسن الحق. فأخبروا الخليفة بهذا الكلام.

وأجمع الفقهاء على أنه كفر بهذا الكلام؛ فحُمل إلى الخليفة. فقال الخليفة: هل قلت هذا الكلام؟ قال: نعم، قال: لماذا قلته؟ قال: من يملك العبد؟ قال: الله. قال: ومن يملك المحاسن؟ قال: العبد. عندها قال الخليفة: الحمد لله الذى صرفنى عن قتله.

وقال: باعدوا بينى وبين قلبى أربعين سنة، لم أرغب فيها شيئاً قط، ولم أشته شيئاً قط، ولم يطب لقلبى شيء قط، وهذا منذ عرفت الله تعالى.

وقال: رأيت نوراً ساطعاً فى الغيب، كنت دائم النظر إليه، حتى صرت أنا ذلك النور.

رجوت الله تعالى مرة أن يهبنى حالاً دائماً. فهتف بى هاتف: يا أبا الحسين، لا يستطيع الصبر على دائم إلا الدائم.

يروى أن الجنيد ذهب إلى النورى يوماً، وسقط على الأرض متظلماً، وقال: لقد اشتد الخطب علىّ، ولم تعد لى طاقة. فمنذ ثلاثين سنة وأنا أغيب حين يحضر، ولما أحضر أنا، يغيب هو، وحضوره فى غيبتى. وكلما انتحبت يقول: إما أبقى أنا أو تبقى أنت. قال الجنيد للأصحاب: انظروا إلى رجل عاجز، ومبتلى، وحائر فى الحق تعالى.

ثم قال: الجنيد ينبغى عليك ألا تبقى بذاتك سواء احتجب عنك، أو تجلى عليك، فالكل هو.

يروى أن جماعة جاءت إلى الجنيد، وقالت: إن النورى يطوف بلبنة منذ عدة أيام، ويقول: الله الله، ولم يتناول طعاماً قط أو شرابا،

ولم ينم، ويؤدى الصلوات فى أوقاتها، ويحافظ على آدابها. فقال أصحاب الجنيد: إنه موجود وليس فانياً؛ لأنه يؤدى الصلاة فى أوقاتها، ويعرف آدابها. فهذا تكلف لا فناء، لأن الفانى يفنى عن كل شىء. قال الجنيد: ليس الأمر هكذا، إنكم تقولون: من كانوا فى حال وجد، فهم محفوظون لذا فإن الله تعالى يحفظهم، حتى لا يحرمون من الخدمة وقت الخدمة. ثم ذهب الجنيد إلى النورى، وقال: يا أبا الحسين، إذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه، فأخبرنى؛ لأصرخ أنا أيضاً، وإن كنت تعرف أنه لا يفيد، فارض بالتسليم؛ ليسعد قلبك. فكف النورى عن الصراخ فى الحال، وقال: ما أحسنك معلماً لنا!

يروى أن الشبلى كان يعظ فى مجلس. فجاء النورى وانتحى جانباً، وقال: السلام عليك يا أبا بكر الشبلى. قال: وعليك السلام يا أمير القلوب. قال: لا يرضى الحق تعالى عن عالم يتحدث بعلم لا يعمل به. فاتقن العمل، أو فانزل. فنظر الشبلى، ولم يجد نفسه صادقاً؛ فنزل، وانزوى فى داره أربعة أشهر، لم يخرج منها. فاجتمع الخلق، وأخرجوه، وصعدوا به المنبر. فعلم النورى، فجاء، وقال: يا أبا بكر! لقد احتجبت عنهم، فأجلسوك على المنبر لا جرم. ونصحتهم أنا، فرمونى بالحجارة، وألقوا بى فى المزابل. قال: يا أمير القلوب، ماذا كانت نصيحتك؟ وماذا كان احتجابى؟ قال: نصيحتى أننى حررت خلق الله بالله. واحتجابك: أنك صرت حجاباً بين الله والخلق. فمن أنت حتى تكون الواسطة بين الله والخلق، إننى لا أرى إلا فضولك.

يروى أن شاباً خرج من أصفهان حافى القدم؛ لزيارة النورى. فلما اقترب قدومه أمر النورى مريداً بكنس الطريق مسافة فرسخ، وقال: إن شاباً قادم إلينا. فلما وصل، قال النورى: من أين جئت؟ قال: من أصفهان. وكان ملك أصفهان قد منح ذلك الشاب قصراً، ومتاعاً بألف دينار، وجارية بألف دينار، وقال له: لا تغادر أصفهان. فقال النورى: لقد منحك ملك أصفهان قصراً وجارية، وألف دينار، ومتاعاً بألف دينار؛ حتى لا تغادرها، وقبلت أنت هذا الطلب بذلك الفعل. فصاح الشاب في الحال قائلاً: لا تؤذينى. فقال النورى: إن وضع الحق تعالى ثمانية عشر ألف عالم فى طبق أمام مريد، وكان ينظر إليها، ما أطمئن إلى أنه يتحدث بحديث الله.

يروى أن النورى كان قد جلس مع رجل، وكانا كلاهما ينتحبان. فلما مضى ذلك الرجل، التفت النورى إلى الأصحاب وقال: أعرفتم من كان ذلك الرجل؟ قالوا: لا. قال: إنه إبليس، كان يحكى عن عبادته ويقص قصة زمانه، ويئن من ألم الفراق، ويبكى على ما رأيتم، وكنت أبكى أنا أيضاً.

قال جعفر الخلدى: كان النورى يناجي ربه فى الخلوة، فأنصت لما يقول: قال: يا إلهى العظيم، أنت تعذب أهل النار وكلهم خلقك، وقائمون بعلمك، وقدرتك، وقديم إرادتك. فإن كنت ولا بد ستملأ الجحيم من الناس، فأنت قادر على أن تملأها بى، وترسلهم إلى الجنة! قال جعفر: فتحيرت فى أمره، فرأيت فى المنام أن قادماً

مقبل، وكان يقول: قال الله تعالى: قل لأبى الحسين: إننا غفرنا لك بتعظيمك لنا، وشفقتك على عبادنا.

يروى أنه قال: رأيت البيت خالياً فى ليلة، فكنت أطوف، وفى كل مرة كنت أصل إلى الحجر الأسود، كنت أدعو وأقول: اللهم ارزقنى حالاً وصفة لا أتغير منه. فسمعت صوتاً من الكعبة يوماً يقول: يا أبا الحسين! أتريد أن تتساوى بنا، إننا لا نغير من صفاتنا، لكن عبادنا متغيرون، ونحن نثبت على صفة واحدة، حتى تتميز الربوبية عن العبودية، أما الإنسان فهو صاحب أغيار.

يقول الشبلى: ذهبت إلى النورى، فوجدته، وقد انتابه حال المراقبة، ولم تكن شعرة تتحرك على جسده، فقلت: ممن تعلمت مثل هذه المراقبة؟ فقال: من قطة وقفت على جحر فأر وكانت أكثر منى سكوناً.

يروى أن أهل القادسية سمعوا ذات ليلة، أن ولياً من أولياء الله حبس نفسه فى وادى السباع، فأدركوه. فخرج الخلق جميعهم، وذهبوا إلى وادى السباع، فوجدوا النورى قد حفر قبراً، وجلس فيه، والتفت السباع حوله. فطلبوا شفاعته، وحملوه إلى القادسية. ثم سألوه عن ذلك الحال، فقال: لم أكن قد أكلت شيئاً منذ مدة، ودخلت هذه البادية، فلما رأيت نخلة فيها، رغبت فى التمر، فقلت لنفسى وقد بقيت فيها الرغبة: انزلى هذا الوادى، حتى تفترسك السباع، ولا ترغبى فى التمر.

يروى أنه قال: كنت اغتسل فى الماء يوماً. فسرق لص ثيابى، ولم يلبث إلا قليلاً حتى أعادها، وقد تيبست يده. فقلت: إلهى، قد رد على ثيابى، فرد عليه يده فرد الله عليه يده فى الحال.

سئل النورى: ماذا يفعل الله تعالى بك؟ قال: يحفظ لى ثيابى، حين أذهب إلى الحمام. فقد ذهبت إلى الحمام يوماً، وسرق لص ثيابى. فقلت: إلهى، أعد لى ثيابى. فجاء ذلك اللص فى الحال، وأعاد الثياب، وطلب المعذرة.

يروى أن ناراً اشتعلت فى سوق النخاسين ببغداد، واحترق خلق كثيرون. وكان هناك غلامان روميان شديدا الجمال فى حانوت، وكانت النار قد قد أحاطت بهما. وكان سيدهما يقول: من ينقذهما، أمنحه ألف دينار مغربى. ولم يستطع أحد قط الاقتراب منهما. فجاء فجأة النورى، ووجد الغلامين يصرخان، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وخطى نحوهما، وأخرجهما سالمين. فقدم سيد الغلامين ألف دينار مغربى للنورى. فقال له النورى: خذها، واشكر الله الذى وهبنا هذه المرتبة دون اكتساب. أما نحن فقد استبدلنا بالدنيا الآخرة.

يروى أن خادمة كانت له تدعى زيتونة، قالت: حملت الخبز واللبن إلى النورى يوماً، وكان يقلب فحماً بيده، فاسودت أصابعه، وأخذ يأكل الخبز ويده غير نظيفة. فقلت: يا له من رجل همج. فجاءت امرأة فى الحال، وتعلقت بى قائلة: سرقت منى رزمة ثياب، وحملونى إلى الأمير. فجاء النورى. وقال رجل للأمير: لا تؤذيها،

فها هم يحضرون الثياب. فنظروا، فإذا بجارية قد أتت، ومعها رزمة الثياب. فنجوت. قال لى الشيخ. أتقولين ثانية: إنه رجل همج. قالت زيتونة: قد تبت.

يروى أن النورى كان يمضى، فرأى رجلاً يبكى وقد سقط حمله، ومات حماره. فركل النورى الحمار بقدمه، وقال: انهض، فلا مجال للنوم. فنهض الحمار فى الحال، ووضع الرجل الحمل عليه، ومضى.

يروى أن النورى مرض وجاء الجنيد لعيادته، وأحضر ورداً وفاكهة. وبعد مدة، مرض الجنيد، فجاء النورى مع أصحابه لعيادته. ثم قال للأصحاب: ليأخذ كل واحد قسطاً من مرض الجنيد، حتى يشفى. قالوا: أخذنا. فشفى الجنيد فى الحال. قال النورى: حين تأتى لعيادتى. تعال، ولا تحضر الورد والفاكهة.

قال النورى: رأيت شيخاً ضعيفاً عاجزاً، كان يُضرب بالسياط، وهو صابر. ثم أدخل الحبس. فذهبت إليه، وقلت: كيف صبرتَ وأنت ضعيف وعاجز هكذا على ضرب السياط؟ قال: يا بنى، إنما يحمل البلاء الهمم لا الأجسام. فقلت: وما الصبر عندك؟ قال: أن يكون الوقوع فى البلاء مثل الخروج منه.

يروى أنهم سألوا النورى: كيف السبيل إلى المعرفة؟ قال: هناك سبعة بحور من النار والنور. إن عبرتها، ابتلعتك فى حلقها كلقمة، مثلما ابتلعت الأولين والآخرين.

يروى أن النورى قال لأحد أصحاب أبى حمزة ـ وكان أبو حمزة يتحدث عن القرب، قل له: إن النورى يبلغك السلام، ويقول: القرب قرب فيما نحن فيه، والبعد بعد.

وسئل النورى عن العبودية، فقال: مشاهدة الربوبية.

وقالوا: متى يكون الرجل جديراً بمخاطبة الخلق؟ قال: حين يفهم الحق تعالى، وإن لم يفهم الحق تعالى، شمل بلاؤه عباد الله وبلاد الله.

وسئل عن الإشارة، فقال: الإشارة: الاستغناء عن العبارة. وإدراك الإشارة إلى الحق، استغراق السرائر فى عبارة الصدق.

وسئل عن الوجد، فقال: بالله، إن اللسان ممتنع عن وصف حقيقته، وبلاغة الأديب عاجزة عن وصف جوهره؛ لأن الوجد من عظائم الأمور، وليس هناك داء أكثر إيلاماً منه.

وقال: الوجد لسان يتحرك فى السريرة، وينبعث من الشوق، فيحرك الأجساد سروراً أو حزناً.

قيل لأبى الحسين النورى: بم عرفت الله تعالى؟ فقال: بالله، قيل: فما بال العقل؟ قال: العقل عاجز، لا يدل إلا على عاجز مثله.

وقال: طريق الإسلام مسدود على الخلق، لا ينفتح لهم، ما لم يتبعوا سنة الرسول ﷺ.

وقال: المتصوفة قوم تطهرت أرواحهم من كدر البشرية،

وتخلصت من آفة النفس، وتنزهت عن الهوى، حتى سكنت إلى الحق تعالى فى الصف الأول والدرجة الأعلى، وفرّت مما سواه، فهى ليست مالكة ولا مملوكة.

وقال: الصوفى لا يتعلق بشيء، ولا يتعلق به شيء.

وقال: ليس التصوف رسوماً ولا علوماً، ولكنه أخلاق. أى لو كان التصوف رسوماً، كان يتأتى بالمجاهدة. ولو كان علوماً، كان يكتسب بالتعليم. لكنه أخلاق فـ «تخلقوا بأخلاق الله». والتخلق بأخلاق الله لا يتحقق بالرسوم، ولا بالعلوم.

وقال: التصوف الحرية. والفتوة ترك التكلف والسخاء.

وقال: التصوف ترك كل نصيب للنفس، من أجل نصيب الحق.

وقال: التصوف عداوة الدنيا، ومحبة المولى.

يروى أن ضريراً كان يقول: الله، الله. فذهب إليه النورى، وقال: ماذا تعرف عنه؟ وإن عرفت، بقيت حياً! قال هذا، وفقد صوابه، وهام فى الصحراء من الشوق، فوقع فى أجمة قصب «نود روده»، وكانت قد قطعت، فكان الغاب يخزه، والدم يسيل منه. وكانت كل قطرة دم تكتب: الله، الله. يقول أبو نصر السراج: عندما حملوه من هناك إلى بيته، قالوا: قل: «لا إلا إلا الله». فقال: سأمضى إليه، ومات.

قال الجنيد: منذ توفى النورى، لم يتكلم أحد قط فى حقيقة الصدق. فقد كان صديق زمانه.

ذكر أبى عثمان الحيرى[٣٨]
قدس الله روحه العزيز

هو المطلع على أسرار الطريقة، والمبصر لأنوار الحقيقة. هو ربيب عتبة العبودية، والمحترق بجذبة الربوبية. هو السباق إلى الإرادة والمشيخة. قطب الزمان عثمان الحيرى رحمة الله عليه.

كان من أكابر هذه الطائفة، وسادة أهل التصوف. وكان رفيع القدر، وعالى الهمة، ومقبولاً لدى الأصحاب، ومختصاً بأنواع الكرامات والرياضات. وله وعظ شاف، وإشارات عالية. وكان كاملاً فى فنون علوم الطريقة والشريعة، وله كلام موزون مؤثر. ولم يجادل أحد قط فى مكانته، وقال أهل الطريقة فى عهده: الرجال ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام.

قال عبد الله بن محمد الرازى[٣٩]: رأيت الجنيد، ورويماً، ويوسف ابن الحسين، ومحمد بن الفضل، وأبا على الجوزجانى، وكثيراً غيرهم من المشايخ، ولم أجد أحداً بينهم قط أعرف بالله من أبى عثمان الحيرى.

ظهر التصوف فى خراسان على يده. وكان قد صحب الجنيد، ورويماً، ويوسف بن الحسين، ومحمداً بن الفضل، وكان له ثلاثة مشايخ كبار: يحيى بن معاذ، والشاه شجاع الكرمانى، وأبو حفص الحداد. ولم يستفد أحد قط من المشايخ، كما استفاد هو.

وضعوا له منبراً فى نيسابور؛ ليشرح كلام المتصوفة. فقال عن بداية أمره: كان قلبى دائماً يطلب الحقيقة فى حال الطفولة، وينفر من أهل الظاهر. وكنت اعتقد ـ على عكس العامة ـ أن للشريعة، لا محالة، سراً غير هذا الظاهر الذى تجرى عليه العامة.

يروى أنه كان يذهب إلى الكتاب يوماً مع أربعة غلمان: أحدهم: حبشى، والثانى: رومى، والثالث: كشميرى، والرابع: تركى. وكانت فى يده محبرة ذهبية، وعلى رأسه عمامة مقصبة. وارتدى ثوباً من الحرير. فوصل إلى رباط قديم. فنظر، فرأى حماراً مجروح الظهر، كان غراب ينقر جراحه، ولم يقو الحمار على إبعاده. فأشفق أبو عثمان عليه، وقال للغلام: لم صحبتنى؟ قال: حتى أكون عوناً لك فى تنفيذ ما يطرأ على خاطرك. فخلع الجبة الحريرية فى الحال، ووضعها على الحمار، وعممه بالعمامة المقصبة. فناجى الحمار حضرة العزة بلسان الحال. وما أن وصل أبو عثمان إلى داره، حتى ألمت به واقعة الرجال. ولما جلس فى مجلس يحيى بن معاذ مضطرباً. تم له الفتح بقول يحيى. فانقطع عن والديه، وارتاض مدة فى خدمة يحيى، حتى جاء جمع من عند شاه بن شجاع الكرمانى،

وحكوا عنه الحكايات. فوجد فى نفسه ميلاً لرؤيته؛ فطلب الإذن، وذهب إلى كرمان، والتحق بخدمة شاه. لكن شاه لم يأذن له قائلاً: إن طبعك ربيب الرجاء، والرجاء مقام يحيى، والشخص الذى أشرب مشرب الرجاء، لا يتأتى منه سلوك الطريقة لأن تقلد الرجاء يورث الكسل. ورجاء يحيى تحقيق، ورجاؤك تقليد. فتضرع إليه كثيراً، وأقام عشرين يوماً على أعتابه، حتى أذن له، فصحبه، وأفاد فائدة كبيرة. إلى أن قصد شاه نيسابور لزيارة أبى حفص. وصحبه عثمان. وكان شاه يرتدى قباءً. فرحب أبو حفص بشاه، وأثنى عليه. واستولت صحبة أبى حفص على همة أبى عثمان، لكن حشمة شاه كانت تمنعه أن يقول شيئاً. لأن شاه كان غيوراً . فكان أبو عثمان يتضرع إلى الله تعالى أن ييسر له صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منه شاه؛ لأنه كان يعظم شأن أبى حفص. ولما قصد شاه العودة. أعد أبو عثمان عدة الطريق. فقال أبو حفص لشاه يوماً: اترك هذا الصبى هنا، لأنى مسرور منه. فالتفت شاه إلى عثمان، وقال: أجب الشيخ إلى طلبه. ثم مضى شاه، وبقى أبو عثمان هناك. ووجد ما وجد. إلى أن قال أبو حفص في حق أبى عثمان: أحضره ذلك الواعظ ـ أى يحيى بن معاذ ـ متضرراً، حتى يعود إلى الصلاح.

يروى: أن أبا عثمان قال: طردنى أبو حفص الحداد وأنا شاب، وقال: لا أريد أن تأتى إلىّ مرة أخرى. فلم أقل شيئاً، ولم يطاوعنى قلبى أن أوله ظهرى، وانصرفت باكياً، ووجهى إلى وجهه، حتى غبت عنه. فاتخذت مكاناً لى أمامه، وأحدثت فيه فجوة، كنت أراه

منها. وعزمت ألا أخرج منه سوى بأمره. فلما رآنى الشيخ على هذا النحو، وشاهد ذلك الحال، دعانى إليه، وقربنى منه، وزوجنى ابنته.

ومن أقواله: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته. ودليل هذا: أن منكراً دعاه إلى ضيافة، فلما وافى أبو عثمان باب داره. قال له: عد أيها البطين فلا شيء هناك. عاد أبو عثمان. ولما جاء مرة أخرى، نادى عليه قائلاً: أيها الشيخ! تعال. ثم أعاده. وقال: تسعى جاهداً من أجل شيء تأكله، والطعام قليل. فامض. فمضى الشيخ ثم دعاه مرة أخرى، فجاء. فقال له: كل الحجارة أو فعد. فمضى الشيخ. وظل يدعوه ثلاثين مرة، ويطرده. وكان الشيخ يأتى ثم يعود. لكنه لم يغضب. فوقع ذلك الرجل على قدم الشيخ، وبكى، وتاب، وأصبح مريداً له، وقال له: أى رجل أنت؟! طردتك ذليلاً ثلاثين مرة، ولم تغضب. قال أبو عثمان: هذا أمر سهل. وهو شأن الكلاب، إذا زجرتهم انزجروا، وإذا دعوتهم حضروا. ولم يتذمروا. ويكفى أن الكلاب تتساوى بنا. أما الرجال فلهم شأن آخر.

يروى أنه كان يمضى ذات يوم. فألقى عليه طست رماد من سطح. فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم فى الملقى، فقال أبو عثمان،: لا تقولوا شيئاً، من استحق أن يصب عليه النار، فصولح على الرماد، لم يجز له أن يغضب.

قال أبو عمرو[٣٠]: تبت أول مرة فى مجلس أبى عثمان الحيرى، وحافظت على توبتى مدة. ثم وقعت فى المعصية، وأعرضت عن خدمة الشيخ. وحيثما كنت أراه، كنت أهرب. وصادفته مرة، فقال لى: يا بنى! لا تصاحب أعداءك إلا أن تكون معصوماً؛ لأن العدو يرى عيبك، فإذا كنت معيوباً فرح، وإذا كنت معصوماً، حزن. وإن لزمك أن تفعل معصية، فتعال إلينا، لنحمل بلاءك، ولا تحقق رغبة العدو. حين قال الشيخ هذا. سئم قلبى المعصية، وتبت توبة نصوحا.

يروى أن شاباً عربيداً كان يسير، وكان ثملاً وبيده رباب. فرأى أبا عثمان فجأة؛ فغطى شعره بالعمامة، وأخفى الرباب فى ردائه ظناً منه أن أبا عثمان سوف يلومه. فاقترب منه أبو عثمان مشفقاً عليه، وقال: لا تخف، فالإخوة جميعهم سواء. فلما رأى الشاب ذلك، تاب، وأصبح مريداً للشيخ. فأمره الشيخ بالاغتسال.، وألبسه الخرقه، ورفع رأسه وقال: إلهى! فعلت ما علىّ، والباقى عليك. وفى الحال، وقعت له واقعة الرجال إلى حد أن أبا عثمان اندهش. وعند صلاة العصر، وصل أبو عثمان المغربى. فقال له أبو عثمان الحيرى: أيها الشيخ! إننى أحترق غيرة، فما كنا نطمع فيه طوال عمرنا، وهبوه لهذا الشاب ـ الذى تفوح رائحة الخمر من فمه ـ بلا مقابل! حتى تعلم أن الأمر لله، لا لخلقه.

يروى أن رجلاً سأله قائلاً: أردد الذكر باللسان، فلا يوافقه القلب. فقال له: أشكر الله على أن عضواً من أعضائك أطاعك مرة. وسُمح له أن يوافق القلب.

يروى أن مريداً سأله: ماذا تقول فى رجل يسر إذا قام له الجمع (احتراماً)، ويستاء إن لم يقوموا؟ فلم يجب. إلى أن قال بين الجمع يوماً: سئلت عن أمر، [وسأجيب عليه الآن]، قل لهذا الرجل: فليمت ـ إن ظل على هذا الحال ـ نصرانياً أو يهودياً.

يروى أن مريداً خدمه عشر سنوات، ولم يكتسب شيئاً من الأدب والحشمة. فسافر مع الشيخ إلى الحجاز، وارتاض. وكان يقول للشيخ خلال هذه المدة: بح لى بسر من الأسرار. فقال له الشيخ بعد عشر سنوات: حين تذهب إلى المرحاض، فك الإزار. وهذا الكلام شرحه يطول. «فهم من فهم».

سئل أبو سعيد بن أبى الخير عن المعرفة، فقال: أن يقولوا للطفل نظف أنفك، ثم تحدث بحديثنا.

وقال أبو عثمان: ينبغى على المرء الصحبة مع الله بحسن الأدب، ودوام الهيبة. وصحبة الرسول ﷺ باتباع سنته، والالتزام بظاهر العلم، وصحبة الأولياء بالاحترام والخدمة، وصحبة الإخوان بالبشر والانبساط، ما لم يكن إثماً. وصحبة الجهال بالدعاء لهم، والرحمة عليهم.

وقال: إذا سمع المريد شيئاً من علوم القوم، فعمل به. صارت حكمة فى قلبه إلى آخر عمره، ينتفع به، ولو تكلم به انتفع به من سمعه، ومن سمع شيئاً من علومهم، ولم يعمل به، كان حكاية يحفظها ثم ينساها.

وقـال: من لم تصح إرادته بداراً، لا يزيده مـرور الأيام عليـه إلا إدباراً.

وقال: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة. ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة.

وقال: لا يرى أحد قط مساوئه، ما دام يرى محاسنه فقط. وعيوب النفس لا يراها إلا رجل يلوم نفسه في كل الأحوال.

وقال: لا يكمل [إيمان] الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع، والإعطاء، والعز، والذل.

وقال: أعز الناس على وجه الأرض ثلاثة: عالم يتحدث بعلمه، ومريد لا يطمع، وعارف يتصف بصفات الحق دون كيفية.

وقال: الأصل ـ بالنسبة لنا ـ فى هذا الطريق هو الصمت، والرضا بالعلم الإلهى.

وقال: خلاف السنة فى الظاهر، علامة رياء فى الباطن.

وقال: حق لمن أعزه الله تعالى بالمعرفة، أن لا يذله بالمعصية.

وقال: صلاح القلب فى أربع خصال: فى الفقر إلى الله، والرجاء فى الله، والتواضع لله، والخوف من الله.

وقال: من زهد فى نصيبه من الراحة والعز والجاه، اطمئن قلبه، واشفق على عباد الله تعالى.

وقال: الزهد الاستغناء عن الدنيا، واللامبالاة بما فى اليد.

وقال: الحزن بكل وجه فضيلة زيادة للمؤمن، ما لم يكن بسبب معصية.

وقال: الحزين من لا يخشى النار التى تتأجج بالحزن.

وقال: الخوف من عدله، والرجاء فى فضله.

وقال: الخوف الصادق اعتزال الزمان فى الظاهر والباطن.

وقال: خوف الخاصة من الوقت، وخوف العامة من المستقبل.

وقال: الخوف من الله يوصلك إليه، والعجب يقطعك عنه.

وقال: الصابر من اعتاد المكاره.

وقال: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى.

وقال: أصول التواضع ثلاثة: أن يتذكر العبد جهله، وذنبه، واحتياجه إلى الله تعالى.

وقال: التوكل الاكتفاء بالله تعالى، مع الاعتماد عليه.

وقال: من يتكلم عن الحياء، ولا يستحى من الله تعالى، فهو مستدرج فيما يقول.

وقال: اليقين قلة الاهتمام لغد.

وقال: الشوق ثمرة المحبة، ومن أحب الله تعالى، رغب فيه وفى لقائه.

وقال: على قدر سرور قلب العبد بالله تعالى، يشتاق إليه. وعلى قدر خشيته فراقه وهجره، يتقرب إليه.

وقال: إذا صحت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب.

وقال: سميت المحبة بالمحبة؛ لأنها تمحو كل ما فى القلب، سوى المحبوب.

وقال: من لا يتذوق وحشة الغفلة، لا يجد حلاوة الأنس.

وقال: التفويض رد ما جهلت علمه إلى عالمه. والتفويض مقدمة الرضا، «والرضا باب الله الأعظم».

وقال: الزهد فى الحرام فريضة، وفى المباح فضيلة، وفى الحلال قربة.

وقال: علامة السعادة أن تطيع الله، وتخاف أن تكون مردوداً.

وقال: علامة الشقاوة أن تعصى الله، وترجو أن تكون مقبولاً.

وقال: العاقل من تأهب للمخاوف قبل وقوعها.

وقال: أنت مسجون ما اتبعت مرادك وشهوتك، فإذا فوضت، وسلمت، استرحت.

وقال: الصبر على الطاعة، حتى لا تفوتك الطاعة، طاعة. والصبر عن المعصية حتى تنجو من الإصرار على المعصية، طاعة أيضاً.

وقال: اصحب الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل، فإن التعزز على الأغنياء تواضع، والتذلل للفقراء شرف.

وقال: سرورك بالدنيا، أذهب سرورك بالله عن قلبك. وخوفك من غير الله، أذهب خوفك من الله عن قلبك. ورجاؤك ممن دونك، أذهب رجاءك له عن قلبك.

وقال: الموفق من لا يخاف غير الله، ولا يرجو غيره، فيؤثر رضاه على هوى نفسه.

وقال: الخوف من الله، يوصلك إلى الله. والكبر والعجب فى نفسك، يقطعك عن الله. واحتقار الناس فى نفسك، مرض لا يداوى.

وقال: الناس على أخلاقهم، ما لم يخالف هواهم. فإذا خولف هواهم، بان ذووا الأخلاق الكريمة عن ذوى الأخلاق اللئيمة.

وقال: أصل العداوة من ثلاثة أشياء: من الطمع فى المال، والطمع في إكرام الناس، والطمع فى قبول الناس.

وقال: كل قطيعة تحدث للعبد من الدنيا، هى غنيمة.

وقال: الأدب ثقة الفقراء، وزينة الأغنياء.

وقال: أوجب الله على نفسه، العفو عن المقصرين من عباده؛ لذلك قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ (٣١)

وقال: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى.

وقال: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى فضل الخالق.

يروى أن رجلاً من فرغانة قصد الحج. فمر على نيسابور، وذهب إلى أبى عثمان، وسلم عليه. فلم يجب: فقال الفرغانى فى نفسه: مسلم يسلم على مسلم، فلا يرد سلامه؟! فقال أبو عثمان: مثل هذا يحج، ويدع أمه مريضة، ويمضى دون رضاها. قال الفرغانى: فعدت، ولزمتها حتى ماتت. ثم سافرت إلى الحج، والتحقت بخدمة الشيخ أبى عثمان، فأجلسنى فى عزة تامة وإكرام. ونذرت نفسى لخدمته، واجتهدت كثيراً، إلى أن ولانى سياسة دابته، حتى مات.

ولما مرض أبو عثمان مرض الموت، مزق ابنه أبو بكر قميصه، وصرخ. فقال أبو عثمان: يا بنى، لقد خالفت السنة، وخلاف السنة علامة النفاق. كما قال: «كل إناء يترشح بما فيه». وأسلم الروح وهو فى حال حضور تام.

رحمه الله عليه

ذكر أبى عبد الله بن الجلاء (٣٢)
قدس الله روحه العزيز

هو سفينة بحر الديانة، وسكينة أهل المتانة. هو الهادى إلى المقامات، ومرآة الكرامات. هو شمس فلك الرضا، أبو عبد الله بن الجلاء رحمة الله عليه.

كان من كبار مشايخ الشام، وكان محموداً مقبولاً لدى هذه الطائفة. واختص بالكلمات الرفيعة، والإشارات البديعة. وكان فى الحقائق، والمعارف، والدقائق، واللطائف بلا نظير.

كان قد أدرك أبا تراب، وذا النون المصرى، وصحب الجنيد والنورى.

قال أبو عمرو الدمشقى(٣٣): سمعت أبا عبد الله يقول: قلت لأبى وأمى فى بدء الأمر هبانى لله عز وجل. ففعلا. فغبت عنهما مدة، فلما رجعت، وطرقت الباب. قال أبى: من؟ قلت: ولدك. فقال: كان لى ولد؛ فوهبته لله تعالى، ولا أسترجع ما وهبته، ولم يفتح لى الباب.

وقال أبو عبد الله: رأيت شاباً نصرانياً حسن الوجه يوماً، فتحيرت لرؤيته، وتوقفت قبله. وكان الجنيد يمر: فقلت: يا أستاذ، أيحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم؟! فقال: هذه سويقة النفس، وفخ الشيطان الذى يحملك على هذا، لا نظرة العبرة؛ لأنها إن كانت نظرة العبرة؛ فهذه الأعجوبة موجودة فى الثمانية عشر ألف عالم. لكن سرعان ما تُعذب بهذا الخزى وتلك النظرة! قال: فلما انصرف عنى الجنيد، نسيت القرآن فى الحال. وظللت سنوات أطلب العون من الله تعالى، وتبت، حتى رد الحق تعالى القرآن علىّ بفضله. والآن لا أجرؤ على الالتفات إلى شىء، أو أضيع وقتى فى النظر إلى الأشياء.

يروى أنه سئل عن الفقر، فسكت، ثم خرج، ورجع، فقالوا: ما الحال؟ قال: كان عندى أربعة دوانيق من الفضة، فاستحييت (من الله عز وجل)، أن أتكلم فى الفقر؛ فتصدقت بها.

وقال: دخلت المدينة وبى فاقة، فتقدمت إلى قبر المصطفى ﷺ ، وقلت: يا رسول الله! أنا ضيفك. فغفوت غفوة، فرأيت النبى ﷺ فى المنام، وقد أعطانى رغيفاً، فأكلت نصفه. ولما استيقظت، كان النصف الآخر بيدى.

سئل: متى يستحق الرجل أن يسمى فقيراً؟ قال: إذا لم يبق عنده شىء.

قالوا: وكيف يتوب؟ قال: إذا لم يكتب ملاك اليد اليسرى شيئاً عليه عشرين يوماً.

وقال: من استوى عنده المدح والذم، فهو زاهد. ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها، فهو عابد، ومن رأى الأفعال كلها من الله تعالى، فهو موحد لا يرى إلا واحداً.

وقال: همة العارف إلى مولاه، فلم يعطف إلى شيء سواه.

وقال: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر فى عينيك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقال: من لم يصحبه التقى فى فقره، أكل الحرام الصرف.

وقال: الصوفى من كان فقيراً مجرداً من الأسباب.

وقال: لولا شرف التواضع (لله)؛ لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر.

وقال: التقوى شكر المعرفة، والتواضع شكر العز، والصبر شكر المصيبة.

وقال: الخائف من تؤمنه المخوفات.

وقال: من بلغ بنفسه إلى رتبة، سقط عنها، ومن بلِّغ به، ثبت عليها.

وقال: كل حق يشارك باطل، فقد خرج من قسمة الحق إلى قسمة الباطل؛ فإن الحق غيور.

وقال: اهتمامك بالرزق يزيلك عن الحق، ويفقرك إلى الخلق.

ويروى أنه كان يبتسم عند النزع، ولما مات، كان يبتسم أيضاً. فقالوا: لعله حى. فلما نظروا إليه، وجدوه ميتاً.

رحمة الله عليه

ذكر أبى محمد رويم[٣٤]

● قدس الله روحه العزيز

هو صفى مقام المعرفة، وولى قبة الإنعام. هو الفقير بلا ذلل، والسخى بلا بدل. هو الشمس بلا غيم، إمام العهد أبو محمد رويم رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ، ومدحه الجميع، واتفقوا على أمانته ورياسته. كان من أصحاب سر الجنيد، وكان فقيه الفقهاء فى مذهب داود،وحظى بنصيب وافر فى علم التفسير، ومختلف فنون العلم. وكان مشاراً إليه بين القوم، وكان صاحب همة وفراسة. وله فى التجريد قدم راسخة. وكان قد بالغ فى الرياضة والمجاهدة. وسافر متوكلاً. وله تصانيف كثيرة فى هذه الطريقة.

يروى أنه قال : منذ عشرين سنة، لم يخطر بقلبى ذكر الطعام،حتى يحضر.

وقال : اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك، فعطشت، فاستقيت من دار، فخرجت صبية ومعها كوز ماء، فلما رأتنى قالت : صوفى يشرب بالنهار! فما أفطرت بعد ذلك قط.

يروى أن رجلاً جاء إليه يوماً، وقال : كيف حالك؟ فقال : كيف يكون حال من دينه هواه، وهمته الدنيا، ليس بصالح جافل عن الخلق، ولا عارف مقبول منهم. لا تقى، ولا نقى.

سئل : ما أول فرض افترضه الله عزوجل على العبد؟ قال : المعرفة؛ لقوله جل شأنه : ﴿ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[٣٥].

وقال : إن الله تعالى غيّب أشياء فى أشياء : غيب رضاه فى طاعته، وغضبه فى معصيته، ومكره فى حلمه، وخداعه فى لطفه، وعقابه فى كرمه.

وقال : أصحاب الحضور ثلاثة : حاضر شاهد وعيد، وهو دائماً فى الهيبة لا جرم. وحاضر شاهد وعد، وهو دائماً في الرغبة لاجرم. وحاضر شاهد الحق وهو في الطرب دائماً لا جرم.

وقال : إذا رزقك الله تعالى المقال والفعال، فأخذ منك المقال، وأبقى عليك الفعال، فإنها نعمة. وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنها مصيبة. وإذا أخذ منك كليهما، فهى نقمة.

وقال : قعودك مع كل طبقة من الناس، أسلم من قعودك مع الصوفية. فقد طالب الخلق كلهم بظواهر الشرع، إلا هذه الطائفة، فقد طولبت بحقيقة الورع، ومداومة الصدق. فمن قعد معهم، وخالفهم فى شيء مما يتحققون به؛ نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه. ومن حكم الحكيم أن يوسع على الإخوان فى الأحكام،ويضيق على نفسه

فيها، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم. والتضييق على نفسه من حكم الورع.

سئل رويم عن أدب السفر، فقال : أن لا يجاوز همه قدمه؛ وحيثما وقف يكون منزله..

وقال : اجلس على البساط، واجتنب الانبساط، واصبر على ضرب السياط، حتى تمر على الصراط.

وقال : التصوف مبني على ثلاث خصال : التعلق بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك الاعتراض والاختيار.

وقال : التصوف الوقوف على الأفعال الحسنة.

وقال : التوحيد الحقيقي هو أن تفنى في الولاء له عن هواك، وفي الوفاء له عن جفاك، حتى تفنى كلية في الكل.

وقال : التوحيد محو آثار البشرية، وتجرد الألوهية.

وقال : المعرفة للعارف مرآة، إذا نظر فيها تجلى له مولاه.

وقال : تمام الحقائق ماكان مقترناً بالعلم.

وقال : القرب زوال جملة العوارض.

وقال : الأنس أن تستوحش من سوى محبوبك.

وقال : الأنس سرور القلب بحلاوة الخطاب.

وقال : الأنس الخلوة مع الله تعالى ليس إلا.

وقال : لاتسكن الهمة إلا بالمحبة. ولا تسكن الإرادة إلا باجتناب المنية. والمنية تكون لشخص تتسع خطاه.

وقال : المحبة هى الوفاء مع الوصال، والحرمة مع طلب الوصال.

وقال : اليقين هو المشاهدة.

وسئل عن نعت الفقر، فقال : نعت الفقير حفظ سره، صيانة نفسه،وأداء فرائضه.

وقال : الصبر ترك الشكوى. والشكر: أن تفعل ماتستطيع.

وقال : التوبة هى التوبة من التوبة.

وقال : التواضع ذلة القلوب أمام جلالة علام الغيوب.

وقال : الشهوة خفية، لا تظهر إلا فى وقت العمل.

وقال : اللحظة راحة، والخطرة أمارة،والإشارة إشارة.

وقال : النفس فى الإشارات حرام، وفى الخطرات والمكاشفات والمعاينات حلال.

وقال : الزهد تحقير الدنيا، ومحو آثارها من القلب.

وقال : الخائف من لا يخشى إلا الله.

وقال : الرضا أن لو جعل الله جهنم على يمينه، ما سأل أن يحولها إلى يساره.

وقال : الرضا استقبال الأحكام بالفرح.

وقال : الإخلاص من العمل هو الذى لايريد صاحبه عليه عوضاً من الدارين، ولاحظاً من الملكين.

يروى: أن أبا عبد الله بن خفيف، طلب منه العظة، فقال : ما هذا الأمر إلا ببذل الروح، وإن لم تفعل، فلا تنشغل بترهات الصوفية.

يروى: أنه أخفى نفسه بين أصحاب الدنيا فى آخر عمره، واعتمد عليه الخليفة فى القضاء. وكان أبو محمد يريد أن يستتر ويحتجب. حتى قال عنه الجنيد : نحن الفارغين مشغولون، ورويم المشغول فارغ.

رحمة الله عليه

ذكر ابن عطاء[36]
قدس الله روحه العزيز

هو قطب العالم الروحانى، ومعدن الحكمة الربانى. هو ساكن كعبة سبحانى، وجوهر بحر الوفاء، إمام المشايخ ابن عطاء رحمة الله عليه.

كان سلطان أهل التحقيق، وبرهان أهل التوحيد. كان حجة فى فنون العلم، ومفتياً فى الأصول والفروع. ولم يكن لأى شيخ من المشايخ قبله كشف فى أسرار التنزيل ومعانى التأويل. وبلغ الكمال فى علم التفسير وحقائقه، والحديث ودقائقه، والقراءات وما يتعلق بها، وعلم البيان ولطائفه.

وقد بجله جملة الأقران، وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيراً، ولم يسلم لأحد غيره بالتصوف، وكان من كبار مريدى الجنيد.

يروى أن جمعاً ذهب إلى صومعته، فوجدوها مبتلة. فقالوا : ما هذا؟ قال : انتابنى حال، فكنت أطوف حول الصومعة من الخجل، وأذرف الدمع. قالوا : وماذا حدث؟ قال : أخذت حمامة غيرى فى

الطفولة، فتذكرتها، فتصدقت بألف دينار من الفضة على صاحبها، ولم يطمئن قلبى؛ فما زلت أبكى حتى ابتلت الصومعة.

يروى : أنه سئل : كم تقرأ من القرآن كل يوم؟ قال : قبل هذا كنت أختم القرآن مرتين كل يوم وليلة، أما الآن فمنذ أربعة أعوام،وصلت اليوم فقط إلى سورة الأنفال. أى أننى كنت أقرأه غافلاً قبل هذا.

يروى أن ابن عطاء كان له عشرة أبناء، يتمتعون جميعاً بالجمال. وبينما كانوا يسافرون مع أبيهم، هاجمهم قطاع الطرق، وكانوا يقتلون الأبناء واحداً تلو الآخر، ولم يكن ابن عطاء يتكلم قط. وكلما كانوا يقتلون واحداً، كان ابن عطاء يتجه إلى السماء، ويبتسم. حتى قتلوا تسعة منهم. فلما أرادوا قتل العاشر. التفت إلى أبيه، وقال : يالك من أب قاس! قتلوا أبناءك التسعة، وأنت تبتسم، ولا تقول شيئاً، فقال له : يا عزيزى، إن من يفعل هذا، لا سبيل للكلام معه قط؛ لأنه يعلم، ويرى، ويستطيع أن يحفظ الجميع إن أراد. فلما سمع قاطع الطريق هذا، انتابه حال، وقال : أيها الشيخ! إن قلت هذا الكلام من قبل، لما قتل أحد قط من أبنائك.

يروى أنه قال للجنيد يوماً : إن الأغنياء أفضل من الفقراء؛ لأنهم يحاسبون فى القيامة مع الأغنياء، وإسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب، وعتاب الحبيب أفضل من الحساب. قال الجنيد : إن كانوا يحاسبون الأغنياء؛ فإنهم يعتذرون للفقراء، والعذر

أفضل من الحساب. وللشيخ على بن عثمان الجلابى لطيفة فى هذا : أن فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة، والعتاب مجاملة. أى أن «العتاب مرمة المحبة»، وقد قالوا : «العتاب مرمة المحبة». وأقول أنا أيضاً : فى العتاب، قد يخطر ببال العبد أن الحق تعالى أغناه، فينشغل بالفضول بفعل النفس، فيصير عرضة للعتاب. أما فى الفقر، يعلم الحق تعالى أنه وهب العبد الفقر، فعانى كل هذه المعاناة بسبب الفقر. فيلتمس له العذر. وقبول الحق العذر عوض عن كل شيء. ومن كان أفقر إلى الحق تعالى، كان أغنى به ﴿أنتم الفقراء إلي الله﴾[٣٧]، ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٣٨] ومن كان أغنى، كان أبعد عن الحق تعالى. والفقير الذى يتواضع لغنى، يفقد ثلثا دينه. ومن ثم يغتر الغنى بالغنى؛ لأنه يعلم، أنهم موتى فى الحقيقة «إياكم ومجالسة الموتى». وبعد خمسين سنة، يهديه الفقراء إلى الحق تعالى. فكيف يكون العتاب – الذى ينبغى أن يعاتبه المرء عن خمسين سنة – أفضل من العذر الذى غرق أصحابه في الوصل خمسين سنة. وماذا تقول فى أن الرسول ﷺ لم يجز لأبنائه إلا الفقر. وكان يغنى الغرباء بالعطاء. فكيف يمكن القول : إن الغنى أفضل من الفقر. ومن ثم فالقول ما قال الجنيد. والله أعلم.

يروى أن بعض المتكلمين قالوا لابن عطاء : ماذا حدث؟ إنك اشتققت ألفاظاً للصوفية غريبة على المستمعين، وتركت اللغة الدارجة. ولا يخرج هذا عن أمرين : إما أنك تموه، ولا يجوز هذا على الحق. أو أن مذهبكم أصابه خلل، تخفيه عن الناس. قال ابن

عطاء : إنما فعلنا هذا، لنعتز به، ولأن هذا الأمر عزيز علينا؛ لم نرد أن تعرفه إلا هذه الطائفة. ولم نرغب فى استخدام الألفاظ الشائعة، فابتكرنا ألفاظاً خاصة.

وله أقوال عالية، فقد قال : أفضل عمل هو ما أدوه، وأفضل علم هو ما تحدثوا به. فلاتقل ما لم يقولوه، ولا تفعل ما لم يفعلوه.

وقال : من يبحث عن رجل، يبحث عنه فى ميدان العلم، ثم فى ميدان الحكمة، ثم فى ميدان التوحيد. وإن لم يجده فى هذه الميادين الثلاثة، فلا تطمع فى دينه.

وقال : أعظم ادعاء أن يدعى المرء، ويشير إلى الله تعالى، ويتكلم عنه، ويخطو فى ميدان الانبساط. وكل هذا من صفات الكذابين.

وقال : لا يجوز أن يلتفت العبد إلى الصفات، ويغتر بها.

وقال : لكل علم بيان، ولكل بيان لسان، ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريق، ولكل طريق جماعة. فمن ميز بين هذه الأحوال، يدركه، ويحدثه.

وقال : من ألزم نفسه آداب السنة، غمر الله قلبه بنور المعرفة.

وقال : ليس هناك مقام قط أسمى من الموافقة فى الأحكام والأخلاق.

وقال : أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه عز وجل، وغفلته عن أوامره ونواهيه، وغفلته عن آداب معاملته.

وقال : عبد مقدور، وعلم مقهور، ليس بينهما معذور.

وقال : لا تضيع أنفاسك فى اتباع هوى النفس، فتجعلها فى سبيل ما تريد من الموجودات.

وقال : أفضل الطاعات تقوى الله فى كل الأوقات.

وقال : إن اتبع رجل النفاق عشرين سنة، خطا خلالها خطوة لنفع أخ، كانت أفضل له من أن يخلص فى عبادة ستين سنة؛ يطلب بها نجاة نفسه.

وقال : من سكن إلى شىء غير الله تعالى كان بلاؤه فى ذلك الشىء.

وقال : أصح العقول عقل وافق التوفيق وشر الطاعات طاعة أورثت عُجباً، وخير الذنوب ذنب أعقب توبة وندماً.

وقال : السكون إلى الأسباب اغترار، والوقوف مع الأحوال يقطع بك عن محولها.

وقال : الباطن موضع نظر الحق، والظاهر موضع نظر الخلق. وموضع نظر الحق أجدر بالطهارة من موضع نظر الخلق.

وقال : من كانت الهمة أول مدخله، أدرك الله تعالى. ومن كانت الإرادة أول مدخله، أدرك الآخرة. ومن كانت الرغبة أول مدخله، أدرك الدنيا.

وقال : الدنيا هى كل ما يمنع العبد، عن الآخرة.

وقال : الدنيا قصر للبعض، وتجارة للبعض، وعز وغلبة للبعض، وعلم وافتخار بالعلم للبعض، ومجلس واختلاف للبعض، ولحظات وشهوة للبعض. وقد تعلقت همة كل عبد بنصيبه منها.

وقال : للقلوب شهوة، وللأرواح شهوة، وللنفوس شهوة تجمع بين كل الشهوات. شهوة الأرواح القرب، وشهوة القلوب المشاهدة، وشهوة النفوس اللذة بالراحة.

وقال : جبلت النفس على سوء الأدب، والعبد مأمور بالتأدب، والنفس تمضي في ميدان المخالفة بطبيعتها، والعبد يمنعها جاهداً عن السوء. ومن أطلق لها العنان، شاركها الفساد.

سئل عن أقرب شيء إلى مقت الله، فقال : رؤية النفس وأفعالها، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض عن أفعالها.

وقال : قوت المنافق الطعام والشراب، وقوت المؤمن الذكر والمجاهدة.

وقال : الإنصاف فيما بين الله وبين العبد في ثلاثة: في الاستعانة، والجهد، والأدب. فمن العبد الاستعانة، ومن الله القربة. ومن العبد الجهد، ومن الله التوفيق. ومن العبد الأدب، ومن الله الكرامة.

وقال : من تأدب بآداب الصالحين؛ فإنه يصلح لبساط الكرامة. ومن تأدب بآداب الأولياء؛ فإنه يصلح لبساط القربة. ومن تأدب بآداب الأنبياء؛ فإنه يصلح لبساط الأنس والانبساط.

وقال : من حُرم الأدب، حُرم جميع الخيرات.

وقال : تقصير الأدب فى القرب أصعب من تقصيره فى البعد؛ لأنه يتجاوز عن كبائر الجهال، ويحاسب الصديقين.

وقال : هلاك الأولياء بلحظات القلوب، وهلاك العارفين بخطرات الإشارات، وهلاك الموحدين بالإشارة إلى الحقيقة.

وقال : الموحدون أربع طبقات الأولى من ينظرون إلى الوقت والحال. والثانية :من ينظرون إلى العاقبة. والثالثة من ينظرون إلى الحقائق. والرابعة من ينظرون إلى السوابق.

وقال : أدنى منازل المرسلين، أعلى مراتب الشهداء. وأدنى منازل الشهداء، أعلى منازل الصالحين. وأدنى منازل الصالحين أعلى منازل المؤمنين.

وقال : لله عباد يصح اتصالهم بالحق تعالى، وتبصر عيونهم به إلى الأبد، لا يحيون إلا به. وبسبب اتصالهم به، تنظر قلوبهم إليه دائماً بصفاء اليقين. حياتهم موصولة به؛ لذا فهم لا يموتون إلى الأبد.

وقال : لو تتجلى الربوبية على باطن رجل، ويتنفس. تصير حراماً عليه، وتمضى، ولا تعود قط.

وقال : الغيرة فريضة على أولياء الله تعالى. ثم قال : ما أطيب الغيرة عند المنادمة، وفى المحبة.

وقال : إن صح حال لصاحب غيرة، كان قتله أفضل. أى أن الحال الصحيح لصاحب الغيرة يصل به إلى حد أن من يقتله، يثاب على قتله؛ لأنه يخلصه من نار الغيرة.

وقال : الهمة لا يمكن أن يبطلها أى عارض من العوارض.

وقال : الهمة لا تكون فى الدنيا.

وقال : حياة المحب بالبذل، وحياة المشتاق بالشك، وحياة العارف بالذكر، وحياة الموحد باللسان، وحياة صاحب التعظيم بالنَّفَس، وحياة صاحب الهمة بالانقطاع عن النَّفَس، وهذه الحياة حرقة وغرقة. إن قال أحد : كيف تكون حياة الموحد باللسان؟ أقول : إن باطنه كله توحيد، ولاخبر له عن ذرة من باطنه. سوى أنه يحرك لسانه. كما قال أبو يزيد : أبحث عن أبى يزيد منذ ثلاثين سنة. وكذلك تكون حياة صاحب التعظيم بالنفس، فلسانه كان قد أصابه العجز، وبقى فيه نَفَس. وحياة صاحب الهمة فى انقطاع النفس؛ لإنه إن تنفس فى تلك الهمة، هلك. كما قال عليه السلام : «لى مع الله وقت». إننى منزو، ولست نبياً مرسلاً، ولا جبريل.

وقال : العلم أربعة : علم المعرفة، وعلم العبادة، وعلم العبودية، وعلم الخدمة.

وقال : الحقيقة اسم عبد، ولكل حق حقيقة، ولكل حقيقة حق، ولكل حق حق. أى أن كل حقيقة تعلمها، هى اسم عبد، وهى بلا أثر، وبلا نهاية. ولما كانت بلا نهاية، فلكل حقيقة حق إذن.

وقال : حقيقة التوحيد نسيان التوحيد. وهذا الكلام يبين معنى : الحقيقة اسم عبد.

وقال : صدق التوحيد ما قام على واحد.

وقال : المحبة عتاب على الدوام.

وقال : إذا ادعى المحب الملك، سقطت عنه المحبة.

وقال : الوجد انقطاع الأوصاف. مادام لايبقى فيه أثر للإرادة، فكله حزن.

وقال : الوجد بعيد عنك مادمت تذكره.

وقال : علامة نبُوت المحبة كشف الحجاب بين القلوب وعلام الغيوب.

وقال : العلم الأكبر الهيبة والحياء؛ فمن عُرِّى منهما عُرِّى عن الخيرات.

وقال : من قرن التوبة بالعمل، كانت توبته مقبولة.

وقال : العقل آلة العبودية، لا الإشراف على الربوبية.

وقال : من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله، ويكون متوكلا على الله فى توكله لا لسبب آخر. يسر الله له أمره فى الدنيا والآخره.

وقال : التوكل حسن اللجوء إلى الله تعالى. والصدق الافتقار إليه.

وقال : التوكل ألا تنظر إلى أى سبب، ما لم تشتد بك الفاقة. وألا تسكت عن الحقيقة حتى يعلم الحق أنك وقفت عليها.

وقال : للمعرفة ثلاثة أركان الهيبة والحياء والأنس.

وقال : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد. وهو امتلاك النفس عند الغضب.

وقال : الرضا أن ينظر المرء بقلبه إلى شيئين أولهما يرى أن كل ما لحق به، قد قدر عليه منذ الأزل. والآخر أن يرى أن ما اختاره (الله) له هو الأفضل والأحسن.

وقال : الإخلاص أن تخلص من الآفات.

وقال : التواضع قبول الحق ممن كان.

وقال : للتقوى ظاهر وباطن، ظاهرها : حفظ حدود الشرع، وباطنها النية والإخلاص.

سئل عن بداية هذا الأمر، ونهايته، فقال : بدايته المعرفة، ونهايته التوحيد.

وقال : الاستقرار بأمرين آداب العبودية، وتعظيم حق المعرفة، والربوبية.

وقال : الأدب الوقوف مع المستحسنات. فقالوا :

كيف هذا؟ قال : أن تعامل الله تعالى بالأدب سراً وإعلاناً، فإذا كنت كذلك، كنت أديباً، وإن كنت أعجمياً.

قالوا : ما أفضل طاعة؟ قال : مراقبة الحق على الدوام.

وسئل عن الشوق، فقال: احتراق القلب، وتمزق الكبد، واشتعال النار فيه.

وقالوا : الشوق أسمى أم المحبة؟ فقال : المحبة؛ لأن الشوق ينبع منها.

وقال : ﴿ وعصى آدم ﴾(٣٩)، بكى عليه كل شيء فى الجنة إلا الذهب والفضة، فأوحى الحق تعالى إليهما : لم لم تبكيا على آدم؟ فقالا : ما كنا نبكى على من يعصيك. فقال الحق تعالى : وعزتى وجلالى! لأجعلن قيمة كل شيء بكما، ولأجعلن ابن آدم خادماً لكما.

يروى أن رجلاً قال له : أريد العزلة. فقال له : وبمن تختلط إن اعتزلت الخلق؟ قال : ماذا أفعل إذن. قال : كن مع الخلق فى الظاهر، ومع الحق فى الباطن.

يروى أنه قال لأصحابه : بماذا ترتفع درجة العبد؟ فقال بعضهم: بكثرة الصوم. وقال بعضهم : بالمداومة على الصلاة. وقال بعضهم : بالمجاهدة والمحاسبة، وبذل المال. فقال ابن عطاء : لم يجد الرفعة من وجدها إلا بخلقه. ألا ترى أن المصطفى (ﷺ) امتدح بهذا، وقال الحق تعالى : ﴿ وإنك لعلي خلق عظيم ﴾(٤٠).

يروى : أنه مد قدميه مرة أمام أصحابه، وقال : الأدب ترك الأدب بين أهل الأدب. كما أن الرسول (ﷺ) كان قد مدّ قدميه أمام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما؛ لأنه شعر بالصفاء معهما. ولما دخل عثمان رضى الله عنه، لمّ قدمه.

يروى أن ابن عطاء اتُّهم بالزندقة، فاستدعاه على بن عيسى[٤١] الذى كان وزيراً للخليفة، ولامه. فأغلظ له ابن عطاء القول؛ فغضب الوزير، وأصدر أمراً، فخلعوا عنه حذاءه، وضربوه على رأسه، حتى مات. وكان يقول فى هذه الأثناء: «قطع الله يديك ورجليك». وحدث أن غضب الخليفة على الوزير بعد مدة، وأمر بقطع يديه ورجليه.

وقد أنكر بعض المشايخ. على ابن عطاء هذا؛ لأنه دعا بالسوء على رجل يمكنه إصلاحه بدعائه. وكان ينبغى عليه أن يدعو له بالخير. لكنهم التمسوا له العذر لأنهه ربما يكون قد دعا عليه بالسوء، لأنه ظلم غيره من المسلمين.

وقالوا أيضاً: إنه كان من أهل الفراسة، وكان يعرف ما سيفعلونه به، فوافق القدر الذى ساقه الحق على لسانه، فلا شأن له بذلك ويبدو لى أن ابن عطاء، أراد له الخير لا الشر، ليحظى بدرجة الشهادة، والذلة فى الدنيا، والتجرد من المنصب، والمال، والجاه، والعظمة وهذا أمر حسن. إذا عرفت هذا، أدركت أن ابن عطاء كان قد أراد له الخير، فعقوبة الدنيا سهلة بالنسبة لعقوبة الآخرة.

والله أعلم

ذكر إبراهيم الرقى[٤٢]

● قدس الله روحه العزيز

هو قبلة الأتقياء، وقدوة الأصفياء. هو الطائر السابق إلى الشباك، والصبح الصادق فى المساء، هو الفانى الباقى، المتقى، إبراهيم بن داود الرقى رحمة الله عليه.

كان من جلة العلماء والمشايخ، ومتقدمى الطوائف، وكان مبجلاً، وصاحب كرامات. وله كلمات عالية. وكان من مشايخ الشام، ومن أقران الجنيد وابن الجلاء. وعُمِّر طويلاً.

يروى أن درويشاً كان يمضى فى وادٍ، فقصده أسد، ولما نظر الأسد إلى الدرويش زأر، ووضع وجهه فى التراب، ومضى. فنظر الدرويش إلى خرقته، فوجد قطعة من خرقة الشيخ الرقى، كانت قد حيكت فيها. فأدرك أن الأسد حفظ حرمتها.

وقال : المعرفة إثبات الحق بما هو خارج عن كل ما هو موهوم.

وقال : القدرة ظاهرة، والأعين مفتوحة، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت.

وقال : علامة محبة الله إيثار طاعته، ومتابعة نبيه (ﷺ) .

وقال : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهواته، وأقوى الخلق من قوى على ردها.

وقال : قيمة كل إنسان على قدر همته، فإن كانت همته الدنيا؛ فليست له قيمة قط، ولولا رضا الله عنه، لما أمكن إدراك غاية قيمته، أو الوقوف عليها.

وقال : الراضى من لايسأل. والمبالغة فى الدعاء ليست من شروط الرضا.

وقال : التوكل الاطمئنان إلى ما ضمنه الحق تعالى.

وقال : الكفايات تصل إليك بلا تعب، والأشغال والتعب فى الفضول.

وقال : كفاية الفقراء التوكل، وكفاية الأغنياء الاعتماد على الأملاك والأسباب.

وقال : أدب الفقراء أنهم يكتسبون العلم من الحقيقة.

وقال : مادام أن لإعراض الكون خطر على قلبك، اعلم يقينا أنه لاخطر لك على الله قط.

وقال : من اكتفى بغير الكافى، افتقر من حيث استغنى.

وقال : حسبك من الدنيا شيئان صحبة فقير، وحرمة ولى.

والله أعلم وأحكم

ذكر يوسف بن أسباط[٤٣]

● قدس الله روحه العزيز

هو مجاهد الأبطال، ومبارز ميدان الوغى. هو المتصف بالتقوى، وربيب المعنى، هو المخلص المحتاط يوسف بن أسباط رحمة الله عليه.

كان من زهاد القوم وعباده، ولم يتصف أحد من التابعين بزهده، وبلغ الكمال فى المراقبة والمحاسبة، وكان يخفى معرفته وحاله، ويرتاض. وانقطع كلية عن الدنيا. وله كلمات شافية، وكان قد أدرك الكثير من المشايخ الكبار.

يروى : أنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم، ولم يأخذ منها شيئاً، وكان يعمل الخوص بيده، ويتقوت بأجره.

وقال : مرت علىّ أربعين سنة، ما ملكت قميصاً، سوى خرقة قديمة.

كتب يوسف رسالة إلى حذيفة المرعشى[٤٤] ذات مرة، قال فيها : بلغنى أنك بعت دينك بحبتين، وذلك أنك كنت اشتريت شيئاً. فقال

لك (البائع) : سعره دانق. وأردته أنت بثلاثة تسوجات، فوافقك؛ لأنه كان يعرف صلاحك. وهذه الحكاية مخالفة لما كتبوا. ووجدناها نحن فى كتاب موثوق على هذا النحو.

وكتب إلى حذيفة أيضاً : من كان طلب الفضائل أهم إليه من ترك الذنوب؛ فهو مخدوع. ومن قرأ القرآن، ثم آثر الدنيا؛ فهو ممن اتخذ آيات الله هزواً. وإننى أخشى أن ما نعمله من أعمال، يضرنا أكثر من ذنوبنا. وكيف يرجو الله فى دينه ودنياه، من كان الدرهم والدينار أهم لديه من عظمة الآخرة.

وقال : لأن أبيت ليلة أعامل الله تعالى بالصدق، أحب إلىّ من أن أضرب بسيفى فى سبيل الله تعالى.

وكتب إلى حذيفة أيضاً : أما بعد، فإنى أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله، والمراقبة حيث لايراك أحد إلا الله تعالى، والاستعداد لما لا حيلة لأحد فى دفعه، ولا يُنتفع بالندم عند نزوله. والسلام.

قال الشبلى : سئل يوسف بن أسباط، ما غاية التواضع؟ قال : أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيت أنه خير منك.

وقال : يُجزى قليل الورع عن كثير العمل، ويجزى قليل التواضع عن كثير الاجتهاد.

وقال : علامة التواضع أن تقبل كلام الحق تعالى، ممن يقوله، وترفق بالمتواضع، وتتكبر مع من هو أعلى منك فى المكانة. وإن

رأيت ذلاً، احتملته، وكظمت غضبك. وترجع إلى الله تعالى حيثما كنت، وتتكبر مع الأغنياء، وتشكر الله تعالى على ما يصيبك.

وقال : للتوبة عشرة مقامات البعد عن الجهال، وترك الباطل، واجتناب المنكر، والإقبال على المستحبات، والمسارعة إلى الخيرات، والتوبة النصوح، وأداء المظالم، وطلب الغنيمة، وتصفية القوت.

وقال : علامات الزهد عشر ترك الموجود، وترك الرغبة فى المفقود، وخدمة المعبود، وإيثار المولى، وصفاء المعنى، والاعتزاز بالعزيز، واحترام المشفق، والزهد فى المباح، وطلب الأرباح، وقلة الرواح.

وقال : علامة الزهد أن يعلم العبد أنه لا يمكنه أن يكون زاهداً إلا بالإيمان بالله تعالى.

وقال : علامات الورع عشر اجتناب المتشابهات، واتقاء الشبهات، والتفتيش فى الأقوات، والاحتراز من التشويش، ورعاية الزيادة والنقصان، والمداومة على رضا الرحمن، ورد الأمانات، واجتناب مواضع الآفات، والبعد عن طريق العاهات، والإعراض عن المباهاة.

وقال : علامات الصبر عشر حبس النفس، واستحكام الدرس، والمداومة على طلب الأنس، ونفى الجزع، وإسقاط الورع، والمحافظة على الطاعات، والاستقصاء فى السنن الواجبات، والصدق

فى المعاملات، وطول قيام الليل فى المجاهدات، وإصلاح الجنايات.

وقال : لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق.

وقال : علامات المراقبة : اختيار العبد ما اختاره الله، وحسن النية بالله تعالى، والاعتراف بالتقصير تجاهه، وسكون القلب إلى الله تعالى، وانقطاعه عن الخلق جميعهم.

وقال : علامات الصدق صدق القلب مع اللسان، واقتران القول بالفعل، وترك طلب المحمدة فى هذه الدنيا، والتخلى عن الرئاسة، وإيثار الآخرة على الدنيا، وقهر النفس.

وقال : للتوكل عشر علامات الثقة بما وعد به الحق تعالى، والوقوف على ما يصلك من رفيع ووضيع، والتسليم بما يكون، وتعلق القلب بين الكاف والنون. أى يعلم أنه لا يزال بين الكاف والنون، والكاف لم تتصل بالنون بعد. لا جرم أن كل شىء لك متعلق بالكاف والنون. ويصح التوكل بالتزام العبودية، والخروج من الربوبية ـ أى لايدعى المرء الفرعونية والأنية، ويترك الاختيار - وقطع العلائق، واليأس من الخلائق، والدخول فى الحقائق، وإدراك الدقائق.

وقال : اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له.

وقال : علامة الأنس دوام الجلوس فى الخلوة، وطول الوحشة من المخالطة، واللذة بالذكر، والراحة فى المجاهدة، والاعتصام بحبل

الطاعة.

وقال : علامة الحياء انقباض القلب، وعظمة رؤية الخالق، ووزن الكلام قبل التحدث، وترك ما يوجب الاعتذار، واجتناب الخوض فى شيء تخجل منه، وحفظ اللسان، والعين، والأذن، والبطن، والفرج، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر القبر والموتى.

وقال : علامة الشوق محبة الموت فى وقت الاستمتاع بالدنيا، وعداوة الحياة فى وقت الصحة والرغبة، والأنس بذكر الحق، والاضطراب فى وقت نشر آلاء الحق، والسرور فى وقت التفكر خاصة حين يتعلق نظرك بالحق.

يروى أن رجلاً سأله عن الجمع والتفرقة، فقال : الجمع جمع القلب فى المعرفة، والتفرقة تفرقه فى الأحوال.

وقال : الصلاة فى الجماعة سنة، وطلب الحلال فريضة.

رحمة الله عليه

ذكر أبى يعقوب النهرجورى(٤٥)
قدس الله روحه العزيز

هو المشرف بالفضيلة، والمقرب من حرم الوسيلة هو البديع الجمال، والمعطر الوصال. هو صاحب المقامات المشهور، أبو يعقوب إسحق النهرجورى رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ، واتسم بلطف عظيم، واختص بالخدمة والأدب، وكان مقبولا لدى الأصحاب، واتصف بحرقة شديدة، ومجاهدة قاسية، ومراقبة كاملة، وكلمات محمودة.

وقد قيل : لم يكن هناك شيخ قط من المشايخ أنور منه. وصحب عمرو بن عثمان المكى والجنيد، وجاور الحرم، وتوفى فيه.

يروى أنه لم يفرغ من العبادة والمجاهدة لحظة، ولم يشعر بالراحة لحظة. كان ينتحب فى مناجاة الحق تعالى؛ فنودى فى سره : يا أبا يعقوب، أنت عبد، وأى شأن للعبد بالراحة!

يروى أن رجلاً قال له : أجد غلظة فى قلبى، واستشرت فلاناً، فأمرنى بالصيام. فصمت، ولم تَزُل. وقلت لآخر، فأمرنى بالسفر،

فسافرت، ولم تزل. قال أبو يعقوب : لقد أخطأ، وسبيلك هو أن تذهب إلى الملتزم، والخلق نيام. وتتضرع، وتنتحب، وتقول : يا إلهي! إنني حائر في أمري، فكن عوناً لي. قال ذلك الرجل: فعلت ذلك، فزالت الغلظة.

يروى أن رجلا قال له : إنني أصلي الصلاة، ولا أجد حلاوتها في قلبي. فقال له : مادمت تطلب القلب في الصلاة، فإنك لن تشعر بحلاوتها. كما قالوا في المثل : إن وضعت الشعير للحمار في عقبه، لما استطاع قطع عقبه.

وقال : رأيت رجلا في الطواف بفرد عين. كان يقول : «أعوذ بك منك». فقالوا : ما هذا الدعاء؟ قال : نظرت يوماً إلى رجل فاستحسنته، وإذا لطمة وقعت على عيني - التي كنت قد نظرت بها - من الهواء. فسمعت صوتاً يقول : لطمة بنظرة، ولو زدت لزدناك.

وقال : الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب التقوى، والناس سفر.

وقال : من كان شبعه بالطعام، لم يزل جائعاً. ومن كان غناه بالمال، لم يزل مفتقراً. ومن قصد بحاجته الخلق، لم يزل محروماً. ومن استعان في أمره بغير الله، لم يزل مخذولا.

وقال : لا زوال للنعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت.

وقال : إن بلغ عبد الكمال، استوى لديه البلاء والنعيم، والرجاء والمصيبة، بحقيقة اليقين.

وقال : أصل السياسة قلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام، وترك الشهوات.

وقال: إذا فنى العبد عن نفسه، بقى بالحق. مثلما فنى الرسول (ﷺ) فى هذا المقام عن نفسه، وبقى بالحق. لا جرم لم يدع بأى اسم له إلا بعيد؛ ﴿فأوحي إلي عبده ما أوحي﴾(٤٦).

وقال : من لا يستعين بعلم الرضا فى العبودية، ولا تصحبه العبودية فى فنائه وبقائه، فهو مدع وكذاب.

وقال : السعادة فى ثلاث خصال : فى طاعة الله، والقرب من الله والبعد عن الخلق، وذكر الله ونسيان الخلق.

وعلامات السرور بالله ثلاث : أن يداوم المرء على الطاعة، ويعتزل الدنيا وأهلها، وينبغى عليه أن ينسى الخلق، ولا يذكر مع الله تعالى شيئاً سوى لله.

وقال : أفضل الأحوال ما قارن العلم.

وقال : أعرف الناس بالله تعالى، أكثرهم تحيراً فيه.

وقال : لا يدرك العارف الحق إلا بالانقطاع عن ثلاثة أشياء : العلم، والعمل، والخلوة. أى الانقطاع عنهم بهم.

سأله رجل : هل يتأسف العارف على شىء غير الله عز وجل، فقال : وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟! قال : فبأى عين ينظر إلى الأشياء؟ قال : بعين الفناء والزوال.

وقال : مشاهدة الأرواح تحقيق، ومشاهدة القلوب تعريف.

وقال : الجمع عين الحق الذى قامت به الأشياء. والتفرقة صفة الحق من الباطل. أى أن كل ما سوى الحق باطل، وكل صفة تبطل الحق تفرقة.

وقال : الجمع ما علمه لآدم من الأسماء. والتفرقة ما تفرق من ذلك العلم، وانتشر.

وقال : أرزاق المتوكلين على الله تعالى تصلهم بعلم الله، دون تعب منهم أو مشقة، وغيرهم ينشغل بطلبه دائماً، ويكدح.

وقال : المتوكل الحقيقى من تحمل أذى الخلق، لا يشكو لأحد مما يصيبه، ولا يذم أحداً يمنعه؛ لأنه لا يرى المنع والعطاء إلا من الله تعالى.

وقال: التوكل على كمال الحقيقة: وما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام، فى الوقت الذى قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة؟ قال : أما إليك فلا؛ لأنه غابت نفسه بالله تعالى، فلم ير مع الله غير الله عز وجل.

وقال: لأهل التوكل، فى حقائق التوكل، أوقات فى الغلبات، إن مشوا على النار فى تلك الأوقات، لما شعروا بها. وإن ألقوا بهم فى النار فى تلك الحال، لما أصابهم ضرر، وإن ضربوا بالسهام، وجرحوا، لما تألموا. بينما إن وخزتهم بعوضة فى وقت آخر، خافوا، وتثاقلوا.

سئل عن الطريق إلى الله تعالى؟ فقال : اجتناب الجهلاء، وصحبة العلماء، واستعمال العلم، والمداومة على الذكر.

سئل عن التصوف، فقال : أولاً ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت﴾[٤٧] ثم قال : زفرات القلوب بودائع الحضور من حيث خاطبها الحق، وهى فى صورة الذرة، فأخبر عنها بقوله :﴿ألست بربكم قالوا : بلي﴾.

رحمة الله عليه

ذكر سمنون المحب[٤٨]
قدس الله روحه العزيز

هو المحب بلا خوف، واللبيب بلا عقل. هو فراشة شمع الجمال، والمفتون بصبح الوصال. هو الساكن المضطرب، والمحبوب الحق، سمنون المحب رحمة الله عليه.

كان فريداً فى شأنه،ومقبولاً لدى أهل زمانه، وألطف المشايخ، وله إشارات غريبة، ورموز عجيبة. وكان آية فى المحبة، وأقر جميع الأكابر بجلالة قدره، وكانوا يطلقون عليه «سمنون المحب»؛ لفتوته، ومحبته. وكان هو يطلق على نفسه «سمنون الكذاب».

كان قد صحب سرياً السقطى، وكان من أقران الجنيد، وله فى المحبة مذهب خاص، وقد قدّم المحبة على المعرفة. وقدّم أغلب المشايخ المعرفة على المحبة. ويقول : المحبة أصل الطريق إلى الله، وقاعدته. والأحوال والمقامات جميعها ألعوبة بالنسبة للمحبة. فبينما هم يعرفون الطالب، يجوز زواله بها. وفى المحبة لا يجوز هذا بأى حال قط، طالما أن ذاته موجودة.

يروى أنه لما ذهب إلى الحجاز، قال له أهل فيد : عظنا. فاعتلى المنبر، وأخذ يعظ، ولم يجد من يسمعه، فالتفت إلى القناديل، وقال : إنى أتحدث إليك عن المحبة؛ فاصطكت تلك القناديل فى الحال، وتحطمت.

يروى أنه كان يتكلم فى المحبة يوماً، إذ جاء طير صغير من الهواء، وحط على رأسه، فلم يزل يدنو حتى جلس على يده، ثم جلس على طرفه، ثم جلس على الأرض، ثم ضرب بمنقاره الأرض، حتى سال منه الدم، ثم سقط، ومات.

يروى أنه تزوج فى آخر عمره اتباعاً للسنة، وولدت له ابنة، ولما بلغت الثالثة، تعلق بها سمنون. فرأى القيامة فى المنام ليلة، وشاهدهم يرفعون علماً لكل قوم، ووضعوا علماً غمر نوره العرصات. فقال سمنون : لمن هذا العلم؟ قالوا : لأولئك القوم الذين وردت هذه الآية بشأنهم : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾(٤٩). أى علم المحبين. فألقى سمنون بنفسه بينهم. فجاء رجل، وأخرجه من بينهم. فصاح سمنون قائلاً : لماذا تبعدنى؟ قال : لأن هذا علم المحبين، وأنت لست منهم. قال : إنهم يطلقون علىّ «سمنون المحب»، ويعلم الحق تعالى بما فى قلبى، فهتف به هاتف : يا سمنون! كنت من المحبين، لكن منذ تعلقت بتلك الطفلة، محوا اسمك من سجل المحبين. فانتحب سمنون فى المنام قائلاً : يا إلهى! إن كانت هذه الطفلة عقبة فى طريقى، فنحها عن طريقى. فلما استيقظ من النوم، علا الصراخ، فقيل: أن الطفلة سقطت من فوق السطح، وماتت.

يروى أنه قال في المناجاة مرة : إلهي، امتحنتني بكل شيء، فوجدتني صادقاً، وأنا أطعيك، ولا أتكلم. فأصابه داء في الحال، واشتد عليه، ولم يتكلم. وفي الصباح، قال له الجيران : أيها الشيخ! ماذا حدث لك؟ إننا لم ننم بسبب صراخك، ولم يكن قد صرخ قط. لكن صورة روحه كانت قد حلت على صورته، ووصل صوتها إلى آذان الجيران. فبيّن له الحق تعالى أن الصمت صمت الباطن. فلو أنك صمت حقيقة؛ لما علم الجيران، والشيء الذي لا تستطيع (أن تفعله) لا تتحدث به.

يروى أنه كان ينشد هذا البيت مرة :

ليس لي في ما سواك حظ

فكيف ما شئت فاختبرني

فاحتبس بوله في الحال، فكان يدور المكاتب، ويقول للأطفال : ادعوا لعمكم الكذاب أن يشفيه الحق تعالى.

يقول أبو محمد المغازلي : كنت مع سمنون في بغداد. فأنفقوا أربعين ألف درهم على الفقراء، ولم يعطونا شيئاً. فقال لي سمنون : هيا بنا إلى موضع، نصلي فيه بكل درهم أنفقوه ركعة. فمضينا إلى المدائن، وصلينا أربعين ألف ركعة.

يروى أن غلام الخليل ادعى التصوف أمام الخليفة، وباع الدين بالدنيا، وكان يتقصى عيوب المشايخ أمام الخليفة، وكان مراده أنه

طالما هجر المشايخ، ولم يتبرك بهم أحد، بقى جاهه على حاله! ولم يفتضح. فلما علا شأن سمنون، وانتشر صيته. آذاه غلام الخليل كثيراً، وكان يبحث عن نهزة، ليشهر به. حتى عرضت امرأة مترفة نفسها على سمنون قائلة : تزوجنى. فلم يقبل. فذهبت المرأة إلى الجنيد؛ ليشفع لها لدى سمنون؛ حتى يتزوجها. فزجرها الجنيد، وطردها. فذهبت إلى غلام الخليل، واتهمت سمنوناً. فسر غلام الخليل، وألب الخليفة عليه. فأمر الخليفة بقتل سمنون فلما أحضروا السياف، أراد الخليفة أن يقول : اقطع رقبته، فانعقد لسانه، ولم يستطع الكلام. فرأى فى المنام، من يقول له : إن زوال ملكك متعلق بحياة سمنون. فدعا سمنون فى الصباح، وأكرمه، ورده معززاً. فاشتد عداء غلام الخليل له، وحدث أنه أصيب بالجذام فى نهاية عمره. أُخبر سمنون أن غلام الخليل أصيب بالجذام. فقال : بذل الهمة كصوفى فى أول الطريق، ولم يحسن العمل، ونازع المشايخ، وربما كان يسد الطريق على المشايخ بأعماله. فليشفه الله. فقالوا هذا الكلام لغلام الخليل، فتاب، وأرسل كل ما يملكه إلى المتصوفة، فلم يقبلوه. فانظر، كيف بلغ إنكار هذه الطائفة عليه وقد نزل مقام التوبة. وهو نفسه يقر بما كان. لا جرم قالوا : لا يضرهم أحد قط.

وسئل عن المحبة فقال : صفاء الود مع دوام الذكر. كما قال الحق تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾(٥٠)

وقال : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة. لأن النبى ﷺ قال : المرء مع من أحب.

وقال : لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه، ولا شيء أرق من المحبة، فبم يعبر عنها. أى لا يمكن التعبير عن المحبة.

قيل : لماذا اقترنت المحبة بالبلاء؟ قال : كل سافل لا يدعى المحبة، لما يرى البلاء، يذل.

وسئل سمنون عن الفقير الصادق، فقال : الذى يأنس بالعدم، كما يأنس الجاهل بالغنى، ويستوحش من الغنى، كما يستوحش الجاهل من الفقر.

وقال : التصوف ألا تملك شيئاً، ولا يملكك شيء.

رحمة الله عليه

ذكر أبى محمد المرتعش[51]

قدس الله روحه العزيز

هو السابق إلى المعنى بالروح، واللاحق إلى التقوى بالجسد. هو سالك بساط وجدان التهذيب، الشيخ أبو محمد المرتعش رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ، وجلة أهل التصوف، وكان مقبولا لدى الأكابر. وسافر مجرداً، وكان معروفاً بالخدمة الخالصة، ومشهوراً لدى الطوائف. واختص بالرياضات والمجاهدات. وكان من ناحية الحيرة من أعمال نيسابور. كان قد أدرك أبا حفص، وصحب أبا عثمان والجنيد. وأقام فى مسجد الشونيزيه، وتوفى فى بغداد.

يروى أنه قال : حججت ثلاث عشرة مرة متوكلاً، فبان لى أن جميع ذلك كان مشوباً بحظى. قالوا : وكيف عرفت؟ قال : لأن أمى سألتنى أن أستقى لها جرة ماء؛ فثقل ذلك على نفسى؛ فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات، كان من شره الشهوة وهوى النفس.

قال فقير : كنت في بغداد، وفكرت فى الحج، وخطر لى أن المرتعش قادم، ومعه خمسة عشر درهماً، حتى أشترى ركوة وحبلاً ونعلين، وأمضى فى البادية. وماهو إلا أن طرق رجل الباب، ففتحت. فكان المرتعش وفى يده ركوة. فقال : خذها، قلت : لا، فقال خذها، ولا تؤذينى. وكم درهم أردت؟ قلت : خمسة عشر، قال : ها هى خذها.

يروى : أنه كان يمر يوماً بمحلة ببغداد، وشعر بالظمأ، فاستسقى من بيت. فأحضرت له فتاة جميلة جرة ماء. ففتن المرتعش بجمالها، وظل فى مكانه، حتى جاء رب الدار، وقال له : يا سيد! كان قلبى متعطشاً لشربة ماء، فسقونى شربة من دارك، وسلبوا قلبى. فقال له الرجل : تلك ابنتى، وقد زوجتك إياها. وأخذه إلى الدار، وعقد عليها. وكان رب الدار من أثرياء بغداد؛ فأرسل المرتعش إلى الحمام، وخلع عنه الخرقة، وألبسه ثياباً نظيفة. ولما أقبل الليل، منحوه الفتاة. فنهض المرتعش، وانشغل بالصلاة. ثم صاح وهو فى الصلاة أن هاتوا مرقعتى! فسألوه : ماذا أصابك؟ قال : نوديت فى سرى، لقد خلعنا عن ظاهرك ثوب أهل الصلاح بنظرة نظرتها مخالفة لنا، فإذا نظرت نظرة أخرى، نزعنا عن باطنك لباس المعرفة. فارتدى المرقعة، وطلق المرأة.

يروى أنه قيل له : إن فلاناً يمشى على الماء. فقال : عندى أن من مكّنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى على الماء، وفى الهواء.

يروى أنه كان قد اعتكف فى المسجد الجامع فى آخر شهر رمضان، وخرج بعد يومين. فقيل له : لماذا تركت الاعتكاف؟ فقال: لم أستطع مشاهدة القراء، وتعظيم طاعاتهم عندهم.

ومن كلامه : من ظن أن أفعاله تنجيه من النار، أو تبلغه الرضوان؛ فقد جعل لنفسه خطراً. ومن اعتمد على فضل الله، بلغه الله إلى أقصى منازل الرضوان، كما قال الله تعالى (٥٢) . ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

وقال : السكون إلى الأسباب يقطع القلوب عن الاعتماد على المسبب.

وسئل : بماذا ينال العبد حب الله تعالى؟ فقال : ببغض ما أبغض الله؛ وهى الدنيا والنفس.

وقال : أصول التوحيد ثلاثة أشياء معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار له بالوحدانية، ونفى الأنداد عن جملة.

وقال : العارف صيد المعروف، فقد اصطاده المعروف حتى يكرمه، ويجلسه فى حظيرة القدس.

وقال : تصحيح المعاملات كلها بشيئين، وهما الصبر والإخلاص. الصبر عليها، والإخلاص فيها.

وقال : إذا وهب المخلص قلبه للحق تعالى، وجد السلوى. إذا وهبه للخلق، وجد الفكرة.

وقال : التصوف حسن الخلق.

وقال : التصوف حال يُغيِّب صاحبه عن القيل والقال، ويحمله إلى الله ذى المنن، ثم يخرجه من هناك، فيبقى الله تعالى، ويفنى هو.

وقال : هذا مذهب كله جد، فلا تخلطوه بشىء من الهزل.

وقال : أعز جلسة للفقراء الجلوس إلى الفقراء. فإن رأيت الفقير يعتزل الفقير، فاعلم يقيناً أنه لا يخلو من علة.

يروى أن بعض الأصحاب طلبوا منه وصية، فقال : اذهبوا إلى من هو خير لكم منى، ودعونى إلى من هو خير لى منكم.

رحمة الله عليه

ذكر محمد بن الفضل[53]

قدس الله روحه العزيز

هو المتمكن بالكرامات والحقائق، والمتعين بالإشارات والدقائق، والمقبول لدى الطوائف، والمخصوص باللطائف. هو باب بستان العشق والعقل، أبو عبد الله محمد بن الفضل (رحمة الله عليه).

كان من كبار مشايخ خراسان، وامتدحه الجميع، وكان فى الرياضات والمجاهدات بلا نظير، وفى الفتوة والمروءة بلا مثيل. كان مريداً لخضرويه، وكان قد أدرك الترمذى، وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم إليه. إلى حد أنه كتب له رسالة مرة، قال فيها: ما علامة الشقاوة؟ فقال: ثلاثة أشياء أن يرزق الحق تعالى العلم، ويحرم العمل. ويرزق العمل، ويحرم الإخلاص فيه. ويرزق صحبة الصالحين، ولا يحترم لهم.

قال أبو عثمان الحيرى: محمد بن الفضل سمسار الرجال. وكان أبو عثمان - مع كل هيبته - يقول: لو وجدت من نفسى قوة، لرحلت إلى أخى محمد بن الفضل، فأستروح سرى برؤيته.

وجفاه أهل بلخ كثيراً، وأخرجوه من بلخ، وقال بشأنهم : يا رب! انزع الصدق من بينهم.

يروى أنه سئل : بماذا تسلم الصدور؟ قال : بالوقوف على حق اليقين، وهى حياة يمنح بعدها علم اليقين، حتى يطالع عين اليقين بعلم اليقين. وهنا يجد السلامة. وإن لم يكن عين اليقين، لما كان علم اليقين. لأن من لم ير الكعبة، لم يكن له علم اليقين بالكعبة قط فبان أن علم اليقين يمكن أن يكون بعد عين اليقين ذلك العلم الذى يسبق عين اليقين، يكون ببذل الهمة. ولذلك كان الاجتهاد يصيب أحياناً ويخطىء أحياناً أخرى. منذ ظهر علم اليقين، أمكن مطالعة أسرار وحقائق عين اليقين به. ومثال على ذلك : رجل سقط فى بئر، وصار هرماً. ثم أخرجوه من البئر، فاندهش لرؤية الشمس، وظل مندهشاً فترة، حتى اعتاد على رؤية الشمس، وحدث علمه بالشمس، استطاع بذلك العلم مطالعة أسرارها.

وقال : إنى لأعجب من ذلك الذى يذهب بهواه إلى بيته (بيت الله)، ويزوره، لم لا يدوس الهوى، حتى يصل إليه، ويراه!؟

وقال : الصوفى من يصفى من جملة البلاء، ويغيب عن جملة العطاء.

وقال : الراحة فى الخلاص من رغبات النفس.

وقال : إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا، فذلك من علامات ادباره.

وقال : ذهاب الإسلام من أربعة أولها لا يعملون بما يعلمون، والثانى يعملون بما لا يعلمون، والثالث لا يتعلمون ما لا يعلمون. والرابع يمنعون الناس من التعلم.

وقال : العلم ثلاثة أحرف العين، واللام، والميم. العين هى العلم، واللام العمل، والميم الإخلاص الحق فى العمل والعلم.

وقال : أعرف الناس بالله، أشدهم مجاهدة فى أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه.

وقال : المحبة هى الإيثار. ولها أربعة معان الأول دوام الذكر بالقلب، والسرور به. والثانى الأنس العظيم بذكر الحق. والثالث : قطع الانشغال، والانقطاع عن كل قاطع. والرابع : إيثار المرء الحق على نفسه، وعلى من سواه. كما قال الحق تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم. وإخوانكم وأزواجكم﴾ إلى قوله ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾(٥٤). وصفة محبى الحق : أن محبتهم قائمة على الإيثار. بعد هذا تتجاوز معاملتهم أربعة منازل المحبة، والهيبة، والحياء، والتعظيم.

وقال : إيثار الزاهدين مستغن عن الوقت، وإيثار الفتيان محتاج إليه.

وقال : الزهد فى الدنيا تركها، وإن لم تستطع، تؤثرها. وإن لم تستطع، تحتقرها.

رحمة الله عليه

ذكر أبى الحسن البوشنجي(٥٥) قدس الله روحه العزيز

هو الصادق المحنك، والمخلص الكادح، والموحد الوفى، الشيخ أبو الحسن البوشنجى رحمة الله عليه.

كان من فتيان خراسان، ومن جلة أهل زمانه، وأعلمهم بعلم الطريقة. وله فى التجريد قدم ثابتة. كان قد أدرك أبا عثمان، وابن عطا، والجريرى، وأبا عمرو(٥٦). رحل عن بوشنج سنين، كان يقيم خلالها فى العراق. فلما عاداتهم بالزندقة؛ فقدم إلى نيسابور، وقضى فيها عمره، كما اشتهر إلى حد أن حماراً كان قد فقد لقروى، فسأل : من الأزهد فى نيسابور، فقالوا : أبو الحسن البوشنجى. فجاءه، وتعلق به قائلاً : لقد سرقت حمارى. فتألم، وقال : أيها الفتى، لقد أخطأت، إننى أراك (للمرة الأولى). فقال : لا، بل سرقت حمارى. فتألم، ورفع يده، وقال : إلهى، خلصنى منه. فهتف هاتف بالرجل فى الحال قائلاً: اتركه؛ فقد وجدنا الحمار. فقال القروى : أيها الشيخ! لقد علمت أنك لم ترنى من قبل، لكننى لم استح، وقلت : طالما أنك تتنفس، سيتحقق مرادى.

يروى أنه كان يمر فى طريق يوماً. فجاء تركى، وصفعه على قفاه، ومضى. فقال الناس : لماذا فعلت هذا؟ إنه الشيخ أبو الحسن. فندم، وعاد، وطلب المعذرة من الشيخ. فقال له الشيخ : لا تبال، أيها الصديق، إننا لم نرك السبب فيما وقع. فمضى التركى، ولم يخطىء مرة أخرى.

يروى أنه كان فى الميضأة، وجال بخاطره أنه ينبغى عليه أن يمنح قميصه إلى الفقير فلان. فدعا الخادم، وقال له : انزع عنى هذا القميص، واعطه إلى فلان. فقال الخادم : هلا صبرت يا سيدى حتى تخرج؟ فقال : أخشى أن يعترضنى الشيطان، ويتغير على ما وقع لى من التخلف منه بذلك القميص.

يروى أن رجلاً سأله : كيف حالك؟ فقال : تساقطت أسنانى من أكل نعمة الحق، وعجز لسانى من كثرة الشكوى.

وسئل : ما المروءة؟ فقال هى ترك استعمال ما هو محرم عليك مع الكرام الكاتبين.

وسئل : ما التصوف؟ فقال: التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم.

وسئل عن التصوف، فقال : قصر الأمل، والمداومة على العمل.

وسئل عن الفتوة، فقال : حسن المراعاة، ودوام المراقبة، وألا ترى من نفسك ظاهراً يخالفه باطنك.

وقال : التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات، ولا منفى الصفات.

وقال : الإخلاص هو الذى لا يستطيع الكرام الكاتبين كتابته، ولا يستطيع الشيطان إفساده، ولا يستطيع إنسان الاطلاع عليه.

وقال : أول الإيمان منوط بآخره.

وقالوا له : ما الإيمان، وما التوكل؟ فقال : أن تتناول الخبز أمامك، وتمضغ اللقمة الصغيرة، وأنت مطمئن البال، وتعلم أن ما قدر لك لن يفوتك.

وقال : من ذل فى نفسه، رفع الله قدره. ومن عز فى نفسه أذله الحق تعالى فى أعين عباده

يروى أن رجلاً طلب منه الدعاء، فقال : أعاذك الله من فتنتك.

يروى : أن فقيراً كان يمر على قبره بعد وفاته، وكان يطلب نعمة الدنيا من الحق تعالى. فرأى أبا الحسن فى المنام يقول له: أيها الفقير، حين تمر على قبرنا، لا تطلب نعمة الدنيا، وإن طلبتها، فاذهب إلى قبور سادة الدنيا. ولما تأتى هنا، اطلب الاستغناء عنها.

رحمـــة الله عليـه

ذكر محمد بن على الترمذى(٥٧)
قدس الله روحه العزيز

هو السليم السنة، والعظيم الملة. هو المجتهد بين الأولياء، والمتفرد بين الأصفياء. هو المحرم فى الحرم الإلهى، محمد بن على الترمذى رحمة الله عليه.

كان من سادة المشايخ، وجلة أهل الولاية. وامتدح بكل الألسنة. وكان آية فى شرح المعانى، وحجة فى الأحاديث، ورواية الأخبار، وأعجوبة فى بيان المعارف والحقائق. وحظى بقبول تام، وحلم نادر، وشفقة وافرة، وخلق عظيم. وله رياضات كثيرة، وكرامات وفيرة.

كان كاملاً فى فنون العلم، ومجتهداً فى الشريعة والطريقة. يقتدى به الترمذيون. وأسس مذهبه على العلم؛ لأنه كان عالماً ربانياً. ولم يقلد أحداً؛ لأنه كان صاحب كشف وأسرار. واتسم بالحكمة البالغة؛ لذلك أطلقوا عليه «حكيم الأولياء».

كان قد صحب أبا تراب، وخضرويه، وابن الجلاء. وتناظر مع يحيى بن معاذ. قال: كنت أتحدث يوماً فى مناظرة. فاندهش الأمير يحيى من كلامى.

وله تصانيف كثيرة، مشهورة جميعها ومذكورة. ولم يكن أحد فى ترمذ فى عصره، يفهم كلامه. وهجره أهل مدينته.

واتفق فى أول أمره، مع طالبىّ علم على السفر فى طلب العلم. ولما عزم الرحيل؛ حزنت أمه، وقالت: يا عزيزى، إننى ضعيفة، وحيدة، وأنت عائلى، فلمن تتركنى؟ وأنا وحيدة عاجزة. فتألم لذلك الكلام، وعدل عن السفر. وذهب رفيقاه لطلب العلم. وبعد فترة من الزمن، جلس فى المقابر يوماً، وهو ينتحب قائلاً: لقد بقيت هنا مهملاً جاهلاً، وسيرجع رفيقاى، وقد بلغا غاية العلم. فجاءه شيخ نورانى، وقال: يا بنى، لم تبكى؟ فشرح له الحال. فقال الشيخ: أتريد أن أعلمك شيئاً كل يوم؛ حتى تتقدم عليهما. قلت: نعم. فكان يعلمنى شيئاً كل يوم حتى انقضت ثلاث سنوات. وعلمت بعد ذلك أنه الخضر. وقد نلت هذه السعادة برضا أمى قال أبو بكر الوارق: إن الخضر عليه السلام كان يأتيه كل يوم أحد، وكانا يتدارسان العلم.

ويقول أبو بكر الوراق أيضاً: قال لى محمد بن الحكيم يوماً: سآخذك اليوم إلى مكان. فقلت: الأمر للشيخ، وسرت معه، سرعان ما رأيت صحراء وعرة، فيها عرش ذهبى، تحت شجرة خضراء، على حافة عين ماء. وقد جلس عليه رجل، ارتدى ثياباً جميلة. فلما اقترب الشيخ منه، نهض، وأجلسه على العرش. ولما مضت فترة، أقبلت من كل ناحية جماعة من الناس، حتى اجتمع أربعون شخصاً، وأشار إلى السماء، فظهر مأكول، فأكلنا. وكان الشيخ يسأل ذلك الرجل، فيجيبه ولم أفهم من كلامه شيئاً. فلما انقضت فترة، استأذن محمد بن على، ورجع، وقال لى: اذهب، قد صرت سعيد الأبد. وبعد فترة، عدت إلى ترمذ، وقلت: ما الأمر؟ وأى مكان كان ذلك؟ ومن

كان ذلك الرجل؟ فقال: كان ذلك المكان تيه بنى إسرائيل، وكان ذلك الرجل القطب الذى المدار عليه. قلت: وكيف ذهبنا فى هذا الوقت (من ترمذ إلى التيه) وعدنا؟ فقال: يا أبا بكر، يمكننا الوصول كالطائر. وأى شأن لك بالكيفية! إن شأنك الوصول لا السؤال عن الكيفية.

يروى أنه قال: مهما جاهدت النفس؛ حتى أحملها على الطاعة، لم أفلح معها فيئست، وقلت: لعل الحق تعالى خلق هذه النفس للجحيم. فكيف أهذبها! فذهبت إلى ساحل جيحون، وطلبت من رجل أن يقيد يدىّ وقدمىّ، ففعل، ومضى. ثم تدحرجت، وألقيت بنفسى فى الماء، علّنى أغرق. فاضطرب الماء، وفكك يدىّ، وهاج موج، وألقى بى إلى الشاطىء، فيئست، وقلت: سبحان الله! إنها لا تستحق الجنة ولا النار. وفى تلك اللحظة التى انتابنى فيها اليأس، حدث لى فتح ببركتها، ورأيت ما كان لى، ففنيت عن نفسى. وحييت ما حييت ببركة تلك اللحظة.

قال أبو بكر الوراق: ذات يوم أعطانى الشيخ بعض أجزاء من تصانيفه، وقال: الق هذه فى جيحون. فنظرت فيها، فكانت مليئة باللطائف والحقائق. فلم يطاوعنى قلبى، ووضعتها فى منزلى، وقلت له: ألقيتها. قال: وماذا رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً. قال: إنك لم تلقها، فاذهب، والقها. فقلت: لقد التبس علىّ أمران: أحدهما: لماذا يلقيها فى الماء؟ والآخرى: أى برهان سيظهر؟ فرجعت، وألقيتها فى جيحون. فرأيت الماء قد انشق، وظهر صندوق مفتوح. سقطت فيه تلك الأجزاء، وأُغلق الصندوق، وسكن جيحون. فاندهشت، ولما عدت إلى الشيخ، قال: الآن، ألقيتها. فقلت: أيها الشيخ! استحلفك بعزة الله أن تشرح لى هذا السر. فقال: كنت قد صنفت كتاباً فى علم

هذه الطائفة، يصعب على جميع العقول كشف تحقيقه. وقد طلبه منى أخى الخضر عليه السلام. وكانت سمكة قد أحضرت هذا الصندوق بأمره. وأمر الله تعالى الماء أن يوصله إليه.

يروى أنه ألقى بتصانيفه جميعها مرة فى الماء، فأخذها الخضر عليه السلام، وأعادها إليه، وقال له: انشغل بها.

ومن أقواله: إنه قال: ما صنفت شيئاً لينسب إلىّ، لكن كنت إذا اشتد علىّ وقتى، أتسلى بمصنفاتى.

يروى أنه قال: رأيت الله تبارك وتعالى فى [illegible] ألف مرة ومرة طوال عمرى.

يروى أن زاهداً كبيراً كان معاصراً له، وكان يعترض على الحكيم دائماً، وكانت للحكيم خيمة، امتلكها من متاع الدنيا. ولما عاد من سفر الحجاز، كان كلب قد ولد فى تلك الخيمة، التى لا باب لها. ولم يرد الشيخ أن يخرجه. وكان يتردد على الخيمة ثمانين مرة، لعل الكلب يخرج صغاره بإرادته. فرأى ذلك الزاهد الرسول عليه السلام فى المنام فى تلك الليلة، فقال له: يا فلان، أتقارن نفسك برجل عاد ثمانين مرة من أجل كلب! فاذهب، وإن أردت السعادة؛ فالتحق بخدمته، فخجل الزاهد، وأمضى عمره كله فى خدمة الشيخ.

يروى أنهم سألوا عياله: أتعرفون حال الشيخ لما يغضب؟ قالوا: بلى، فهو إن غضب منا، أحسن إلينا كثيراً، ولا يأكل أو يشرب، ويبكى، وينتحب، ويقول: إلهى! بماذا أغضبتك حتى جعلتهم يتألبون علىّ؟! إلهى، إننى تبت. فاصلح حالهم، فنعرف، ونتوب؛ حتى نخلص الشيخ من البلاء.

يروى: أنه لم ير الخضر مرة. وكانت الجارية قد غسلت قميص طفل، وملأت طستاً بالنجاسة والبول. وكان الشيخ قد ارتدى قميصاً نظيفاً، وعمامة طاهرة. وكان ذاهباً إلى الجامع. فاستاءت الجارية بسبب كثرة العمل؛ فحملت ذلك الطست، وسكبته على رأس الشيخ. فلم يقل الشيخ شيئاً قط، وكظم غيظه، فأدرك الخضر عليه السلام فى الحال.

يروى أنهم قالوا: إنه كان مهذباً جداً إلى حد أنه لم يكن ينظف أنفه أمام عياله. فسمع رجل ذلك، فقصد زيارته. فلما رآه فى المسجد، وقف حتى فرغ من أوراده، وخرج. فتعقبه الرجل، وقال أثناء الطريق: ليتنى كنت أعلم أن ما قالوه عنه صحيحاً. فعرف الشيخ (قصده) بالفراسة، فالتفت إليه، ونظف أنفه. فتعجب الرجل، وقال فى نفسه: أما إنهم كذبوا فيما قالوه لى، أو أنها مقرعة يضربنى بها الشيخ؛ حتى لا أفتش عن أسرار المشايخ. فعلم الشيخ هذا، فالتفت إليه، وقال: يا بنى، إنهم صدقوك القول، ولكن إن أردت الاطلاع على أسرار الخلق جميعهم، فاحفظها. فمن يفشى أسرار الملوك، فهو غير جدير بمعرفة السر.

يروى أن امرأة جميلة دعته إليها فى شبابه، فلم يجبها. حتى ذاع الخبر يوماً: أن الشيخ فى بستان. فتزينت المرأة، وذهبت إليه. فلما علم الشيخ بذلك، هرب. فتعقبته المرأة، صائحة: إنك تقتلنى! فلم يلتفت الشيخ إليها. فاعتلت حائطاً، وألقت بنفسها من فوقه. ولما صار شيخاً، كان يطالع أحواله وأقواله يوماً، فتذكرها. وفكر فى نفسه قائلاً: ماذا كان سيحدث إن لبيت حاجة تلك المرأة؟! فقد كنت شاباً، وكنت أتوب بعد ذلك. فلما جال هذا بخاطره، تألم، وقال: أيتها النفس

الخبيثة العاصية، اجتنبت هذا منذ أربعين سنة، وفى أول عهدى بالشباب. فالآن، لِمَ تندمين على ذنب لم تقترفيه بعد مثل هذه المجاهدة! وحزن، واغتم ثلاثة أيام. وبعدها رأى الرسول ﷺ فى المنام، فقال له: يا محمد، لا تحزن، ليس هذا تراجعاً. وإنك فكرت فى هذا؛ لأن أربعين سنة أخرى مرت على وفاتنا، وطالت مدة فراقنا للدنيا، وابتعدنا عنها نحن أيضاً. فالذنب ليس ذنبك، والتقصير ليس منك. وما حدث كان بسبب طول مدة فراقنا، لا تقصيرك.

يروى أنه قال: مرضت مرة، وعجزت عن أداء الأوراد، فقلت: وا أسفاه! على الجسد السليم الذى يجلب لى الخيرات. وقد انقطعت جميعها الآن. فسمعت صوتاً: يا محمد! ما هذا الكلام؟ إنك قلت: العمل الذى تفعله لا الذى نفعله! ولم يكن عملك سوى سهو وغفلة. ولم يكن عملنا سوى الصدق. قال الترمذى فندمت على ذلك القول، وتبت.

ومن أقواله: بعد أن يرتاض الرجل كثيراً، ويتأدب، وتتهذب أخلاقه. تشرق أنوار عطايا الله تعالى فى قلبه، فيطمئن قلبه لذلك، وينشرح صدره، وتحلق نفسه فى فضاء التوحيد؛ فيسر بذلك، ويترك العزلة لا جرم، ويتحدث، ويشرح الفتوح التى فتحت له فى هذا الطريق. فيبجله الخلق بسبب كلامه، وفتوحه ، ويجلونه، ويعظمونه؛ فتنخدع النفس، وتنقض من داخله كالأسد، وتتعلق برقبته، وتنبسط تلك اللذة التى كان قد شعر بها فى بداية مجاهدته. فالسمكة التى تقفز من الشبكة، كيف تغوص فى البحر ولا تقع فى الشباك قط. كذلك فإن النفس التى تحلق فى فضاء التوحيد، أخبث وأمكر ألف

مرة من تلك التى لم تقع فى القيد فى البداية؛ لأنها كانت مقيدة فى البداية، ثم تحررت، وانبسطت. وكانت قد صنعت آلتها فى البداية من ضيق البشرية. وهنا تصنع آلتها من سعة التوحيد. فلا تأمن النفس، وانصت، حتى تظفر بالنفس، ولتحذر من هذه الآفة التى ذكرناها؛ لأن الشيطان قابع فيها.

كما روى محمد بن على الحكيم: أن آدم وحواء حين التقيا، وقبلت توبتهما. ذهب آدم لمعالجة أمر. فأحضر إبليس ولده «الخناس» إلى حواء، وقال: لدى مهمة، فارع طفلى حتى أعود. فوافقت حواء. ومضى إبليس. فلما عاد آدم، سأل: من هذا؟ قالت: ابن إبليس، وقد عهد به لى. فلامها قائلاً: لماذا قبلت؟ وغضب، وقتل الطفل، وقطعه، وعلق كل قطعة فى غصن شجرة، ومضى. وعاد إبليس، وقال: أين ابنى؟ فشرحت له حواء الحال، وقالت: لقد قطعه آدم إرباً، وعلق كل قطعة فى غصن شجرة فنادى إبليس ابنه، فلملم الطفل أشلاءه، ودبت فيه الحياة، ومثل أمام إبليس. فقال إبليس لحواء: خذيه، فإن لدى أمر أخر. فلم توافق حواء، فتشفع إبليس لها وانتحب؛ حتى قبلت. ثم مضى إبليس. وجاء آدم، ورأى الطفل، فسأل حواء: من هذا؟ فشرحت له الحال. فعاتب آدم حواء، وقال: لا أعلم السر فى أنك لا تطيعين أمرى؟! وتطيعين أمر عدو الله، وتنخدعين بكلامه! فقتله، وحرقه، وألقى بنصف رماده فى الماء، وترك النصف الآخر فى مهب الريح، ومضى. وعاد إبليس، وطلب ابنه. فشرحت له حواء الحال. فنادى إبليس ابنه، فاتصلت أشلاؤه، ودبت فيه الحياة، ومثل أمام إبليس. وكرر إبليس طلبه لحواء، فلم تقبل، وقالت: سوف يهلكنى آدم. فأقسم عليها إبليس؛ حتى قبلت. ومضى إبليس، وجاء آدم فرأى الطفل مرة أخرى، فغضب، وقال: يعلم الله ما سأفعل إذ تسمعين كلام

إبليس، ولا تسمعين كلامي .وغضب، وقتل «الخناس»، وقلاه، وأكل نصفه، ومنح النصف الآخر لحواء. ويقال: إن الخناس كان قد جاء على هيئة خروف في المرة الأخيرة. وحين عاد إبليس، وطلب ابنه، شرحت له حواء الحال قائلة: إن آدم قلاه، وأكلت أنا نصفه، وأكل هو نصفه. قال إبليس: كان هذا مرادي، أن أفسح لنفسي السبيل داخل آدم، ولما صار صدره مقامي، تحقق مرادي كما قال الحق تعالى: ﴿الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(٥٨).

وقال: من بقيت فيه صفة من الصفات النفسانية مثل مكاتب، إن بقي عليه درهم، لا يتحرر، ويكون عبداً لذلك الدرهم. لكن من تحرر، ولم يكن قد بقي عليه شيء. فمثل هذا الرجل يكون مجذوباً؛ لأن الحق تعالى قد حرره من عبودية النفس، لما جذبه إليه. فكان حراً على الحقيقية، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٥٩). والمجتبون هم الذين انجذبوا. والمهتدون هم الذين يبحثون عن إنابته.

وقال: للمجاذيب منازل يمنح بعضهم ثلث النبوة، وبعضهم نصف النبوة، وبعضهم أكثر من النصف. وقد يصل مجذوب إلى أن يكون حظه من النبوة أكثر من سائر المجاذيب، ويكون خاتم الأولياء، وأجلهم. مثلما كان محمد المصطفى عليه السلام أفضل الأنبياء، وختمت به النبوة.

وقال: يمكن للمجذوب أن يكون مهدياً. فإن قال أحد: كيف يكون للأولياء نصيب من النبوة؟ أقول: قال الرسول ﷺ: «الاقتصاد، والهدى الصالح، والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من

النبوة، ويمكن أن يتحقق المجذوب بالاقتصاد والهدى الصالح. وقال الرسول ﷺ: الرؤية الصحيحة جزء من النبوة. وقال فى موضع آخر: من رد درهماً من حرام لخصم، حظى بدرجة من النبوة ويمكن أن يتحقق المجذوب بكل هذا.

وقال: أصدق علامات الأولياء: أنهم يتحدثون عن أصول العلم فقال قائل: كيف يكون ذلك؟ قال: كان العلم فى البداية. ثم علم المقادير، وعلم عهد الميثاق، وعلم الحروف، فهى أصول الحكمة. وهذه هى حكمة العلماء. ويظهر هذا العلم على كبار الأولياء، ولا يستطيع أحد منهم أن يقبل أن يكون لإبليس حظ من ولايته.

وسئل: هل يخاف المحدثون سوء العاقبة؟ فقال: خوف هول وقلق، يكون كالخطرات، ثم يمضى. فإن الله تعالى لا يحب أن يكدر عليهم منته.

وقال: المشغول بذكره، لا يستطيع سؤاله. وهذا المقام أسمى من ذلك المقام الذى يفهمه البلعميون(٦٠). قالوا: ومن هم البلعميون؟ قال: إنهم ليسوا أهلاً للآيات الإلهية.

وسئل عن التقوى والمروءة، فقال: التقوى: ألا يتوسل بك أحد. والمروءة: ألا تتوسل بأحد.

وقال: العزيز من لا تذله المعصية. والحر لا يأسره الطمع، والسيد لا يستعبده الشيطان، والعاقل من يتقى الله تعالى، ويحاسب نفسه.

وقال: من اعتنق الطريقة، لا ينكر أهل المعصية قط.

وقال: من يخش شيئاً، يفر منه. ومن يخش الله، يفر إليه.

وقال: للإسلام أصلان رؤية المنة، وخوف القطيعة.

وقال: لا ينبغى الحزن على مفقـود سوى النيـة؛ لأن أى خير لا يستقيم دون نية.

وقال: من كان الدين همه، كانت كل أعماله الدنيوية في سبيل الدين. ومن كانت الدنيا همه، كانت كل أعماله الدينية فى سبيل الدنيا بشؤم همته.

وقال: من قنع بالكلام من العلم دون زهد، فقد تزندق. ومن قنع بالنفقة دون ورع، فقد فسق. ومن جهل أوصاف العبودية، فهو بنعوت الربانية أجهل.

وقال: تريد أن تعرف الحق مع بقاء نفسك فيك، ونفسك لا تعرف نفسها، فكيف تعرف غيرها؟!

وقال: أسوأ خصال الرجل محبة الكبر، والإختيار فى الأعمال؛ لأن الكبر يليق برجل منزه عن العيب، والاختيار يليق برجل علمه منزه عن الجهل.

وقال: لا يتلف مائة أسد جائع فى قطيع، ما يتلفه الشيطان فى لحظة. ولا يفسد مائة شيطان، ما تفسده النفس الإنسانية فى لحظة.

وقال: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره.

وقال: ضمن الله تعالى للعباد الرزق، وفرض عليهم التوكل.

وقال: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع عنك نعمته، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال: المروءة أن يستوى لديك عابر السبيل والمقيم.

وقال: حقيقة محبة الله تعالى دوام الأنس بذكره.

وقال: ما يقولونه من أن القلب لا متناهى غير صحيح؛ لأن لكل قلب كمالاً معلوماً، إن بلغه، ثبت. لكن المعنى هو: أن الطريق لا متناهى. واعلم أنه أراد بهذا القول صورة القلب، والمقصود بالقلب اللامتناهى هو أن المعنى الذى وضحناه فى شرح القلب.

وقال: الاسم الأعظم لم يتجل قط إلا فى عهد رسولنا ﷺ.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر أبي الخير الأقطع(٦١)

قدس الله روحه العزيز

هو طليعة صف الرجال، والهادى إلى طريق الكمال. هو سيد بادية البلاء، ورجل مرتبة الرضا، ومطلع طليعة الفقر، الشيخ أبو الخير الأقطع رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ، ومن أشراف الأقران، واتسم بفراسة عظيمة. كان من المغرب، وصحب ابن الجلاء. وكانت السباع والغزلان تأنس به، وكان قريناً للأسود والأفاعى، وكثيراً ما كان الحيوان يأوى إليه.

وقال: كنت فى جبل «اللكام». وكان السلطان قادماً، وكان يمنح ديناراً لكل من يراه. فمنحنى ديناراً، فاحتفظت به على ظهر يدى، وألقيت به فى طرف رفيقى.

وقال حدث أننى أمسكت المصحف دون وضوء. وذهبت يوماً إلى السوق مع الأصحاب مضطرباً. وكان جماعة فى السوق قد سرقت، وهربت. فخرج الخلق جميعهم، وأمسكوا بالمتصوفة فقال الشيخ: أنا زعيمهم، اتركوهم، أنا اللص. وقال للمريدين: لا تقولوا شيئاً. وفى النهاية، أخذوه، وقطعوا يديه، وقالوا: من أنت؟ قال: أنا الأمير فلان.

قالوا: ما أطيب النار التي أشعلتها في أرواحنا. قال: لا بأس، فقد جنت يدي، وهي تستحق القطع. وقال: لقد حل شئ بيدي هي أطهر منه، وهو فضة الجيش. وحصلت يدي على شئ هو أطهر منها، وهو المصحف. وقد أمسكت به دون وضوء. فلما عاد إلى البيت، صرخ عياله. فقال الشيخ: لا مجال للعزاء، بل هي للتهنئة. فإذا لم يقطعوا أيدينا، لقطعوا قلبنا، وكووه بالغربة. فماذا حدث ليدي؟!

كما يروى جمع أن يديه أصيبت بالجذام. فقال الأطباء: ينبغي أن تقطع. ولم يرض هو بذلك. فقال المريدون: اصبروا، حتى يقيم الصلاة، فهو لا يدري بنفسه. ففعلوا ذلك. وعندما فرغ من الصلاة، وجد يده مقطوعة.

يروى أنه قال: كان رجل يمضي في البادية دون ماء وزاد. ففكرت في نفسي قائلاً: إنه لايعبأ بالروح. فالتفت إليَّ وقال: «الغيبة حرام». ففقدت صوابي، ولما أفقت، تبت. فالتفت إليَّ وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ (٦٢).

قال: لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية لله تعالى؛ ولن يصفو بدنك إلا بخدمة أولياء الله تعالى.

وقال: القلوب ظروف فقلب مملوء إيماناً، فعلامته الشفقة على جميع المسلمين، والاهتمام بما يهمهم، ومعاونتهم بما يعود صلاحه إليهم. وقلب مملوء نفاقاً، فعلامته الحقد، والغل، والغش، والحسد.

وقال: الدعوى رعونة لا يحتمل القلب إمساكها.

وقال: ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين، [وحرمة الفقراء الصادقين].

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر عبد الله التروغبندى (٦٣)
قدس الله روحه العزيز

هو جسور الولاية، وصقر الهداية. هو السالك فى بادية التجريد، والسابق إلى طريق التفريد. هو المجتث لجذور الأنية، الشيخ عبد الله التروغبندى رحمة الله عليه.

كان أوحد زمانه، وعلامة عصره. وكان من جملة مشايخ طوس، ومن كبار الأصحاب. وبلغ الكمال فى الورع والتجريد، وله كرامات كثيرة، ورياضات عجيبة. كان قد صحب أبا عثمان الحيرى، وأدرك كثيراً من المشايخ.

وفى بداية أمره، حل قحط بطوس، وكان الناس يموتون جوعاً. وحدث أن دخل أبو عبد الله بيته يوماً، فوجد مقدار منوين حنطة، فاستشاط غضباً، وقال: أهذه هى الشفقة على المسلمين! فهم يموتون جوعاً، وفى بيتى حنطة. وثار، واتجه إلى الصحراء، وارتاض، وجاهد.

كان عبد الله قد جلس إلى مائدة مع أصحابه مرة لتناول الطعام. كان منصور الحلاج قادماً من كشمير، مرتدياً قباء أسود، وفى يده كلبان أسودان. فقال الشيخ للأصحاب: سوف يأتى شاب، وينبغى الذهاب لاستقباله؛ لأن شأنه عظيم. فذهب الأصحاب، وشاهدوه قادماً، وفى يده كلبان أسودان. فاتجه الحلاج نحو الشيخ، فترك

الشيخ مكانه له حين رآه. فدخل، وجلس إلى المائدة، ومعه كلباه. لما رأى الأصحاب أن الشيخ استقبله، وترك له مكانه، لم يستطيعوا الكلام قط. وكان الشيخ يراقبه، فكان يأكل الخبز، ويعطيه لكلبيه. وكان الأصحاب ينكرون عليه ذلك. ولما فرغ من الطعام، مضى. فنهض الشيخ لوداعه. فقال الأصحاب بعد أن عادوا: أيها الشيخ! ما هذا؟ تركت مكانك لكلب! وأرسلتنا لاستقبال مثل هذا الرجل الذى لم ينظف المائدة. قال الشيخ: هذان الكلبان هما نفسه، وقد خرجت منه، وكانت تتبعه. لكن كلابنا قابعة فينا، ونحن الذين نلهث وراءها. فالفرق بين من يتبع كلباً، ومن يتبعه كلب. أن كلبه يمكن رؤيته فى الظاهر، وكلابكم مستورة عنكم. وهذا أسوأ من ذاك ألف مرة. ثم قال: إنه سوف يكون ملكاً على الخلق، إن ملك كلباً أو لم يملك.

يروى أنه سئل: ما صفة المريد؟ فقال: المريد فى تعب، ولكن تعبه سرور وطرب، لا عناء، ولا نصب.

وسئل عن الصوفى والزاهد: فقال: الصوفى بربه، والزاهد بنفسه.

وقال: إن الله تعالى وهب لكل عبد من معرفته مقداراً؛ وحمّله من البلاء على مقدار ما وهب له من المعرفة؛ لتكون معرفته عوناً له على حمل بلائه.

وقال: الأسماء مكشوفة، والمعانى مستورة.

وقال: لو خدم رجل فى جميع عمره يوماً فتى من الفتيان، للحقته بركة خدمته. فكيف بمن أفنى فى خدمتهم عمره.

وقال: ليس فى اجتماع الإخوان أنس لوحشة الفراق.

وقال: من ترك الدنيا للدنيا، فهو من علامة حبه جميع الدنيا.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر أبي بكر الوراق(٦٤)
قدس الله روحه العزيز

هو خزانة العلم والحكمة، أوحد الحلم والعصمة. هو شرف العباد، وكنف الزهاد. هو مجرد الآفاق، الشيخ أبو بكر الوراق رحمة الله عليه.

كان من أكابر الزهاد والعباد، وبلغ الكمال في الورع، والتقوى، والتجريد، والتفريد. ولا نظير له في الأدب؛ لذلك أطلق المشايخ عليه «مؤدب الأولياء». وكان ذليل النفس، ومبارك النفَس. وصحب محمد بن الحكيم، وكان من أصحاب خضرويه. وأقام في بلخ. وله تصانيف في الرياضات والآداب.

كان يمنع المريدين من السفر، ويقول: مفتاح كل بركة الصبر في موضع إرادتك (سلوكك)، إلى أن تصح تلك الإرادة، فإن صحت لك الإرادة؛ فقد ظهرت عليك أوائل البركة.

يروى أنه رغب زمناً في رؤية الخضر عليه السلام. وكان يذهب كل يوم إلى المقابر، ويعود. وكان يقرأ أجزاء من القرآن في الذهاب والإياب. فلما خرج من الباب يوماً. جاءه شيخ نوراني، وسلم عليه، فرد السلام. وقال له: أتريد الصحبة؟ قال: بلى فمضى الشيخ معه

إلى المقابر، وكان يحدثه في الطريق، حتى وصلا إلى الباب. ولما همَّ بالعودة، قال: أردت أن تراني، وأنا الخضر، وقد صحبتني، فحرمتك من قراءة جزء من القرآن. ولما كانت صحبة الخضر عليه السلام على هذا النحو، فكيف تكون صحبة الآخرين؟! حتى تعلم أن العزلة والتجريد والوحدة تسمو على كل الأعمال.

يروى:أنه أرسل ابنه إلى الكُتَّاب. وشاهده يوماً يرتعش، وقد ذبل وجهه. فقال له : ماذا أصابك؟ قال: لقد علمني الأستاذ آية، يقول الحق تعالى فيها: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾(٦٥). هكذا صرتُ خشية من هذه الآية. ثم مرض ذلك الطفل، ومات. فكان أبوه يبكي على قبره، ويقول: يا أبا بكر، هكذا أسلم ابنك الروح بآية. وقرأت أنت القرآن سنين عدداً، وختمته، ولم يؤثر فيك.

يروى: أنه كلما كان يعود من المسجد، ويفرغ من الصلاة، ينتابه الخجل من صلاته كرجل اتهم بسرقة، أو أوخذ بذنب.

يروى أن رجلاً جاء لزيارته، ولما أراد أن يرجع، طلب منه وصية. فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة القلة، وشرهما في الكثرة، والاختلاط.

يروى: أنه قال: رأيت امرأة في طريقي إلى مكة، فقالت لي: أيها الفتى! من أنت؟ قلت: غريب. قالت: أتشكو من وحشة الغربة، أم أنك لم تأنس بربك؟! قال: حين سمعت هذا، لم أستطع أن أخطو خلفها خطوة، فعدت. ومضت هي.

وقال: فتحوا لي باباً، وقالوا: اطلب. قلت: يا إلهي! إن الأنبياء أولئك القوم الذين كانوا هداة الخلق، وقواد الجند. معروف أي بلاء

وحزن لحق بهم. وأنت الإله الذى لا تصيب العبد مثقال ذرة إلا بك، ماذا أطلب فى هذا المقام؟! ارحم عجزى، فلا طاقة لى بالبلاء.

وقال: الناس ثلاثة الأمراء، والعلماء، والفقراء. فإذا فسد الأمراء؛ فسد المعاش. وإذا فسد العلماء؛ فسدت الطاعات. وإذا فسد الفقراء؛ فسدت الأخلاق. ففساد الأمراء جور وظلم. وفساد العلماء الرغبة فى الدنيا، واتباع الهوى. وفساد الفقراء ترك الطاعة، ومخالفة الرضا.

وقال: أصل غلبة الهوى، مفارقة الشهوات. فإذا غلب الهوى؛ أظلم القلب. وإذا أظلم القلب؛ ضاق الصدر، وأبغض الخلق، وإذا أبغض الخلق؛ أبغضوه. وإذا أبغضوه؛ جفاهم، وظلمهم، [وإذا جفاهم صار شيطاناً].

وقال: لم تظهر فتنة قط منذ عهد آدم عليه السلام، إلا بسبب الاختلاط بالخلق. ولم يسلم أحد قط منذ ذلك العهد، إلا باجتنابهم.

وطلب رجل منه وصية، فقال: خذ حجراً، وحطم قدميك. وخذ سكيناً، واقطع لسانك. وقال: يقدر على ذلك من ينطق لسان سريرته، وتنصت أذن همته إلى الله تعالى. فيخرس لسانه الظاهرى، وتصم أذنه الظاهرة. ويتحقق هذا بقطع اللسان، وتحطيم القدم.

وقال: الحكماء خلف الأنبياء، وليس بعد النبوة إلا الحكمة، وهى إحكام الأمور. وأول علامات الحكمة: طول الصمت، والكلام على قدر الحاجة.

وقال: صمت العارف أنفع، وكلامه أطيب.

وقال: يريد الله تعالى من العبد ثمانية أشياء: اثنين من قلبه: تعظيم أمر الله، والشفقه على خلقه. واثنين من لسانه: الإقرار بالتوحيد،

والرفق بالخلق. واثنين من جسده: طاعة الله، وعون المؤمنين. واثنين من خلقه: الصبر على حكم الله، والحلم مع خلقه.

وقال: من عشق نفسه، عشقه الكبر، والحسد، والذل، والمهانة.

وقال: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك فى المقدور.[ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل]، ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

وقال: قال أحد المشايخ: يقول الشيطان: إننى لست بهذه السذاجة، لكى أوسوس للمؤمن بالكفر. لكننى أحرضه أولاً على الشهوات الحلال. ولما يحرص عليها، يغلبه الهوى، ويسيطر عليه. حينها احرضه على المعاصى، وإن أطاعنى، أحرضه على الكفر.

وقال: (لتكن) خمسة أشياء معك أبدا: إن علمت قدرها نجوت. وإن لم تعلم، هلكت. الله تعالى، ثم النفس، ثم الشيطان، ثم الدنيا، ثم الخلق. ينبغى عليك طاعة الله، والرضا بما يفعله، ومخالفة النفس، ومعاداة الشيطان، والحذر من الدنيا، والشفقة على الخلق. إن فعلت هذا، نجوت.

وقال: مادمت لا تجتنب الخلق، وتعتزلهم؛ لا تطمع فى الأنس بالحق تعالى. ومادمت تشغل قلبك بأمور الدنيا؛ فلا تطمع فى الفكرة والعبرة. وطالما لا تطهر صدرك من طلب الرياسة والعظمة؛ فلا تطمع فى الإلهام والحكمة.

وقال: صاحب العقلاء بالاقتداء، والزهاد بحسن المداراة، والحمقى بجميل الصبر.

وقال: أصل الإنسان من ماء وتراب. فمن غلب عليه الماء؛ ينبغى ترويضه بلطف، وإن أخذ بالعنف؛ تكدر، ولم يحقق مراده. ومن غلب عليه التراب، لابد من سحقه، وعجنه؛ حتى يصلح للعمل.

وقال: لما أراد الحق تعالى أن يخلق الماء، جعل لونه مزيجاً من كل الألوان. وطعمه خليطاً من كل الطعوم. فحين مزج كل الألوان، صار لون الماء. لهذا لا يعرف أحد لون الماء. ولأنه خلط جميع الطعوم، لم يعرف أحد طعم الماء. وهم يجدون فيه اللذة، ويمدهم بالحياة. لكنهم جاهلون بكيفية لذته. والآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٦٦). هى الدليل على هذا.

وقال: الفقير السعيد فى الدنيا والآخرة من لا خراج عليه لسلطان فى الدنيا، ولا حساب عليه للجبار فى الآخرة.

وقال: استيقظ فى الصباح، وأرى الخلق، فأعرف من أكل لقمة حلالا، ومن أكل حراماً. قالوا: كيف؟ قال: من يستيقظ فى الصباح، وينشغل باللغو، والغيبة، والفحش. أعرف أنه أكل حراماً. ومن يستيقظ فى الصباح، وينشغل بالذكر، والتهليل، والاستغفار. أعرف أنه أكل حلالا.

وقال: الصدق أن تحفظ ما بينك وبين الله تعالى. والصبر أن تحفظ ما بينك وبين نفسك.

وقال: اليقين نور يستضىء به العبد فى أحواله، فيبلغه إلى درجات المتقين.

وسئل عن الزهد فقال: الزهد، ثلاثة أحرف: الزاى، والهاء،

وقال: اليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان.

وقال: اليقين على ثلاثة أوجه يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة.

وقال: من صحت معرفته بالله، ظهرت عليه الهيبة والخشية.

وقال: شكر النعمة مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة.

وقال: التوكل أن تقضي الوقت صافياً من كدورة الانتظار، فلا تأسف على ما مضى، ولا تأمل فيما سوف يأتى، أى لا تضيع الوقت عبثاً.

وقال: من يرى الأمور جميعها من عند الله يصبر، ومن يراها غير ذلك، يتحير.

وقال: إياكم وسوء الخلق، والحرام.

يروى أنه لما مات، رأوه فى المنام، ذابل الوجه، حزيناً، وكان ينتحب. فقالوا: كيف حالك؟ لعلك بخير! قال: كيف أكون بخير، وأنا فى هذه المقابر، ولم يمت واحد على الإسلام من عشرة موتى، دفنوهم.

ورآه آخر فى المنام، فقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: أجلسنى فى حضرته، وأعطانى كتابى فى يدى، فكنت أقرأه، حتى وصلت إلى ذنب، فاسود الكتاب كله، ولم أستطع قراءته، فاندهشت. فهتف بى هاتف: لقد سترت هذا الذنب عليك فى الدنيا، ولا يليق بكرمنا أن نهتك سترك فى الآخرة. وقد عفونا عنك

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر عبد الله منازل(٦٧)
قدس الله روحه العزيز

هو هدف سهم الملامة، وصدف در الكرامة. هو المجرد بين الرجال، والمشرف بالكمال. هو خزانة الفضائل، عبد الله بن منازل رحمة الله عليه.

كان أوحد زمانه، وشيخ الملامتية، وكان ورعاً، متوكلاً، معرضاً عن الدنيا والخلق. وكان مريداً لحمدون القصار، وعالماً بعلوم الظاهر والباطن. وأسند الحديث. وقام بالسماع. ولم يكن هناك أحد قط أكثر منه تجريداً وخشوعاً عند السماع.

كما روى أن أبا على الثقفى كان يتكلم، فقال له عبد الله أثناء الكلام: استعد للموت؛ فلابد منه. فقال أبو على: بل استعد أنت. فتوسد عبد الله ذراعه، ووضع رأسه عليه، وقال: لقد مت. ومات فى الحال. وقد انقطع أبو على؛ لأن العلائق شغلته أما عبد الله فقد كان متفرداً.

ومن أقواله: كان الواجب على أبى على الثقفى أن يتكلم لنفسه، لا للخلق؛ لذلك لاتصل إليه بركات كلامه. وقال فى هذا المعنى: آفتنا أننا لا ننتفع بكلامنا، فكيف ينتفع غيرنا به؟!

وقال: عبِّر بلسانك عن حالك، ولاتكن بكلامك حاكياً لأحوال غيرك.

يروى أن رجلاً سأله عن مسألة يوماً، فأجاب. فقال: أعد عليّ. فقال: أنا فى ندامة ما جرى!

وقال: لم يضيع أحد فريضة من الفرائض؛ إلا ابتلاه الله بتضييع السنن. ولم يبتل أحد بتضييع السنن؛ إلا أوشك أن يبتلى بالبدع.

وقال: أفضل أوقاتك وقت تسلم فيه من هواجس نفسك، ووقت تسلم الناس فيه من سوء ظنك.

وقال: من ألزم نفسه شيئاً لا يحتاج إليه، ضيع من أحواله مثله، مما يحتاج إليه، ولابد له منه.

وقال: الإنسان عاشق على شقاوته.

وقال لأصحابه يوماً: لقد عشقتم من عشقكم.

وقال: إنى لأعجب من رجل يتكلم في الحياء، ولا يستحى من الله تعالى.

وقال: من مُنح المحبة والفقر، ولم يُمنح الخشية؛ فهو مخدوع.

وقال: الخدمة هى الأدب، لا المداومة عليه. فالأدب فى الخدمة أعز من الخدمة دون أدب.

وقال: نحن فى حاجة إلى الأدب أكثر من كثرة العلم.

وقال: من عظم قدره عند الناس، يجب أن يحتقر نفسه عنده.

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام، لما اتخذه الله خليلاً، قال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾(٦٨).

وقال: أحكام الغيب لا تشاهد في الدنيا، ولكن تشاهد فضائح الدعوى.

وقال: من احتجت إلى شئ من علومه؛ فلا تنظر إلى عيوبه، فإن نظرك يحرمك بركة الانتفاع بعلمه.

وقال: كل فقر لا يكون عن ضرورة، لا تكون فيه فضيلة.

وقال: حقيقة الفقر الانقطاع عن الدنيا والآخرة. والاستغناء برب الدنيا والآخرة.

وقال: من انشغل بما مضى من الوقت، ضاع وقته هباء.

وقال: كيف ينظر الإنسان إلى أمامه وورائه، وهو غائب عن مقامه ووقته؟!

وقال: أنت تظهر دعوى العبودية، وتضمر أوصاف الربوبية.

وقال: العبودية اضطرار، لا اختيار فيه.

وقال: من لم يتذوق طعم العبودية؛ لا عيش له.

وقال: العبودية الرجوع في كل شئ إلى الله تعالى على حد الاضطرار.

وقال: العبد عبد ما لم يطلب لنفسه خادماً؛ فإذا طلب لنفسه خادماً؛ فقد سقط عن حد العبودية، وترك آدابها.

وقال: لا خير فيمن لم يذق ذل المكاسب، وذل السؤال، وذل الرد.

وقال: لقد ذكر الحق تعالى أنواع العبادات قائلاً: ﴿الصَّابِرِين وَالصَّادِقِين وَالْقَانِتِين وَالْمُنفِقِين وَالْمُسْتَغْفِرِين بِالأَسْحَارِ﴾ (٦٩). فختم المقامات كلها بمقام الاستغفار؛ ليرى العبد تقصيره في جميع أفعاله وأحواله، فيستغفر منها.

وقال: من رفع ظل نفسه من نفسه، عاش الناس في ظله.

وقال: التفويض مع الكسب خير من خلوة عنه.

وقال: من دخل في هذا الأمر بضعف، قوى فيه. ومن دخله بقوة، ضعف، وافتضح.

وقال: لو صح لعبد في عمره نفس من غير رياء ولا شرك؛ لأثرت بركات ذلك عليه إلى آخر الدهر.

وقال: العارف من لا يعجب من شئ قط.

يروى أن رجلاً دعا الله له أن يعطيه ما يرجوه. فقال: الرجاء بعد المعرفة، فأين المعرفة؟

مات عبد الله في نيسابور، ويقع قبره في مشهد أنبار(٧٠).

قال أحمد الأسود: رأيت في المنام أن هاتفاً هتف بي، وقال لي: قل لعبد الله: إنك تموت إلى سنة، فلو استعددت للخروج؟ فذهبت في الصباح، وأخبرته. فقال: لقد أجلتنا إلى أمد بعيد، أأعيش أنا إلى سنة!!

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر الشيخ على بن سهل الأصفهانى(٧١)
قدس الله روحه العزيز

هو السيد الفقير، والحاضر الغائب. هو العالم بالغيوب، والبصير بالعيوب. هو خزانة الحقائق والمعانى، الشيخ على بن سهل الأصفهانى رحمة الله عليه.

كان من جلة القوم وسادتهم، ومن كبار المشايخ. وكان يكاتب الجنيد. وصحب أبا تراب. وكلامه فى الحقائق عظيم جداً. وبلغ الكمال فى المعاملات، والرياضات. وله بيان شاف فى الطريقة.

ذهب عمرو بن عثمان المكى إلى أصفهان لزيارته، وكان قد اقترض ثلاثين ألف درهم. فقضاه على بن سهل عنه.

ومن أقواله: المبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق. والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية. ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ. وإظهار الدعوى من رعونات البشرية. ومن لم يصحح مبادئ إرادته، لا يسْلَم فى منتهى عواقبه.

قالوا له: حظيت بدُر المعلى، فتكلم. فقال: من ظن أنه أقرب إليه؛ فهو فى الحقيقة أبعد. مثلما تسقط أشعة الشمس على نافذة، فيريد الأطفال الحصول على تلك الذرات، فيرفعون أيديهم، ويظنون أنها ستقع فى قبضتهم. فلما يبسطون أيديهم، لا يجدون شيئاً.

وقال: الحضور بالحق أفضل من اليقين؛ لأن الحضور وطنات، واليقين خطرات. والحاضرون أمام العرش، والموقنون فى البلاط.

وقال: الغافلون يعيشون فى حلم الله. والذاكرون يعيشون فى رحمة الله، والعارفون يعيشون فى لطف الله.

وقال: حرام على من عرف الله أن يسكن إلى شئ غيره.

وقال: أعاذنا الله وإياكم من غرور حسن الأعمال، مع فساد بواطن الأسرار.

وقال: التمست الغنى، فوجدته فى العلم. والتمست الفخر، فوجدته فى الفقر. والتمست العافية، فوجدتها فى الزهد. والتمست قلة الحساب، فوجدتها فى الصمت. والتمست الراحة فوجدتها فى اليأس.

وقال: من وقت آدم إلى قيام الساعة، الناس يقولون: القلب! القلب! وأنا أحب أن أرى رجلاً يصف لى أيش القلب، وكيف القلب، فلا أرى.

وسئل عن حقيقة التوحيد، فقال: قريب من الظنون، بعيد من الحقائق.

يروى أنه قال: ليس موتى كموتكم بالأعلال والأسقام، إنما هو دعاء وإجابة. أُدعى، فأجيب.

وكان يمضى يوماً، فقال: لبيك، وسقط ميتاً. قال الشيخ المزين(٧٢): قلت له: قل: «لا إله إلا الله». فابتسم، وقال لى تقول لى: انطق الشهادة. فبعزته، ليس هناك بينى وبينه إلا حجاب العزة. وأسلم الروح. فكان الشيخ أبو الحسن المزين يمسك بمحاسنه، ويقول: كيف يلقن حجام مثلى الشهادة لأولياء الله، واخجلاه، وكان يبكى.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر خير النساج(٧٣)
قدس الله روحه العزيز

هو المفتى بالهداية، والمهدى إلى الولاية. هو حارس العقل والشرع، والعارف بالأصل والفرع. هو معطى الحجاج، شيخ الوقت خير النساج، رحمة الله عليه.

كان أستاذ كثير من المشايخ فى بغداد، وكان شيخ زمانه. وله فى الوعظ والمعاملة بيان شاف، وعبارات مهذبة. واتسم بالخلق، وغاية الحلم ، والورع، والمجاهدة التامة، والنفس المؤثر. وتاب الشبلى وإبراهيم الخواص فى مجلسه. وبعث بالشبلى إلى الجنيد حفاظاً على حرمة الجنيد. وكان مريداً لسرى السقطى، وبجله الجنيد، وبالغ أبو حمزة البغدادى فى شأنه مبالغة تامة.

والسبب فى تسميته «خير النساج» أنه خرج من موطنه إلى سامراء. ومرّ على الكوفة قاصداً الحج. فلما وصل إلى بوابة الكوفة، وكان قد ارتدى مرقعة بالية، وكان أسود اللون، فمن كان يراه، كان يقول: هذا أبله. فرآه رجل، وقال: أستعين به فى عمل عدة أيام. فذهب إليه، وقال: هل أنت عبد؟ قال: بلى. قال: وهربت من سيدك؟ قال: بلى. قال: سأرعاك حتى أسلمك إلى سيدك. قال الشيخ: إننى

أريد هذا. وقال: كنت أرغب طوال عمرى فى أن أجد من يعهد بى إلى سيدى. فأخذه إلى داره، وقال له: اسمك خير. فلم يخالفه؛ لحسن اعتقاده بأن المؤمن لا يكذب، ومضى معه، وقام بخدمته. وعلّم الرجل خيراً النسج. وقام خير على أمره سنوات. وكلما كان يقول له: يا خير. كان يناديه لبيك! إلى أن ندم ذلك الرجل على فعلته؛ لأنه كان يرى صدقه، وأدبه، وفراسته. وكان يشاهد كثرة عبادته. وقال له: كنت قد أخطأت. لست عبدى؛ فاذهب حيث تريد. فمضى، وذهب إلى مكة. وبلغ تلك الدرجة التى قال معها الجنيد: «الخير خيرنا». وكان أحب إليه أن يدعى خير، ويقول: لا يجوز أن أغير اسماً أسمانى به رجل مسلم.

يروى: أنه كان ينسج بين الحين والآخر. كان يذهب إلى شاطئ دجلة. فكان السمك يقترب منه، ويحضر له أشياء. وكان ينسج قماشاً لعجوز يوماً، فقالت العجوز: إن أحضرت الدرهم (الأجر)، ولم أجدك، فلمن أعطه؟ فقال لها: الق به فى دجلة. فأحضرت العجوز الدرهم، ولم تجده؛ فألقت به فى دجلة. فلما ذهب خير إلى شاطئ دجلة. أحضر له السمك الدرهم. ولما سمع المشايخ هذا، استاءوا منه، وقالوا: لقد شغلناه بالعوبة، وهذه علامة الحجاب. ويمكن أن تكون علامة الحجاب لغيره، لكن ليس له. كما لم تكن لسليمان عليه السلام.

وقال: كنت فى البيت، فجال بخاطرى أن الجنيد بالباب. فدفعت هذا الخاطر عنى ثلاث مرات. ثم خرجت، فرأيت الجنيد واقفاً بالباب، وقال لى: لماذا لم تخرج متبعاً الخاطر الأول.

وقال: دخلت المسجد، فرأيت فقيراً، فلما رآنى، تعلق بى، وقال: أيها الشيخ، ترفق بى؛ فإن محنتى عظيمة! فقلت: وما هى؟ قال:

فقدت البلاء، وقويت بالعافية. قال: فنظرت، فإذا قد فتح لى بشئ من الدنيا.

وقال: الخوف: سوط الله فى الأرض، يُقوّم به أنفساً قد تعودت سوء الأدب.

وقال: العمل الذى يبلغ الغايات هو رؤية التقصير، والعجز، والضعف.

يروى أنه عاش مائة وعشرين سنة. فلما اقتربت وفاته، وكان وقت صلاة المغرب، ألقى عزرائيل عليه بظلاله. فرفع رأسه من فوق الوسادة، وقال: قف، عافاك الله! إنما أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور. قيل لك: اقبض روحه. وقيل لى: إذا حان وقت الصلاة، أدها. وقد حان الوقت. وما أمرت به لا يفوتك، وما أمرت أنا به يفوتنى. فاصبر، حتى أصلى المغرب. ثم توضأ، وصلى، ومات بعد ذلك.

وفى الليلة ذاتها، شوهد فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: لا تسألونى عن هذا، ولكنى استرحت من دنياكم الوضرة.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر أبي حمزة الخراساني(٧٤)

قدس الله روحه العزيز

هو شريف الأقران، ولطيف الإخوان. هو المتمكن من الطريقة، والمتوكل في الحقيقة. هو كعبة الإسلام أبو حمزة الخراساني رحمة الله عليه.

كان من جملة المشايخ، ومن أكابر الطريقة. وكان رفيع القدر، عالي الهمة، ولا مثيل له في الفراسة. وكان قد بلغ الغاية في التوكل. ورياضاته كثيرة وكراماته عديدة، ومناقبه وفيرة. واختلى الخلوة اللائقة، وأدرك أبا تراب والجنيد.

يروى أنه دخل البادية متوكلاً، ونذر ألا يطلب شيئاً من أحد قط، وألا يلتفت إلى أحد. وأوفى نذره، فمضى متوكلاً دون دلو أو حبل. وكانت في جيبه قطعة فضة، كانت أخته قد أعطتها له فنازعه المتوكل قائلاً: ألا تخجل ممن رفع السماء دون عمد! ألا يضمن لك الرزق دون فضة! فألقى الفضة. فبينما هو يمشي، إذ وقع في بئر، ومرّ وقت، فنازعته نفسه أن يستغيث. فجلس أبو حمزة صامتاً. وكان رجل يمر،فرأى رأس البئر مفتوحة، فأتى ببعض الحصى، وسدّ رأس البئر. فهمّ أبو حمزة أن يصيح، وقال: يقول الحق تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا

بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾(٧٥) . لكنه قال: التوكل أقوى من أن يبطل بعجز النفس ومكرها، واستسلم للأمر فلما سوى ذلك الرجل رأس البئر بالأرض. قال أبو حمزة: من ينظر إلى أعلى، يسقط هنا. وتوكل على الله تعالى، وخفض رأسه، وبلغ اضطراره الكمال، واطمئن التوكل. فجاء أسد، وفتح البئر، وتعلق بحافته، وأدلى رجليه. فقال أبو حمزة: لن أصاحب قط. فألهم: إنه ليس قطاً عادياً؛ فتعلق به أبو حمزة، وخرج، فإذا هو سبع، لم يكن قد رأى أشرس منه قط. وسمع صوتاً: «يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف». فلما توكلت علينا، نجيناك على يد مهلك الأرواح. ثم عفر الأسد وجهه بالتراب، ومضى.

يروى أن الجنيد كان يمر يوماً، فرأى إبليس عارياً، يقفز على رقاب الناس، فقال له: يا ملعون، ألا تخجل من هؤلاء الناس! قال: أى ناس، فلا ناس هنا، والناس هناك فى مسجد الشونيزية، وهم حرقوا كبدى. قال الجنيد: فنهضت، وذهبت إلى مسجد الشونيزية. فرأيت أبا حمزة مطأطأ الرأس. فرفع رأسه، وقال: كذب ذلك الملعون؛ لأن أولياء الله أعز من أن يطلع عليهم إبليس.

يروى أنه كان محرماً فى عباءة، كان يتحلل منه مرة فى السنة.

سئل عن الأنس، فقال: ضيق الصدر عن معاشرة الخلق.

وقال: الغريب المستوحش من الإلف.

وقال: من استوحش من نفسه، أنس قلبه بموافقة مولاه (سبحانه وتعالى).

وقال: من استشعر ذكر الموت، حُبِّب إليه كل باق، وبُغِّض إليه كل فان.

وقال: المتوكل من ينهض فى الصباح، فلا يذكر الليل. فلما يقبل الليل، لا يذكر الصباح.

طلب رجل وصية منه، فقال: هيئ زادك للسفر الذى بين يديك

وقد مات فى نيسابور، ودفن بجوار أبى حفص الحداد.

ـ رحمهما الله تعالى وتقدس سرهما ـ

ذكر أحمد بن مسروق(٧٦)

قدس الله روحه العزيز

هو ركن الزمان، وقطب الأبرار. هو فريد الدهر، ووحيد العصر. هو العاشق المعشوق شيخ الزمان أحمد بن مسروق رحمة الله عليه.

كان من كبار مشايخ خراسان ، وأصله من طوس، لكنه كان يسكن بغداد. وكان من جملة أولياء الله تعالى باتفاق الجميع. وصحب قطب المدار(٧٧) رحمة الله عليه، وكان من الأقطاب.

سئل: من القطب؟ قال: لم يظهر، ولكن يبدو من الإشارة أنه الجنيد؛ فقد خدم أربعين من أصحاب التمكين، والمشايخ الراسخين، وأفاد منهم، وبلغ الكمال في علوم الظاهر والباطن، والغاية في المجاهدة والتقوى. وصحب أحمد المحاسبي والسرى.

وقال: جاءني شيخ، وكان يتكلم كلاماً حسناً، وكان عذب الكلام، حلو اللسان. وقال لنا: كل ما وقع لكم في خواطركم، فقولوه لي. قال ابن مسروق: فوقع في قلبي أنه يهودي ولم يتركني هذا الخاطر. فذكرت ذلك للجريري، فكبر عليه ذلك. فقلت: لابد من أن أخبر الرجل بذلك. فقلت له: إنك قلت: كل ما وقع في خاطركم، فقولوه لي. وقد وقع لي أنك يهودي. فأطرق زمناً، ثم قال: صدقت، ونطق

الشهادة. ثم قال: نظرت فى كل الأديان والمذاهب، وقلت: إن كان هناك قوم على حق، فهم أنتم. وقد جئتكم حتى تمتحنونى، فوجدتكم على حق.

وقال: من يكن سروره بغير الحق؛ فسروره يورث الهموم. ومن لم يكن أنسه فى خدمة ربه؛ فهو من أنسه فى وحشة. ومن راقب الله تعالى فى خطرات قلبه؛ عصمه الله تعالى فى حركات جوارحه.

وقال: من تحقق بالتقوى، هان عليه الإعراض عن الدنيا.

وقال: التقوى ألا تمد عينيك إلى زهرة الدنيا، ولا تفكر بقلبك فيها.

وقال: تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى، وبه يصل العبد إلى مجمل حقيقة التقوى.

وقال: كثرة النظر فى الباطل، تذهب بمعرفة الحق من القلب.

وقال: من كان مؤدبه ربه، لا يغلبه أحد.

وقال: إن الله تعالى وسم االدنيا بالوحشة، لئلا يكون أنس المطيعين إلا بالله عز وجل.

وقال: يلزم المرء الخوف؛ لأن الخوف سابق على الرجاء، فقد خلق الحق تعالى الجنة والجحيم، ولا يدخل الجنة من لا يمر على الجحيم.

وقال: أكثر ما يخاف منه العارفون فوت الحق.

وقال: شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة، وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى بماء

الاتفاق والموافقة.

وقال: متى ما طمعت فى المعرفة، ولم تحكم قبلها مدارج الإرادة؛ فأنت فى جهل. ومتى ما طلبت الإرادة، قبل تصحيح مقام التوبة، فأنت فى غفلة مما تطلبه.

وقال: الزاهد هو الذى لا يملك مع الله سبباً.

وقال: أنت فى هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر أبى عبد الله بن المغربى[٧٨]
قدس الله روحه العزيز

هو شيخ الملة، وقطب الأمة. هو زين الأصحاب، وركن الأقطاب. هو الصبح المشرق اليثربى، أبو عبد الله المغربى رحمة الله عليه.

كان أستاذ المشايخ والأولياء، ومن قدامى الكبار. وكان أمين الأصفياء، وله ولاية حسنة. وكان حجة فى تهذيب المريدين. وحظى بمهابة كبيرة فى القلوب، وجاه عظيم. ولم ينل أحد مكانته فى التوكل وتجريد الظاهر والباطن. وقد أفاض إبراهيم بن شيبان، وإبراهيم بن الخواص فى شرح كماله. وقد كان شيخاً لهما. وله كلمات رفيعة. وعاش مائة وعشرين سنة.

كان عجيب الشأن؛ لم يأكل مما وصلت إليه يد بنى آدم سوى أصول الحشيش. وحيثما وجد مريدوه أصول الحشيش، كانوا يحملونها إليه، حتى يتناول منها قدر حاجته. وكان قد تعود أكلها.

كان أبو عبد الله يسافر أبداً ومعه أصحابه، وهو محرم. فإذا تحلل من إحرامه، أحرم ثانياً، ولم يتسخ له ثوب، ولا طال له شعر.

يروى أنه قال: ورثت داراً عن أمى، بعته بخمسين ديناراً، وعزمت على السفر إلى البادية. فجاءنى أعرابى، وقال: ماذا تملك؟

قلت: خمسين ديناراً. فقال لى: هاتها. فأعطيتها له. فبسطها، ونظر إليها، وأعادها إلى. ثم أنخى الراحلة، وقال لى: اجلس. فقلت له: ماذا دهاك؟ قال لى: أثلج صدقك قلبى. ثم اصطحبنى إلى الحج، وبقى معى مدة، وصار من أولياء الحق.

يروى أنه قال: كنت أمضى فى البادية ذات مرة، فرأيت صبياً دون زاد أو راحلة، فقلت له: كيف تمشى أيها الحر دون زاد أو راحلة؟ فقال: انظر يميناً ويساراً، فإنك لن ترى سوى الله تعالى أحداً.

يروى أنه كان له أربعة أبناء، وعلّم كل واحد منهم حرفة. فقالوا: أيليق هذا بهم! فقال: أعلمهم الكسب، حتى يتحملوا المشاق فى سبيل الصديقين، ويتعاونوا مع غيرهم، بعد وفاتى؛ لأنهم أبنائى.

وقال: أفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات.

وقال: من ادعى العبودية، وله مراد باق فيه، فهو كاذب فى دعواه. إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته، وقام بمراد سيده. فيكون اسمه ما سمى به، ونعته ما حلّى به. إذا سمى باسم، أجاب عن العبودية؛ فلا اسم له، ولا وسم، لا يجيب إلا لمن يدعوه لعبودية سيده.

وقال: أعظم الناس ذلاً، فقير داهن غنياً، وتواضع له وأعظم الناس عزاً. غنى تذلل لفقير وحفظ حرمته.

وقال: الفقراء الراضون هم أمناء الله فى أرضه، وحجته على عباده، بهم يندفع البلاء عن الخلق.

وقال: الفقير المجرد من الدنيا ـ وإن لم يعمل شيئاً من أعمال الفضائل ـ ذرة منه أفضل من هؤلاء المتعبدين المجتهدين، ومعهم الدنيا.

وقال: ما رأيت أنصف من الدنيا! إن خدمتها خدمتك. وإن تركتها تركتك.

وقال: ما فَطِنَتْ إلا هذه الطائفة، واحترقت بما فطنت.

وقد مات أبو عبد الله بطور سيناء، ودفن فيه.

ـ رحمة الله عليه رحمة واسعة ـ

ذكر أبى على الجورجانى(٧٩)

قدس الله روحه العزيز

هو عمدة الأولياء، وزبدة الأصفياء. هو المقبول فى الإمامة، والمخصوص بالكرامة. الشيخ الخفى، أبو على الجورجانى رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ، ومن فتيان الطريقة. وبلغ الكمال فى المجاهدة، وله تصانيف في المعاملات قيمة مشهورة. وأقواله مقبولة مذكورة. وكان مريداً للحكيم الترمذى.

ومن أقواله: الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون، وعلى الظنون يعتمدون، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقبلون، وعن المكاشفة ينطقون.

وقال: ثلاثة أشياء من عقد التوحيد الخوف، والرجاء، والمحبة. فزيادة الخوف من كثرة الذنوب لرؤية الوعيد، وزيادة الرجاء من اكتساب الخير لرؤية الوعد، وزيادة المحبة من كثرة الذكر لرؤية المنة. فالخائف لا يستريح من الهرب، والراجى لا يستريح من الطلب، والمحب لا يستريح من ذكر المحبوب. فالخوف نار منورة، والرجاء نور منور، والمحبة نور الأنوار.

وقال: من علامات السعادة على العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقته للسنة فى أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن خلقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه بأمر المسلمين، ومراعاته لأوقاته.

وقال: الشقى من أظهر ما كتم الله عليه من معاصيه.

وقال: الولى هو الفانى فى حاله، الباقى فى مشاهدة الحق سبحانه، تولى الحق تعالى سياسته، فتوالت عليه أنوار التوالى، فلم يكن له عن نفسه إخبار، ولا مع غير الله قرار.

وقال: العارف من منح قلبه للمولى، وجسده للخلق.

وقال: حسن الظن بالله، غاية المعرفة به. وسوء الظن بالنفس، أصل المعرفة بها.

وقال: من لزم أعتاب المولى، لا يكون بعد لزومه إلا فتح الباب. ومن صبر على الله، لا يكون بعد صبره إلا إدراك الحق.

وقال: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة. وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة.

وقال: الرضا دار العبودية، والصبر بابه، والتفويض بيته. فالصوت على الباب، والفراغة فى الدار، والراحة فى البيت.

وقال: البخل ثلاثة أحرف: الباء وهو البلاء، والخاء وهو الخسران، واللام وهو اللوم. فالبخيل بلاء فى نفسه، وخاسر فى سعيه، وملوم فى بخله.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر أبي بكر الكتاني (٨٠)
قدس الله روحه العزيز

هو صاحب مقام الاستقامة، والعالي الهمة في الإمامة. هو شمع عالم التوفيق، وركن كعبة التحقيق. هو القبلة الروحانية، الشيخ أبو بكر الكتاني رحمة الله عليه.

كان شيخ مكة، وشيخ زمانه أيضاً. وكان فريداً في الورع، والتقوى، والزهد، والمعرفة. وكان من كبار مشايخ الحجاز. وكان في الطريقة صاحب تصنيف وتمكين، وفي الولاية صاحب مقام، وفي الفراسة صاحب عمل. وبالغ في المجاهدة والرياضة. وبلغ الكمال في أنواع العلوم خاصة علم الحقائق والمعرفة.

كان قد صحب الجنيد، وأبا سعيد الخراز، والنوري. وأطلقوا عليه «سراج الحرم». وأقام في مكة مجاوراً، حتى مات. وكان يصلي من أول الليل إلى آخره، ويختم القرآن. وكان قد ختم القرآن اثنتي عشرة ألف مرة في الطواف. وأقام في الحرم ثلاثين سنة، وكان يجدد وضوءه ـ خلالها ـ مرة في كل يوم بليلته. ولم ينم طوال هذه المدة. وفي أول أمره، استأذن أمه في الحج، وقال: لما دخلت البادية،

انتابنى حال، استوجب الغسل. فقلت لنفسى: ربما جلت دون إذن أمى؛ فانصرفت. فلما وصلت إلى باب الدار، وكانت أمى قد جلست خلفه؛ تنتظرنى، فقلت لها: يا أمى، ألم تأذنى لى ! فقالت: بلى، لكنى لم أستطع رؤية الدار دونك. ومنذ خرجت، وأنا جالسة هنا، وكنت قد نويت ألا أبرح هذا المكان حتى تعود. ثم قصد البادية، لما ماتت أمه.

قال: كنت فى البادية، فرأيت فقيراً ميتاً، كان يبتسم. فقلت: تبتسم وأنت ميت؟! قال: هكذا تكون محبة الله تعالى.

قال أبو الحسن المزين: نزلت البادية دون زاد أو راحلة، ولما وصلت إلى حافة عين، جلست، وقلت فى نفسى: لقد قطعت البادية دون زاد أو راحلة. فرأيت رجلاً، نادى علىّ قائلاً: يا حجام لا تحدث نفسك بالأباطيل. فنظرت، فرأيت الكتانى. فتبت، وأنبت.

وقال: شعرت بشىء فى قلبى تجاه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه لا لشىء إلا أن الرسول ﷺ. قال: «لا فتى إلا علىّ». وشرط الفتوة أن يترك الأمر إليه حقناً للدماء، مع أن معاوية كان على باطل، وكان هو على حق .

وقال: لى دار بين الصفا والمروة. رأيت المصطفى ﷺ فيه، فى المنام، مع أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين. وقد دخل، وعانقنى، ثم أشار إلى أبى بكر قائلاً: من هذا؟ قلت: أبو بكر ثم أشار إلى عمر، فقلت: عمر. ثم أشار إلى عثمان، فقلت: عثمان. ثم أشار إلى علىّ، فشعرت بالخجل. فآخى السيد (عليه السلام) بينى وبين علىّ، وتعانقنا. ثم مضوا. وبقينا أنا وعلى رضى الله عنه، فقال لى: هيا نذهب إلى جبل أبى قبيس، وشاهدنا الكعبة. فلما استيقظت، وجدت نفسى على جبل أبى قبيس، وقد صفا قلبى لعلىّ رضى الله عنه.

وقال: صحبنى رجل، وكان على قلبى ثقيلاً؛ فوهبت له شيئاً؛ ليزول ما فى قلبى، فلم يزل. فحملته إلى بيتى، وقلت له: ضع رجلك على خدى. فأبى، فقلت: لابد. ففعل. واعتقدت ألا يرفع رجله من فوق خدى، حتى يرفع الله من قلبى ما كنت أجده، ويتبدل محبة. وكان الله قد منّ علىّ بمائتى درهم حلالاً، فحملتها إليه، ووضعتها على طرف سجادته، وقلت له: اصرفها فى بعض أمورك. فنظر إلىّ شزراً، وقال: اشتريت هذا الوقت (مع الله تعالى على الفراغ) بسبعين ألف دينار. وتريد أن تخدعنى بهذه! وقام، ونفض السجادة، فما رأيت كعزّه حين مر، ولا كذلى حين التقطتها.

يروى أن مريداً له كان فى حال النزع، ففتح عينه، ونظر إلى الكعبة. فجاءت ناقة، وركلته، وأخرجت عينه. فنودى الشيخ فى سريرته فى الحال: إن الإرادة الغيبية والمكاشفات الحقيقية تتجلى له فى هذا الحال؛ فنظر إلى الكعبة، فأُدّب؛ لأنه لا يجوز النظر إلى البيت فى حضور رب البيت.

يروى أن شيخاً نورانياً أطاح بالرداء، ودخل فى عظمة من باب بنى شيبة، وذهب إلى الكتانى، وكان قد خفض رأسه. وسلّم عليه، وقال: أيها الشيخ! لماذا لا تذهب إلى مقام إبراهيم؟ فقد جاء شيخ كبير، وهو يروى أخباراً عظيمة. فلتذهب، وتستمع. فرفع الكتانى رأسه، وقال: أيها الشيخ، عن من يروى هذا الرجل؟ قال: عن عبد الله بن عمر، عن الزهرى، عن أبى هريرة، عن الرسول ﷺ. قال: أيها الشيخ، ذكرت أسانيد طويلة. كل ما يذكروه هناك بالأسانيد. نسمعه نحن هنا دون أسانيد. قال الشيخ: مِن من تسمعه؟ قال «حدثنى قلبى عن ربى جل جلاله». قال الشيخ: وما دليلك على هذا

الكلام؟ قال: الدليل أن قلبى يخبرنى أنك الخضر عليه السلام. فقال: كنت أظن أنه ليس هناك ولى من أولياء الله لا أعرفه، حتى رأيت أبا بكر الكتاني، فلم أعرفه وعرفنى هو؛ فعلمت أن لله أولياء يعرفونى، ولا أعرفهم.

يروى أنه كان يصلى، فجاء لص، ورفع الرداء عن كتفه، وحمله إلى السوق؛ ليبيعه: فتيبست يده فى الحال، وقالوا له: الأفضل أن تعيد الرداء إلى الشيخ، وتتشفع عنده، حتى يدعو الله لك، أن يرد عليك يدك. فعاد اللص، وكان الشيخ لا يزال فى الصلاة؛ فوضع الرداء على كتفه، وانتظر، حتى فرغ الشيخ من الصلاة. فسقط على قدمه، وكان يعتذر له، وينتحب، ويشرح له الحال. فقال الشيخ: أقسم بعزة الله وجلاله، إننى لم أشعر بالسرقة أو الرد. ثم قال: إلهى، إنه أعاد الرداء؛ فرد عليه ما أخذته منه. فصحت يده فى الحال.

يروى أنه قال: رأيت فى المنام شاباً لم أر أحسن منه، فقلت له: من أنت؟ فقال: التقوى. قلت: فأين تسكن؟ قال: فى قلب كل حزين. ثم التفت، فإذا امرأة سوداء كأوحش ما يكون. فقلت: من أنت؟ فقالت: الضحك، فقلت: وأين تسكنين؟ فقالت: فى كل قلب غافل فرح مرح. قال: فانتبهت، واعتقدت ألا أضحك إلا غلبة.

وقال رأيت النبى ﷺ فى المنام إحدى وخمسين مرة فى ليلة، وسألته بعض مسائل.

وقال: رأيت النبى ﷺ فى المنام. فقلت له: بما أدعو؛ حتى لا يميت الحق تعالى قلبى. فقال: قل كل يوم أربعين مرة: ﴿يا حى، يا قيوم، لا إله إلا أنت، أسألك أن تحيى قلبى بنور معرفتك أبداً﴾.

وقال: جاءني فقير، وكان يبكي، ويقول: إنني جائع منذ عشرة أيام، وشكوت الجوع لبعض الأصحاب. ثم ذهبت إلى السوق، فوجدت درهماً في الطريق، مكتوباً عليه: يطعم الله جوعك الذي تشكو منه.

و طلب رجل وصية منه، فقال: كن مع الله اليوم، كما سيكون معك غداً.

وقال: الأنس بالمخلوق عقوبة، وقرب أهل الدنيا معصية، والميل إليهم مذلة.

وسئل عن حقيقة الزهد، فقال: فقد الشيئ والسرور ـ من القلب ـ بفقده، وملازمة الجهد إلى الموت، واحتمال الذل صبراً، والرضا به حتى تموت.

وقال: التصوف خلق، من زاد عليك بالخلق؛ فقد زاد عليك في التصوف.

وقال: الفراسة مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان.

وقال : المحبة الإيثار للمحبوب.

وقال: التصوف صفوة ومشاهدة.

وقال: طاعة الصوفي جناية ـ بالنسبة له ـ يجب الاستغفار عليها.

وقال: الاستغفار توبة. والتوبة اسم جامع لستة أشياء: الندم على ما مضى، والعزم على عدم الرجوع إلى الذنب، وأداء الفرائض بين العبد وربه، ورد المظالم للخلق، وترك كل لحم وجلد وشحم ينبت من الحرام، وأن يذيق الجسد ألم الطاعة كما يذيقه حلاوة المعصية.

وقال: أول الوجد حلو، وأوسطه مُر، وآخره سقم.

وقال: التوكل في الأصل اتباع العلم، وفي الحقيقة كمال اليقين.

وقال: العبادة اثنان وسبعون باباً، واحد وسبعون منها في الحياء من الله تعالى.

وقال: العلم بالله أتم من العبادة له.

وقال: الطعام المشتهى لقمة من ذكر الله في فم اليقين، تؤخذ من مائدة الرضا، في حال التوحيد، مع حسن الظن بكرامة الحق.

وقال: لم يفتح الله تعالى لسان العبد بالدعاء؛ ويشغله بالمعذرة؛ إلا لفتح باب المغفرة.

وقال: إذا صح الافتقار إلى الله، صح الغنى به؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه.

وقال: روعة عند انتباه عن غفلة، وانقطاع عن حظ النفسانية، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين.

وقال: الأعمال لباس العبد، فمن حرمه الحق تعالى من رحمته يترك العمل اليوم. ومن قربه، يداوم على الأعمال، حتى يحترفها.

وقال: قُسِّمت الدنيا على البلوى، وقُسِّمت الآخرة على التقوى.

وقال: من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة.

وقال: الشهوة زمام الشيطان؛ فمن أخذ بزمامه كان عبده.

وقال: كن في الدنيا ببدنك، وفي الآخرة بقلبك.

وقال: إذا سألت الله تعالى التوفيق، فابدأ بالعمل.

وقال: وجدنا دين الله مبني على ثلاثة أركان الحق، والعدل، والصدق. الحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على

العقل، أى لا يمكن إدراك الحق إلا بالظاهر. كما قال عليه الصلاة والسلام نحن نحكم بالظاهر. كان إبليس وإدريس فى عالم الباطن. فلو لم يظهرا، ما عرف أن إبليس على باطل، وإدريس على حق. والعدل على القلب؛ لأنه يستطيع القسمة بالعدل، بحسب كل واحد. ويتعلق الصدق بالعقل؛ لأنهم حين يسألون عن الصدق غداً، سيسألون العقلاء.

وقال: وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق؛ لأن الحق دليل على كل شيء، ولا يكون شيء ـ دونه ـ دليلاً عليه.

وقال: إن لله ريحاً تسمى الصبيحة، مخزونة تحت العرش، تهب عند الأسحار، تحمل الأنين والاستغفار إلى الملك الجبار.

وقال: الشكر فى موضع الاستغفار ذنب، والاستغفار فى موضع الشكر ذنب.

يروى أنهم قالوا له عند وفاته: ماذا فعلت حتى بلغت هذا المقام؟ فقال: إن لم يقترب أجلى، لما قلت. ثم قال: كنت حارساً على القلب أربعين سنة، صرفته عما سوى الله، حتى لم يبق فيه سوى الله تبارك وتعالى.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن الخفيف (٨١) قدس الله روحه العزيز

هو مقرب الأحدية، ومقدس الصمدية. هو ربيب الحضرة، ومختار الله. هو المحقق اللطيف، قطب الوقت أبو عبد الله محمد بن الخفيف رحمة الله عليه.

كان شيخ مشايخ عهده، أوحد زمانه. وكان قدوة فى علوم الظاهر والباطن. ورجع إليه أهل الطريقة فى ذلك الوقت. وحظى ببصيرة عظيمة، وذكاء حاد، واحترام وفير. وفضائله لا تحصى، ولا يمكن ذكرها. كان مجتهداً فى الطريقة، وله فيها مذهب خاص. وتدين له جماعة من المتصوفة بالولاء.

وكان يصنف كل أربعين يوماً تصنيفاً عن غوامض الحقائق، وله كثير من التصانيف النفيسة فى علم الظاهر، جميعها مقبولة مشهورة. ومجاهداته، لا يقوى عليها البشر. ولم يكن لأحد فى عهده تلك النظرة التى كانت له فى الحقائق والأسرار. ولم يخلفه أحد فى فارس، أو ينتسب إليه.

كان من أبناء الملوك، وسافر مجرداً، وكان قد أدرك رويماً، والجريرى، وابن عطاء، ومنصور الحلاج، والجنيد.

انشغل أبو عبد الله بأمر الدين في بداية حاله، فكان يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عشرة آلاف مرة في ركعة واحدة. وكثيراً ما كان يصلي ألف ركعة من الغداة إلى العصر. وكان قد ارتدى الخرقة عشرين سنة، وكانت له أربعون أربعينية في كل سنة. ولما رحل عن الدنيا، كان قد صام أربعين أربعينية متواصلة، ولم يخلع الخرقة.

يروى أنه كان هناك شيخ متحقق في عهده، ولكنه لم يكن من علماء الطريقة. وأقام في فارس، واسمه محمد الذكيري، ولم يرتد المرقعة قط. فسئل عبد الله بن خفيف عن شرط ارتداء المرقعة، وبمن تليق؟ فقال: شرط المرقعة قميص أبيض يرتديه محمد الذكيري. وهي تليق به. ونحن لا نعرف المرقعة، حتى نرتديها.

وأطلقوا عليه «الخفيف»؛ لأن طعام إفطاره في كل ليلة، كان سبع زبيبات لا غير. وكان خفيف الحمل، وخفيف الروح، وخفيف الحساب في الآخرة.

ذات ليلة، أعطاه الخادم ثمان زبيبات ولم يعلم الشيخ، فأكلها؛ فلم يجد حلاوة الطاعة التي اعتادها في كل ليلة. فاستدعى الخادم، وسأله عن الحال، فقال: أعطيتك الليلة ثمان زبيبات فقال الشيخ: لماذا؟ قال: وجدتك ضعيفاً؛ فتألمت، وقلت: حتى تقوى. قال الشيخ: إنك لست صاحبي، بل عدوي. فإن كنت صاحبي؛ لأعطيتني ست زبيبات لا سبع. وأقصاه الشيخ عن خدمته، واتخذ خادماً آخراً.

وقال: ما وجبت عليّ زكاة الفطر أربعين سنة، ولي قبول بين الخاص والعام، وقد وهبني الله من النعم ما لا يعد ولا يحصى.

وقال: أردت ـ في أول أمري ـ الذهاب إلى الحج، فلما وصلت إلى بغداد، جال بخاطري أنني لم أذهب لرؤية الجنيد.

ولما نزلت البادية، كان معي حبل ودلو. فشعرت بالعطش، ورأيت بئراً، وكان ظبي يشرب منه. فلما دنوت من البئر، إذا الماء في أسفله. فقلت: يا إلهي، أقدر عبد الله أقل من قدر هذا الظبي!

فسمعت صوتاً يقول: ليس لهذا الظبي دلو ولا حبل، وتوكل علينا. فطاب وقتي، وأطحت بالدلو والحبل، ومضيت. فسمعت صوتاً يقول: يا عبد الله، جربناك فما صبرت!! ارجع، واشرب الماء. فرجعت، فإذا البئر ملأى ماء. فتوضأت، وشربت، ومضيت. ولم تكن لي حاجة قط إلى الماء حتى (وصلت إلى) المدينة. ولما عدت، ووصلت إلى بغداد، ذهبت إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة. فلما وقع بصر الجنيد عليّ قال: لو صبرت، لنبع الماء من تحت رجلك.

يروى أنه قال: كنت في حال حداثتي. واستقبلني فقير، فرأى في أثر الجوع؛ فدعاني إلى داره، وقدم لي لحماً متغير الرائحة؛ فأبيت أن آكله. فرأى الفقير كبري؛ فخجل، وخجلت لأجله. فخرجت، وارتحلت مع جماعة من الأصحاب. ولما وصلنا إلى القادسية، ضللنا الطريق، ولم يكن معنا زاد قط. فصبرنا عدة أيام، حتى أشرفنا على الهلاك. فاضطررنا إلى أن اشترينا كلباً بثمن غال، وشويناه. فأعطوني لقمة منه، وأردت أن آكلها، فتذكرت حال ذلك الفقير، وطعامه. فقلت في نفسي: إنها عقوبة خجل ذلك الفقير. وتبت في الحال. ثم دلونا على الطريق. ورجعت معتذراً إلى الفقير.

وقال: سمعت مرة أن في مصر شيخاً وشاباً قد داوما على المراقبة. فذهبت إلى هناك، فرأيت رجلين، اتجها إلى القبلة. ألقيت السلام عليهما ثلاث مرات، ولم يجيبا. فقلت: بالله عليكما، ردا السلام . فرفع الشاب رأسه، وقال: يا بن خفيف! الدنيا نذر قليل، وقد بقي القليل من القليل، فخذ الكثير من هذا القليل. يا بن خفيف! لعلك

فارغ، فأتيت؛ للسلام علينا. قال هذا، وخفض رأسه. وكنت جائعاً وعطشاناً فنسيت الجوع. وقد استوليا عليّ كلية، فوقفت، وصليت معهما صلاة الظهر، وصلاة العصر، وقلت له: عظني، قال: يا بن خفيف! نحن أهل مصائب، ولا نعظ. وينبغي لأهل المصائب رجل يعظهم. فقضيت هناك ثلاثة أيام، ونحن لا نأكل شيئاً، ولا ننام. فقلت في نفسي: بأي قسم أقسم عليك حتى تعظني؟ فرفع الشاب رأسه، وقال: اصحب من تذكرك رؤيته بالله تعالى، ويجعل هيبته في قلبك، وينصحك بلسان الفعل لا القول.

يروى أنه قال: كنت في بلاد الروم في إحدى السنوات، وذهبت إلى الصحراء يوما، فأحضروا راهباً، وحرقوه، وكحلوا عيون العميّان برماده؛ فأبصروا بقدرة الله تعالى. وكان المرضى يتناولونه؛ فيشفون. فاندهشت؛ لأنهم على باطل، فكيف يكون هذا حالهم؟!. وفي تلك الليلة رأيت المصطفى ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! ماذا تفعل هنا؟ قال: لقد جئت من أجلك. قلت: وما هذا الحال يا رسول الله؟ فقال: إنه أثر الصدق والرياضة في الباطل. فما بالك إذا كان في الحق!

وقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام ذات ليلة. فأتاني وأيقظني وكنت أنظر إليه، وقال: من عرف طريقاً إلى الله تعالى، فسلكه، ثم رجع عنه؛ عذبه الله تعالى عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين.

يروى أن النبي ﷺ وهو واقف على طرفي أصبعين. وأراد عبد الله ألا يضيع سنة النبي ﷺ؛ فكان يصلي مثله. فلما كان يصلي ركعة على أطراف أصابعه، كان لا يستطيع أن يصلي الأخرى، فرأى النبي ﷺ في المنام، وقد خرج من المحراب، وقال: هذه الصلاة خاصة بي، فلا تفعلها.

يروى أنه قال للخادم في منتصف الليل: ابحث لى عن امرأة أتزوجها. فقال الخادم: أين أذهب فى منتصف الليل؟ولكن، إن لى ابنة، إن أذن لى الشيخ، أحضرتها. فقال له: احضرها. فاحضر الخادم ابنته، فتزوجها الشيخ فى الحال. فلما انقضت سبعة أشهر، وضعت طفلاً، ومات. فقال الشيخ للخادم: خيّر ابنتك بين الطلاق أو البقاء. قال الخادم: ما السر فى هذا أيها الشيخ؟ قال: فى الليلة التى تزوجتها، رأيت القيامة فى المنام، وقد بقى خلق غفير غرقى فى عرقهم. فجاء طفل، وأخذ بيد والديه، وعبر بهما الصراط كالريح. وأردت أنا، أن يكون لى طفل مثله. ولما ولد ذلك الطفل، ورحل، تحقق مرادى.

يروى أنه تزوج أربعمائة مرة بعد ذلك؛ لأنه كان من أبناء الملوك. ولما تاب، وبلغ الكمال، كانت النساء تتقرب إليه، وكان يتزوجهن مثنى وثلاث. وتزوج واحدة مدّة أربعين سنة وكانت ابنة وزير.

يروى أنهم سألوا نساءه: كيف حال الشيخ معكم فى الخلوة؟ فقلن جميعاً: لا علم لنا قط عن صحبته. وإن كان هناك أحد يعلم، فهى ابنة الوزير. فسألوها، فقالت: لما كان يذاع الخبر، أن الشيخ سيأتى الليلة إلى دارى. كنت أعد الطعام اللذيذ، وأتزين. فلما كان يأتى، ويرى ذلك، كان يدعونى، وينظر إلى برهة، ويتطلع إلى ذلك الطعام برهة. وفى ليلة، أمسك بيدى، ووضعها فى تلابيبه، ومسح بها على بطنه. فوجدت خمس عشرة عقدة ممتدة من صدره وحتى سرته. وقال: هلا سألت أيتها الفتاة عن هذه العقد؟ فسألته عنها، فقال: كلها

لهيب، وشدة صبر. فقد عقدت عقدة على عقدة بسبب مثل هذا الوجه، ومثل هذا الطعام الموجود أمامى. قال هذا، ونهض. فلم اتجرأ عليه أكثر من هذا، وقد بلغ الغاية فى الرياضة.

يروى: أنه كان له مريدين، أحدهما يدعى: أحمد الكبير، والآخر: أحمد الصغير. وكان الشيخ يحسن إلى أحمد الصغير. فغار الأصحاب. واجتهد أحمد الكبير، وارتاض. فعلم الشيخ بذلك، وأراد أن يبين لهم أن أحمد الصغير أفضل. وكانت ناقة قد نامت أمام باب الخانقاه. فقال الشيخ: يا أحمد الكبير! قال: لبيك، قال: احمل تلك الناقة إلى السطح. قال أحمد: يا شيخ، كيف يمكن حمل الناقة إلى السطح؟! فقال الشيخ: اتركها إذن ثم قال: يا أحمد الصغير! قال: لبيك. قال احمل تلك الناقة إلى سطح الخانقاه. فعقد وسطه فى الحال، وشمَّر عن ساعده، وخرج يجرى، ووضع يديه تحت الناقة، وحاول رفعها، فلم يستطع. فقال الشيخ: تم الأمر يا أحمد، واتضح. ثم قال للأصحاب: إن أحمد بذل ما فى وسعه، وأطاع الأمر، ولم يعترض، واهتم بأمرنا، لا للعمل الذى يمكن أن يؤديه أو لا. وانشغل أحمد الكبير بالحجة، ودخل فى مناظرة. ويمكن مطالعة باطن الحال من ظاهره.

يروى أن مسافراً حل على الشيخ، وقد ارتدى خرقة سوداء، وعمامة سوداء، وإزاراً أسود، وقميصاً أسود. فغار الشيخ منه فى سريرته. ولما صلى المسافر ركعتين، وسلم. قال الشيخ: يا أخى! لماذا ترتدى السواد؟ قال: لأن سيدىَّ ماتا: أى النفس والهوى قال: ﴿ أفرأيت من اتخذ إله هواه ﴾ (٨٢). قال الشيخ: اخرجوه. فأخرجوه فى ذلة. ثم قال: احضروه؛ فأحضروه. وأمرهم بإخراجه وإحضاره أربعين

مرة. ثم نهض الشيخ، وقبل رأسه، وطلب المعذرة، وقال: جدير بك أن تلبس السواد؛ لأنك لم تغضب فى هذه الأربعين مرة التى أذلوك فيها.

يروى أن صوفيين جاءا من بعيد لزيارة الشيخ، فلم يجداه فى الخانقاه. فسألا: أين هو؟ قالوا: فى قصر عضد الدولة (٨٣) قالا: أى شأن للشيخ بقصور السلاطين، واسفاه على حسن ظننا بهذا الشيخ. ثم قالا: نطوف فى المدينة. فدخلا السوق، وذهبا إلى حانوت خياط؛ ليحيكا جيب الخرقة. وحدث أن ضاع مقراض الخياط. فقال لهما: لقد سرقتماه. ثم سلمهما للعسس، فأخذوهما إلى قصر عضد الله، فأمر عضد الدولة بقطع أيديهما. وكان الشيخ عبد الله بن خفيف حاضراً، فقال: اصبروا، فلا شأن لهم بهذا. فتركوهما. ثم قال: أيها الفتيان! إن ظنكما صحيح. ولمثل هذا الأمر كان مجيىء إلى قصور السلاطين. فصار الصوفيان مريدين له. حتى تعلم أن من يسيىء إلى الرجال، لا يضيعوه، ولا يتركوه فى مهب الريح.

يروى أن مسافراً حل على الشيخ، وقد أطلقت بطنه. فكان يرفع بيده طسته طوال الليل، ولم ينم لحظة. حتى غفا عند الصباح برهة. فنادى عليه ذلك المسافر، وقال: أين أنت لعنك الله؟ فنهض الشيخ خائفاً، مرتعداً، وحمل الطست. فقال المريدون للشيخ: ما هذا المسافر؟ إنه تلفظ بألفاظ (سيئة)، ونحن لا نحتمله. وأنت تصبر عليه. قال الشيخ: سمعت، وليرحمكم الله.

ومن أقواله: لما خلق الله تعالى الملائكة، والجن، والإنس، وخلق العصمة، والكفاية، والحيلة. فقال للملائكة: اختاروا فاختاروا العصمة. ثم قال للجن: اختاروا فاختاروا العصمة. فقال: قد سبقتم فاختاروا الكفاية. ثم قال للإنس: اختاروا. فأرادوا العصمة. فقال: قد سبقتم. فاختاروا الكفاية. فقال: قد سبقتهم. فاختاروا الحيلة، فهم يحتالون بجهدهم.

قال أبو أحمد الصغير (٨٤) للشيخ: بى وسوسة. فقال الشيخ: عهدى بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم.

وقال: الصوفي من ارتدى الصوف صفاء، وأذاق الهوى طعم الجفاء، وطرح الدنيا خلفه.

وقال: اعتزال الدنيا، عين الراحة عند الخروج منها.

وقال: التصوف الصبر تحت مجارى الأقدار، والأخذ من يد الملك الجبار، وقطع الفيافى والقفار.

وقال: الرضا قسمان الرضا به، والرضا عنه. الرضا به فى التدبير، والرضا عنه فيما يقضى به.

وقال: الإيمان تصديق القلب بما أعلمه الحق من الغيوب.

وقال: الإرادة استدامة الكد، وترك الراحة.

وقال: الواصل من اتصل بمحبوبه دون كل شيء سواه، وغاب عن كل شيء سواه.

وقال: الانبساط سقوط الاحتشام عند السؤال.

وقال: التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى.

وقال: الرياضة كسر النفوس بالخدمة، ومنعها عن الفترة.

وقال: القناعة ترك التشوف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود.

وقال: علامة الزهد وجود الراحة فى الخروج عن الملك.

وقال: الحزن حصر النفس عن النهوض فى الطرب.

وقال: الرجاء الاستبشار بوصاله.

وقال: الفقرعدم الإملاك، والخروج من أحكام الصفات.

وقال: اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات.

وسئل: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه، وصبر معه على بلواه.

وسئل عن فقير يجوع ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام يخرج، ويسأل مقدار كفايته: إيش يقال فيه؟! فقال: مكد.

وقال: كلوا، واسكتوا، فلو دخل فقير من هذا الباب، لفضحكم كلكم.

يروى أنه لما قارب الوفاة، قال للخادم: لقد كنتُ عبداً عاصياً هارباً؛ فضع غلاً في رقبتي، وقيداً في قدمي، ووجهني نحو القبلة، وأجلسني. لعله يقبلني. وبعد وفاته، همَّ الخادم بتنفيذ الوصية. فهتف به هاتف: احذر أيها الجاهل، ولا تفعل. أتريد أن تذل من أعززناه.

رحمة الله عليه

ذكر أبي محمد الجريري (٨٥)

قدس الله روحه العزيز

هو ولي قبة الولاية، وصفي كعبة الهداية، هو المتمكن العاشق، والمتدين الصادق. هو البصير في المشاهدة، شيخ الوقت، أبو محمد الجريري رحمة الله عليه.

كان أوحد زمانه، والمصطفى في وقته. والمطلع على دقائق الطريقة بين أقرانه. كان مقبولاً من الجميع، وبلغ الكمال في الأدب. وله في أنواع العلوم حظ وافر، وكان مفتياً في الفقه، وكان إمام عصره. وبلغ الغاية في علم الأصول، وكان أستاذاً في الطريقة، إلى حد أن الجنيد قال عنه للمريدين: إنه خليفتي. كان قد صحب عبد الله التستري.

ومن آدابه، أنه قال: منذ عشرين سنة ما مددت رجلي في الخلوة؛ فإن حسن الأدب مع الله أولى.

يروى أنه اعتكف بمكة سنة، فلم ينم، ولم يتكلم، ولم يعتدل في جلسته، ولم يمد رجليه. فقال أبو بكر الكتاني: بماذا قدرت على اعتكافك؟ فقال: علم صدق باطني، فأعانني على ظاهري.

لما مات الجنيد، أقعد في موضعه. فقال: رأيت صقراً أبيض ذات يوم. وظللت اصطاد أربعين سنة، ولم أجده. فقالوا: كيف؟ قال: دخل

فقير حافى القدم، أشعث، الخانقاه يوماً، وتوضأ، وصلى ركعتين، ووضع رأسه فى تلابيبه. وفى تلك الليلة كان الخليفة قد دعا أصحابنا، فذهبت إليه، وقلت: أتلبى الدعوة مع الدرويش؟ فرفع رأسه، وقال: إنه لم يدعنى! وتلزمنى عصيدة، إن أمرت بها، فحسن، وإلا فإنك تعلم. قال هذا، ووضع رأسه فى تلابيبه. فقلت: لعله حديث العهد بالإسلام، ولا يتفق مع الدراويش. ولم أهتم بطلبه. ولبينا الدعوة، وجلسنا للسماع. ولما رجعنا. كان ذلك الفقير لا يزال يخفض رأسه، فذهبت، ونمت. فرأيت الرسول ﷺ فى المنام قادماً مع شيخين، وفى أثره خلق غفير. فسألت من الشيخان؟ قالوا: إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وأكثر من مائة ألف نبى. فتقدمت، وسلمت. فأعرض عنى الرسول ﷺ. قلت: يا رسول الله! ماذا جنيت حتى تعرض عنى؟فقال: طلب أحد أصحابنا عصيدة منك، فبخلت عليه، ولم تقدمها له. فاستيقظت فى الحال، وبكيت. فترامى إلى أذنى صوت فى الخانقاه. فنظرت فكان الفقير يخرج، فخرجت فى أثره، وقلت: تمهل يا عزيزى، سأحضر لك طلبك. فتمهل، وابتسم، وقال: من يطلب منك شيئاً، ينبغى أن يشفع له مائة وأربعة وعشرون نبياً؛ حتى تجيبه إلى طلبه. قال هذا، ومضى، واختفى؛ فلم أره أمامى.

يروى أنه كان فى جامع بغداد فقير، لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف. فسئل عن ذلك، فقال: كنت مولعاً بارتداء الثياب الجميلة. فرأيت فى المنام ذات ليلة، كأنى دخلت الجنة، فرأيت جماعة من الفقراء جلست إلى مائدة. فأردت أن أجلس معهم. فأخذ ملك بيدى، وقال: أنت لست منهم؛ فهؤلاء القوم أصحاب ثوب واحد. فاستيقظت، ونذرت ألا ألبس إلا ثوباً واحداً.

يروى أن الجريرى كان يعقد مجلساً. فنهض شاب، وقال: لقد ضاع قلبى، فادعو لى الله أن يعيده إلى. قال الجريرى: نحن جميعاً مبتلون بهذه المصيبة.

وقال: تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين، حتى رق الدين. ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء، حتى ذهب الوفاء. ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة، حتى ذهبت المروءة. ثم تعامل القرن الرابع بالحياء، حتى ذهب الحياء. ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة.

وقال: من استولت عليه النفس، صار أسيراً فى حكم الشهوات، محصوراً فى سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد؛ فلا يستلذ بكلام الله تعالى، ولا يستحليه. ومن يرضى بنصيبه؛ ينعم عليه (الله تعالى) بأكثر مما يريد.

وقال رجل: ما أصل أمر القلب؟ قال: الأصل المقاربة. أى يرى الله، ويشاهد صنعه.

قالوا: ما التوكل؟ قال: معاينة الاضطرار.

وقال: الصبر ألا يفرق بين حال النعمة والمحنة، مع سكون الخاطر فيهما. والتصبر هو السكون مع البلاء.، [مع وجدان أثقال المحنة]

وقال: الإخلاص ثمرة اليقين، والرياء ثمرة الشك .

وقال: كمال الشكر فى مشاهدة العجز عن الشكر.

وسئل عن العزلة، فقال: هى الدخول بين الزحام، وتمنع سرك ألا يزاحموك، [وتعزل نفسك عن الآثام، ويكون سرك مربوطاً بالحق] .

وقال: محاربة العامة بالخطرات، ومحاربة الأبدال بالفكر، ومحاربة الزهاد بالشهوات، ومحاربة التائبين بالزلات، ومحاربة المريدين بالتمنيات واللذات.

وقال: دوام الإيمان، وسلامة الدين، وصلاح الأبدان فى خلال ثلاث الاكتفاء، والاتقاء، والاحتماء. فمن : من اكتفى بالله صلحت سريرته. ومن اتقى ما نهى عنه، استقامت سريته. ومن احتمى ما لم يوافقه، ارتاضت طبيعته. فثمرة الاكتفاء صفو المعرفة، وعاقبة الاتقاء حسن الخليقة، وغاية الاحتماء اعتدال الطبيعة.

وقال: رؤية الأصول باستعمال الفروع، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول، ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظم الله من الوسائط والفروع.

وقال: حين يحيى الحق تعالى العبد بأنواره، لا يموت إلى الأبد وحين يميته بخذلانه، لا يحييه إلى الأبد.

وقال: رجع العارفون إلى الله منذ البداية ورجع إليه العوام بعد اليأس.

وقال: لما نظر المصطفى ﷺ إلى الحق، ورأى الحق. بقى مع الحق بالحق دون واسطة الزمان والمكان، فكان حضوره حضور من لا حضور له ولا مكان. وتجرد من أوصافه، واتصف بأوصاف الحق تعالى.

ـ رحمة الله عليه ـ

ذكر الحسين بن منصور الحلاج (٨٦)
قدس الله روحه العزيز

هو قتيل الله فى سبيل الله، وأسد أجمة التحقيق. هو البطل الشجاع الصديق، وغريق البحر المواج، الحسين بن منصور الحلاج رحمة الله عليه

كان أمره عجيباً، وارتبطت به وقائع غريبة. وقد بلغ الغاية فى الحرقة والاشتياق، ومعاناة الفراق. وكان ثملاً مضطرباً هائماً فى زمانه. وكان عاشقاً صادقاً وتقياً. وجدّ واجتهد، وله رياضات، وكرامات عجيبة. وكان عالى الهمة، رفيع القدر.

وله تصانيف كثيرة ـ غامضة الأسلوب ـ فى الحقائق والأسرار، ومعانى المحبة الكاملة، وحظى بفصاحة وبلاغة، لم يحظ بها أحد. واتسم بدقة نظر وفراسة، لم تتوفر لأحد. وقد رده أكثر المشايخ، وقالوا: لا قدم له فى التصوف. ما عدا عبد الله بن الخفيف، والشبلى، وأبو القاسم القشيرى [٨٧]، وجملة المتأخرين ـ إلا ما شاء الله. قبلوه. وسار أبو سعيد بن أبى الخير [٨٨] قدس الله روحه العزيز، سار والشيخ أبو القاسم الجرجانى والشيخ أبو على الفارمدى، والإمام يوسف الهمدانى رحمة الله عليهم أجمعين على نهجه. وتوقف البعض فى أمره. كما قال أبوالقاسم القشيرى فى حقه: إن كان مقبولاً؛ لا يرد برد الخلق

له. وإن كان مردوداً؛ لا يقبل بقبول الخلق له. ونسبه البعض إلى السحر، ونسبه بعض أصحاب الظاهر إلى الكفر. ويقول البعض: إنه كان من أصحاب الحلول [٨٩]. ويقول آخرون: إنه تولى إلى الاتحاد [٩٠]. لكن من وصلت إليه رائحة التوحيد، لا سبيل أن يقع عليه خيال الحلول والاتحاد. ومن يقل هذا الكلام، لا تعرف سريرته التوحيد. وهذا كلام يطول شرحه، ولا مجال له في هذا الكتاب.

لكن جماعة من الزنادقة في بغداد، نسبوا أنفسهم إلى الحلاج سواء في الحلول، أو مغالطة الاتحاد، وسموا أنفسهم الحلاجيين. لكنهم لم يفهموا كلامه. وتباهوا بالتقليد المحض في القتل والحرق. فقد حدثت الواقعة ذاتها التي حدثت للحلاج، لرجلين في بلخ. لكن التقليد ليس شرطاً في هذه الواقعة. وإني لا أعجب من رجل يجيز أن تصدر «أنا الحق» من شجرة، والشجرة غائبة. فكيف لا يجيز أن تصدر أنا الحق من الحسين، والحسين فان. كما قال الحق تعالى على لسان عمر: «إن الحق لينطق على لسان عمر». وهنا لا مجال للحلول أو الاتحاد.

يقول البعض: إن الحسين بن منصور الحلاج أستاذ محمد بن زكريا، ورفيق أبي سعيد القرمطي [٩١] رجل. والحسين بن منصور الملحد ـ الذي كان ساحراً ـ رجل آخر.

لكن الحسين بن منصور كان من بيضاء فارس، ونشأ في واسط. وقد قال أبو عبد الله بن الخفيف «الحسين بن منصور عالم رباني». وقال الشبلي: أنا والحلاج رجل واحد. لكني اتهمت بالجنون، فنجوت. وأهلك الحسين عقله. فلو كان مطعونا في دينه؛ لما قال هذان الشيخان هذا الكلام في حقه. وهما حجتان بالنسبة لنا.

داوم الحسين على الرياضة والعبادة، وتكلم في المعرفة والتوحيد.

وارتدى زى الصالحين، واتبع الشرع والسنة. وصدر منه هذا الكلام؛ فهجره بعض المشايخ لا بسبب المذهب أو الدين، بل بسبب استيائهم من سكره. وكانت نتيجة ذلك أنه قدم إلى تستر، والتحق بخدمة الشيخ سهل بن عبد الله، وصحبه سنتين. ثم سافر إلى بغداد. وكان أول سفره وهو فى الثامنة عشرة من عمره. ثم ذهب إلى البصرة، ولقى عمرو بن عثمان، وصحبه ثمانية عشر شهراً. وبعد ذلك زوجه يعقوب الأقطع [٩٢] ابنته. ثم ضاق به عمرو بن عثمان؛ فرحل إلى بغداد، وذهب إلى الجنيد؛ فأمره بالسكوت والخلوة، وصبر على صحبته بعض الوقت. ثم ذهب إلى الحجاز، وأقام بها سنة مجاوراً. ثم عاد إلى بغداد. وقدم مع جمع من المتصوفة إلى الجنيد، وسأله عن مسائل. فلم يجب الجنيد، وقال له: إنك سرعان ما تذل فوق قطعة خشب، فقال له الحلاج: ذلك اليوم الذى أذل فيه، سترتدى أنت فيه ثياب أهل الظاهر؛ فأفتى الأئمة بوجوب قتله. كان الجنيد متصوفاً، ولم يكتب (الفتوى) بقتل الحلاج. وكان الخليفة قد قال: إنه خط الجنيد. فارتدى الجنيد العمامة والجبة، وذهب إلى الكتاب، وكتب جواب الفتوى: «نحن نحكم بالظاهر». أى أنه جدير بالقتل فى الظاهر، والفتوى متعلقة بالظاهر، أما الباطن فيعلمه الله. ولما لم يجد الحسين إجابة على أسئلته عند الجنيد؛ غضب، ومضى إلى تستر دون إذن منه. وأقام هناك سنة، وحظى بقبول عظيم، ولم يكن يعبأ بكلام أهل زمانه؛ فحقدوا عليه.

كتب عمرو بن عثمان رسائل متعلقة به فى خوزستان، وقبّحه فى عين أهلها. وضاق الحلاج أيضاً بذلك المكان،فخلع رداء التصوف، وارتدى القباء، وانشغل بصحبة أبناء الدنيا. لكنه ظل على حاله، واختفى خمس سنوات، قضى فترة منها فى خراسان، وفترة أخرى فى بلاد ما وراء النهر، وفترة فى سيستان، ثم عاد إلى الأهواز. ووعظ أهلها، وكان مقبولاً من

الخاصة والعامة. وكان يتحدث بأسرار الخلق؛ فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ثم ارتدى المرقعة، وقصد الحرم، وكان معه الكثير من المتصوفة في ذلك السفر. ولما وصل إلى مكة، اتهمه يعقوب النهرجوري بالسحر. فعاد من هناك إلى البصرة، ثم إلى الأهواز. ثم قال: اذهب إلى بلاد الشرك، حتى أدعو الخلق إلى الله تعالى. فذهب إلى بلاد الهند، ثم إلى بلاد ما وراء النهر، ثم إلى الصين. ودعا الخلق إلى عبادة الله تعالى. ودون لهم التصانيف. ولما عاد من أقصى العالم، كان أهل الهند يراسلونه، ويطلقون عليه «أبا المغيث»، وكان أهل الصين يطلقون عليه «أبا المعين»، وأهل خراسان «أبا المهر»، وأهل فارس «أبا عبد الله»، وأهل خوزستان «حلاج الأسرار»، وأهل بغداد «المصطلم [٩٣]». وكان يسمى في البصرة «المخبر». ومن ثم كثرت الأقاويل بشأنه. ثم سافر إلى مكة، وأقام سنتين في الحرم مجاوراً، ولما عاد، تبدلت أحواله؛ فكان يدعو الخلق إلى معان لا يستطيع أحدهم فهمها. ويروى أنهم أخرجوه من خمسين مدينة، ومرّ عليه زمن ليس هناك أعجب منه.

وسُمّي بالحلاج؛ لأنه مرّ مرة على مخزن قطن، وأشار؛ فخرجت البذور من القطن في الحال، واندهش الخلق.

يروى أنه كان يصلي أربعمائة ركعة في كل يوم وليلة، وكان يفرضها على نفسه، فقيل له: لِمَ كل هذا العناء في هذه الدرجة التي أنت بها؟ فقال: العناء والراحة يبدوان في حالكم، أما الأحبة فصفتهم فانية؛ فلا يبدو عليهم تعب ولا راحة .

يروى أنه قال وهو في الخمسين من عمره؛ إنني لم أتمذهب بأي مذهب حتى الآن، لكني آليت على نفسي الأصعب من كل مذهب.

واليوم وأنا فى الخمسين من عمرى أصلى، وأتوضأ لكل صلاة

يروى أنه كان يرتاض فى أول أمره، وارتدى مرقعة لم يكن قد خلعها طيلة عشرين سنة. وخلعوها عنه عنوة ذات يوم، فتساقطت منها حشرات كثيرة، وزنوا إحداها، فكان وزنها نصف دانق.

يروى: أن رجلاً جاءه، فرأى عقرباً كان يدور حوله، فهمّ بقتله فقال الحلاج: اتركه؛ فهو نديمنا منذ اثنتى عشرة سنة، ويدور حولنا.

قيل: إن رشيد خرد السمرقندى، سافر إلى الكعبة، وعقد مجلساً أثناء الطريق، وحكى أن الحلاج اتجه إلى البادية مع أربعمائة صوفى، ولما انقضت عدة أيام، ولم يجدوا شيئاً؛ قالوا للحسين: تلزمنا رأساً مشوية. فقال: اجلسوا، ثم كان يضع يده خلفه ويعطى كل واحد رأساً مشوية ورغيفين من الخبز. حتى أعطاهم أربعمائة رأس مشوية، وثمانمائة رغيف. ثم قالوا: يلزمنا رطباً. فنهض وقال: هزونى. فهزوه. فكانت الرطب تتساقط منه. فأكلوا، حتى شبعوا. وحيثما كان يستند إلى شوك، كان يثمر رطباً.

يروى أن طائفة قالت له فى البادية: نريد تيناً. فأطلق يديه فى الهواء، ووضع أمامهم طبقاً من التين الطازج. وطلبوا الحلوى ذات مرة فوضع أمامهم طبقاً من الحلوى الطازجة بالسكر.فقالوا: هذه الحلوى توجد فى باب الطاق فى بغداد. فقال: تستوى لدينا بغداد والبادية.

يروى أن أربعة آلاف رجل كانوا معه فى البادية، واصطحبوه حتى الكعبة. فوقف عارياً أمام الكعبة فى الشمس الحارقة عاماً، حتى إن الدهن كان يتصبب من أعضائه عليها. وتشقق جلده. ولم يبرح المكان. وكانوا يحضرون له رغيفاً وجرة ماء كل يوم، فكان يفطر

ببعضه، ويضع الباقي فوق جرة الماء.

وقيل: إن عقرباً كان قد عشش في إزاره. وإنه قال في عرفات: «يا دليل المتحيرين». ولما رأى الجميع يدعون الله تعالى سقط على تل من الحصى، وكان يراقب الناس، فلما عادوا جميعاً. تنفس، وقال: أيها الملك العزيز! إنني أعلم أنك منزه، وأقر بذلك. إلهي! إنك تعلم عجزي عن كل تسبيح المسبحين، وتهليل المهللين، وظن أصحاب الظن؛ فاشكر نفسك على في مواضع الشكر، فإنه الشكر لا غير.

يروى أنه قال لإبراهيم الخواص في البادية يوماً: أي أمر صار مسلماً لك؟ فقال: التوكل في مقام التوكل صار مسلماً لي. قال: ضيعت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ أي أن التوكل في الامتناع عن الطعام. وأنت تريد أن تقضي عمرك كله في التوكل في ملء بطنك. فمتى ستبلغ الفناء في التوحيد؟

وسئل: هل للعارف وقت؟ قال: لا؛ لأن الوقت صفة صاحب الوقت، ومن يسكن إلى صفته، لا يكون عارفاً. وهذا معنى: «لي مع الله وقت».

وسئل: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: قدمان، وتصل. ازفع قدماً عن الدنيا، والأخرى عن العقبى، تصل إلى المولى.

وسئل عن الفقر، فقال: الفقير هو المستغني عما سوى الله، والناظر بالله.

وقال: المعرفة رؤية الأشياء، وهلاك الجميع في معناها.

وقال: إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة، أوحى الله تعالى إليه بخاطره، وحرس سره أن يسبح فيه خاطر غير خاطر الحق.

وقال: الخلق العظيم هو ألا يوثر فيك جفاء الخلق، بعد أن عرفت الحق تعالى.

وقال: المتوكل لا يأكل شيئاً، وفي البلد من هو أحق به منه.

وقال: الإخلاص تصفية العمل من شوائب الكدورة.

وقال: اللسان الناطق هلاك القلوب الصامتة.

وقال: القيل والقال مرتبط بالعلل، والأفعال بالشرك والحق فارغ عنها ومستغن؛ قال الله تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾: (٩٤)

وقال: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطريق السابقين الناجين، والأزل والأبد، وما بينهما، من الحدوث. لكن بما يعلمون هذا: ﴿ لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد ﴾ (٩٥).

وقال: هناك أفعى فى عالم الرضا يطلقون عليها اليقين، وأعمال ثمانية عشر ألف عالم فى حلقها بمثابة الذرة فى البيداء.

وقال: إننا نطلب بلاءه فى كل سنة، مثل السلطان الذى يداوم على طلب الولاية.

وقال: الخاطر الحق، لا يعارضه شيء.

وقال: المريد يستظل بتوبته، والمراد يستظل بعصمته.

وقال: المريد من يسبق اجتهاده كشفه. والمراد من يسبق كشفه اجتهاده.

وقال: وقت المرء صدف، وصدره بحره. وغداً يضربون هذا الصدف على الأرض فى صعيد القيامة.

وقال: ترك الدنيا زهد النفس، وترك الآخرة زهد القلب، والقول بترك النفس زهد الروح.

يروى: أنه سئل عن الصبر، فقال: الصابر من تقطع يداه وقدماه، ويشنق. والعجيب أنهم فعلوا هذا كله!

يروى أن الشبلي قال يوماً: يا أبا بكر، اسع؛ فقد أقبلنا على أمر عظيم، محير، وسنبذل أنفسنا في سبيله.

ولما احتار الناس في أمره، انقسموا بين منكر له، ومقّر. ورأوا منه أموراً عجيبة؛ فتطاولوا عليه، وأبلغوا الخليفة كلامه، واتفق الجميع على قتله؛ لأنه كان يقول: «أنا الحق». فقالوا: قل: هو الحق. قال: بلى، فالكل هو. وأنتم تقولون :إنه ضل. بل تقولون: الحسين ضال. والبحر المحيط لا يختفي، ولا يضمحل.

وقيل للجنيد: ألهذا الذي يقوله منصور تأويل؟ فقال: اتركوه؛ ليقتلوه، فاليوم ليس يوم التأويل.

ولذا عارضته جماعة من أهل العلم، ووشوا به عند المعتصم (٩٦) وألبوا عليه علي بن عيسى الذي كان وزيراً له. فأمر الخليفة بسجنه، فسجنوه سنة. لكن الخلق كانوا يذهبون إليه، ويسألونه عن مسائل. فمنعوا الخلق عن زيارته؛ فلم يذهب إليه أحد مدّة خمسة شهور، ما عدا ابن عطاء فقد ذهب مرة، وذهب عبد الله بن الخفيف مرة.

وأرسل له ابن عطاء رجلاً ذات مرة، فقال له: أيها الشيخ، اعتذر عما قلته؛ حتى تنجو. فقال الحلاج: قل للرجل الذي قال لك هذا أن يطلب هو المعذرة. ولما سمع ابن عطاء هذا، بكى، وقال: نحن بعض من الحسين بن منصور.

يروى أنهم جاءوه في الليلة الأولى التي حبسوه فيها، فلم يجدوه في السجن. فتفقدوا السجن كله، فلم يجدوه. وفي الليلة الثانية، لم يجدوه هو ولا السجن، ومهما بحثوا عن السجن، لم يجدوه. وفي الليلة الثالثة، وجدوه في السجن. فقالوا: أين كنت في الليلة الأولى؟ وأين كنت أنت والسجن في الليلة الثانية؟ قال: في الليلة الأولى، كنت

فى الحضرة، وفى الليلة الثانية كانت الحضرة هنا، وفى الليلة الثالثة، أرسلونى لحفظ الشريعة. فتعالوا، وأدوا عملكم.

يروى أنه كان يصلى ألف ركعة فى كل يوم وليلة، فقالوا له: إنك تقول: «أنا الحق»، فلمن تصلى؟ قال: نحن نعرف قدرنا.

يروى أن ثلاثمائة رجل كانوا فى السجن. فلما أقبل الليل، قال: أيها المساجين، سأحرركم. قالوا: ولماذا لا تحرر نفسك؟ قال: إننى فى قيد الله، وأحظى بالسلامة. إن أردتم، حطمت القيود كلها بإشارة. ثم أشار بإصبعه؛ فتحطمت القيود. فقالوا: أين نذهب الآن؟ وباب السجن مغلق. أشار فظهرت فجوات فى الجدار. وقال: تسللوا. فقالوا له: ألا تأتى معنا! فقال: لى سرّ معه، لا يمكن إفشاءه إلا على المشنقة. وفى اليوم التالى، قالوا: أين ذهب المساجين؟ قال: حررتهم. قالوا: ولِمَ لم تذهب معهم؟ قال: لأن الحق عاتب علىّ. فلم أذهب. ووصل الخبر إلى الخليفة، فقال: إنه سيشعل الفتنة، فاقتلوه، أو اضربوه بالعصا؛ حتى يرجع عن هذا الكلام. فضربوه ثلاثمائة مقرعة، وفى كل مرة كانوا يضربونه، فيها، كان صوت فصيح يقول: «لاتخف يا ابن منصور». يقول الشيخ عبد الجليل الصفار: إن اعتقادى فيمن يضرب بالعصى، أكبر من اعتقادى فى الحسين بن منصور. فأى درجة حازها ذلك الرجل فى الشريعة؛ حتى كان يسمع مثل هذا النداء الصريح! ولم ترتعد يده، واستمر فى الضرب. ثم أخذوا الحسين حتى يشنقوه. وتجمع مائة ألف رجل، فكان ينظر، ويقول: حق، حق، حق، أنا الحق. يروى أن فقيراً سأله فى تلك الأثناء: ما العشق؟ قال: ما تراه اليوم، وغداً،

طلب منه خادمه وصية وهو على تلك الحال، فقال له: اشغل نفسك بشيء جدير بالعمل، وإلا شغلتك هى بشيء لا يستحق العمل. والبقاء بالنفس فى هذا الحال هو شأن الأولياء.

قال له ابنه: عظنى. فقال: مثلما يسعى أهل الدنيا فى الأعمال، فاسع فى عمل ذرة منه أفضل من أعمال الجن والإنس. وهو علم الحقيقة ليس إلا.

ثم كان يتبختر فى الطريق الذى يسلكه، وهو يسير مقيداً بثلاثة عشر قيداً ثقيلاً مثل اللصوص والعيارين. قالوا له: ما هذه الخيلاء؟ قال: لأننى ذاهب إلى مكان النحر، وكان يصيح، ويقول:

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف

سقانى مثلما يشرب كفعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

ولما أخذوه إلى المشنقة بباب الطاق، اتجه نحو القبلة، واعتلى السلم. فقالوا له: كيف الحال؟ قال: المشنقة معراج الرجال. ثم عقد مئزراً على وسطه، ووضع عباءة على كتفه، واتجه نحو القبلة، وناجى ربه، وقال: إن ما يعلمه، لا يعلمه أحد. ثم اعتلى المشنقة. فقال المريدون: ماذا تقول لنا نحن المريدين، وهؤلاء المنكرين؟ وهم سوف يلقونك بالحجارة. قال: إن لهم ثوابين، ولكم ثواب واحد. لأنكم أحسنتم الظن بى ليس إلا. وهم يتحركون بقوة التوحيد لإعمال الشريعة. والتوحيد هو الأصل فى الشرع، وحسن الظن فرع فيه.

يروى أنه كان قد نظر إلى امرأة في شبابه. وقال لخادمه: من نظر مثل هذه النظرة، ذل مثل هذا الذل.

ثم وقف الشبلي في مواجهته، ونادى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٩٧). وقال: ما التصوف يا حلاج؟ قال: أهونه ما ترى. قال: وما أعظمه؟.

قال: لا سبيل لك إليه. ثم ألقى كل واحد بحجر، وألقاه الشبلي بالآجر؛ فتأوه الحسين بن منصور. فقالوا: ما تأوهت مع كل هذه الحجارة، فما معنى تأوهك من الآجر؟ قال: هم معذورون لأنهم لا يعلمون. إنني تألمت منها؛ لأنه يعلم أنه لا ينبغي عليه الإلقاء. ثم فصلوا يديه، فابتسم فقالوا له: لم تبتسم؟ قال: فصل اليد عن رجل مقيد أمر سهل. والرجل هو: من يقطع يد الصفات التي تمزق عمامة الهمة فوق مفرق العرش. ثم قطعوا قدمه، فابتسم، وقال: كنت أسافر بهذه القدم في الدنيا. لكنني أملك قدماً أخرى أطوى بها العالمين. فاقطعوها إن استطعتم. ثم مسح وجهه بيديه المقطوعتين المخضبتين بالدم، فخضب ساعديه ووجهه بالدم. قالوا: لماذا فعلت هذا؟ قال: نزفت دماً كثيراً، وأعلم أن وجهي قد ذبل، وحتى لا تظنوا أن ذبول وجهي بسبب الخوف، خضبت وجهي بالدم، حتى أبدو أحمر الوجه في عينكم. فلون الرجال من لون دمهم. قالوا: إن كنت قد خضبت وجهك بالدم، فلماذا خضبت ساعديك؟ قال: لأتوضأ. قالوا أي وضوء؟ قال: «ركعتان في العشق لا يصح وضوءهما إلا بالدم». ثم اقتلعوا عينيه؛ فثار الخلق، وكان بعضهم يبكي، والبعض الآخر يلقي الحجارة. ثم أرادوا قطع لسانه. فقال اصبروا؛ حتى أقول شيئاً. واتجه إلى السماء، وقال: إلهي، لا تحرمهم بهذا الألم الذي

سببوه لي، من أجلك، ولا تجعلهم بلا نصيب من هذه السعادة. الحمد لله أنهم قطعوا يدي ورجلي في سبيلك، وإن فصلوا رأسي عن جسدي فوق المشنقة في مشاهدة جلالك. ثم قطعوا أذنيه وأنفه، وألقوه بالحجارة. وجاءت عجوز وفي يدها جرة ماء. فلما رأت الحسين، قالت: اضربوه، بشدة، فأي شأن لهذا الحلاج المستهزىء بكلام الله، وكان هذا آخر كلام قاله الحسين: «حب الواحد إفراد الواحد» وقرأ هذه الآية: ﴿ يستعجل لها بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ (٩٨) ثم قطعوا لسانه، وكانت صلاة المغرب حين جزوا رأسه، وابتسم أثناء ذلك، وأسلم الروح، وصرخ الناس. وحمل الحسين كرة القضاء إلى نهاية ميدان الرضا. وكان نداء «أنا الحق» ينبعث من أعضائه عضواً عضواً.

وفي اليوم التالي، قالوا: ستكون الفتنة بعد وفاته أكثر منها في حال حياته. ثم حرقوا أعضاءه، فكان نداء «أنا الحق» يصدر من الرماد، وكانت كل قطرة دم تقطر منه عند قتله، تكتب: الله. فيأسوا منه، وألقوه في دجلة، فكان يقول «أنا الحق» فوق الماء، وكان الحسين قد قال: حين ألقوا برمادنا في دجلة، خافت بغداد من الغرق؛ فحملوا خرقتي إلى الماء؛ حتى لا يلحق الدمار ببغداد. ولما رأى الخادم ذلك، أحضر خرقة الشيخ إلى شاطىء دجلة، حتى سكن الماء، واستقر الرماد. ثم جمعوا رماده، ودفنوه. ولم يحظ أحد من أهل الطريقة بهذا الفتح.

قال شيخ: يا أهل الطريق، انظروا، ماذا فعلوا بالحسين بن منصور؟ فماذا سيفعلون مع المدعين؟!.

قالت عباسة الطوسية: يحضر الحسين بن منصور الحلاج مقيداً بالأغلال يوم القيامة، فإن كان حراً؛ اضطربت القيامة.

قال شيخ: بقيت تحت المشنقة فى تلك الليلة حتى الصباح، وكنت أصلى. ولما طلع النهار، هتف بى هاتف: «أطلعناه على سر من أسرارنا، فأفشى سرنا؛ فهذا جزاء من يفشى سر الملوك».

يروى أن الشبلى قال: ذهبت إلى قبره فى تلك الليلة، وصليت حتى الصباح، وناجيت الله فى السحر، وقلت: إلهى، كان عبدك هذا مؤمناً عارفاً موحداً. فلماذا ابتليته بهذا البلاء؟ وغلبنى النوم، فرأيت فى المنام، وكأنه يوم القيامة، وقال الحق تعالى: إننى فعلت هذا؛ لأنه أفشى سرنا لغيرنا.

يروى: أن الشبلى قال: رأيت ابن منصور فى المنام، فقلت: ماذا فعل الله تعالى بهؤلاء القوم؟ قال: رحم الجمعين. فمن أشفق على، عرفنى، ومن عادانى، لم يعرفنى، وعادانى من أجل الحق. فرحمهم؛ لأنهم معذورون.

ورأى آخر فى المنام، أنه وقف فى القيامة، وفى يده كأس، ولا رأس له، فقال: ما هذا؟ قال: إنه يمنح الكأس لمقطوعى الرأس.

يروى أنهم حين حملوه إلى المشنقة. فجاء إبليس، وقال: قلت أنت «أنا» مرة، وقلتها أنا مرة. فكيف رحمك ولعننى؟ فقال الحلاج: إنك حملت الأنا بداخلك. لكننى أبعدتها عنى؛ فرحمنى. حتى تعلم أن الأنية ليست حسنة، وأن اجتنابها حسن.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد وآله أجمعين.

تم الكتاب، بعون الملك الوهاب

ليغفر الله لمن يتذكر الكاتب بالفاتحة

حين يقرأ الكتاب.

الحواشي والتعليقات

١ ـ أحمد بن عاصم الأنطاكي:

هو أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي. من كبار صوفية القرن الثالث الهجري. كان عالماً بعلوم الشريعة، والأصول، والفروع، والمعاملات.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، جـ ٩، (ص ٢٨٠)، صفة الصفوة للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، المجلد الثاني، الجزء الرابع، (ص ٢٥٢)، الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني، المسماة بلوائح الأنوار في طبقات الأخبار، وبهامشه كتاب الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، مكتبة الشيخ محمد المليجي الكتبي وأخيه، الأزهر، مصر، الجزء الأول (ص ٦٦)، الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م، جـ ١، (ص ١٠٠)، طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م (ص ١٣٧)، كشف المحجوب للهجويري، دراسة وترجمة وتعليق: الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، راجع الترجمة: الدكتور أمين عبد المجيد بدوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، جـ ١، (ص ٣٣٩).

٢ ـ سورة النور، آية (٤٠).

٣ ـ سورة التغابن، آية (١٥).

٤ ـ عبد الله بن خبيق:

هو أبو محمد عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكى. من صوفية القرن الثالث الهجرى. أصله من الكوفة، ولكنه سكن أنطاكية. كان على مذهب الثورى فى الفقه والمعاملة. وأسند الحديث.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ١٦٨)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٢٣٤)، طبقات الشعرانى: جـ ١ (ص ٦٦)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ٩٩)، طبقات الصوفية: (ص ١٤١)، كشف المحجوب: جـ ١، ص ٣٤٠).

٥ ـ الجنيد البغدادى:

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الجنيد الخزاز القواريرى. أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه بالعراق. كأن فقيهاً على مذهب أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته. مات ببغداد سنة ٢٩٧هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٥٥)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٧٠)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٦٧)، الرسالة القشيرية: جـ ١ (ص ١٠٥)، طبقات الصوفية: (ص ١٥٥)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٤٠).

٦ ـ جزء من بيت الأخطل:

إن الكــلام لفــى الفـؤاد وإنمـا

جــعل الــلسان على الفؤاد دليل

٧ ـ ابن شريح:

يقال إن شريحاً تصحيف سريج. وابن السريج هو أبو العباس أحمد بن عمر الشيرازى، من الفقهاء المعاصرين للجنيد، توفى سنة ٣٠٥هـ.

انظر د. محمد استعلامى: حواشى تذكرة الاولياء شيخ فريد الدين عطار نيسابورى، كتابخانه زوار، شاه آباد، تهران، ايران، جاب دوم ٢٥٣٥ شاهنشاهى، (ص ٨٥٩).

٨ ـ سورة الشورى، آية (٢٥).

٩ ـ صحيح البخارى؛ جمع محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى، مصر، الجزء الأول، الطبعة الأخيرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م، كتاب الوضوء، باب التخفيف فى الوضوء، (ص ٣٠).

١٠ ـ سورة النمل، آية (٦٢).

١١ ـ سورة النحل، آية (٤٢).

١٢ ـ سورة الأعراف، آية (١٧٢).

١٣ ـ سورة يس، آية (٨٣).

١٤ ـ سورة الدخان، آية (١٠، ٥٩).

١٥ ـ سورة الشعراء، آية (٧٨).

١٦ ـ عمرو بن عثمان المكى:

هو أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص، كان إمام الطائفة فى الأصول والطريقة، وأسند الحديث. مات ببغداد سنة ٢٩١هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٩١)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٤)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٢١)، طبقات الصوفية: (ص ٢٠٠)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٠).

١٧ ـ سورة ص، آية (٨٠).

١٨ ـ سورة الكهف، آية (٥٠).

١٩ ـ سورة النحل، آية (٧).

٢٠ ـ سورة الزمر، آية (٢٢).

٢١ ـ أبو سعيد الخراز:

هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز. من أهل بغداد. أول من تكلم في الفناء والبقاء، وأسند الحديث، مات سنة ٢٧٧هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ٩، (ص ٢٤٦)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨١)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٧٣)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٢٩)، طبقات الصوفية: (ص ٢٢٨)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٥).

٢٢ ـ عباس بن المهدي:

من أصحاب أبي سعيد الخراز. مات سنة ٣١٧هـ. د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٢).

٢٣ ـ أبو الحسين النوري:

هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري. أصله من خراسان، ومولده ومنشؤه ببغداد، كان من جلة مشايخ القوم وعلمائهم. مات سنة ٢٩٥هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٤٩)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٣)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٦٩)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١١٢)، طبقات الصوفية: (ص ١٦٤)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٤٢).

٢٤ ـ أبو محمد المغازلي:

من العارفين المشهورين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ومن أصحاب جعفر الخلدي.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٣).

٢٥ ـ غلام الخليل:

هو أحمد بن محمد بن غالب. مات ببغداد سنة ٢٧٥هـ.

السابق، الصفحة نفسها.

٢٦ ـ أبو حمزة:

هناك اثنان من كبار الصوفية يطلق عليهما أبو حمزة: أحدهما: الخراساني، والآخر: البغدادي.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٣.

٢٧ ـ الرقام:

من صوفية النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. كان يقيم في بغداد.

السابق، الصفحة نفسها.

٢٨ ـ أبو عثمان الحيري:

هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري. أصله من الري، ولكنه أقام بنيسابور، ومات بها سنة ٢٩٨هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٤٤)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٩٤)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٦٩)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٠٩)، طبقات الصوفية: (ص ١٧٠)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٤٤).

٢٩ ـ عبد الله بن محمد الرازي:

أبو محمد عبد الله بن محمد الرازي. من أصحاب أبي عثمان، ويوسف بن الحسين. كان يقيم في نيسابور، ومات بها سنة ٢٥٣هـ.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٣).

٣٠ ـ أبو عمرو النجيد:

كان مريداً لأبي عثمان الحيري.

السابق، الصفحة نفسها.

٣١ ـ سورة الأنعام، آية (٥٤).

٣٢ ـ أبو عبد الله بن الجلاء:

هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء. كان بغدادى الأصل، لكنه أقام بالرملة، ودمشق. وكان من جلّة مشايخ الشام فى القرن الثانى الهجرى.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣١٤)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٦)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٠)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١١٤)، طبقات الصوفية، (ص ١٧٦)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٤٦).

٣٣ ـ أبو عمرو الدمشقى:

من الصوفية الذين أدركوا ذا النون، وابن الجلاء. مات سنة ٣٢٠هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٥).

٣٤ ـ أبو محمد رويم:

هو أبو محمد رويم بن أحمد بن رويم. ولد بالكوفة سنة ٢٠٠ أو ٢٠٢هـ، وأقام فى بغداد. كان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود الظاهرى. مات سنة ٢٧٠هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٩٦)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٥)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٠)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١١٦)، طبقات الصوفية (ص ١٨٠)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٤٧).

٣٥ ـ سورة الذاريات، آية (٥٦).

٣٦ ـ ابن عطاء:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى. من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، ومن كبار مريدى الجنيد. كان عالماً بعلوم التفاسير، والقراءات. وأسند الحديث. مات سنة ٣٠٩هـ، أو ٣١١هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١، (ص ٣٠٢)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٧)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٥)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٣٥)، طبقات الصوفية، (ص ٢٦٥)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٦١).

٣٧ - سورة فاطر، آية (١٥).

٣٨ - سورة الحجرات، آية (١٣).

٣٩ - سورة طه، آية (١٢١).

٤٠ - سورة القلم، آية (٤).

٤١ - على بن عيسى:

المقصود ابن الجراح البغدادى، وزير المقتدر بالله الخليفة العباسى، ولد سنة ٢٤٥هـ، ومات سنة ٣٣٤هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٥).

٤٢ - إبراهيم الرقى:

هو أبو إسحق إبراهيم بن داود الرقى. من كبار مشايخ الشام. عمر فوق مائة سنة. وعاش إلى سنة ٣٢٦هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨١)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٤٣)، طبقات الصوفية، (ص ٤٤٨).

٤٣ - يوسف بن أسباط:

هو يوسف بن أسباط الشيبانى. من زهاد القرن الثانى الهجرى. ومن قرية يقال لها «شيح»، مات سنة ١٩٩هـ.

انظر ترجمته فى: صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٢١٩)، طبقات الشعرانى، جـ ١، (ص ٤٩).

٤٤ - حذيفة المرعشى:

هو حذيفة بن قتادة. من زهاد أواخر القرن الثانى الهجرى. توفى سنة ٢٠٧هـ.
د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٥).

٤٥ ـ **أبو يعقوب النهرجوري:**

هو أبو يعقوب إسحق بن محمد النهرجوري. من مشايخ أوائل القرن الرابع الهجري. أقام بالحرم مجاوراً، ومات هناك سنة ٣٣٠هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٥٦)، طبقات الشعراني: جـ ١٠، (ص ٨٨١)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٥٦)، طبقات الصوفية (ص ٣٧٨).

٤٦ ـ **سورة النجم، آية (١٠).**

٤٧ ـ **سورة البقرة، آية (١٣٤).**

٤٨ ـ **سمنون المحب:**

هو أبو الحسن أو أبو القاسم سمنون بن حمزة البصري. من كبار مشايخ العراق. كان ذا شأن عظيم في المحبة؛ لذا أطلق عليه المشايخ «سمنون المحب». مات سنة ٢٩٧هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٠٩)، طبقات الشعراني جـ ١، (ص ٧١)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٢٢)، طبقات الصوفية، (ص ١٩٥).

٤٩ ـ **سورة المائدة، آية (٥٤).**

٥٠ ـ **سورة الأحزاب، آية (٤١).**

٥١ ـ **أبو محمد المرتعش:**

هو أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش، نيسابوري من محلة الحيرة .لكنه أقام ببغداد، حتى صار أحد مشايخ العراق وأئمتهم. مات ببغداد سنة ٣٢٨هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٥٥)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٦١)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٨٤)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٥٠)، طبقات الصوفية، (ص ٣٤٩).

٥٢ ـ سورة يونس، آية (٥٨).

٥٣ ـ محمد بن الفضل:

هو أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس بن حفص. أصله من بلخ، وسكن سمر قند، ومات بها سنة ٣١٩هـ. كان من جلة مشايخ خراسان، وأسند الحديث.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢٣٢)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ١٤٤)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٠)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١١٨)، طبقات الصوفية، (ص ٢١٢)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٢).

٥٤ ـ سورة التوبة، آية (٢٤).

٥٥ ـ أبو الحسن البوشنجى:

هو أبو الحسن على بن أحمد البوشنجى، كان أوحد فتيان خراسان، ومن أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد والمعاملات، وأحسنهم طريقة فى الفتوة والتجريد، أسند الحديث. ومات سنة ٣٤٨هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٧٩)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٩٦)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٧٢)، طبقات الصوفية، (ص ٤٥٨).

٥٦ ـ أبو عمرو:

هو أبو عمرو الدمشقى. من مشايخ أواخر القرن الثالث الهجرى المشهورين.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٧).

٥٧ ـ محمد بن على الترمذى:

هو أبو عبد الله محمد بن على الترمذى. من أهل العرفان فى القرن الثالث الهجرى، وكبار مشايخ خراسان، له تصانيف فى علوم القرآن مثل: كتاب ختم الولاية، وكتاب النهج، وكتاب نوادر الأصول. قرأ الفقه على واحد

من خواص أصحاب أبى حنيفة، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة. وأسند الحديث.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء، جـ ١٠، (ص ٢٣٣)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ١٤٦)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٢)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٢٧)، طبقات الصوفية، (ص ٢١٧)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٣).

٥٨ ـ سورة الناس (آية ٤، ٥، ٦).

٥٩ ـ سورة الشورى، آية (١٣).

٦٠ ـ البلعميون:

ينتسبون إلى بلعم بن باعور. وهم قوم ابتعدوا عن الحق تعالى، ولا علم لهم بالحقائق.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٨).

٦١ ـ أبو الخير الأقطع:

هو أبو الخير عباد بن عبد الله. سمى بالأقطع؛ لأنه كان مقطوع اليد. أصله من المغرب، لكنه سكن تينات (فى الشام)، كان أوحد طريقته فى التوكل. مات بمصر بعد سنة ٣٤٠هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٧٧)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٢٠٦)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨٧)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٥٤)، طبقات الصوفية، (ص ٣٧٠).

٦٢ ـ سورة الشورى، آية (٢٥).

٦٣ ـ عبد الله التروغبندى:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن التروغبندى. من جلة مشايخ طوس، ومن زهاد خراسان المشهورين فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، مات بعد سنة ٣٥٠هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٩٨)، طبقات الصوفية، (ص ٤٩٤).

٦٤ ـ **أبو بكر الوراق:**

هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى. أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، له تصانيف فى الرياضات، والمعاملات، والآداب، وأسند الحديث.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء، جـ ١٠، (ص ٢٣٥)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ١٣٩)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٣)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٢٨)، طبقات الصوفية، (ص ٢٢١)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٤).

٦٥ ـ سورة المزمل، آية (١٧).

٦٦ ـ سورة الأنبياء، آية (٣٠).

٦٧ ـ **عبد الله بن منازل:**

هو أبو محمد عبد الله بن منازل، شيخ الملامتية. كان عالماً بعلوم الظاهر. وأسند الحديث. مات بنيسابور سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨٥)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٥٢)، طبقات الصوفية، (ص ٣٦٦).

٦٨ ـ سوررة إبراهيم، آية (٣٥).

٦٩ ـ سورة آل عمران، آية (١٧).

٧٠ ـ الأنبار: من ضواحى نيسابور القديمة.

٧١ ـ **على بن سهل الاصفهانى:**

هو أبو الحسن على بن سهل بن الأزهر. من قدامى مشايخ أصفهان. كان مترفاً، لكنه تزهد، مات سنة ٣٠٧هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٤٠٤)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٦٦)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٥)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٣٢)، طبقات الصوفية، (ص ٢٣٣).

٧٢ ـ أبو الحسن المزين:

هو أبو الحسن على بن محمد البغدادى، كان من أصحاب سهل بن عبد الله، والجنيد. أقام بمكة مجاوراً. مات سنة ٣٢٨هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٩).

٧٣ ـ خير النساج:

هو أبو الحسن محمد بن إسماعيل خير النساج. أصله من سامراء، وأقام ببغداد. كان ذا معاملة وبيان حسن فى العظات، وعبارة مهذبة فى الإشارات. عمر طويلاً، ويقال: إنه عاش مائة وعشرين سنة.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١، (ص ٣٠٧)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٥٥)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨٢)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٤٥)، طبقات الصوفية، (ص ٣٢٢)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٦).

٧٤ ـ أبو حمزة الخراسانى:

أصله من نيسابور، من محلة ملقاباد. من أفتى المشايخ وأورعهم مات سنة ٢٩٠هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨٢)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٤٧)، طبقات الصوفية، (ص ٣٢٦).

٧٥ ـ سورة البقرة، آية (١٩٥).

٧٦ ـ أحمد بن مسروق:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق. كان من أهل طوس، ولكنه سكن بغداد، كان من أوتاد الأرض، ومن جلة المشايخ. وأسند الحديث، مات ببغداد سنة ٢٩٨هـ أو ٢٩٩هـ.

انظر ترجمته فى : حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٢١٣)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ١٠٤)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٤)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٣١)، طبقات الصوفية، (ص ٢٣٧).

٧٧ ـ قطب المدار:

القطب أو الغوث أحد أولياء الله. له المكانة السامية، والولاية على الأبدال، والأخيار، والأوتاد، ومدار الدنيا حوله. وهو يسكن السواد الأعظم؛ حتى يتبعه سائر الأولياء، وقيل قطب المدار إشارة إلى قلب الرسول ﷺ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٦٩).

٧٨ ـ عبد الله المغربى:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى، له قدم راسخة فى التجريد. وأسند الحديث. مات بطور سيناء سنة ٢٩٩هـ.

انظر ترجمته فى : حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٣٥)، صفة الصفوة: جـ ٤، (ص ٣٠٥)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٣٠)، طبقات الصوفية، (ص ٢٤٢)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٩).

٧٩ ـ أبو على الجوزجانى:

هو أبو على الحسن بن على الجوزجانى، من كبار مشايخ خراسان فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، له تصانيف مشهورة.

انظر ترجمته فى : حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٥٠)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٢)، طبقات الصوفية: (ص ٢٤٦)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٥٩).

٨٠ ـ أبو بكر الكتانى:

هو أبو بكر محمد بن على بن جعفر الكتانى. أصله من بغداد، لكنه أقام بمكة. ومات بها سنة ٣٢٢هـ أو ٣٢٨هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٥٧)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٥٧)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٨٧)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٥٥)، طبقات الصوفية، (ص ٣٧٣).

٨١ - **أبو عبد الله محمد بن الخفيف:**

هو أبو عبد الله محمد بن الخفيف بن اسفكشاد الضبي، كانت أمه نيسابورية، لكنه أقام بشيراز. كان من الأمراء، ثم تفقه، وتصوف، وتزهد. وكان عالماً بعلوم الظاهر، وعلوم الحقائق. وأسند الحديث. مات سنة ٣٧١هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٨٥)، طبقات الشعراني: جـ ١، (ص ٥٦)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٧٣)، طبقات الصوفية، (ص ٤٦٢).

٨٢ - سورة الجاثية، آية (٢٣).

٨٣ - **عضد الدولة:**

هو مغيث الدين فناخسرو أبو شجاع، اسمه الأصلي حسن. من ملوك سلسلة آل بويه. حكم من ٣٣٨ : ٣٧٢هـ. وكان فارس حاضرة حكمه. عاصر عبد الله بن الخفيف.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٧١).

٨٤ - **أبو أحمد الصغير:**

هو حسن بن علي الشيرازي، كان من الأصحاب المقربين لابن الخفيف. توفي سنة ٣٨٥هـ.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٧١).

٨٥ - **أبو محمد الجريري:**

هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري، من علماء مشايخ المتصوفة. أسند الحديث. ومات ببغداد سنة ٣١١هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ ١٠، (ص ٣٤٧)، صفة الصفوة: جـ ٢، (ص ٢٨٨)، طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٧٥)، الرسالة القشيرية: جـ ١، (ص ١٣٣)، طبقات الصوفية، (ص ٢٥٩).

٨٦ ـ الحسين بن منصور الحلاج:

هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج، من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط والعراق. كان من سكارى الطريقة، ومشتاقيها، وحظى بهمة عالية، وقتل ببغداد سنة ٣٠٩هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ ١، (ص ٨٦)، طبقات الصوفية: (ص ٣٠٧)، كشف المحجوب: جـ ١، (ص ٣٦٢).

٨٧ ـ أبو القاسم القشيرى:

هو عبد الكريم بن هوازن، ولد فى قوجان سنة ٣٧٦هـ. ينتسب إلى قشير بن كعب، تلقى تعليمه أولاً فى موطن رأسه، ثم سافر إلى نيسابور حيث تعلم العلوم الدينية، وتتلمذ على يد أبى على الدقاق. وأفاد من الكثير من العلماء والفقهاء. وألف العديد من الكتب مثل: نحو القلوب، ولطائف الإشارات، وترتيب السلوك، والرسالة القشيرية. مات سنة ٤٦٥هـ.

انظر: د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٢، ٨٧٣).

٨٨ ـ أبو سعيد بن أبى الخير:

ولد فى ميهنة (من القرى التابعة لنيسابور) سنة ٣٥٧هـ، تعلم أبو سعيد علوم القرآن، والحديث الشريف، واللغة العربية فى موطن رأسه. ثم سافر إلى مرو لتعلم الفقه، ودرس التفسير والحديث فى سرخس حيث التقى بالصوفى أبى الفضل الذى جعله يسلك الطريق الصوفى، وصار شيخاً من شيوخ الطريق، والتف حوله المريدون. مات سنة ٤٤٠هـ.

٨٩ ـ الحلولية:

وهم طائفتان: الأولى: تنسب إلى أبى حلمان الدمشقى. وكان كفره من وجهين: أحدهما: أنه قال بحلول الإله فى الأشخاص الحسنة، والآخر:

قوله بالإباحة ودعواه أن من عرف الله على الوصف الذى يعتقده، زال عنه الحظر والتحريم، واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه، والطائفة الأخرى: تنسب إلى فارس، وهو يدعى أن مذهبه هو مذهب الحسين بن منصور الحلاج، إلا أن الحلاجيين يرفضون ذلك، ويلعنونه.

انظر: كشف المحجوب: جـ ٢، (ص ٥٠١).

٩٠ ـ الاتحاد:

الاتحاد فى اصطلاح الصوفية يعنى شهود الوجود الواحد المطلق. ويقولون: إن كل المخلوقات تستمد وجودها من وجود الحق. فالوجود واحد، وهو وجود الحق. وليس هناك وجود خاص بالفرد.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٣).

٩١ ـ أبو سعيد القرمطى:

هو أبو سعيد حسن الدقاق. من أهل قرية كناوه التابعة لفارس. اتبع أحد أئمة القرامطة وهو يحيى بن ذكرويه. وقتل سنة ٣٠١هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٣).

٩٢ ـ أبو يعقوب الأقطع:

كان من أهل البصرة، لكنه قضى فترة فى بغداد فى بداية أمره، ثم أقام فى مكة مجاوراً. ولقى أبا الحسن المزين هناك.

السابق، (ص ٨٧٤).

٩٣ ـ المصطلم:

يطلق المتصوفة هذا الاسم على سالك استغرق فى عالم الغيب؛ بسبب شدة الوله والهيمان.

السابق، الصفحة نفسها.

٩٤ ـ سورة يوسف، الآية (١٠٦).

٩٥ ـ سورة ق، الآية (٣٧).

٩٦ ـ المعتصم:

لم يكن الخليفة المعتصم بالله معاصراً للحلاج، وإنما كان الخليفة المقتدر بالله هو خليفة ذلك الزمان، وكان وزيره على بن عيسى المعروف بابن الجراح.

٩٧ ـ سورة الحجر، الآية (٧٠).

٩٨ ـ سورة الشورى، الآية (١٨).

ملحق الجزء الثانى
من كتاب
تذكرة الأولياء

ذكر إبراهيم الخواص[٩٩]
رحمة الله عليه

هو سالك بادية التجريد، ونقطة دائرة التوحيد. هو المحتشم فى العلم والعمل، والمحترم بحكم الأزل. هو الصديق فى التوكل والإخلاص، قطب الوقت إبراهيم الخواص رحمة الله عليه.

كان أوحد زمانه، ومصطفى أولياء عصره وسادته، وله فى الطريقة قدم راسخة، وفى الحقيقة أنفاس عجيبة، وكان ممدوحاً بكل الألسنة. وقد أطلقوا عليه «رئيس المتوكلين». وكان قد وصل فى التوكل إلى حد أنه كان يقطع البادية فى أثر رائحة تفاح. وكان قد أدرك كثيراً من المشايخ، وكان من أقران الجنيد والنورى. وله تصانيف فى المعاملات والحقائق. وسمى بالخواص؛ لأنه كان يصنع الزنابيل، ويقطع البادية متوكلاً.

وقد سئل: مارأيت من العجائب؟ قال: ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبنى، فلم أجبه؛ لأننى خشيت أن أعتمد عليه دون الحق.

كان فريداً في التوكل، ومستغرقاً فيه، ومع هذا لم تغب عنه الإبرة أو الخيط أو الركوة أو المقراض. قيل له: ولماذا تحتفظ بها؟ قال: لأنها لا تبطل التوكل.

يروى أنه قال: كنت أمضى فى البادية، فرأيت جارية مضطربة، حاسرة الرأس، وقد غلبها الوجد. فقلت لها: أيتها الجارية! غطى رأسك. قالت: أيها الخواص! غض بصرك. قلت: إننى عاشق، والعاشق لا يغض البصر. لكن عينى وقعت عليك رغماً عنى. قالت الجارية: وأنا ثملة، والثمل لا يغطى رأسه. قلت لها: فى أية حانة ثملتِ؟ قالت: احذر، أيها الخواص! واتركنى. هل فى الدارين غير الله؟ قلت: أيتها الجارية! أترغبين فى صحبتى؟ قالت: أيها الخواص! لا تطمع فى ضعيف، فلست ممن تبحث عن رجل!

يروى أنه سئل عن حقيقة الإيمان، فقال: ليس عندى الآن لهذا جواب؛ لأن كل ما أقوله يكون عبارة، وينبغى علىّ أن أجيب بالمعاملة. ولكنى أقصد مكة، وأنت أيضاً. فاصحبنى فى هذا الطريق؛ لتجد جواب مسألتك. قال الرجل: فاصطحبته، ولما توغلنا فى البادية، كان يظهر ـ فى كل يوم ـ رغيفان وشربتا ماء، فكان يعطينى واحداً، ويحتفظ بالآخر لنفسه، حتى أدركنا شيخ فى وسط البادية يوماً، ولما رأى الخواص، ترجل عن جواده، وسأل كل منهما الآخر، عن حاله وتحدثا مدة، وركب الشيخ، وعاد. فقلت: أيها الشيخ! من هذا الشيخ؟ قال: كان جواب سؤالك! قلت: كيف؟ قال:

ذلك كان الخضر عليه السلام، وقد أراد صحبتى، ولم أجبه، وخشيت أن يزول التوكل، وأعتمد عليه دون الحق.

يروى أنه قال: رأيت الخضر عليه السلام فى البادية، كان يطير كالطير. فلما رأيته ماراً فى الهواء، طأطأت رأسى؛ حتى لا يبطل توكلى. فاقترب منى فى الحال، وقال لى: لو أعرتنى الطرف، ما جئت إليك. فلم أسلم عليه، حتى لا يبطل توكلى.

وقال: كنت فى سفر، وعطشت عطشاً شديداً، فسقطت من شدة العطش. ورأيت رجلاً كان ينثر الماء على وجهى. ففتحت عينى، فرأيت رجلاً حسن الوجه يمتطى جواداً. فمنحنى ماء طيباً، وقال لى: ارتدف خلفى، وكنت فى الحجاز، فلم يبرح من مكانه حتى قال لى: ما ترى؟ قلت: المدينة. قال: انزل، وقل له: أخوك رضوان يقرأ عليك السلام.

قال: وجدت شجرة فى البادية ـ يوماً ـ فى مكان به ماء. ورأيت أسداً مهيباً، التفت إلىّ. فأذعنت لحكم الحق. فلما اقترب منى، وكان يعرج. جاء ونام أمامى، وكان يئن. فنظرت، فكانت يداه قد تورمت، وأصيبت بالجذام. فأمسكت بعصا، وشققت يديه، وأفرغتها مما كانت قد حوته، وربطتها بالخرقة، فنهض، ومضى. وبعد برهة، كان يأتى ومعه صغاره، فكانوا يطوفون حولى، ويتبعونى، ويلتفون حولى، ويذعنون لى.

يروى: أنه كان يتوغل مع مريد فى البادية، فانبعث زئير أسد؛ ففزع المريد، ووجد شجرة، فتسلقها، وكان يرتعد. وكان الخواص

هادئاً، فطرح السجادة، ووقف للصلاة. واقترب الأسد، فعلم أن له شأناً، فنظر إليه، وكان يراقبه حتى الصباح. وانشغل الخواص بالعمل. وبينما كان (الخواص) يمضى من هناك، لدغته بعوضة، فصرخ. فقال المريد: عجباً أيها السيد! لم تخف من الأسد البارحة، وتصرخ اليوم من بعوضة؟ قال: لأننى كنت قد فنيت عن نفسى بالأمس، واليوم أنا باق بها.

قال حامد الأسود(١٠٠): كنت مع الخواص فى سفر، فدخلنا إلى بعض الغياض حيث تكثر الثعابين. فوضع الركوة، وجلس. ولما أقبل الليل، خرجت الثعابين. فناديت الشيخ، وقلت له: اذكر الله، ففعل. فعادت الثعابين. وقضيت الليل على هذا الحال. ولما طلع النهار، نظرت، فكان ثعبان قد تحلق حول غطاء الشيخ، وسقط عاجزاً. قلت: يا شيخ! ألم تشعر به؟ قال: لم أحظ بليلة قط أطيب من ليلة أمس.

وقال رجل: رأيت عقرباً كان يمشى على طرف ثوب الخواص. فأردت قتله. فقال لى دعه، كل شىء مفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شىء.

يروى أنه قال: ضللت طريقى فى البادية، وسرت كثيراً، ولم أهتد إلى الطريق، وكنت أسير عدة أيام بلياليها على هذا النحو، حتى سمعت صياح ديك فى النهاية، فسررت، واتجهت نحوه. فرأيت رجلاً هناك جرى، وصفعنى على قفاى، فتألمت، وقلت: يا إلهى! أيفعل هذا برجل يتوكل عليك؟ فسمعت صوتاً: أنت عزيز ما دمت

تتوكل علينا، أما الآن فقد توكلت على صياح ديك؛ فصفعت على قفاك هكذا كنت أسير متألماً. فسمعت صوتاً: ياخواص! هل تألمت بسبب هذا؟ انظر ها هو. فنظرت، فرأيت رأس من صفعني ملقاة أمامي.

وقال: رأيت فتى جميل الوجه، نظيف الثياب في الطريق إلى الشام. قال لي: أتريد صحبتي؟ فقلت: إنني جوعان. قال: وأنا جوعان مثلك. ومن ثم ترافقنا أربعة أيام، ولاح فتح. فقلت: اقترب. قال: إنني لا أتناول ما يتأتي بالواسطة. قلت: يا غلام! لقد أصبت. قال: يا إبراهيم! لا تصيبني بالجنون، فالناقد بصير. أليس لديك شيء قط من التوكل. ثم قال: أقل التوكل: أنه حين تصيبك فاقة، لا تبحث عن حيلة سوى اكتفائك به.

يروى أنه قال: نذرت أن أقطع البادية دون زاد أو راحلة. ولما أوغلت في البادية، كان شاب يتبعني، ويناديني قائلاً: السلام عليك ياشيخ. فوقفت، وأجبته السلام، ونظرت إليه. فكان شاباً مسيحياً، وسألني الصحبة. فقلت له: إن المكان الذي أمضي إليه، لا سبيل لك إليه. فأي فائدة تجدها في هذه الصحبة! فقال: أصحبك، وأتبارك بك. ومضينا أسبوعاً على هذا النحو، وفي اليوم الثامن، قال لي: أيها الزاهد الحنيفي! إنني جائع، فادع ربك، واطلب منه شيئاً. قال الخواص: «إلهي! بحق محمد عليه الصلاة والسلام»، لا تفضحني أمام غريب، وانعم عليّ بشيء من الغيب، وفي الحال رأيت طبقاً

ممتلئاً بالخبز والسمك المشوى والرطب، ووجدت ركوة ماء. فجلسنا معاً، وتناولناها. ولما مرت سبعة أيام أخر، قلت له فى اليوم الثامن: أيها الراهب! إننى جوعان، فلترنا قدرتك! فاتكأ الشاب على عصا، وتمتم بشيء، فظهرت مائدتان مزينتان بالحلوى والسمك والرطب، وعليهما ركوتا ماء. فاندهشت. فقال لى: كل أيها الزاهد. فلم آكل من الخجل. قال لى: كل حتى أبشرك ببشارتين. قلت: لن آكل ما لم تبشرنى. فقال: البشارة الأولى: أننى سأقطع الزنار، ثم قطع الزنار، وقال: «اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». والبشارة الأخرى: أننى قلت: إلهى! بحق هذا الشيخ العزيز لديك، وبحق دينه الدين الحق، أن تنعم على بطعام، حتى لا أفتضح أمامه. فكان هذا الطعام ببركتك أيضاً. ولما تناولنا الطعام، مضينا إلى مكة، وأقام هو هناك مجاوراً، حتى وافاه الأجل.

وروى مريد قائلاً: كنت مع الخواص فى البادية، وكنا نمضى سبعة أيام على حال واحد، وفى اليوم الثامن، أصابنا ضعف. فقال لى الشيخ: أيهما تحب الماء أم الطعام؟ قلت: الماء. فقال: ها هو خلفك، فاشرب. نظرت، فرأيت ماءً مثل الحليب الطازج. فشربت وتوضأت. وكان الشيخ ينظر إلىّ، ولم يأت. ولما فرغت، أردت أن أملأ ركوة؛ فقال لى: اتركه؛ فهذا الماء لا يمكن حمله.

وقال: تهت فى البادية أياماً، فإذا بشخص وافانى، وسلم علىّ، وقال لى: تهت؟ قلت: نعم. قال: ألا أدلك على الطريق، ومشى بين

يدى خطوات، وغاب عن عينى. نظرت، فإذا أنا على الجادة، ومنذ ذلك الوقت ما تهت، ولا أصابنى الجوع ولا العطش فى السفر.

وقال: كنت على سفر، فأوغلت فى مكان خرب، فرأيت أسداً مهيباً، ففزعت، فهتف بى هاتف: لا تخف؛ فإن معك سبعين ألف ملك يحفظونك.

وقال: رأيت رجلاً منكراً فى الطريق إلى مكة، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا ملك. قلت: وإلى أين تذهب؟ قال: إلى مكة. قلت: بلا زاد أو راحلة! قال: إن منا أيضاً من يمضى متوكلاً مثلكم. قلت له: وما التوكل؟ قال: الاعتماد على الله تعالى.

وقال فقير: طلبت صحبة الخواص. فقال: يلزم للصحبة أمير وتابع، فهل تريد أن تكون أنت الأمير أم أنا؟ فقلت: كن أنت الأمير. قال: لا تعص أمر الأمير الآن. فقلت: قبلت. ولما وصلنا منزلاً، قال: اجلس؛ ففعلت. وكان الجو بارداً، فنزح الماء، وجمع الحطب، وأشعل النار، حتى شعرنا بالدفء. وفى الطريق كلما كنت أنوى القيام بعمل ما، كان يقول لى: احفظ شرط الأمر. ولما أقبل الليل، وأخذت الأمطار تهطل بغزارة؛ خلع الشيخ مرقعته، وكان قد وقف على رأسى حتى الصباح، وبسط المرقعة بين يديه؛ فخجلت، ولم أستطع أن أقول شيئاً بحكم الشرط. ولما طلع الصبح، قلت له: أنا الأمير اليوم. فقال: حسن. ولما بلغنا منزلاً، قام بالخدمات ذاتها. فقلت: لا تخرج عن أمر الأمير، فقال: الخروج على أمر الأمير هو أن تأمر

أميرك بالخدمة. وصحبنى على هذه الصفة حتى مكة، وهناك فررت خجلاً منه، حتى أدركنى فى منى، وقال: يا بنى! عليك أن تصحب الأصحاب كما صحبتك.

وقال: كنت أمر يوماً بأنحاء الشام، فرأيت شجر رمان، فاشتهيته، لكنى كنت أصبر، ولم آكله؛ لأنه كان حامضاً، وأردته حلواً. وبعد ذلك وصلت إلى واد، فرأيت رجلاً ضعيفاً، وقد سقط عليه الدود، وتجمع النحل حوله، وكان يلدغه. فأشفقت عليه لعجزه، ولما وصلت إليه، قلت له: أتريد أن أدعو لك لعلك تتخلص من هذا البلاء؟ قال: لا. قلت: لماذا؟ قال: لأن العافية اختيارى، والبلاء اختياره، وأنا لاأختار اختيارى على اختياره. قلت: أذب هذا النحل عنك؟ فقال: يا خواص! تخلص من رغبتك فى الرمان الحلو، فإنك تؤذينى. واطلب السلامة لقلبك، فأى جسد سليم تريده لى؟ قلت: وكيف عرفت أننى الخواص؟ قال: من عرفه، لم يخف عليه شيء قط! قلت: وكيف حالك مع هذا النحل؟ قال: إننى بخير ما دام النحل يلدغنى، والدود يأكلنى.

وقال: رأيت فى البادية رجلاً ، فقلت له: من أين تأتى؟ قال: من بلاد ساغون(١٠١). قلت: ولماذا جئت؟ قال: كنت أضع لقمة فى الدهن، فتلوثت يدى، وقد جئت حتى أغسلها بماء زمزم. قلت: وماذا تنوى؟ قال: أن أعود الليلة، وأعد الفراش لأمى.

وقال: سمعت أن ببلاد الروم راهباً مقيماً بالدير منذ سبعين سنة بحكم الرهبانية. فقلت: واعجبا! شرط الرهبانية أربعون سنة.

فقصدته، فلما اقتربت من ديره، فتح كوة، وقال: يا إبراهيم! لأى أمر جئت؟ إننى لم أقم هنا رهبانية، بل لأن لى كلباً هائجاً، وقد أقمت هنا لأحرسه، وأكفى الخلق شره، وإلا فأنا لست من تظن. فلما سمعت هذا الكلام، قلت: إلهى! أنت قادر على أن تهدى العبد طريق الصواب فى عين الضلالة. وقال لى: يا إبراهيم! إلام تطلب الناس؟ امض، واطلب نفسك، وإن وجدتها، فاحرسها، لأن هذا الهوى يرتدى كل يوم ـ ثوب الإلهية على ثلاثمائة وستين لوناً، ويدعو العبد إلى الضلالة.

يروى أن ممشاد استيقظ ذات ليلة على غير عادته، ثم نام، فلم يستطع؛ فتوضأ، وصلى ركعتين، ونام، فلم يستطع أيضاً. فقال: يا رب! ماذا أصابنى؟ فوقع فى قلبه أن انهض، واخرج. وكان البرد غزيراً، فكان يمضى تحته، حتى خرج من المدينة. وكان هناك تل، يقصده من يتب، ويعتليه. فرأى إبراهيم جالساً فوق ذلك التل، وقد ارتدى قميصاً قصيراً، وكان الثلج يذوب حوله، ويجف. فقال: يا ممشاد! اعطنى يدك، فأعطيته يدى، فتصببت عرقاً من حرارة يده. وأنشد بيتاً من الشعر العربى.

كان أبو الحسن العلوى(١٠٢) مريداً للخواص. قال: قال لى الخواص ذات ليلة: سأذهب إلى مكان ما، فهلا ساعدتنى؟ فقلت اذهب إلى المنزل، وانتعل نعلى. ولما ذهبت إلى المنزل، كانت عجة قد أعدت، فأكلت قطعة منها، وعدت إليه، وأدركته. فاعترضنا ماء،

فوضع قدمه عليه، ومشى. ووضعت قدمى أيضاً؛ فسقطت فيه. فالتفت الشيخ إلىّ وقال: أعقدت العجة على قدميك؟ فقلت: لاأعلم أى الأمرين أعجب: مشيه على الماء أم علمه بسرى؟!

يروى أنه قال: توغلت فى البادية، فغلبنى جوع شديد. فتقدم إلىّ أعرابى، وقال: ماذا تفعل أيها البطين؟ قلت إننى لم أتناول شيئاً قط منذ عدة أيام. فقال: ألا تعلم أن الدعوى تهتك ستر المدعين، فأى شأن لك بالتوكل؟

وقال: اقتربت من الرى ذات مرة، وكنت جائعاً، فوقع فى قلبى أن معارفى فى المدينة سيقدمون لى الطعام بمجرد وصولى إليها. فكنت أمضى فى الطريق، فرأيت منكراً، فحسبلت؛ فضربونى كثيراً لهذا السبب. قلت: أيليق هذا الضرب مع مثل هذا الجوع! فنوديت فى سرى: بل إنه بسبب رغبة رغبتها! قلت: إلهى! لقد توكلت عليك، فسمعت صوتاً: سبحان الله الذى طهر الأرض من المتوكلين،. لا تفكر فى طعام معارفك فى الرى، ثم توكل.

يروى أن الخواص احتار فى أمره، فخرج إلى الصحراء، فرأى مكاناً يكثر فيه النخيل، ويجرى فيه الماء. فأقام فيه، وكان يصنع القفاف من سعف النخيل، ويطرحها فى ذلك الماء، وظل على هذا الحال أربعة أيام، ثم قال: أمضى الآن خلف هذه القفاف؛ لأرى الغلة، وبأى شىء عبأها الحق تعالى. كنت أمضى، فرأيت عجوزاً جالسة على الشاطئ، وكانت تبكى. قلت: لم تبكين؟ قالت: لى

خمسة من الأيتام، ولا أملك شيئاً قط، وجلست على الشاطئ يوماً ويومين وثلاثة أيام. وقد كان يجلب لى عدة قفاف كل يوم، وكنت أبيعها، وأنفق ثمنها على أيتامى. ولم يجلب لى شيئاً اليوم؛ لهذا أبكى. ولنأكل الشعير اليوم. قال لها الخواص: دلينى على بيتك، فدلته. فقال: اطمئنى الآن، فسأوفر لك ما أستطيع من الأسباب ما دمت حياً.

وقال : كنت أطلب رزقى من الحلال؛ فطرحت الشبكة فى البحر، واصطدت سمكة. فهتف بى هاتف: أتمنعها عن ذكرنا؟ ألا تجد مجالاً آخر، فهل كان السمك قد تقاعس عن ذكرنا؛ حتى تقتله. قال: فأطحت بالشبكة، وامتنعت عن الصيد.

يروى أنه قال: يلزمنى من الله تعالى عمر الأبد فى الدنيا؛ لينشغل جميع الخلق فى نعم الجنة، وينسوا خدمة الحق، وأقوم أنا ـ فى بلاء الدنيا ـ بحفظ آداب الشريعة، وأذكر الحق.

وقال : ما هابنى شىء قط إلا ركبته.

وقال: ليكن لك قلب ساكن، وكف فارغة، وتذهب النفس حيث شاءت.

وقال: من عرف الحق تعالى، أوفى بالعهد. والمعرفة هى السكون إلى الله تعالى، والاعتماد عليه.

وقال: ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنما العالم من اتبع العلم، واستعمله، واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم.

وقال: العلم كله فى كلمتين: لا تتكلف ما كفيت، ولاتضيع ما استكفيت.

وقال: من أشار إلى الله تعالى وسكن إلى غيره، ابتلاه الحق تعالى. وإن سكن إلى الله تعالى، كفاه كل بلاء. وإن دام سكونه إلى غيره، نزع الحق تعالى الشفقة عليه من قلوب خلقه، وألبسه لباس الطمع؛ حتى يسأل الخلق دائماً، ولا يرحمه الخلق أو يشفقون عليه؛ فيحيا بائساً محروماً، ويموت فى عسرة وحيرة وألم وبلاء، وينتهى أمره بالندم والأسف.

وقال: من لم تبك الدنيا عليه، لم تضحك الآخرة إليه. ومن ترك شهوة، ولم يجد فى قلبه عوضاً عنها، فهو كاذب.

وقال: من صح فى توكله، صح فيما سواه.

وقال: التوكل هو الثبات أمام محيى الأموات.

وقال: الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال: المراعاة تجلب المراقبة، والمراقبة الإخلاص فى السر والعلانية.

وقال: المحبة: محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات.

وقال: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقال: يطلبون هذا الحديث فى التضرع عند السحر، وإن لم يجدوه

هناك، لن يطلبوه فى مكان قط، ويجدوه.

يروى أنه كان يضرب على صدره، ويقول: واشوقاه إلى شخص رآنى، ولم أره.

يروى أنه سئل: من أين تأكل؟ فقال: من المكان الذى يأكل منه الطفل فى بطن أمه، ويأكل منه السمك فى البحر، والوحوش فى الصحراء. قال الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾(١٠٣).

سئل: أيطمع المتوكل؟ قال: يرد الطمع على خاطره، ولكنه لا يضيره؛ لأن لديه القوة على طرح الطمع، باليأس مما فى أيدى الخلائق.

وقد قيل: إنه أصيب بداء فى البطن فى آخر عمره، وكان قد اغتسل ستين مرة ــ فى ليلة وضحاها ــ فى جامع الرى، وفى كل مرة كان يغتسل فيها، كان يصلى ركعتين. ثم كان يصليها قضاء مرة أخرى. فسأله رجل وهو على ذلك الحال: أترغب فى شىء؟ قال: قطعة كبد مشوية. ثم اغتسل بالماء، وأسلم الروح. فحملوه إلى البيت. فدخل شيخ فوجد قطعة خبز تحت وسادته. فقال: إذا لم أجد هذه القطعة، لما صليت عليه؛ فهى دليل على أنه مات متوكلاً، ولم يتخل عن التوكل. وينبغى للمرء ألا يثبت على صفة قط ما دام سائراً، فلا يقيم فى مقام التوكل، أو فى غيره، ما لم يضطر إلى ذلك.

رآه أحد المشايخ فى المنام، فقال له: ماذا فعل الله تعالى بك؟ قال: مع أننى تعبدت كثيراً، وسلكت سبيل التوكل، إلا أننى حين فارقت الدنيا بطهارة الوضوء؛ كنت أثاب على عبادة أديتها، لكنى

نزلت بمنزل أسمى من درجات الجنة جميعها بسبب الطهارة. ثم نوديت: يا إبراهيم! لقد بالغنا في كرمك؛ لأنك جئت إلينا طاهراً، وللمتطهرين في هذه الحضرة مكانة ومرتبة عظيمة.

ذكر الشيخ ممشاد الدينورى[١٠٤]
رحمة الله عليه

هو ممدوح الرجال، والمجذوب من قبل ذى الجلال. هو المظفر فى وقته، والأوحد، العالى الهمة. هو المجرد من الحقد والرياء، شيخ الوقت ممشاد الدينورى.

كان شيخ زمانه، وأوحد عصره، وممدوحاً بكل كمال، ومصطفى بكل خصال، وكان آية فى الرياضة والخدمة والمشاهدة والحرمة. وكان يغلق باب الخانقاه دائماً، ولما كان يسافر يحل على الخانقاه، كان يقف خلف الباب، ويقول له: هل أنت مسافر أم مقيم؟ إن كنت مقيماً، ادخل وإن كنت مسافراً، فليست هذه الخانقاه مكانك؛ لأنك ستبقى عدة أيام، ونعتاد عليك، عندئذ تمضى، ولا طاقة لنا بفراقك.

جاءه رجل، وقال: ادعو الله لى. فقال له: امض، واذهب إلى حىّ الله تعالى، فلا حاجة لك بدعاء ممشاد. قال الرجل: يا شيخ! أين حىّ الله؟ قال: حيث لا تكون أنت. ذهب الرجل، واعتزل الخلق،، وشعر بالسعادة، وأنس بها، وسكن إلى الحق تعالى، حتى جاء رجل

عظيم، وحل بدينور. فاتجه الخلق جميعاً إلى صومعة ممشاد. وفى تلك الأثناء رأوا ذلك الشاب كان يأتى، وقد طرح سجادة على الماء، وكان الماء يحمله. فلما رآه ممشاد، قال له: ما هذا الحال؟ قال الفتى: منحتنى هذا، وتسأل عنه! ها هو الحق تعالى قد أغنانى عن دعاء ممشاد وغيره، وبلغنى هذه الدرجة التى ترى.

يروى أنه قال: مذ علمت أن أحوال الفقراء جد كلها، لم أمازح فقيراً؛ وذلك أن فقيراً قدم علىّ، فقال: أيها الشيخ! أريد أن تتخذ لى عصيدة. فجرى على لسانى إرادة وعصيدة. فاتجه (الفقير) إلى البادية، ولم يزل يقول هذه الكلمات حتى مات.

يروى أنه قال: كان علىّ دين، فاشتغل قلبى، فرأيت فى النوم كأن قائلاً يقول: يا بخيل، أخذت علينا هذا المقدار، خذ، عليك الأخذ، وعلينا العطاء. فما حاسبت بعد ذلك بقالاً، ولا قصاباً، ولا غيرهم.

وله أقوال عالية، ومن أقواله، أنه قال: الأصنام مختلفة: فصنّم بعض الخلق نفسه، وصنّم بعضهم أولاده، وصنّم بعضهم ماله، وصنّم بعضهم زوجه، وصنم بعضهم حرمته، وصنّم بعضهم صلاته وصيامه وزكاته وحاله، فالأصنام كثيرة، وكل واحد من الخلق مقيد بصنم من هذه الأصنام، ولامفر لأحد قط من هذه الأصنام إلا من لا يرى لنفسه حالاً ومحلاً، ولا يمتدح أفعاله، بل ينبغى عليه ألا يرضى عن نفسه فى كل ما يصدر عنها من خير أو شر، ويلومها.

وقال: أدب المريد فى أربعة أشياء: التزام حرمات المشايخ، وخدمة الإخوان، والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع على نفسه.

وقال: ما دخلت قط على أحد من شيوخى، إلا وأنا خال من جميع مالى، أنظر بركات ما يرد علىّ من رؤيته وكلامه.

وقال: من دخل على شيخ بحظه، انقطع بحظه عن بركات رؤيته، ومجالسته، وأدبه، وكلامه.

وقال: صحبة أهل الصلاح، تورث فى القلب الصلاح. وصحبة أهل الفساد، تورث فيه الفساد.

وقال: الأسباب علائق، وفى التعريج موانع، والاستثناء إلى مسبوق القضاء فراغة؛ وأحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق، واعتمد على الله تعالى فى جميع أموره.

وقال: فراغ القلب فى التخلى مما تمسك به أهل الدنيا من فضول دنياهم.

وقال: لو جمعتَ حكمة الأولين والآخرين، وادعيتَ أحوال السادة من الأولياء، فلن تصل إلى درجات العارفين، حتى يسكن سرك إلى الله تعالى، وتثق به فيما ضمن لك.

وقال: جملة المعرفة صدق الافتقار إلى الله تعالى.

وقال: تتحقق المعرفة على ثلاثة وجوه: بالتفكر فى الأمور وكيف دبرها، وفى المقادير وكيف قدرها، وفى الخلق وكيف خلقهم! إن

شرح أحد هذه العبارات الثلاث، ألّف مجلداً، لكن لا مجال لذلك فى هذا الكتاب.

وقال: الجمع أنه جمع الخلق فى التوحيد، والتفرقة: أنه فرقهم فى الشريعة.

وقال: طريق الحق بعيد، والصبر مع الحق شديد.

وقال: الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر.

وقال: أرواح الأنبياء فى حال الكشف والمشاهدة، وأرواح الصديقين فى القربة والاطلاع.

وقال: التصوف صفاء الأسرار، والعمل بما يرضى الجبار، وصحبة الخلق دون اختيار.

وقال: التصوف إظهار الغنى، واختيار المجهول الذى لا يعلمه الخلق، والتخلى عما لا يفيد.

وقال: التوكل حسم الطمع عن كل ما يميل إليه قلبك ونفسك.

وسئل: ماذا يفعل الفقير إذا جاع؟ قال: يصلى. فقيل: فإن لم يقدر. قال: ينام. قيل: فإن لم يقدر ينام. قال: إن الله تعالى لايخلى فقيراً عن أحدى ثلاث: إما قوى، وإما غذاء وإما أخذ.

ولما حانت وفاته، قيل له: كيف تجد عليك؟ قال: سلوا العلة كيف تجدنى. قيل له: قل: لا إله إلا الله. فاتجه إلى الجدار، وقال: فنيت فيك كلية، أيكون هذا جزاء من أحبك؟

وقال له رجل: ماذا فعل الله تعالى بك؟ قال: منذ ثلاثين سنة تُعرض علىّ الجنة بما فيها، فما أعرتها طرفى.

قيل له: كيف تجد قلبك؟ قال: لقد فقدت قلبى منذ ثلاثين سنة، وأردت استعادته، فلم أجده. ولم أعثر عليه طوال هذه المدة، وكيف أجده فى حال ضاعت معها قلوب جميع الصديقين. قال هذا، وأسلم الروح.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى بكر الشبلى(١٠٥) رحمة الله عليه

هو غريق بحر القدرة، وبرق سحاب العزة. هو جلاد المدعين، وإمام المتقين. هو شعاع من العالم الحسى والعقلى، شيخ الزمان أبو بكر الشبلى رحمة الله عليه.

كان من كبار المشايخ وأجلتهم، ومن أكابر الطريقة ومحتشميها. سيد القوم، وإمام أهل التصوف، ووحيد العصر. كان بلا مثيل فى الحال والعلم، ولطائفه وإشاراته ورموزه وعباراته ورياضاته وكراماته تفوق الحصر. كان قد أدرك مشايخ العصر جميعهم، وكان الأوحد فى علوم الطريقة. قد أسند كثيراً من الأحاديث، وكان فقيهاً فى مذهب مالك، ومالكى المذهب. وكان حجة على خلق الله. وأعماله لا توصف، ومعاناته لا توضحها العبارة. كان شجاعاً من البداية إلى النهاية، ولم يصبه ضعف أو فتور. ولم تخمد شدة لهب شوقه قط.

كان قد قرأ كثيراً من الأحاديث، وقال: قرأت الفقه والحديث ثلاثين سنة؛ حتى أشرقت شمس فى صدرى، ثم ذهبت إلى أعتاب

السادة الذين ورد بشأنهم: «هاتوا فقه الله». قال رجل لايعرف شيئاً: إن التدليل على شئ من الغيب ـ لا دليل له ـ أمر عجيب. فعلمت أنكم فى ليل مدلهم، ونحن فى صباح مشرق. فشكرنا (الله)، وعهدنا بالولاية للص، حتى فعل بنا ما فعل، وأوذى كثيراً من جهال الزمان، وقوبل برفض الخلق وقبولهم وغوغائهم. وكانوا يعتزمون قتله مثل الحسين بن منصور، الذى أخذت عليه بعض أقواله.

وفى بداية أمره، كان أميراً على دماوند، فوصلته رسالة من بغداد؛ فذهب مع أمير الرى وجماعة إلى الخليفة فى بغداد، وأخذوا الخلع من الخليفة، وفى أثناء العودة، عطس الأمير؛ فمسح فمه وأنفه فى كم الخلعة. فأُخبر الخليفة بهذا؛ فأمر، فخلعوا الحلة عنه، وصفعوه على عنقه، وعزلوه عن الإمارة. فانتبه الشبلى لذلك، وفكر قائلاً: من مسح يده فى خلعة المخلوق، استحق العزل والإهانة، وزالت عنه الإمارة. فماذا يفعل بمن يمسح يده بخلعة ملك العالم. وفى الحال جاء إلى الخليفة. فقال له: ماذا حدث؟ قال: أيها الخليفة! يا من أنت مخلوق ولا ترضى الاستهانة بخلعتك. ومعروف كم هو قدر خلعتك. وقد منحنى ملك العالم خلعة من محبته ومعرفته، لا يقبل ملك قط الاستهانة بها من أجل مخلوق. ثم خرج، وذهب إلى مجلس خير النساج، وألمت به واقعة؛ فأرسله خير إلى الجنيد. ومن ثم تقدم الشبلى إلى الجنيد، وقال: إن جوهر المعرفة يعرض عليك، فهبه أو بعه. قال الجنيد: إن بعته، لن تأخذ ثمنه، وإن تصدقت به، حصلت عليه أنت بسهولة؛ فلا تعرف قدره. فتقدم مثلى، وألق بنفسك فى

هذا البحر؛ حتى تظفر بجوهرك بالصبر والانتظار. فقال الشبلى: ماذا أفعل الآن؟ قال له: اذهب، وبع الكبريت سنة، ففعل. ولما انقضت سنة، قال: إن هذا العمل فيه شهرة وتجارة؛ فاذهب، وتسول سنة أخرى، لا تنشغل خلالها بشىء قط. ففعل، وطاف كل أنحاء بغداد فى سنة، ولم يعطه أحد شيئاً، فعاد، وأخبر الجنيد بذلك. فقال له: اعرف قدر نفسك الآن، وأنك لا تساوى شيئاً لدى الخلق، فلا تعلق قلبك بهم، ولا تعبأ بهم. عندئذ قال: كنتُ حاجباً عدة أيام، وتوليت الإمارة عدة أيام، فاذهب إلى تلك الإمارة، وتحلل من أهلها. فجاء، ودخل البيوت جميعها بيتاً تلو الآخر. وبقيت له مظلمة، لم يجد صاحبها، فقال: تصدقت بمائة ألف درهم وفاء لها، ولم يطمئن قلبى حتى الآن. ثم عاد إلى الجنيد بعد مرور أربع سنوات. فقال له: لقد بقيت فيك نخوة حتى الآن، فاذهب، وتسول سنة أخرى. قال الشبلى: كنت أتسول كل يوم، وأحمل إليه ما أحصل عليه، فكان يمنحه كله للدراويش، ويتركنى جائعاً طوال الليل. ولما انقضت سنة، قال: الآن أسمح لك بالصحبة، لكن بشرط أن تكون خادماً لأصحابك. بعد ذلك قال لى: يا أبا بكر! ماحال نفسك معك؟ فقلت: أراها أحقر خلق الله. قال الجنيد: صدق إيمانك الآن. ووصل به الحال إلى أنه كان يملأ كمه بالسكر، وحيثما كان يرى طفلاً، كان يضع السكر فى فمه، ويقول له: قل الله. ثم ملأ كمه بالدراهم والدنانير، وقال: من قال الله مرة، أملأ فمه بالذهب. بعد ذلك شعر بالغيرة، فاستل سيفاً، وقال: من ذكر الله، أطحت رأسه بهذا السيف. فقيل له: كنت قبل هذا تمنح السكر والذهب لمن يذكر الله، والآن تريد الإطاحة برأسه!

فقال: كنت أظن أنهم يذكرونه على سبيل الحقيقة والمعرفة، والآن علمت أنهم يذكرونه على سبيل الغفلة والتعود. وأنا لا أجيز أن يذكروه بلسان ملوث، ومن ثم كان يمضي، وكل مكان كان يراه، كان ينقش عليه اسم الله، حتى سمع صوتاً فجأة: إلى متى تطوف حول الاسم، إن كنت طالباً، فاطلب المسمى. فأثر فيه هذا الكلام إلى حد أنه فقد قراره وسكونه، وهكذا قوى عشقه، وغلبه الاضطراب، فمضى، وألقى بنفسه في نهر دجلة، فرفعه الموج، وقذفه إلى الشاطئ. بعد ذلك ألقى بنفسه في النار، فلم تحرقه. فألقى بنفسه أمام أسود جائعة، فنفرت منه. فألقى بنفسه من فوق جبل، فحملته الريح، ووضعته على الأرض. فاضطرب الشبلي اضطراباً شديداً، وصاح: «ويل لمن لا يقبله الماء ولا النار ولا السباع ولا الجبال». فهتف به هاتف: «من كان مقبول الحق لا يقبله غيره».

وحدث أن قُيد بالسلاسل والأغلال، وحُمل إلى البيمارستان، فتقدم إليه قوم، وقالوا: هذا مجنون. فقال: أنا عندكم مجنون، وأنتم عندى عقلاء. فليزد الحق تعالى في جنوني؛ لأزداد قرباً على قرب، وليزد في صحتكم؛ لتزدادوا بعداً على بعد. فأرسل الخليفة رجلاً؛ ليأخذ تعهداً عليه. فجاءوا، وكانوا يصبون الدواء في حلقة عنوة. وكان الشبلي يقول: لا تتعبوا أنفسكم؛ فهذا ليس الدواء الذى يشفى الداء.

حبس الشبلي، فدخل عليه جماعة يوماً، فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك. فأخذ يرميهم بالحجر، وأخذوا يهربون. فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي.

يروى أنه شوهد، وكان يجرى وفى يده جمرة من نار. فقيل له: إلى أين؟ قال: أجرى حتى أشعل النار فى الكعبة؛ حتى ينشغل الخلق برب الكعبة.

وأمسك بقطعة خشب يوماً، كانت مشتعلة الطرفين. فقيل له: ماذا ستفعل؟ قال: إنى ذاهب لأحرق الجحيم بطرف، وأحرق الجنة بالطرف الآخر؛ حتى يرتوى الخلق برواء الحق تعالى.

يروى أنه كان يرقص تحت شجرة - ذات مرة - عدة أيام بلياليها، ويقول: «هو، هو». فقيل له : ما هذا الحال؟ فقال: تغرد هذه الفاختة على الشجرة قائلة: كوكو. وأنا أقول: هو، هو موافقة لها. وهكذا يقال: إن الفاختة لم تكن تسكت، ما لم يسكت الشبلى.

يروى أن قدمه تعثرت فى حجر ذات مرة، وكل قطرة دم كانت تسيل منها، كانت تكتب الله.

يروى أن الشبلى صبغ جوالاً باللون الأحمر قبل العيد بثلاثة أيام، وطرحه على رأسه، ووضع لقمة فى فمه، وعقد على خصره حبلاً من القنب، وكان يدور، ويقول: من لم يكن قد وجد لباساً؛ فليفعل هذا فى العيد.

وقال: إن لم تلد النساء فى تسعة أشهر، تلد فى سنة. وقد انشغل كل واحد من أصحاب الحوانيت بشىء، وانشغل المتصوفة بالسجادة، والمرقعة، والاستنجاء، والاستبراء. وفرغ الشبلى من هذا كله.

كان الشبلي قد ارتدى قميصاً أسود في العيد، وكان ينوح. فقيل له: اليوم عيد، فلماذا ترتدى السواد؟ قال: بسبب غفلة الخلق عن الله تعالى.

وفى بداية أمره، كان عنده قباء أسود، فلما سلك الطريق الصوفى، خلع القباء الأسود، وارتدى المرقعة. قيل له: ماالذى أوصلك إلى هذه الدرجة؟ فقال: سواد على سواد حتى فنيت بينهما.

يروى أنه كان يكتحل بالملح ـ ليلاً ـ فى أول عهده بالمجاهدة؛ حتى لا ينام. ويقال: إنه كان قد اكتحل بسبعة أمنان من الملح، وكان يقول: لقد اطلع الحق تعالى على حالي، وقال: من نام غفل، ومن غفل حجب.

جاءه الشيخ الجنيد يوماً، فرآه ينتف الشعر من حاجبيه بمنقاش. فقال له: لماذا تفعل هذا؟ قال: الحقيقة ظاهرة لى، ولست أطيقها. وأقمع نفسى علّنى أحظى بها (الحقيقة) لحظة.

يروى: أن الشبلى كان يبكى، ويقول: آه آه. فقال الجنيد: أراد الشبلى أن يخون الأمانة التى استودعه الحق إياها، فابتلى بصيحة الآه. فلما قال الجنيد هذا الكلام؛ جال شيئ بخاطر المستمعين، فأدرك (الجنيد) ذلك بنور الإيمان، وقال: احذروا، ولا تسيئوا الظن بالشبلى، فهو عين الله بين الخلق.

وكان الأصحاب يمتدحون الشبلى يوماً، ويقولون: ليس أحد فى مثل صدقه وشوقه، وليس أحد من السالكين أعلى منه همة، وأزهد

منه. وفجأة دخل الشبلى، وسمع ماكانوا يقولون. فقال الجنيد: إنكم لا تعرفوه، فهو مردود ومخذول وظالم. أخرجوه من هنا - فأخرجه الأصحاب. وجلس الشبلى على العتبة، وأغلق الأصحاب الباب. قال (أحد الأصحاب): أيها الشيخ! إنك تعلم أن ما قلناه فى حق الشبلى صحيح. فما هذا الذى أمرت به؟! قال: إنه جدير بالثناء، لكنكم كنتم تطعنونه بسيف حاد، فوضعنا درعاً أمامه، وحميناه.

يروى أن الشبلى كان ينزل كل يوم سرباً، ويحمل معه حزمة من القضبان، فكان إذا دخل قلبه غفلة؛ ضرب نفسه بتلك الخشب حتى يكسرها على نفسه، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسى، فكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط.

يروى أنه كان فى الخلوة ذات مرة، فطرق رجل الباب، فقال: ادخل أيها الرجل، فلو أنك أبو بكر الصديق، ولم تدخل؛ لكان هذا أحب إلىّ.

وقال: أريد - منذ فترة - أن أختلى مع الله خلوة يفنى فيها الشبلى.

وقال: منذ سبعين سنة وأنا أريد أن أعرف الله لحظة.

وقال: العجز تكيتى.

وقال: الحاجة رفيقى.

وقال: ليتنى كنت تنوراً مشتعلاً؛ حتى لا أُعرف.

وقال: هكذا أعرف نفسى وأراها يهودية.

وقال: لقد ابتليت بأربعة، وتلك الأعداء الأربعة هى: النفس، والدنيا، والشيطان، والهوى.

وقال: لقد حلت بى ثلاث مصائب، كل مصيبة أصعب من الأخرى. قيل له: وما هى؟ قال: زال الحق عن قلبى. قيل له: وما هو الأصعب من هذا؟ قال: حل الباطل محل الحق. قالوا: وماذا كانت المصيبة الثالثة؟ قال: إننى لم أهتم بعلاجها، ولا أكون فارغاً هكذا.

يروى أنه كان يقول فى المناجاة يوماً: يا إلهى العظيم! اجعل الدنيا والآخرة طوع أمرى، حتى أجعل من الدنيا لقمة، وأضعها فى فم كلب، وأجعل من الآخرة لقمة، وأضعها فى فم يهودى. فكلاهما حجاب يحجب المقصود.

وقال: ينادينى الجحيم يوم القيامة قائلاً: يا شبلى! وأذهب أنا إلى الصراط، وأنهض، وأطير كالطير. فيقول الجحيم: أين قوتك؟ يلزمنى نصيب منك، فأعود، وأقول: ها أنا خذ ما تريد. فيقول: أريد يديك. أقول: خذهما. يقول: أريد رجليك. أقول: خذهما. يقول: أريد حدقتيك. أقول: خذهما. يقول: أريد قلبك. أقول: خذه. وفى أثناء ذلك تتجلى غيرة العزة (قائلة): يا أبا بكر! جد بما تملك أما القلب فهو ملك لنا، فأى شأن لك بالقلب حتى تمنحه. ولذا قال: إن قلبى أفضل من ألف دنيا وآخرة؛ لأن الدنيا قصر المحنة، والآخرة قصر النعمة، والقلب قصر المعرفة.

يروى أنه قال: إن أراد ملك الموت روحى لما أعطيتها له قط؛ وأقول: إن الروح التى وهبتنى إياها، هل منحتها لى بواسطة شخص حتى أعطيها له. لكن ما دمت وهبتنى الروح دون واسطة، فاقبضها دون واسطة.

وقال: إن لم أكن قد خدمت السلطان، لما استطعت أن أخدم المشايخ، وإن لم أكن قد خدمت المشايخ، لما استطعت أن أخدم الحق تعالى.

يروى أنه أصيب بالحمى؛ فوضع قميصه على النار، وكان يحرقه. فقيل له: ليس من العلم أن تضيع المال. أليست فتوى القرآن هى: حصب ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١٠٦) ولم يأسف قلبى على هذا، فشعرت بالغيرة والأسف على أن أشغل قلبى بشىء دونه.

يروى أن وقته كان قد طاب يوماً، فذهب إلى السوق، واشترى مرقعة بدانق ونصف، وعمامة بنصف دانق. وكان يصيح فى السوق قائلاً: «من يشترى صوفياً بدانقين»، وغلبه حال قوى، فعقد مجلساً، وأفشى ذلك السر للعامة. فلامه الجنيد، وقال: إننا كنا نقول هذا الكلام فى السراديب. وقد جئت أنت، وأفشيته فى الأسواق. قال الشبلى: أنا أقول، وأسمع، من فى العالمين سواى. بل إنه كلام يسرى من الحق إلى الحق، والشبلى فان. قال الجنيد: إن كان الأمر هكذا، فإنك على حق.

وقال: من انشغل بالدنيا والآخرة، حرام عليه مجلسنا.

كان يقول يوماً: الله، الله، ويرددها كثيراً. فقال شاب مبتل: لماذا لاتقول: «لا إله إلا الله» فتأوه الشبلى، وقال: أخشى أن تقبض روحى حين أقول لا، ولا أصل إلى الله، فأشعر بالوحشة. أثر هذا الكلام فى الشاب، فارتعد، وأسلم الروح. فجاء أهل الشاب، وأخذوا الشبلى إلى دار الخلافة، وكان الشبلى يمضى ـ وهو فى غلبات الوجد ـ كالثمل. وطلبوا القصاص منه. قال الخليفة: ماذا تقول يا شبلى؟ فقال: يا أمير المؤمنين! هناك روح طاهرة احترقت بلهيب نار العشق فى انتظار لقاء جلال الحق، وانقطعت عن جميع العلائق، وفنت عن صفات النفس وآفاتها، وفاضت طاقتها، وقل صبرها. فتواتر عليه من فى الحضرة، ووقع برق من جمال مشاهدة هذا الحديث على نقطة روحه، فطارت روحه كالطير من قفص البدن، فأى جرم للشبلى فى هذا، وأى ذنب؟! قال الخليفة: أعيدوا الشبلى إلى بيته بسرعة، فقد أثر فى قوله إلى حد يخشى معه أن أسقط فى هذه الحضرة.

يروى أنه كان يقول لمن تاب على يديه: اذهب، وحج مجرداً، ثم عد؛ حتى تستطيع صحبتنا. ثم كان يرسل ذلك الرجل إلى البادية مع أصحابه دون زاد أو راحلة. حتى قيل له: إنك تهلك الخلق. فقال: ليس الأمر هكذا، بل إن مرادهم هو المجيئ إلىّ، لا مرادى أنا. إن كنت أنا مرادهم، فهذه وثنية، بل إن الفسق أفضل لهم؛ لأن الفاسق الموحد أفضل من الراهب الزاهد. لكن مرادهم هو الحق. إن هلكوا

فى سبيل الحق، حققوا مرادهم، وإن عادوا، أعادهم عناء السفر أسوياء. وإننى لاأستطيع الاستقامة طيلة عشر سنوات.

يروى أنه قال: حين أمر على السوق، أرى جباه الخلق وقد كتب عليها سعيد أو شقى. وكان يصيح فى السوق ذات مرة، ويقول: آه من الإفلاس، آه من الإفلاس. قيل له: وما الإفلاس؟ قال: «مجالسة الناس ومحادثتهم والمخالطة معهم».

وكان يمضى يوماً، وقد انشغل جماعة من الأثرياء بعمارة الدنيا والتمتع بها. فصاح الشبلى صيحة، وقال: لا جرم أن القلوب التى غفلت عن ذكر الحق، قد ابتليت بجيفة الدنيا، ورجسها.

يروى أن نعشاً كل يُحمل، وكان رجل يمضى خلفه، ويقول: «آه من فراق الولد». فأخذ الشبلى يلطم، ويقول: آه من فراق الأحد.

وقال: جاءنى إبليس، وقال: احذر، ولا تغتر بصفاء أوقاتك، فغوامض الآفات مستترة فيها.

يروى أنه رأى حطباً ندياً، كانت النار قد اشتعلت فيه من ناحية، والماء يقطر منه من الناحية الأخرى. فقال للأصحاب: أيها المدعون! إن صدقتم القول فى أن النار تشتعل فى قلوبكم، لترقرق الدمع فى أعينكم.

يروى أنه جاء إلى الجنيد فى وقت ما ثملاً بالشوق، وقد غلبه الوجد، ومد يده، ومزق قميص الجنيد. فقيل له: لماذا تفعل هذا؟ فقال: أعجبنى؛ فمزقته؛ حتى لا يعجبنى.

ودخل الشبلى على الجنيد يوماً، وقد غلبه السكر. وكانت امرأة الجنيد تمشط شعرها، فلما رأت الشبلى، أرادت أن تنصرف. فقال لها الجنيد: لا تغطى رأسك، ولا تنصرفى؛ فإن سكارى هذه الطائفة لا خبر لهم عن الجحيم. فكان الشبلى يتكلم، ويبكى. ثم قال الجنيد لامرأته: انهضى الآن وانصرفى، فقد أفاق الشبلى من غيبته، وأخذ يبكى.

يروى أنه ذهب إلى الجنيد فى وقت آخر، فوجده محزوناً، فسأله: ماذا حدث؟ فقال الجنيد: «من طلب وجد» فقال الشبلى: «لا بل من وجد طلب».

يروى أن الجنيد كان قد جلس مع الأصحاب يوماً، فرأى الرسول عليه الصلاة السلام وقد دخل من الباب، وقبّل الشبلى على جبينه، ومضى. فسأله الجنيد: يا أبا بكر! ماذا تفعل حتى تحظى بهذا التشريف؟ قال: لا أعلم شيئاً سوى أننى أصلى ركعتين سُنة فى كل ليلة، وأقرأ هذه الآية بعد الفاتحة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾(١٠٧) قال الجنيد: لذلك ظفرت بهذا التشريف.

يروى أنه تطهر يوماً، وقصد المسجد، فنودى فى سره أن: يا أبا بكر! هل تطهرت الطهارة التى تجعلك تدخل بيتى بهذه الجرأة. لما سمع الشبلى ذلك، ورجع، فنودى: أتتحول عن عتبتى! إلى أين ستذهب؟ فصرخ؛ فنودى: إنك تشنع علينا، فوقف صامتاً فى مكانه؛ فنودى: إنك تدعى تحمل بلائنا. فصاح قائلاً: «المستغاث بك منك»!

جاء فقير عاجز إلى الشبلى وقال: أيها الشيخ! بحق وفاء الدين، لقد ضاق الحال بى، فقل لى: ماذا أفعل؟ هل أيأس، وأعود عن الطريق؟ فقال له: أيها الفقير! إنك تطرق حلقة باب الكفر! ألا تسمع أنه قال: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾(١٠٨). قال: لقد آمنت. قال: أتمتحن حضرة الجلالة! ألا تسمع: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١٠٩) قال: بالله لا أطمئن، ولا أيأس فماذا أفعل؟ قال: اضرب رأسك على عتبة بابى، وتأوه، حتى تصعد روحك، وينادون عليه قائلين: «من على الباب».

يروى أنه كان يسمح للحصرى بالمثول أمامه من الجمعة إلى الجمعة. وقال له فى جمعة: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى.

يروى أنه كان فى بغداد وقال: يلزمنى ألف درهم لشراء العتاد للفقراء؛ ليذهبوا إلى الحج. فوقف مجوسى، وقال: أنا أمنحك إياها، لكن بشرط أن تأخذونى معكم. قال الشبلى: أيها الفتى! إنك لست أهلاً للحج. قال الفتى: ليست فى قافلتكم دابة قط، فاتخذونى دابة. فمضى الفقراء، وعقد المجوسى وسطه، وتحركوا جميعاً. قال الشبلى: كيف حالك أيها الفتى؟ قال: إننى لا أنام من السعادة؛ لأننى سأرافقكم. ولما سلكوا الطريق، أخذ الفتى جاروفاً، وكان يكنس مكانهم فى كل منزل، ويقتلع الشوك، حتى وصلوا إلى مكان الإحرام، فكان ينظر إليهم، ويفعل كما يفعلون. ولما وصلوا إلى البيت. قال الشبلى للفتى:

لن أتركك بالزنار فى البيت. فوضع الفتى رأسه على الأعتاب، وقال: إلهي! يقول الشبلى: إنه لن يدعنى فى بيتك. فهتف به هاتف: يا شبلى! لقد أتينابه من بغداد، وأشعلنا نار العشق فى روحه، وجذبناه إلى بيتنا بسلسلة اللطف. فلا تنزعج أيها الحبيب، وادخل. فدخل الفتى البيت، وزاره. وكان الآخرون يدخلون ويخرجون. ولم يخرج ذلك الفتى. فقال الشبلى: فلتخرج أيها الفتى. قال الفتى: أيها الشيخ! إنه لن يدعنى أخرج، ومهما بحثت عن باب للبيت، لم أجد. فإلى أين سيصل بى الأمر؟

يروى أنه كان يمر بالبادية يوماً مع الأصحاب، فرأى عمامة السرى، وقد كتب عليها: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾(١١٠) فاضطرب الشبلى، وقال: بعزة الله إن هذه رأس ولى أو نبى. فقيل له: ولماذا تبكى؟ قال: حتى لاتخسر الدنيا والآخرة فى هذا الطريق، ولا تصل إليه.

يروى أنه ذهب إلى البصرة فتقرب إليه أهل البصرة، وأحسنوا إليه كثيراً. ولما أراد العودة، خرج الجميع لوداعه. ولكنه لم يشفع لأحد قط. فقال له المريدون: لقد أحسن إليك هؤلاء السادة كثيراً، ولم تشفع لأحد منهم قط. قال: إن ما فعلوه لا يخرج عن أمرين: أما إنهم فعلوه من أجل الحق، أو من أجلى. فإن كانوا قد فعلوه من أجل الحق، فقد قبله وسيجزيهم به. وإن كانوا قد فعلوه من أجلى، فإننى عبد، ومن أحسن إلى عبد، كان جزاؤه على رب العبد.

يروى أنه قال: اعتقدت وقتاً أن لا آكل إلا من حلال، وكنت أدور فى البرارى، فرأيت شجرة تين، فمددت يدى لآكل، فنادتنى الشجرة: احفظ عليك وقتك، ولا تأكل منى فإنى ليهودى.

يروى أن ضريراً كان فى المدينة، عشق الشبلى لكثرة ماسمع عنه، ولم يره. وحدث أن صادفه الشبلى يوماً، وكان جائعاً. وقد أمسك الضرير برغيف، فأخذه الشبلى من يده، فتشاجر معه. فقال رجل للضرير: إنه الشبلى فغضب الضرير، وتعقبه، وجثا على يديه وقدميه، وقال: أريد دعوتك جزاء ذلك، فوافق الشبلى. فأعد الرجل وليمة، وأنفق عليها حوالى مائة دينار، ودعا كثيراً من الأكابر، وقال: الشبلى ضيفنا اليوم. ولما جلسوا إلى المائدة، سأل رجل الشبلى قائلاً: أيها الشيخ! ما علامة أهل الجنة، وما علامة أهل النار؟ قال: من لا يستطيع أن يتصدق برغيف لأجل الله تعالى، وينفق مائة دينار فى وليمة إرضاء لهوى النفس، هو من أهل النار. كما فعل هذا الضرير. وعلامة أهل الجنة على خلاف هذا.

يروى أنه كان يعظ فى مجلس ذات مرة؛ فصاح فقير صيحة، وألقى بنفسه فى دجلة. فقال الشبلى: إن كان صادقاً، نجاه الله تعالى كما نجا موسى عليه السلام. وإن كان كاذباً، أغرقه الله تعالى كما أغرق فرعون.

كان الشبلى يعظ فى مجلس يوماً؛ فصاحت عجوز صيحة. فلم يعجبه ذلك، وقال: «موتى يا ما وراء الستر». فقالت العجوز: «جيت

حتى أموت، وخطت خطوة، وأسلمت الروح. فضج الحاضرون. ومضى الشبلى، ولم يخرج من بيته سنة، وكان يقول: وضعت العجوز قدميها على عنقنا.

يروى أنه قال: زلفت قدمى يوماً من فوق جسر محطم، وكان الماء كثيراً. فرأيت يداً غريبة، أخذتنى إلى الشاطئ. نظرت، فوجدته الشيطان، فقلت له: أيها الملعون! إن سبيلك هو ضرب اليد لا الأخذ بها. من أين جئت بهذا (المسلك)؟ قال: تضرب أيادى الأخساء؛ لأنهم يستحقون ذلك. ومنذ أصبت فى غوغاء آدم، لم أدخل فى غوغاء أخرى، حتى لا يصير الجرح جرحين.

يروى أنه ذهب إلى باب الطاق، فسمع صوت مغنية، كانت تقول: «وقفت وقفت بباب الطاق» ففقد صوابه، ومزق قميصه، وسقط. فأخذ إلى الخليفة. فقال له: أيها المجنون! كيف كان سماعك؟ قال: بلى، لقد سمعتوها أنتم «باب الطاق»، لكننى سمعتها «باب الباق»، والطاء تفصل بينى وبينكم.

ومرض ذات مرة، فقال له الطبيب: احتم! فقال: مما أحتمى؟ أمن شىء هو نصيبى، أم من شىء ليس بنصيبى؟ فإذا كان يلزم الاحتماء من النصيب، فغير ممكن. وإن يكن من غير النصيب، فهذا لا يُعطى لى.

يروى أن الجنيد والشبلى مرضا. فذهب طبيب مجوسى إلى الشبلى، وقال له: ماذا يؤلمك؟ قال: لاشىء. فكرر عليه القول، فقال:

ليس هناك ألم قط. وذهب الطبيب إلى الجنيد، وقال له: ماذا يؤلمك؟ فأخذ الجنيد يشرح ألمه. فعالجه المجوسى، ومضى. والتقى الشبلى والجنيد فقال الشبلى للجنيد: لماذا أفصحت عن ألمك للمجوسى؟ قال: حتى يعلم ماذا سيفعلون بالعدو إن كانوا قد فعلوا هذا بالحبيب. ثم قال الجنيد: ولماذا لم تفصح له أنت عن ألمك؟ قال: خجلت أن أشكو الحبيب لعدو.

يروى أنه دخل دار المجانين ذات مرة، فرأى شاباً مقيداً بسلسلة، كان يتلألأ مثل القمر، فقال للشبلى: أرى فيك مروءة واضحة، فبالله عليك أبلغه كلامى هذا عند السحر: لقد جردته من المتاع، وشردته فى الدنيا، وأبعدته عن أهله وأقاربه، وألقيت به فى الغربة، وتركته جائعاً عارياً، وسلبته العقل، وأوثقته بالقيود والأغلال الثقيلة، وفضحته بين الخلق. فأى ذنب جناه سوى محبتك؟ إن حان الوقت، ارفع يدك عنه. ولما وصل الشبلى إلى الباب، ناداه الشاب قائلاً: أيها الشيخ! احذر، ولا تبلغه شيئاً؛ حتى لا يسيئ إلىّ أكثر من هذا.

يروى أنه مرّ ببغداد يوماً، وكان بائع الفقاع ينادى قائلاً «لم يبق إلا واحد». فصاح الشبلى صيحة، وكان يقول: «هل يبقى إلا واحد والسلام».

يروى أن فقيراً كان ينادى لكى يُمنح رغيفان، ليستقيم أمره. فقال له الشبلى: ماأطيب أن يستقيم أمرك برغيفين، إن الكونين يوضعان فى طرفى كل ليلة، ولا يستقيم أمرى.

يروى: أن الشبلى رأى رجلاً كان يبكى ذات يوم، فقال له: لماذا تبكى؟ قال: إنه كان له حبيب، ومات. فقال له: أيها الجاهل! لماذا تتخذ حبيباً يموت؟!

يروى أن نعشاً وضع أمام الشبلى، فكبّر خمس تكبيرات: أربع تكبيرات على الميت، وتكبيرة على العالم والعالمين.

يروى أن الشبلى كان قد اختفى، ولم يتم العثور عليه. وفى النهاية عثر عليه فى دار المخنثين. فقيل له: ليس هذا مكانك! فقال: بل هو مكانى؛ فهم ليسوا برجال أو نساء فى الدنيا، وأنا أيضاً لست برجل أو امرأة فى الدين. فهذا المكان مكانى.

يروى أن الشبلى كان يمضى يوماً. وكان طفلان يتنازعان على ثمرة جوز كانا قد عثرا عليها. فأخذها الشبلى منهما، وقال: اصبرا، حتى أقسمها بينكما. ثم كسرها، فوجدها فارغة. ونودى: هلا قسمتها، إن كنت مقسماً. فخجل الشبلى، وقال: أهذه الخصومة كلها على جوزة فارغة، وادعاء القسمة هذا كله على لا شيء.

يروى أن الشبلى قال: اشتريت تمراً فى البصرة، وقلت: من يأخذ دانقاً، ويحمل لى هذا التمر إلى الخانقاه. فلم يقبل أحد؛ فرفعته على ظهرى، وحملته إلى الخانقاه، ووضعته. ولما خرجت من الخانقاه، سرقه رجل، فقلت: ياللعجب! كنت أعرض دانقاً لمن يحمله إلى الخانقاه، ولم يقبل أحد. الآن جاء رجل، وحمله لى إلى الصراط بلا مقابل.

يروى أن الشبلى رأى جارية جميلة. فقال لسيدها: أتبيع هذه الجارية بدرهمين؟ فقال له: أيها الأبله! من فى الدنيا يبيع جارية بدرهمين؟ فقال الشبلى: أنت الأبله، فالحورية تباع بتمرتين فى الجنة.

يروى أن الشبلى قال: ليس هناك أحد من بين فرق العالم المخالفة أحقر من الرافضى والخارجى. لأن الآخرين الذين خالفوا، خالفوا فى الحق، وتحدثوا عنه. وهاتان الطائفتان أضاعتا الفرصة على الخلق.

كان الشبلى يتحدث مع علوى، فقال: كيف يمكننى أن أتساوى بك! فقد أعطى أبوك ثلاثة أرغفة لفقير، ويتلى فى القيامة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾(١١١). وتصدقت أنا بعدة آلاف من الدراهم والدنانير. ولم يذكر أحد هذا.

كان الشبلى فى المسجد يوماً، وكان مقرئ يقرأ هذه الآية: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾(١١٢) فسقط على الأرض، وسال منه الدم، وكان يقول: هذا خطابه لأحبابه.

ويروى أنه قال: أريد أن أقول: «حسبى الله» منذ زمن، ولما كنت أعلم أن هذا كذب منى، فلم أستطع أن أقول.

يروى أن أحد المشايخ قال: أردت أن امتحن الشبلى؛ فحملت قميصاً من حرام إلى بيته، وقلت: يرتديه حين يذهب لصلاة الجمعة غداً. فلما عاد الشبلى إلى البيت، قال: ما هذا الظلام الذى يعم الدار؟ فشرحوا له الحال. فقال: ألقوا ذلك القميص خارج البيت، فإنه لا يجوز لنا.

يروى أن ابنة ولدت للشبلى، ولم يكن هناك شيء قط فى البيت بأسره. فقيل له: لماذا لا تطلب شيئاً من أحد حتى تكرم الضيفة؟ فقال: ألا تعلم أن البخلاء يُسألون، والغائبين يُخبرون. ففى الوقت الذى كانت فيه هذه الضيفة فى رحم أمها، كان الحق تعالى يرزقها. فمن يرزقها الآن حين جاءت إلى صحراء الدنيا! ولما علم أن الليل أقبل، والنساء ضعيفات. انزوى فى منتصف الليل، وعفر وجهه بالتراب، وقال: إلهى! ما دمت أرسلت ضيفة؛ فدبر أمرها دون واسطة البخلاء، ولم يكد يتم المناجاة، حتى أخذ سقف البيت يمطر دنانير من الذهب الأحمر. وهتف به هاتف: «خذ بلا حساب، وكل بلا عتاب». فقام، وحمل الذهب إلى السوق؛ ليدبر مؤنة البيت. قال الناس: يا صديق العهد! من أين لك بذهب بهذه الروعة؟ قال: سكه الملك الأكبر فى دار الضرب، ولم تصل له أيدى الغشاشين.

يروى أنه كان يضع كثيراً من الملح فى عينيه. فقيل له: لقد عميت عيناك. فقال: إن ماأ صاب قلبنا، خفى عن عيننا.

وقال رجل للشبلى: مالى أراك قلقاً، أليس هو معك، وأنت معه؟ فقال الشبلى: لو كنت أنا معه، كنت أنا، ولكنى محو فيما هو.

وقال: كنت أظن مدة طويلة أننى أطرب فى محبة الحق، وآنس بمشاهدته، والآن أدركت أنه لا أنس للأنس إلا مع الجنس.

سئل الشبلى: أى شيء أعجب؟ قال: قلب عرف ربه ثم عصاه.

وسئل: متى يكون الرجل مريداً؟ فقال: إذا استوت حاله فى السفر والحضر، والمشهد والمغيب.

وقيل له: جاع أبو تراب فى البادية، وسقطت الأمطار، فرأى البادية كلها طعاماً. فقال: عبد رفق، ولو بلغ إلى محل التحقيق، لكان كمن قال: «إنى أظل عند ربى فهو يطعمنى ويسقينى».

وقال عبد الله الزاهد: دخلت على الشبلى فى وقت ما، وقلت: أسأله عن المعرفة. ولما جلست. قال: ما أخبار الله فى خراسان؟ ومن يعرفه فيها؟ فقلت: سألت فى العراق خمسين سنة، ولم أجد أحداً يعرف الله. قال: وكيف حال أبى على الثقفى؟ قلت: مات. قال: لقد كان فقيهاً، ولكنه لم يكن يعرف التوحيد.

قال أبو العباس الدامغانى: أوصانى الشبلى، فقال: الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت.

وقال: سأل الجنيد الشبلى: كيف تذكر الله، ولا تصدق فى ذكره؟ فقال: أذكره مجازاً؛ حتى يذكرنى مرة. ففنى الجنيد عن نفسه لذلك الكلام. قال الشبلى: دعوه، فهذه الحضرة مكان للصفع، وللخلعة أيضاً.

قيل للشبلى: الدنيا للأشغال، والآخرة للأهوال، فمتى ستكون الراحة؟ فقال: دعك من أشغال هذه؛ حتى تنجو من أهوال تلك.

وقيل له: أخبرنا عن توحيد مجرد، بلسان حق مفرد. فقال: ويحك!! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنوى، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن توهم أنه واصل؛ فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب، فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد.

وكل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم.

سئل: ماللتصوف؟ فقال: أن تكون فى ذلك اليوم كما لم تكن.

وقال: التصوف صيانة القلب عن رؤية الغير، ولا غير.

وقال: الفناء ناسوتى، والظهور لاهوتى.

وقال: التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك.

وقال: لا يكون المرء صوفياً، مالايرى جميع الخلق عياله.

وقال: الصوفى منقطع عن الخنق، متصل بالحق. مثلما قطع موسى عليه السلام عن خلقه، وقال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(١١٣)، ووصله بذاته وقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾(١١٤). وهذا أمر محير.

وقال: الصوفية أطفال فى كنف لطف الحق تعالى.

وقال: التصوف عصمة عن رؤية الكون.

وقال: التصوف برق محرق.

وقال: التصوف الجلوس مع الله تعالى بلا هم.

وقال: أوحى الحق تعالى إلى داود عليه السلام: الذكر للذاكرين، والجنة للمطيعين، والزيارة للمسافرين، وأنا اختص بالمحبين.

وقال: الحب دهشة فى لذة، وحيرة فى نعمة، والمحبة حسد المحبوب؛ لأنه يحبه مثلك.

وقال: المحبة إيثار الخير الذى تحب لمن تحب.

وقال: من ادعى المحبة، وانشغل بشىء آخر سوى المحبوب، وطلب شيئاً سوى الحبيب. فهو كمن يستهزئ بالله تعالى تماماً.

وقال: الهيبة مذيبة للقلوب، والمحبة مذيبة للأرواح، والشوق مذيب للنفوس.

وقال: ماشم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد.

وقال: التوحيد حجاب الموحد عن جمال الأحدية.

وقال الشبلى لرجل يوماً: أتدرى لم لا يصح توحيدك؟ فقال: لا! فقال: لأنك تطلبه بك.

وقال: المعرفة ثلاثة: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الوطن. فإنك تحتاج إلى قضاء الفرائض لمعرفة الله. وتحتاج إلى الرياضة لمعرفة النفس. وتحتاج إلى الرضا بالقضاء وأحكامه لمعرفة الوطن.

وقال: لما أراد الحق تعالى أن يعذب البلاء، ألقى به فى قلب العارف. فسئل: من العارف؟ فقال: من ضعف عن حمل بقة.

وسئل السؤال ذاته مرة أخرى، فقال: العارف من حمل السموات السبع والأرضين على شعرة من أهدابه. فقيل له: أيها الشيخ! قلت غير ذلك فى وقت آخر، والآن تقول هذا. قال: كنت أنا أنا فى ذلك الوقت، والآن أنا هو.

وقال: ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله فرار.

وسئل عن المعرفة، فقال: أولها الله تعالى، وآخرها ما لانهاية له.

وقال: لم يعرف الله أحد قط. قالوا: كيف هذا؟ قال: إن عرفوه لما انشغلوا بغيره.

وقال: العارف لا يكون لغيره لاحظاً، ولا بكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظاً.

وقال: العارف من ملك من الدنيا إزاراً، ومن الآخرة رداء، وتجرد من الكونين. لأن من تجرد من الأكوان، انفرد بالحق.

وقال: وقت العارف مثل الربيع، يزأر فيه الرعد، ويمطر المطر، ويلمع البرق، وتهب الريح، وتتفتح البراعم، وتغرد الطيور. وحال العارف على هذا النحو: يبكى بعينيه، ويبتسم بشفتيه، ويحترق بقلبه، ويضحى بنفسه، ويذكر الحبيب، ويطوف حول بابه.

وقال: الدعوات ثلاث: دعوة العلم، ودعوة المعرفة، ودعوة المعاينة. ودعوة العلم واحدة وهي: ألا تتعلم العلم بذاتك.

وقال: العبارة لغة العلم، والإشارة لغة المعرفة.

وقال: علم اليقين هو ما ورد إلينا على لسان الأنبياء عليهم السلام. وعين اليقين: ما وهبه الله لنا من نور الهداية إلى أسرار القلوب. وحق اليقين لا سبيل إليه.

وقال: الهمة لله، وما دونه ليس بهمة.

وقال: صاحب الهمة لا يشتغل بشيء، وصاحب الإرادة يشتغل بشيء.

وقال: الفقير لا يستغنى بشيء دون الله عز وجل.

وسئل عن الفقر، فقال: للفقراء أربعمائة درجة أدناها أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد، فأنفقها فى يوم، ثم خطر بباله، أن لو أمسك منها قوت يوم، ما صدق فى فقره.

وقال: الخلق كل فى واحد يتصف بالفردانية.

وقال: الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تطلبه، والحقيقة أن تراه.

وقال: أفضل ذكر نسيان الذاكر فى مشاهدة المذكور.

وقال: الجلوس مع الله بلا واسطة أمر صعب.

وقال: الصابر من أهل الحضرة، والراضى من أهل الصدارة، والمفوض من أهل البيت.

وقال: هذا الحديث طائر فى قفص، يتجه إلى كل ناحية، ولا يستطيع الخروج.

وقال: الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لاشيء؛ والزهد فى لا شيء غفلة.

وسئل عن الزهد، فقال: الزهد أن تنسى الدنيا ولا تذكر الآخرة.

وسئل عن الزهد مرة أخرى، فقال: لاشيء لأن ما كان لك، سيصلك بالضرورة، وإن فررت منه، وما لم يكن لك، لن يصلك قط، وإن ألححت فى طلبه. ومن ثم ففى أى شيء تزهد: فيما كان لك أم فيما لم يكن لك؟!

وسئل عن الزهد كذلك، فقال: تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء.

وقيل له ما الاستقامة؟ فقال: أن تشهد الوقت قيامة.

وقال: الاستقامة أن تؤدى ما يأمرك به.

وقال: علامة الصادق اجتناب الحرام.

وقيل له: ما الأنس؟ فقال: وحشتك منك ومن نفسك.

وقال: ليس من أنس بالذكر، كمن أنس بالمذكور.

قيل: هل يتحقق العارف بما يبدو له؟ فقال: كيف يتحقق بما لا يثبت؟ وكيف يطمئن إلى ما لايظهر؟ وكيف يأنس بما يخفى؟ فهو الظاهر الباطن، الباطن الظاهر.

وقال: كل إشارة أشار الخلق بها إلى الحق، فهى مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحق بالحق، ليس لهم إلى ذلك طريق.

وقال: إذا تجلى الحق لعين العبد، كانت العبودية. وإذا تجلت فيه صفات الحق، كانت المشاهدة.

وقال: اللحظة حرمان، والخطرة خذلان، والإشارة هجران، والكرامة عذر، والله مانع عن الله فى قرب الله، وهذا كله مكر. ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١١٥).

وقال: وراء كل نعمة ثلاثة مكور، ووراء كل طاعة ستة.

وقال: العبودية اضمحلال إرادتك فى إرادته، وفسخ إرادتك واختيارك فى اختياره، وترك رغباتك مرضاة له.

وقال: الانساط بالقول مع الحق سبحانه ترك الأدب.

وقـال: الأنس بالخلق إفـلاس، وتحـريك اللسـان دون ذكـر الله وسواس.

وقال: علامة القربة الانقطاع عما سوى الحق تعالى.

وقال: الفتوة أن تريد للخلق ماتريد لنفسك، بل أفضل مما تريد لنفسك.

وقال: الخدمة حرية القلب.

وقال: الحياء أسمى منازل الرجاء.

وقال: الغيرة غيرتان: غيرة البشرية وغيرة الإلهية، فغيرة البشرية على الأشخاص، وغيرة الإلهية على الوقت أن يضيع فيما سوى الله تعالى.

وقال: الخوف فى الوصل أشد من الخوف فى المكر.

وقـال: لم يغلبنى الخـوف فى يوم قط إلا وفـتح لقلبى باباً من الحكمة والعبرة.

وقال: الشكر: رؤية المنعم، لا رؤية النعمة.

وقال: إن نفساً تصعد موافقة للمولى، أفضل وأطيب من عبادة العباد جميعهم، منذ عهد آدم وحتى القيامة.

وقـال: ألف عـام مـاضـيـة فى ألف عـام واردة، هو ذا الوقت، ولاتغرنكم الأشباح.

وقال: من نام لحظة فى ليلة غـافلاً، تخلف عن طريق الآخـرة

ألف سنة.

وقال: سهو طرفة عين عن الله ـ لأهل المعرفة ـ شرك بالله.

وقال: ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق.

وليس من جذبته أنوار قدسة إلى أنسة. كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته.

وقال: من فنى عن الحق بالحق، لقيام الحق بالحق، فنى عن الربوبية، فضلاً عن العبودية. من كان بالحق تلفه، كان الحق خلفه.

وقال: لقد ظهر جمع، يحضرون بالعادة، ويذهبون بالرسم، ولايزيد هذا الجلوس والسماع إلا البلاء.

يقول حسن الدامغاني: قال الشبلى: يابنى! بالله عليك، كن دائماً بالله، ودعك عما سوى الله مصداقاً لقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١١٦)

وسئل الشبلى: متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذاكراً سواه. أى أكون أنا الجميع.

وقال: إن عرفتُ قدر الله، ما خشيت غيره قط.

وقال: رأيت رجلين فى المنام، فقالا لى: ياشبلى! من فعل كذا وكذا، فهو من الغافلين.

وقال: أتمنى منذ زمن أن أتنفس نفساً مستتراً عن قلبى، ولايعلم به

قلبى، فلا أستطيع.

وقال: إن صار الجميع لقمة، ووضعت فى فم أسد مفترس. لأشفقت عليه، لأنه يظل جائعاً.

وقال: إن ملكت الدنيا بأسرها، منحتها لمجوسى، واعتبر قبوله لها منى منة كبيرة.

وقال: ليس يخطر الكون ببالى. وكيف يخطر الكون ببال من عرف المكون؟

يروى أنه كان فى غلبات الوجد ـ يوماً ـ مضطربا حائراً. فقال له الجنيد: يا شبلى! لو رددت أمرك إلى الله لاسترحت! فقال الشبلى: ياأبا القاسم! لو رد الله أمرك إليك لاسترحت! فقال الجنيد: سيوف الشبلى تقطر دماً !

يروى: أن رجلاً كان يقول يوماً: يارب! فقال له الشبلى: لمن تقول يارب؟ وهو يقول: عبدى، فاستمع لما يقول. قال: إننى أسمع ماأقوله. فقال له: تكلم إذن، فإنك معذور.

وكان يقول فى مناجاته: ياإلهى! إذا صيرت السماء طوقاً لى، والأرض قيداً لرجلى، وجعلت العالم كله متعطشاً لدمى، فإننى لا أتحول عنك!

يروى: أنه لما حانت وفاة الشبلى، كانت عيناه قد أظلمتا؛ فطلب رماداً، ونثره على رأسه، وأصابه اضطراب لا يمكن وصفه . قيل له ما كل هذا الاضطراب؟ قال: أغير من إبليس، وتحرق نار الغيرة

روحى، فأنا أجلس هنا متعطشاً، وهو يمنح شيئاً يملكه لرجل آخر. و ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾(١١٧) ولا أستطيع رؤية إضافة اللعنة إلى إبليس، وأريد أن تكون لى. وإن لم تكن اللعنة تخصه، وإن لم تضف إليه، لعرف ذلك الملعون قدرها. فلماذا لم يجد على أعزاء الأمة؛ ليضعوا أقدامهم على مفرق العرش. فبائع الجوهر يعرف قدره. إن وضع الملك زجاجة أو بلورة على يده، تبدو جوهراً. وإن صنع بائع الخضر خاتماً من الجوهر، ووضعه فى إصبعه، يبدو زجاجاً. ولم يهدأ لحظة، واضطرب مرة أخرى. فقالوا: ماذا حدث؟ قال: تهب ريحان: رياح اللطف، وريح القهر. من هبت عليه ريح اللطف، حقق مراده. ومن هبت عليه رياح القهر، حجب. فمن يدرك تلك الريح؟ إن حظيت برياح اللطف، تحملت كل هذا الإخفاق والشدة على أمل إدراكها، وإن حظيت بريح القهر، فما سيحل بى من شدة، لن يكون شىء بالنسبة لها.

ثم قال: ما على قلبى شغل أعظم على من درهم مظلمة، وقد تصدقت عن صاحبه بألف، ولم يطمئن قلبى. ثم قال: وضئنى للصلاة، ففعل، ونسى تخليل لحيته، فذكره.

يقول أبو محمد الهروى: مكثت عند الشبلى الليلة (التى مات فيها) فكان يردد هذين البيتين طوال ليلته:

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

ثم تجمع الخلق لصلاة الجنازة، فعلم الحال، وقال: عجباً، جاءت جماعة من الموتى؛ لتصلى على حىّ. قالوا: قل: «لاإله إلا الله» قال: ما دام ليس هناك غيره، فماذا أنفى؟ قالوا: لابد أن تنطق بالشهادة. فقال: يقول سلطان المحبة: لا أقبل الرشوة. فصاح رجل، ولقنه الشهادة. فقال: لقد جاء ميت حتى يوقظ حىّ. وفى النهاية، ولما انقضى بعض الوقت، قالوا له: كيف حالك؟ فقال: أدركت المحبوب، وأسلم الروح.

بعد ذلك رؤى فى المنام، فقيل له: ماذا فعلت مع منكر ونكير؟ فقال: دخلا على، وقالا لى: من ربك؟ قلت: ربى هو من جعلكما والملائكة جميعاً تسجدون لأبى آدم، وقد كنت فى ظهر أبى، وكنت أشاهدكم فقال منكر ونكير لبعضهما: إنه لم يجب عن نفسه فقط، بل أجاب عن أبناء آدم جميعهم، فتعال، لنمضى.

يروى عن أبى الحسن الحصرى أنه قال: رأيت الشبلى فى المنام، فقلت له: ماذا حدث لك؟ فقال: جيىء بى، وقيل لى: أتريد شيئاً؟ فقلت: ياألهى العظيم! إن أسكنتنى فى جنة عدن فهو عدلك، وإن جعلتنى من أهل الوصال، فهو فضلك.

رؤى الشبلى فى المنام مرة أخرى، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شىء واحد، قلت يوماً: لاخسارة أعظم من خسران الجنة، ودخول النار، فقال لى الحق تعالى: وأى خسارة أعظم من خسران لقائى!!

وروى فى المنام مرة أخرى، فسئل: كيف وجدت سوق الآخرة؟ فقال: سوق لا رواج فيه، وليس فيه سوى أكباد محترقة، وقلوب محطمة، ولاشيء آخر. وهنا يوضع المرهم للمحترق، ويجبر المكسور، ولالتفت إلى شيء قط.

رحمة الله عليه

ذكر أبي نصر السراج[118]

رحمة الله عليه

هو العالم العارف، والحاكم الخائف. هو أمين زمرة الكبار، وجوهر حلقة الفقراء. هو زبدة الأمشاج، شيخ الوقت أبو نصر السراج رحمة الله عليه.

كان الإمام الحق، والأوحد المطلق، والمتعين والمتمكن. كانوا يطلقون عليه طاووس الفقراء. وصفاته ونعوته لايعبر عنها القلم والبيان، أو تشرحها العبارة واللسان.

بلغ أبو نصر الكمال في فنون العلم، وله في الرياضات والمعاملات شأن عظيم. وكان حجة في الحال وشرح كلمات المشايخ. وقد ألف كتاب اللمع. وإن أراد أحد أن يدرك مقامه ومنزلته، فليقرأ ذلك الكتاب وها أنا أيضاً سأتحدث عنه. كان أبو نصر قد أدرك كثيراً من المشايخ الكبار، وكان من طوس. ورد بغداد في شهر رمضان، فأعطوه خلوة في مسجد الشونيزيه، وعهدوا إليه بإمامة الفقراء. فأمهم حتى العيد، وختم القرآن في التراويح خمس

مرات. كان الخادم كل ليلة يحمل إليه رغيفاً فى الخلوة، ويعطيه له. فلما كان يوم العيد، ورحل أبو نصر، نظر الخادم، فوجد الثلاثين رغيفاً فى مكانها باقية.

يروى أن جماعة كانت قد جلست فى ليلة من ليالى الشتاء، وكانوا يتحدثون فى المعرفة. وكانت النار تشتعل فى المجمرة. فانتاب الشيخ حال، ووضع وجهه على تلك النار، وسجد لله. ففر المريدون - الذين شاهدوا ذلك الحال ـ من الخوف. وفى اليوم التالى، عادوا وقالوا: لعل الشيخ قد احترق! فوجدوا الشيخ جالساً فى المحراب، وكان وجهه ينير كالقمر. فقالوا: أيها الشيخ! ما هذا الحال؟ إننا ظننا أن وجهك قد احترق. قال: بلى إن من أراق ماء وجهه على هذه الأعتاب، ولاتستطيع النار إحراق وجهه.

وقال: العشق نار فى الصدر، تحرق قلوب العشاق وماسوى الله، وتجعله رماداً.

سمعت من ابن سالم(١١٩) أنه قال: النية بالله، ومن الله، ولله. والآفات التى تحدث فى الصلاة، إنما هى من النية. ومهما كانت كثيرة لا يمكن مقارنتها بالنية التى تكون لله وبالله.

ومن أقواله: الناس فى الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسماء الملوك، وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات. وأما أهل

الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

يروى أنه قال: كل جنازة يمرون بها على قبرى، يغفر لها وبحكم هذه الإشارة كانت كل جنازة تحمل فى طوس، يأتون بها إلى قبره أولاً، ثم يذهبون بها.

قدس الله سره العزيز، ورحمة الله عليه.

ذكر الشيخ أبى العباس القصاب(١٢٠)
رحمة الله عليه

هو جسور الحضرة، ومقبول الله. هو الكامل فى المعرفة، وعامل المملكة. هو قطب الأصحاب، شيخ الوقت أبو العباس القصاب رحمة الله عليه.

كان شيخاً عالماً، ومحترماً بين المشايخ. وكان صديق عصره. وكان ملكاً فى الفتوة والمروءة، وأعجوبة فى إدراك آفات عيوب النفس. وله شأن عظيم فى الرياضة والكرامة والفراسة والمعرفة. وقد أطلقوا عليه عامل المملكة، وشيخ العهد، وسلطانه. وقال لشيخ ميهنه(١٢١): الإشارة والعبارة نصيبك.

يروى: أنه قال للشيخ أبى سعيد: إذا سئلت أتعرف الله (تعالى)؟ فلا تقل: أعرفه، فهذا شرك. ولاتقل: لاأعرفه، فهذا كفر. ولكن قل: «عرفنا الله ذاته بفضله».

وقال: ينبغى على المرء ـ أراد أو لم يرد ـ أن يأنس بالله، وإلا حزن.

وقال: إن أراد بك خيراً، حفظ عليك العلم فى جوارحك، فأخذته أعضاؤك منك واحداً تلو الآخر، واحتفظت به، وأظهر لك فناءك، حتى يتجلى بقاؤه بفنائك. فانظر إلى الخلق بصفاتك، تراهم مثل الكرة فى ميدان القدرة. ومن ثم فإن تحريك الكرة هو شأن صاحبها.

وقال: طلب الجميع منه الحرية، وأنا أطلب العبودية، لأن عبده يحظى بالسلامة فى أسره، والحر معرض للهلاك.

وقال: الفرق بينى وبينكم هو: أنكم تكثرون من قول نحن، وأنا أكثر من قول هو. وأنكم تسمعون منا، وأنا أسمع منه. وأنكم تروننا وأنا أراه، وإلا فأنا رجل مثلكم.

وقال: المشايخ مرآة لك، وتكون كما تراهم.

وقال: كل مريد يقوم بخدمة واحدة لدرويش أفضل له من مائة ركعة يزيدها فى الصلاة. وإذا أنقص من طعامه لقمة واحدة، أفضل له من أن يصلى طول الليل.

وقال: طاعتى ومعصيتى متوطنتان بفعلين: فحينما آكل أجد فى نفسى جذور المعاصى، وعندما أكف عن الطعام أجد فى نفسى كل الطاعات.

وذكر علم الظاهر فى وقت ما، وقال: هو جوهر وضعت فيه دعوات نيف ومائة وعشرين ألف نبى. إن بدت ذرة من ذلك الجوهر من خلف ستار التوحيد، سرعان مايفنى الجميع عن وجوده.

وقال: ليس هناك معرفة ولابصيرة ولانور ولاظلمة ولا فناء. ذلك الموجود هو الموجود.

وقال: لم يمت المصطفى، بل مات نصيب عينك من المصطفى.

وقال: لله عباد تركوا الدنيا وزينتها للخلق، وتركوا الآخرة والجنة للمطيعين، وسكنوا إلى الله. يقولون: ألا يكفينا أن كتبت العبودية على أرواحنا من حضرة الربوبية؛ حتى نطلب شيئاً آخر؟!

وقال: الفتيان راحة للخلق لا وحشة لهم؛ فقد آثروا صحبة الله على صحبة الخلق، ونظروا بالله إلى الخلق.

وقال: لاتقرب صحبة الأخيار، والبقاع الطيبة، العبد إلى الله، إنما يتقرب العبد إلى الله بالربوبية، فاصحب من يطمئن باطنك وظاهرك لصحبته.

وقال: اصطفى الحق (تعالى) واحداً لنفسه من مائة ألف من أبناء آدم.

وقال: الدنيا نتنة، والأنتن منها قلب ابتلاه الحق (تعالى) بعشقها.

وقال: الطمع خسة، والمنع نذالة.

وقال: كلما اقترب الخلق من الخالق، شعروا بعجزهم.

وقال: الجميع أسرى الوقت، وهو الوقت. والجميع أسرى الخاطر، وهو الخاطر.

وقال: دعوات نيف ومائة وعشرين ألف نبى (عليهم السلام) جميعها حق. لكن الصفة للخلق، عندما تتجلى الحقيقة، لايبقى الحق ولا الباطل.

وقال: صادمت بقيت أنا وأنت، بقيت الإشارة والعبارة. وإن فنيت أنا وأنت، لاتبقى الإشارة ولا العبارة.

وقال: إن كان لك خبر عنه، لما استطعت الإخبار به.

وقال: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، ليست هناك ساعة قط لايتجلى فيها الحق (تعالى) عليك.

وقال: إن حفظ أمره عليك، فقد فزت، وإلا ينبغى أن يبكى عليك آدم وأبناؤه جميعاً.

وقال: إن كان هناك رجل، طلب سوى الله إلهاً، لكان هناك إلهان.

وقال: يطلب الله الله، ويجد الله الله، ويعرف الله الله.

وقال: إن اقترب الله من العرش أكثر من الثرى مثقال ذرة. فلا يليق هذا به.

وقال: إننى أصحب الرسول مع السعداء، وأصحب الله مع الأشقياء.

وقال: إبليس قتيل الله، وليس من المروءة إلقاؤكم قتيل ربكم للكلب.

وقال: إن جعل الحساب بيدى يوم القيامة، رأى ماذا أفعل؟ فسوف أتقدم للجميع، وأفسح المكان لإبليس، ولكنه لن يفعل.

وقال: لم يرنى أحد قط، ومن يرانى، يرى صفاته فى.

وقال: إن سجدة يتجلى على فيها ببقائه وفنائى، أعز إلىّ من كل ماخلقه وسيخلقه.

وقال: أنا فخر آدم، وقرة عين المصطفى. يفتخر آدم، ويقول: هذه ذريتى. فتقر عين الرسول، ويقول: هذا من أمتى.

وقال: وطائى عظيم. لاأرجع عنه، مالايطوى الخلق تحته من آدم وحتى محمد وهذا هو معنى ماقاله الشيخ أبو يزيد «لوائى أعظم من لواء محمد».

سئل عن الزهد، فقال: كنت قد وقفت على شاطئ بحر الغيب، وفى يدى مجداف. جدفت جدفة، فجمعت مابين العرش والثرى، إلى حد أنه لم يبق شىء قط للجدفة الأخرى. وهذه أدنى درجة للزهد. أى أن كل ماهو صورة، زال من أمامى فى الخطوة الأولى.

وقال: أسكن الحق (تعالى) قوماً الجنة، وأنزل قوماً فى الجحيم. ثم أخذ زمام الجنة والجحيم، وألقى به فى بحر الغيب.

وقال: المكان الذى يكون فيه الله، تكون فيه الروح، وكفى.

وقال: ينزل أهل الجنة فى الجنة، وأهل الجحيم فى الجحيم. ومن ثم فأين مكان الفتيان؟ فليس لهم مكان فى الدنيا ولا فى الآخرة.

يروى: أن رجلاً رأى القيامة فى المنام، وكان يطلب الشيخ، ولم يجده فى أى مكان فى الساحة. وفى اليوم التالى، جاء، وأخبر الشيخ بذلك المنام. قال الشيخ: لايفسر حلم مثل حلمك هذا دون مقابل!

طالما أننا لم نكن أصلاً، فكيف يمكن العثور علينا؟ وأعوذ بالله من أن يعثر علينا غداً.

يروى: أن رجلاً جاءه، وقال: ياشيخ! أريد الذهاب إلى الحج. فقال له: ألديك أبوان: قال: بلى. قال له: اذهب، واعمل على رضاهما. فذهب، وعاد مرة أخرى، وقال: ألحت عليّ فكرة الحج. فقال له: ياعزيزى! إنك لم تصدق فى هذا الشأن، وإن كنت قد صدقت، لو صلت الرسالة من الكوفة.

يروى: أنه كان فى الخلوة يوماً. فقال المؤذن: «قد قامت الصلاة» فقال: كم هو صعب المجيئ من الصدارة والحضرة. ثم نهض، ونوى الصلاة.

يروى: أن رجلاً سأله: ماكرامتك أيها الشيخ؟ قال: إننى لاأعرف الكرامات، لكننى أعلم أننى كنت أذبح كل يوم شاة فى البداية، وكنت أطوف المدينة بأسرها محنياً، حتى أربح تسوجاً أو لاأربح. اليوم أرى العلماء ينهضون، ويجيئون من المشرق إلى المغرب لزيارتنا، فأى كرامة تريدها أكثر من هذا؟

رحمة الله عليه، والله أعلم بالثواب.

ذكر الشيخ ابى على الدقاق(١٢٢)
رحمة الله عليه

هو أستاذ العلم والبيان، وأساس الكشف والعيان. هو فقيد العشق والمودة، والمحترق بالشوق والمحبة، والمكابد للألم والاشتياق، شيخ الوقت أبو على الدقاق رحمة الله عليه وقدس الله سره العزيز.

كان إمام الوقت، وشيخ العهد، وسلطان الطريقة، وملك الحقيقة، ولسان الحق. وله شأن عظيم فى الحديث والتفسير، والبيان والتقرير، والوعظ والتذكير. وكان حجة فى الرياضة والكرامة، وآية فى اللطائف والحقائق والمقام والحال.

كان مريداً لنصر الآبادى، وكان قد أدرك كثيراً من المشايخ، والتحق بخدمتهم. كان هناك نائح فى كل عهد، ونائح ذلك العصر هو أبو على الدقاق. ولم يكابد أحد ذلك الألم والشوق والحرقة والذوق الذى كابده. ولم يستند إلى شىء قط طوال عمره.

كان فى بداية أمره فى مرو، وألمت به واقعة، وهى كما قال لأحد المشايخ الكبار: رأيت إبليس فى مرو، ينثر التراب على رأسه. فقلت:

أيها اللعين! ماذا حدث؟ قال: ألقوا بالخلعة ـ التى انتظرتها سبعمائة ألف سنة، وكلت أحترق رغبة فيها ـ على قد بائع دقيق.

يقول الشيخ أبو علي الفارمذى مع كمال عظمته: لن تكون لى من حجة غداً، إلا أن أقول: إن اسمى أبو علي الدقاق.

ويقول الأستاذ أبو علي: الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد يورق، ولكنه لا يثمر. وإن أثمر، تكون ثماره بلا طعم. كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ؛ لا يتأتى منه شيء. ثم قال: أخذت هذا الطريق عن النصر آبادى، والنصر آبادى عن الشبلى، والشبلى عن الجنيد، والجنيد عن السرى، والسرى عن معروف الكرخي، ومعروف الكرخى عن داود الطائى، وداود الطائى عن التابعين.

وقال: لم أختلف إلى مجلس الأستاذ أبى القاسم النصر آبادى قط إلا اغتسلت قبله.

وفى بداية أمره، عقدوا له مجلساً في مرو. فقد كان أبو على شبوى(١٢٣) شيخاً كبيراً. وطلب منه أن يتحدث عن شيء، وقال له: حدثنا فى هذا المعنى. فقال الأستاذ: إن الحديث فى هذا الأمر مغلق عليّ فقال الشيخ أبو على شبوى: يجدر بنا أن نعدلك ماتريد؛ حتى تحدثنا فيما نريد.

يروى: أنه بعد أن غاب سنوات، كان قد سافر خلالها إلى الحجاز وغيرها، وارتاض. وصل إلى الرى عارياً ذات يوم، ونزل فى خانقاه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما. فعرفه رجل، وقال: إنه الأستاذ.

فتزاحم عليه الخلق، والتف حوله المشايخ؛ ليعظهم ويناظرهم. فقال لهم: إنه لا يستطيع الآن، ولكنه سيتحدث إليهم فيما بعد. فوضعوا منبراً، وبينما هم يتحدثون عن مجلسه، إذ اعتلى المنبر، وأشار إلى الجانب الأيمن، وقال: «الله أكبر» ثم اتجه إلى الجانب المقابل، وقال: «رضوان من الله أكبر» ثم أشار إلى الجانب الأيسر، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(١٢٤) فاضطرب الخلق، وضجوا، وحملت كثير من الجثث. وفى تلك الأثناء، نزل الأستاذ من فوق المنبر. وسألوا عنه بعد ذلك، فلم يجدوه. ومضى إلى مدينة مرو، ثم إلى نيسابور.

وقال فقير: دخلت مجلسه يوماً، وأنا أنوى أن أسأله عن حال المتوكلين. وكان قد وضع عمامة طبرية على رأسه. فمال إليها قلبى. فقلت له: أيها الأستاذ! ما التوكل؟ قال: ألا تطمع فى عمائم الناس. وألقى إلىّ بالعمامة.

وقال: اعتللت مرة بمرو؛ فاشتقت أن أرجع إلى نيسابور، فرأيت فى المنام: كأن قائلاً يقول لى: لايمكنك أن تخرج من هذا البلد؛ فإن جماعة من الجن قد استحلوا كلامك، ويحضرون مجلسك؛ فلأجلهم تجلس ها هنا.

يروى أنه حين كان يقع أمر بين الناس، وينشغلون به. كان الأستاذ يقول: هذا من غيرة الحق. فهو يريد ألا يحدث ما حدث.

يروى أنه كان يلوم رجلاً فوق المنبر، ويقول: أى منفعة لحسود ومعجب ومتكبر؟ وماذا يرجى منه؟ قال سائل: مع كل هذه الصفات

الذميمة التى يتسم بها المرء، إلا أنه يحب الله. فقال الأستاذ: خشى من الله؛ لأنه يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ(١٢٥)﴾.

يروى أنه كان يقول يوماً فوق المنبر: الله والله والله فقال رجل: من الله؟ قال له: لاأعلم. قال: ما دمت لا تعلم، فلماذا تتكلم؟ فقال: إن لم أقل هذا، فماذا أفعل إذن؟

يروى أن فقيراً نهض في مجلسه، وقال: إننى فقير، ولم آكل شيئاً منذ ثلاثة أيام. وكانت جماعة من المشايخ حاضرة. فصاح عليه قائلا: إنك تكذب؛ فالفقر سر الملك، ولايضع الملك سره عند رجل يفشيه لأحد، أو يبوح به لعمرو وزيد.

يروى أن بائع فقاع(١٢٦) وقف بباب الخانقاه. وكان يأتى وقت الطعام، ويحضر قدراً من الفقاع، ويجلس إلى المائدة، ويمنح الفقاع للمتصوفة. ولما كانوا يشبعون. كان يحمل ما تبقى منهم. فجرى على لسان الأستاذ يوماً: إن هذا الفتى مخلص. فقد رآه الأستاذ فى المنام ليلاً، وقال: رأيت مكاناً مرتفعاً، وقد اجتمع فيه أركان الدين والدنيا. وكانت هناك ربوة بينى وبينهم. فذهبت إلى تلك الربوة، فاعترضنى حائل، ومهما حاولت الذهاب لم أستطع. فجاء بائع الفقاع فجأة، وقال لى: اعطنى يدك يا أبا على! ففى هذا الطريق ثعالب خلفها أسود. وفى اليوم التالى، كان الأستاذ فوق المنبر. ودخل بائع الفقاع من الباب. فقال الأستاذ: افسحوا له الطريق، فإنه إن لم يعاونا بالأمس، لكنا من العاجزين، قال بائع الفقاع: أيها الأستاذ!

إننى أذهب هناك فى كل ليلة. ووشيت أنت بنا فى ليلة واحدة جلت فيها.

يروى أن رجلا دخل عليه يوماً، وقال: جئتك أيها الأستاذ من مسافة بعيدة، فقال: ليس هذا الحديث بقطع المسافات، فارق نفسك ولو بخطوة، فقد حصل مقصودك.

يروى أن رجلاً دخل عليه، وشكا له من وساوس الشيطان. فقال الأستاذ: اجتث الشجرة؛ حتى لا تحط عليها العصافير. فإن وكر الشيطان فيها، وطيور الشيطان تقيم فيه.

يروى أن تاجراً يدعى «خوشكو» مرض. فعاده الشيخ، وقال له: يا فلان! ماذا حدث لك؟ فقال: استيقظت فى منتصف ليلة؛ لأتوضأ، وأصلى صلاة القيام. فشعرت بتعب فى ظهرى، وآلمنى ألماً شديداً، وأحم. قال الأستاذ: أى شأن لك بالفضول حتى تقوم الليل؟ فتبتلى بألم الظهر لا جرم. ومن ثم ينبغى عليك أن تجتنب الدنيا، فالرجل الذى تؤلمه رأسه، ويوضع له مرهم على قدميه، لايشفى قط. وما دامت يد المرء نجسة، فهى لا تصير نظيفة قط إن غسل كم الرداء.

يروى أنه ذهب إلى بيت مريد يوماً. وكان ذلك الرجل قد انتظره طويلا. فلما دخل الشيخ قال له المريد: أيها الشيخ! هل أقول كلمة؟ قال له: قل، قال: متى سترحل؟ قال: أيها المسكين! لم تكد تحظى بالوصال حتى رفعت صوتك طالباً الفراق؟!

يروى أن صوفياً كان قد جلس أمام الأستاذ يوماً، فعطس. فقال له الشيخ: «يرحمك ربك». فانتعل الصوفى نعله عازماً الرحيل. فقيل

له: ماالحال؟ قال: ما دام الشيخ قد دعا لى بالرحمة. انقضى الأمر. فماذا سيكون أكثر من هذا؟ قال هذا، ومضى.

يروى أن الأستاذ كان قد جلس يوماً، وقد ارتدى مرقعة جديدة حسنة. وكان فى عهد الشيخ أبى الحسن البرنوّدى واحد من عقلاء المجانين. دخل من باب الخانقاه وعليه مسح[١٢٧] قذر. فقال له الأستاذ ـ على وجه المطايبة ـ وهو ينظر إلى مسحه: يا أبا الحسن! بكم اشتريت هذ ا المسح؟ فصاح الشيخ صيحة، وقال: لاتسخر يا أبا على! فلقد اشتريته بالدنيا بأسرها، ولا أبيعه بالجنان جميعها. فطأطأ الأستاذ رأسه، وبكى منتحباً. وهكذا قيل: إنه لم يمزح مع أحد قط ثانية.

يروى أن الأستاذ قال: دخل فقير الخانقاه يوماً، وقال: أعدوا لى زاوية أموت فيها. فأعدوا له منزلا دخله، وعلق عينيه على زاوية منه، وكان يقول: الله، الله. وكنت أنصت إليه خفية. فقال: يا أبا على! لاتزعجنى. فمضيت، وعدت. وكان يردد قول الله، حتى أسلم الروح. فأرسلت فى طلب الغاسل والكفن، ونظرت، فلم أجده فى أى مكان. فاحترت، وقلت: يا إلهى! أظهرت لى هذا الرجل، فرأيته وهو على قيد الحياة. واختفى وهو ميت. فأين ذهب؟ فهتف بى هاتف: لماذا تبحث عن شخص بحث عنه ملك الموت، ولم يجده. وبحثت عنه الحور والقصور، فلم تجده. قلت: وأين ذهب يا إلهى؟ فنادى مناد: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١٢٨].

قال الأستاذ: رأيت شيخاً فى مسجد خرب. كانت عيناه تدمى، حتى خضبتا أرض المسجد. فقلت: أيها الشيخ! ترفق بنفسك، ماذا أصابك؟ قال: أيها الفتى! لقد نفذ صبرى على أمل لقائه.

وقال: غضب رجل على عبد له. فاستشفع العبد إلى سيده إنساناً. فعفا عنه. فأخذ العبد يبكى. فقال له الشفيع: لم تبكى، وقد عفا عنك سيدك؟ فقال له السيد: إنما يطلب الرضا منى ولا سبيل له إليه؛ فإنما يبكى لأجله.

يروى أن فتى دخل الخانقاه يوماً، وجلس، وقال: إن فكر رجل فى ارتكاب معصية، هل تنقض طهارته؟ فبكى الأستاذ، وقال: أجيبوا عن سؤال هذا الفتى. قال زين الإسلام: خطر لى خاطر، لكننى خجلت من الأستاذ أن أتحدث به، وهو: إنه لاينقض طهارة الظاهر، لكنه ينقض طهارة الباطن.

يروى أنه قال: كان لى وجع العين، وكنت مدة أيام لم أجد النوم، فتناعست صباحاً، فسمعت قائلا يقول لى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(١٢٩) فانتبهت، وقد فارقنى الرمد، وزال فى الوقت الوجع، ولم يصبنى بعد ذلك وجع العين.

عاد الأستاذ أبو سعيد الخركوشى(١٣٠) والأستاذ أبو على من الحمام، وكان كلاهما مريض. فقال له الأستاذ أبو على: ماذا يحدث إن جلسنا فى سلام حتى يحين وقت الصلاة؟ فتعجبت؛ لأنه ينبغى عليه أن يتوضأ عدة مرات. وكان كلاهما يعانيان من علة بذاتها. فهمس أبو سعيد فى أذن الأستاذ قائلا: إنه يشبه من يتشاجر تماماً، لكن كل شىء يتأتى منه، يكون طيباً.

يروى أنه قال: تهت في البادية خمسة عشر يوماً بلياليها، ولما اهتديت إلى الطريق، رأيت جندياً. فسقانى شربة ماء. وقد ظل ذنب شربة الماء تلك ـ ثلاثين سنة ـ فى فؤادى ولم يبرحه.

يروى أنه كان يأمر بعض المريدين الأشداء بالاغتسال بالماء البارد فى الشتاء. وكان يترفق بالمريدين الضعفاء، ويقول: التعامل مع كل شخص بقدر استطاعته. وكان يقول: من يعمل بقالاً، يلزمه حمل غاسول. لكن من يغسل الثياب، يلزمه عشرة أرطال من الغاسول. أى أن العلم يكون على قدر العمل. لكن إن تعلمت من أجل البيع، لا يتأت منك أى عمل. فالمراد من العلم، العمل والتواضع.

يروى أنه دعى إلى وليمة فى مرو، وبينما هو يسير فى الطريق، إذا انبعث أنين عجوز من منزل. كانت تقول: يا إلهى العظيم! هكذا تركتنى جائعة، وعهدت لى بكثير من الأطفال، فما هذا الذى تفعله بى؟ فمضى الشيخ، وحين وصل إلى مكان الوليمة، أمر بإعداد طبق. فسر صاحب الدعوة، وقال: سيعد الشيخ طعاماً اليوم، ويحمله إلى بيته. ولم يكن للشيخ بيت ولا أهل. فلما أعد الطبق. نهض الشيخ، ووضعه على رأسه، وحمله إلى بيت تلك العجوز، وأعطاه لها. فانظر أى إنكار للذات واستغناء هذا!

وكان يقول يوماً: إن أرسلت إلى الجحيم غداً، لامنى الكفار قائلين: أيها الشيخ! ما الفرق بيننا وبينك؟ أقول: تلزمنى المروءة والألم يوماً. ولكن هذه هى سنة الله تعالى.

فلما أضاء الصبح فرق بيننا وأى نعيم لا يكدره الدهر

والعجيب أن يقول مثل هذا القول: إن كنت أعلم أن قدماً ستخطو خلفى يوم القيامة، لتبرأت من كل ما فعلته. لكن ربما بقى بذاته فى ذلك الوقت الذى قال فيه هذا القول، فكان المحو المحض للعبودية. وفي هذا الوقت فنا عن نفسه، وكان الكلام يساق على لسانه، فكان المحو المحض للربوبية.

كما يروى أن الخلق احتشدوا فى المصلى فى يوم عيد. فسر، وقال: بعزتك، إن علمت أن أحداً منهم سيراك قبلى، لفاضت روحى على الفور، ودون أدنى توقع. ويجوز أيضاً ألا يكون هناك زمان أو رؤية من الأمام أو الخلف. وشرح هذا الكلام يطول: «ليس عند الله صباح ولا مساء».

وله أقوال سامية: قال: انظر، ولا تخاصم مخلوقاً قط من أجله (الله). فإنك ربما ادعيت أنك ملك نفسك، وأنت لست كذلك؛ لأن لك إله. فاترك أمرك له، وهو يتولى خصم عبده.

وقال: كن كما لو أنك كنت قد مت منذ ثلاثة أيام.

وقال: من لا يجعل روحه مكنسة باب المعشوق، ليس بعاشق.

وقال: من أنس بغيره، ضعف فى حاله، ومن نطق عن غيره، كذب فى مقاله.

وقال: من قصد مخالفة شيخه، انقطع عن الطريقة، وانتهت العلاقة بينهما. وإن كانا فى بقعة واحدة. ومن صحب شيخاً، وخالفه بقلبه، نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة. مع أنه قيل: لا توبة عن عقوق الأستاذ (الشيخ).

وقال: ترك الأدب موجب يوجب الطرد؛ فمن أساء الأدب على البساط، رد إلى الباب. ومن أساء الأدب على الباب، رد إلى سياسة الدواب.

وقال: من أساء الأدب فى صحبته سرعان ما يسلمه الجهل إلى القتل.

وقال: من لم يكن له فى بدايته قومة، لم يكن له فى نهايته جلسة. وفى نهاية الوقفة على سبيل المجاهدة، تحدث الجلسة عن طريق المشاهدة.

وقال: الخدمة فى الحضرة على بساط المشاهدة، مشاهدة بنعت الهيبة. ثم ذبول بسبب استيلاء القربة. ثم فناء عن النفس فى تمام الغيبة. ولذلك تؤول أحوال المشايخ ـ فى النهاية ـ من المجاهدة إلى السكون، ولاتستقر أورادهم الظاهرة.

وقال: إذا تجرد المريد من الهم فى البداية، ومن الهمة فى النهاية، بقى معطلاً. والهم: أن يشغل المرء ظاهره بالعبادة. والهمة: أن يجمع باطنه بالمراقبة.

وقال: سعادة الطلب أكمل من سعادة الوجدان، لأن لسعادة الوجدان خطر الزوال، وفى الطلب أمل الوصال.

وقال: هذا الحديث ليس بالعلة ولا الجهد، بل بالفطرة. كما قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. ولم يذكر الطاعة والعبادة، بل ذكر المحبة مجردة من العلة.

وقال: إن مصيبتنا اليوم ستكون أفدح من مصيبة أهل الجحيم غداً، لأن أهل الجحيم سيثابون بالموت غداً. وتفوتنا اليوم مشاهدة خدمة الحق بمرور الوقت. وفرِّق أنت بين المصيبتين.

وقال: من ترك الحرام، نجا من الجحيم. ومن ترك الشبهة، فاز بالجنة. ومن ترك الكثرة، أدرك الحق.

وقال: لا يمكن إدراك الفتوة بهذا الحديث. ومن أدرك هذا الحديث، لا يمكنه الخلاص منه بالفتوة.

وقال: تلك الزينة التى ترد على الخلق من آن لآخر بلا سبب، هى اطلاع الحق الذى يتجلى على الروح.

وقال: إن أطاع العبد ربه لحظة طوال عمره، وأنزل فى حظيرة القدس، وكشفت له حسرات تلك اللحظة، صارت الجنة جحيماً له. وإن لم يكن قد أطاع الله سوى لحظة طوال عمره، وزج به فى الجحيم، وكشفت له تلك اللحظة، تخمد النار، ويصير الجحيم جنة له.

وقال: الحاضر إن عمد إلى سريرته، سئل عنها. والغائب إن عمد إليها، لا يسئل.

وقال: إن عاقب، تجلت قدرته. وإن غفر تجلت رحمته. ولم يسبق إليها أحد.

وقال: ليست الغربة أن يبيع أخوة يوسف، يوسف بدراهم معدودة. إنما الغريب هو المدبر الذى يبيع بالآخرة الدنيا.

وقال: ينبغى على من يسمع هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١٣١) . ألا يضن بالتضحية بروحه.

وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حفظ للشريعة. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إقرار بالحقيقة.

وقال: طالما أن الحق تعالى اشترى أجسادكم بالجنة. فلا تبيعوها لآخر. لأن البيع لا يصح، وإن صح، لا يفيد.

وقال: هناك ثلاث درجات: السؤال والدعاء والثناء. السؤال لمن أراد الدنيا، والدعاء لمن أراد العقبى، والثناء لمن أراد المولى.

وقال: مراتب السخاء ثلاث: السخاء والجود والإيثار. من آثر الحق على نفسه، صاحب سخاء. ومن آثر الحق على قلبه صاحب جود، ومن آثر الحق على روحه، صاحب إيثار.

وقال: من سكت عن الحق، فهو شيطان أخرس.

وقال: احذروا صحبة السلاطين. فإن لهم فكر مثل فكر الأطفال، وصولة مثل صولة الأسود، ولا صبر لهم، ولا طاقة.

وقال: معنى ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾(١٣٢): الاستجارة من الفراق.

وقال: تواضع الأغنياء للفقراء ديانة. وتواضع الفقراء للأغنياء خيانة

وقال: إن بسطت الملائكة أجنحتها على طالب العلم. فكيف يكون الحال مع طالب المعلوم.

وقال: إن كان طلب العلم فريضة، فطلب المعلوم فريضة مؤكدة.

وقال: المريد من لاينام طوال عمره. والرجل من لا ينام لحظة. وهكذا كان حال الرسول عليه السلام لما عاد من المعراج، فهو لم ينم قط، لأنه كان قد استحال قلباً.

وقال: لما قال إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام: يابنى! إنى أرى فى المنام أنى أذبحك. قال إسماعيل: يا أبت، هذا جزاء من نام عن حبيبه. لو لم تنم، لما أمرت بذبح الولد.

وقال: المشاهدة فى الدنيا بالأسرار، وفى الآخرة بالأبصار.

وقال: الإرادة والهمة أمانتا الحق لدى أرباب البدايات وأصحاب النهايات. يستطيع أرباب البدايات المجاهدة بإرادة الطاعة. ويستطيع أصحاب النهايات إدراك المكاشفة والمشاهدة بالهمة. والهمة مثل الكيمياء لطالب المال. والهمة قرار بلا استقرار، لاتسكن أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وقال: مجاهدة الأغنياء بالمال، ومجاهدة الفقراء بالروح.

وقال: صحبة الأفاعى أيسر من صحبة فقير بخيل.

وقال: أعظم الأمور الجلوس على بساط الفقر. وترك الآفاق كلية كما لو أنه ليس له علم ولاجاه ولامال ولاشئ قط.

قيل له: أيثاب من اتصف بهذه الصفات؟ فقال: أليس مع الناس ما يلبسون، وتناول مما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر.

وقال: الوقت ما أنت فيه؛ إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا. وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى. وإن كنت بالسرور فوقتك السرور. وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.

وقال: كما أخرجك من بطن أمك من بين النجاسة، وجعل اللبن الصافى الخالص غذاء لك، ورباك على العفة، يخرجك من الدنيا منزهاً عن الذنوب والمعاصى، ويسقيك شراب الرحمة والمغفرة والعزة، ويطهرك، ويسكنك الجنة منزهاً عن الآفات كلها.

وقال: إن الله تعالى يحب العاصين، ويخاطب سيد المرسلين صلاة الله وسلامه عليه قائلا: قم الليل؛ حتى تحظى بمقام الشفاعة بنية أن تستيقظ المرضعات ليلاً، ويرضعن ابناءهن.

وسئل عن الفتوة، فقال: السعى من أجل الآخرين. وعن النبى عليه الصلاة والسلام، أنه قال: إن كل واحد فى القيامة يقول: نفسى، نفسى. وهو صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى، أمتى.

وقال: الجمع إثبات بلا نفى، والتفرقة نفى بلا إثبات. والتفرقة ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك.

وقال: الفقر عطاء الحق. من لا يؤدى حقه، ويشكو منه، يصير سبب عقوبته.

وقال: إن تبت خوفاً من الجحيم أو طمعاً فى الجنة، فإنك بلا همة. فتب حتى يحبك الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾(١٣٣).

وقال: التوكل:صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. والمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. والتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.

وقال: كن عارفاً بالله حتى تسعد دائماً.

وقال: لا يجوز للعالم أن يتكلم إلا بما علمه. ولا يجوز للعارف أن يتكلم إلا بما وجده.

وقال: كما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لايزول عنه، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه ما دام.

وقال: أول مقام للعبد: العلم بالله، وغايته معرفة الله، وثمرته المشاهدة. ولا يجتنب العبد المعصية إلا بالتهديد والوعيد بأنواع العقاب. والحر إن كشف له شيء من الكرم، لكان أحب إليه من الزجر والنهي.

وقال: الدلالة للعقل، والإشارة للحكمة، والشهادة للمعرفة.

وقال: التوحيد النظر إلى الأشياء بعين العدم.

وقال: لا يمكن أن تصفو العبادة إلا بأربعة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الموت، ومعرفة ما بعد الموت. فمن عرف الله أدى حقه بالصدق والإخلاص والصفاء والعبودية. ومن عرف النفس، خالفها بالشريعة والحقيقة. ومخالفة النفس بالمداومة على

الطاعة. ومن عرف الموت: أعد له عدته، واستعد لقدومه، ومن عرف ما بعد الموت، ظل خائفاً من الوعيد، راجياً في الوعد ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١٣٤).

وقال: العبد بخير ما دام موحداً؛ لأن التوحيد هو الشفيع الأعظم. وغير الموحد لا يشفع له أحد. ولكن سيغفر له يوماً لا محالة.

وقال: كن عارفاً، حتى تكون متحملاً.

وقال: وهب قوماً القبض، فأنكروا. ووهب جماعة البسط، فأقروا بوحدانيته.

وقال: الفراغ ملك لا غاية له.

وقال: ليس الغريب من لا أهل له، إنما الغريب هو المدبر الذى يبيع الآخرة.

وقال: القبض أول الفناء، والبسط أول البقاء. فمن وهبه قبضاً، أبقاه.

وقال: ماذا يتأتى من الماء والطين سوى الخطأ، وماذا يتأتى من الله سوى العطاء.

وقال: العارف مثل رجل امتطى أسداً. فخافه الناس جميعاً وخاف هو من الناس جميعاً.

يروى أنه كان يتكلم يوماً فى الاستدراج. فسأل سائل: ما الاستدراج؟ فقال: ألا تسمع أن فلاناً يحمل الفطير إلى المدينة.

يروى أن داء كان قد ألم به؛ فكان يعتلى سطح البيت فى كل ليلة - ذلك البيت الذى يقع فى مقابل قبره الآن، ويطلقون عليه «بيت الفتوح» - ويتجه إلى الشمس، ويقول: يا حائرة المملكة! كيف حالك اليوم؟ أتشعرين بغصة هذا الحديث؟ أو تعلمين شيئاً عن أكابر هذه الواقعة وأراذلها؟ وكان يقول مثل هذا الكلام، حتى تغرب الشمس. فكان ينزل من السطح.

ولم يكن أحد يفهم كلامه فى نهاية أمره، ولن يستطيع أحد إدراكه. لا جرم أن قليلا من الناس كانوا يجيئون إلى مجلسه، ولم يكن عددهم يزيد على سبعة عشر رجلاً أو ثمانية عشر رجلاً. وكما يقول الشيخ الهروى(١٣٥). لما كان كلام الشيخ أبى على الدقاق عالياً؛ فقد خلا مجلسه من الخلق.

يروى أن الوجد غلبه فى بداية حاله. ولم يسلم أحد قط بهذا حتى إنه يقول دائماً: ياإلهى العظيم! اجعلنى نملة، واتركنى فى القش.

وكان يقول فى المناجاة: إلهى! لا تفضحنى؛ فقد ادعيت عليك الكثير فوق المنبر، ومع هذا فالذنب ذنبك. وإن فضحتنى، فلا تفضحنى أمام الحضور. وألبسنى مرقعة الصوفية، وامنحنى الركوة والعصا؛ لأننى أحب طريقة الصوفية. ثم أنزلنى فى واد من أودية الجحيم؛ حتى أدمى لفراقك إلى أبد الأبد، وأنوح فى ذلك الوادى، وأبكى لشقائى، وأقيم مأتماً لعجزى. وإن لم أحظ بقربك، نحت بسببك.

وكان يقول: يا إلهى العظيم! لقد سودنا كتبنا بالذنوب. وبيضت أنت شعورنا بفعل الزمن. فيا خالق الأبيض والأسود، تفضل علينا، وبدل سيئاتنا حسنات.

وكان يقول: إلهى! من عرفك حق المعرفة، طلبك دائماً. مع أنه يعلم أنه لن يجدك قط.

وقال: هب أننى دخلت الفردوس، وبلغت مقاماً عالياً. ماذا أفعل له؟ هل أستطيع أن أكون أفضل من هذا، ولم أكن؟

رؤى الأستاذ فى المنام بعد وفاته، وسئل: ماذا فعل الله تعالى بك؟ فقال: أكرمنى، وغفر لى ذنوبى جميعها التى اعترفت بها، سوى ذنب خجلت أن أذكره، وتصببت عرقاً حتى سقط اللحم عن وجهى. فقالوا وماذا كان ذلك الذنب؟ قال: كنت قد نظرت إلى أمرد فى صباى، وطاب لى ذلك.

ورؤى فى المنام مرة أخرى، وقد أصابه اضطراب شديد، وكان يبكى. فقالوا له: ماذا حدث أيها الأستاذ؟ لعلك تريد الدنيا! قال: بلى، ولكن ليس من أجل الدنيا أو المجلس. بل لكى أعقد وسطى، وأمسك بالعصا، وأطرق الأبواب طوال اليوم، وأعظ الخلق قائلا: لا تفعلوا. فإنكم لاتعرفون ما تعجزون عنه.

ورآه آخر فى المنام، وقال له: ماذا فعل الله بك؟ فقال: أحصى كل مافعلته من سيئ وحسن، ثم ألقاه إلى الجبل.

ورآه آخر فى المنام، كان يمر على الصراط، وكان عرضه خمسمائة عام. فقال له: ما هذا؟ لقد أخبرنا أن الصراط أدق من شعرة، وأحد من سيف. قال: هذا كلام صحيح، لكنه يلائم السالك، فإن مر عليه بخطى حثيثة، قصر عليه. وإن مر عليه بخطى بطيئة، طال به.

يروى أن تلميذاً للأستاذ يدعى أبو بكر الصيرفى(١٣٦)، كان قد جلس على قبره، وقال: رأيت فى المنام: أن القبر قد فتح، وخرج منه الأستاذ، وكان يريد أن يطير فى الهواء. فكنت أقول: إلى أين تذهب؟ فكان يقول: أذهب من أجل الوعظ. فقد وضع لى منبر فى الملكوت الأعلى.

ويروى عن أبى بكر هذا أنه قال: حين توفى القاضى أبو عمر، وكان من أقران الأستاذ، رأيت فى المنام: قال: رأيت فى المنام: أننى كنت أمضى لحضور مجلس الأستاذ. وكانوا يقولون لى: أين تذهب؟ فكنت أقول: إلى مجلس الأستاذ فى الملكوت الأعلى: فكانوا يقولون لى: ليس هناك مجلس اليوم، لقد مات القاضى أبو عمر.

قال الشيخ أبو القاسم القشيرى: جاءنى شاب، وكان يبكى. فقلت له: ماذا أصابك؟ فقال: رأيت فى المنام بالأمس: أننى أرسلت إلى الجحيم فى يوم القيامة. فكنت أقول: لا ترسلونى إلى الجحيم؛ فقد حضرت مجلس أبى على الدقاق. فكانوا يقولون لى: حضرت مجلسه؟ قلت: نعم. فقيل: احملوه إلى الجنة.

ذكر الشيخ ابى الحسن الخرقانى[137]
رحمة الله عليه

هو بحر الحزن، والأرسخ من الجبل. هو الشمس الإلهية، والسماء اللامتناهية. هو الأعجوبة الربانية، قطب الوقت، أبو الحسن الخرقانى رحمة الله عليه.

كان سلطان سلاطين المشايخ، وقطب أوتاد[138] العالم وأبداله[139]، وسيد أهل الطريقة والحقيقة، والمتمكن بالصفة، والمتعين بالمعرفة. كان قلبه دائماً فى الحضور والمشاهدة، وكان جسده خاضعاً للرياضة والمجاهدة. وكان صاحب أسرار الحقائق، عالى الهمة، وعظيم المرتبة. له فى الحضرة صيت كبير، ومن الجرأة قسط وفير.

يروى أن الشيخ أبا يزيد كان يزور دهستان ـ حيث قبور الشهداء ـ مرة فى كل عام. ولما كان يمر على خرقان، كان يقف، ويتنفس نفساً (عميقاً). فسأله المريدون: أيها الشيخ! إننا لانشم أية رائحة؟ قال: بلى، إننى أشم رائحة رجل من قرية اللصوص هذه. اسمه

على، وكنيته أبو الحسن يتقدم علىّ بثلاث درجات فهو يتحمل عبء العيال، ويزرع، ويغرس الأشجار يروى: أن الشيخ ـ فى بداية أمره ـ كان يصلى صلاة العشاء فى جماعة طيلة اثنتى عشرة سنة فى خرقان. وكان يتجه إلى قبر أبى يزيد، ويأتى إلى بسطام، ويقف، ويقول: يا إلهى العظيم! أنعم على أبى الحسن بأريج الخلعة التى منحتها لأبى يزيد. وحينئذ كان يعود، ويصل إلى خرقان فى الصباح، ويدرك صلاة الصبح مع الجماعة فى خرقان، بوضوء العشاء.

يروى أن لصاً كان يمضى محرماً ، حتى لا يمكن لأحد تعرفه وتعقبه. وكان الشيخ قد قال: لا يمكن أن أكون أقل من اللص فى طلب هذا الأمر. فكان يذهب إلى قبر أبى يزيد محرماً ، ولم يكن يستند إلى قبره. وبعد اثنتى عشرة سنة، سمع نداء من القبر: ياأبا الحسن! لقد حان الوقت كى تجلس. قال الشيخ: يا أبا يزيد! ثبط همى. فأنا رجل أمى، ولا أعرف شيئاً من الشريعة، ولم أتعلم القرآن. فسمع صوتاً: يا أبا الحسن! إن ماحصلتُ عليه، كان من بركاتك. قال الشيخ: لقد سبقتنى بنيف ومائة وثلاثين سنة. قال: بلى، ولكنى عندما أمر على خرقان، كنت أرى نوراً كان يصعد من خرقان إلى السماء. وكانت قد بقيت لى حاجة عند الله منذ ثلاثين سنة. فنوديت فى سرى: يا أبا يزيد! تشفع بحرمة ذلك النور؛ حتى تقضى حاجتك. فقلت: يا إلهى! لمن ذلك النور؟ فهتف بى هاتف: إنه نور عبد من خاصته، يدعى أبو الحسن فتشفع بذلك النور؛ حتى تقضى حاجتك.

قال الشيخ: حين وصلت إلى خرقان، ختمت القرآن فى أربعة وعشرين يوماً. وفى رواية أخرى، قال له أبو يزيد: ابدأ بالفاتحة. وختمت القرآن حين وصلت إلى خرقان.

يروى أنه ملك بستاناً، غرس فيه قدراً من بذور البيل، فأثمرت فضة. وغرس فيه قدراً آخر من بذور البيل، فأثمرت ذهباً. ثم غرس قدراً آخر من بذور البيل، فأثمرت جوهراً. فقال أبو الحسن: يا إلهى! لاتخدع أبا الحسن بهذا، فإننى لا أحيد عن إله مثلك بالدنيا. وأحياناً كان يقيد البقرة. ولما كان يحين وقت الصلاة، كان الشيخ يصلى. وكانت البقرة تحرث الأرض حتى يعود.

يروى أن عمر بو العباسان قال للشيخ: تعال؛ لنأخذ بأيدى بعضنا البعض، ونقفز من تحت هذه الشجرة. وكانت ألف من الغنم تنام فى ظل تلك الشجرة. فقال الشيخ: تعال، لنأخذ بيدىَ لطف الحق، ونحلق أعلى العالمين، فقال الشيخ: هيا بنا، فإننى لا أبالى بالجنة أو الجحيم

جاءه شيخ المشايخ يوماً. وكان طست مملوءاً بالماء قد وضع أمام الشيخ. فوضع شيخ المشايخ يده فى الماء، وأخرج سمكة حية. قال الشيخ أبو الحسن: إن خروج سمكة من الماء أمر سهل. وينبغى اندلاع النار من الماء. فقال له شيخ المشايخ: تعال، نسقط فى هذا النور، ونرى من منا سيخرج حياً؟ قال الشيخ: يا عبد الله! تعال، لنغوص فى فنائنا، ونرى أى واحد منا سيبقى ببقائه؟ فلم يتكلم شيخ المشايخ.

يروى أن شيخ المشايخ قال: لم أنم – طيلة ثلاثين سنة ـ خوفاً من الشيخ أبى الحسن، وقد رأيته يسبقنى فى كل خطوة أخطوها. وكنت

أريد الوصول إلى قبر أبى يزيد منذ سنتين، ولم أستطع. وقد جاء هو من خرقان قاطعاً ثلاثة فراسخ، ووصل إليه قبلى.

وقد قال الشيخ أثناء حديثه يوماً: من طلب هذا الحديث، فها هى قبلة الجميع، وأشار إلى الخنصر. وقد عقد أربعة أصابع وبسط إصبعاً

شيخ المشايخ قد أبلغ بذلك الكلام. فقال من الغيرة: طالما ظهرت قبلة أخرى. فلنقطع الطريق على هذه القبلة. بعد ذلك سُد طريق الحج. وكل من ذهب إلى الحج فى تلك السنة، حدث له شئ فهلك البعض، وأصيب البعض بأذى، ولم يصل البعض. وفى العام التالى، قال فقير لشيخ المشايخ. ما معنى منع الخلق عن بيت الله؟ فأشار شيخ المشايخ، فانفتح الطريق. قال الفقير بعد ذلك: بماذا نفسر هلاك الخلق جميعهم؟ قال: بلى، حيثما تحتك الأفيال بعضها ببعض، يتساقط بق كثير. ولا مجال للخوف.

يروى أن جماعة كانت على سفر، فقالوا له: أيها الشيخ! إن الطريق مخيف؛ فعلمنا دعاء يدفع عنا البلاء إن وقع. قال الشيخ: إذا أصابكم بلاء، اذكروا أبا الحسن! فلم يعجب القوم ذلك الكلام. ولما مضوا، اعترضهم قطاع الطرق، واعتدوا عليهم. فذكر أحدهم الشيخ فى الحال، وغاب عن أعينهم. فصاح العيارون: كان رجل هنا، فأين ذهب؟ إننا لا نراه، ولانرى متاعه أو دابته. ولذلك السبب لم يصب هو أو متاعه بأى أذى. وبقى الآخرون عرايا، وقد سرقت أموالهم. ولما رأوا الرجل سالماً، تعجبوا. فأخبرهم عن السبب. ولما عادوا إلى

الشيخ، سألوه ما السر فى أننا ذكرنا الله، ولم يستقم أمرنا. وهذا الرجل ذكرك، فغاب عن أعين اللصوص؟ قال الشيخ: إنكم تذكرون الحق مجازاً، وأبو الحسن يذكره حقيقة. فاذكروا أبا الحسن. ليذكر أبو الحسن الله من أجلكم. فيستقيم أمركم. وإن ذكرتم الله مجازاً وعلى سبيل التعود، لم يفد هذا.

يروى أن مريداً طلب من الشيخ أن يأذن له بالذهاب إلى جبل لبنان؛ ليرى قطب العالم(١٤٠). فأذن له الشيخ. فلما وصل إلى لبنان، رأى جماعة قد جلسوا متجهين إلى القبلة، وأمامهم نعش ولم يصلوا عليه. فسأل المريد: لماذا لا تصلون على الجثمان؟ فقيل له: حتى يأتى قطب العالم، فهو يؤم الصلاة هنا خمس مرات فى اليوم. سر المريد. وبعد فترة، نهض الجميع. وقال المريد: رأيت الشيخ، وقف فى المقدمة، وأقام الصلاة. فاندهشت، ولما أفقت. كانوا قد دفنوا الميت. وكان الشيخ قد مضى. فقلت: من كان هذا الشيخ؟ قالوا: إنه أبو الحسن الخرقانى. قلت: ومتى يعود؟ قالوا: عند صلاة العصر. فانتحبت قائلاً: إننى مريده، وقد طلبت منه الإذن بالذهاب إلى لبنان. فاشفعوا لى؛ ليأخذنى إلى خرقان. وقد انقضت مدة وأنا على سفر. ولما حان وقت صلاة العصر، رأيت الشيخ مرة أخرى، وقد أمّ الصلاة. فلما سلم، تشبثت به، وأغشى على، ولما أفقت، رأيت نفسى فى الرى، فاتجهت إلى خرقان. ولما رآنى الشيخ، قال: الشرط ألا تبح بما رأيت فقد رجوت الله تعالى أن يحجبنى عن الخلق فى الدنيا والآخرة. ولم يرنى مخلوق قط، سوى حيّ، وهو أبو يزيد.

يروى أن إماماً كان يذهب إلى العراق لسماع الأحاديث. فقال له الشيخ: لا يوجد أحد هنا يسند الحديث. فقال الإمام: بل أنت. قال الشيخ: إننى رجل أمى، ولا أمتن بما وهبنى الحق تعالى إياه. وقد وهبنى علمه، وأنعم علىّ به. فقال الإمام: أيها الشيخ! مِن مَن تسمع؟ قال: من الرسول عليه الصلاة والسلام. فلم يصدق الرجل هذا الكلام. فرأى فى المنام ليلاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إن الفتيان صادقون. وفى اليوم التالى، جاء، وبدأ قراءة الحديث على الشيخ. وكان الشيخ يقول له: ليس هذا حديث النبى. فكان يقول له: كيف عرفت؟ فكان الشيخ يقول: حين بدأت قراءة الحديث، كنت أنظر إلى حاجبى النبى عليه الصلاة والسلام. ولما كان يعقد حاجبيه؛ كنت أعلم أنه يتبرأ من هذا الحديث.

يقول عبد الله الأنصارى: قُيدت قدماى، وحملت إلى بلخ، وكنت أفكر فى نفسى طول الطريق قائلاً: لقد أساءت قدماى الأدب على أى حال. ولما وصلت إلى المدينة. قيل لى: لقد جمع الناس الحجارة فوق الأسطح، ليقذفوك بها. فحدث لى كشف فى تلك اللحظة، فكنت أطرح سجادة الشيخ على قدمى، وأذهب إلى هناك. فوجدت أيديهم ظلت عاجزة، ولم يستطيعوا قذف الحجارة.

يروى أن الشيخ أبا سعيد لما حل على الشيخ أبى الحسن، وكانت هناك أرغفة من الشعير، قد أعدتها زوجته فقال لها الشيخ: اطرحى إزاراً فوق هذه الأرغفة، وخذى منها، كلما أردت، ولاترفعى الإزار،

ففعلت. ويروى أنه: لما تجمع خلق غفير؛ كان الخادم يحضر لهم بعض هذه الأرغفة، ويترك الباقى. فرفع الإزار مرة، فلم يجد رغيفاً. فقال له الشيخ: لقد أخطأت، وإن لم ترفع الإزار، لكان الخبز يظل تحته حتى يوم القيامة. فلما فرغ الخلق من تناول الخبز. قال الشيخ أبو سعيد: كان مقرراً أن أقول شيئاً فقال الشيخ: لا طاقة لى بالسماع. لكنى سوف أسمع موافقة لك. فكان يمسك بوسادة، وينشد بيتاً. ولم يكن الشيخ قد جلس للسماع - طوال عمره - سوى هذه المرة. وكان هناك مريد للشيخ، يدعى أبو بكر الخرقى، وكان له مريد آخر. أثر فيهما السماع إلى حد أن انفتحت عروق شقيقتيهما، وسال منها الدم. فرفع أبو سعيد رأسه، وقال: يا شيخ الوقت! فلتنهض. فنهض الشيخ. وحرك تلابيبه ثلاث مرات، وضرب قدمه على الأرض سبع مرات؛ فتحركت جدران الخانقاه جميعها موافقة له. فقال له أبو سعيد: تمهل، إن الخانقاة سينهدم. ثم قال: بعزة الله، إن السموات والأرض لترقص موافقة لك. ويروى كذلك أن أربعين طفلاً امتنعوا عن الرضاعة فى تلك الأثناء.

يروى أن الشيخ أبا سعيد قال: استظل الشبلى وأصحابه بظل طوبى، وقد رأيت طرف مرقعة الشبلى، وقد غلبه الوجد فى تلك اللحظة، وكان يطوف. الشيخ: يا أبا سعيد! أيليق السماع برجل مطلع على ما فوق العرش وما تحت الثرى! ثم قال للأصحاب: إن سئلتم: لماذا ترقصون؟ قولوا: موافقة لمن هذا هو حالهم وهذه أقل درجة فى هذا الشأن.

يروى أن الشيخ أبا الحسن والشيخ أبا سعيد أرادا أن يتبادلا البسط والقبض، فتعانقا، فانتقلت الصفتان. وكان الشيخ أبو سعيد! قد وضع رأسه على ركبتيه - فى تلك الليلة - حتى الصباح، وكان يتحدث، ويبكى. وكان الشيخ أبو الحسن يصيح طوال الليل، ويرقص فلما طلع الصباح، جاء الشيخ أبو الحسن، وقال: أيها الشيخ! أعد إلى حزنى؛ فأنا أسعد حالاً به. فانتقلت الصفتان مرة أخرى. ثم قال لأبى سعيد: لا تأت يوم القيامة، فإنك لطيف الطبع، ولن تحتمل. وسأذهب أنا أولا وأخمد هول القيامة. عندئذ تأتى أنت. ثم قال: كان الله تعالى قد منح الكافر القوة، فقطع أربعة فراسخ فى الجبال، وكان يمضى حتى أدرك جند موسى. فأى عجب إن منح المؤمن القوة أن يبطل هول القيامة. ثم عاد الشيخ أبو سعيد، وكان هناك حجر على عتبة الشيخ أبى الحسن، مسح لحيته به. فأمر الشيخ أبو الحسن بحمل ذلك الحجر إجلالاً له، ونقله إلى المحراب. ولما حل الليل، كان ذلك الحجر قد عاد إلى العتبة، فحملوه إلى المحراب مرة أخرى فى الصباح. فعاد إلى العتبة أيضاً فى الليلة التالية. وهكذا تكرر الأمر ثلاث مرات. فقال أبو الحسن: اتركوه على العتبة، فإن الشيخ أبا سعيد يتلطف كثيراً. ثم أمر، فحولوا الطريق عن ذلك الموضع، وفتحوا باباً آخر. ومن ثم حين جاء الشيخ أبو الحسن لوداعه، قال له: لقد اخترتك لخلافتى، وكنت أرجو الحق تعالى طيلة ثلاثين سنة، أن يرسل لى أحداً أفضى له ببعض ماعندى من كلام، ولم أجد محرماً أتحدث إليه. حتى استراق السمع، وأرسلك. وهنا سكت الشيخ

أبو سعيد لا جرم. قيل له: لماذا لم تتحدث هناك؟ قال: كنت قد أرسلت للسماع. ثم قال: إن متحدثاً بالرمز عن بحر كاف.

وقال: كنت لبنة، وصرت جوهرة حين وصلت إلى خرقان.

يروى أن الشيخ أبا سعيد قال على المنبر ـ وكان ابن الشيخ أبى الحسن حاضراً ـ: تعاقب أولئك الذين نجوا من أنفسهم، وتطهروا، منذ عهد النبوة إلى يومنا هذا. وإن أردتم، أحصيتهم لكم جميعاً، وإن كان هناك أحد نجا من نفسه، فهو أبو هذا السيد، وأشار إلى ابن أبى الحسن.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى: لما دخلت ولاية خرقان، زالت فصاحتى، ولم تبق عبارتى من هيبة ذلك الشيخ، حتى ظننت أننى عزلت عن ولايتى.

يروى أن أبا على بن سينا قصد خرقان بعد أن سمع عن شهرة الشيخ. ولما قدم إلى خيمة الشيخ كان الشيخ قد ذهب ليحتطب. فسأل: أين الشيخ؟ قالت زوجته: ماذا تريد من ذلك الزنديق الكذاب؟ وأساءت إليه كثيراً. فقال ابن سينا: الشيخ الذى تنكره زوجته، كيف يكون حاله؟ قصد أبو على الصحراء، ليرى الشيخ. فرأى الشيخ قادماً، وقد وضع حملاً من الحشيش على ظهر أسد. فقال: أيها الشيخ! ما هذا الحال؟ قال: بلى، إن لم يحمل مثل هذا الذئب حملنا (أى الزوجة) ، ألا يحمله أسد؟ ثم عاد إلى الخيمة. فجلس أبو على، وبدأ القول، وتحدث كثيراً. وكان الشيخ قد أعد قدراً من الطين، ليبنى

جداراً، فتذكره، ونهض، وقال: اعذرنى، ينبغى لى بناء هذا الجدار. واعتلى الجدار. فسقط الفأس من يده فجأة. فنهض أبو على ليناوله الفأس. وقبل أن يصل أبو على إلى الفأس، نهض الفأس، وعاد إلى يد الشيخ ففقد الشيخ أبو على صوابه. واعتقد فيه اعتقاداً كبيراً. وبعد ذلك نحا بالطريقة نحو الفلسفة، كما هو معروف

يروى أن عضد الدولة[١٤١] ـ الذى كان وزيراً فى بغداد ـ أصابه داء فى بطنه؛ فجمع مجموعة من الأطباء، لكنهم عجزوا عن علاجه. فوضعوا نعل الشيخ على بطنه؛ فشفاه الحق تعالى.

يروى أن رجلاً جاء، وقال للشيخ: أريد أن أرتدى الخرقة. فقال له الشيخ: لدى مسألة. إن أجبت عليها؛ كنت جديراً بالخرقة. إن ارتدى رجل عباءة امرأة، أيصير امرأة؟ قال: لا. قال: وإن ارتدت امرأة قميص رجل، أتصير رجلاً؟ قال: لا قال: وأنت أيضاً إن لم تكن رجلاً فى هذا الطريق، لن تصبح رجلاً بارتداء المرقعة.

يروى أن رجلاً جاء إلى الشيخ، وقال: اسمح لى أن أدعو الخلق إلى الله. فقال له: احذر ألا تدعوهم إلى نفسك! قال: أيها الشيخ! هل يمكن أن أدعو الخلق إلى نفسى؟ قال: بلى، فإن رجلاً آخر يدعوك، ولا يعجبك، بدليل أنك تدعو إلى نفسك.

يروى أن السلطان محمود كان قد وعد إياز بأن يلبسه خلعته، ويلوح بالسيف على رأسه وهو عار كعادة الغلمان. فلما جاء محمود لزيارة الشيخ، أرسل رسولا للشيخ يخبره بأن السلطان جاء من غزنين

إلى هنا لزيارتك. ويطلب منه أن يأت من الخانقاه إلى خيمة السلطان. وقال للرسول أيضاً: إن لم يأت، اقرأ عليه هذه الآية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ(١٤٢)﴾ أبلغ الرسول الشيخ الرسالة، فقال الشيخ: أرجو المعذرة، فقرأ عليه الآية. فقال الشيخ: قل لمحمود: إننى استغرقت فى «أَطِيعُوا اللَّهَ» إلى حد أننى خجلت من «أَطِيعُوا الرَّسُولَ»، فما بالك بـ «أُوْلِي الأَمْرِ»! جاء الرسول، وأخبر محمود بالأمر، فرق محمود، وقال: انهضوا؛ فهو ليس ذلك الرجل الذى كنا نظن، ثم منح ثيابه لإياز، فارتداها. وألبس عشر جاريات لباس الغلمان، وكان يروح ويجيئ لحراسة إياز على سبيل الامتحان. ثم اتجه إلى صومعة الشيخ، ولما دخل من باب الصومعة، وسلم. رد الشيخ السلام، لكنه لم ينهض. ثم التفت إلى محمود، ولم ينظر إلى إياز. قال محمود: ألا تقم للسلطان! وهذا كله شرك. قال الشيخ: إنه شرك، لكنك لست طيره. ثم أخذ بيد محمود، وقال: اقترب، ماداموا قربوك. قال محمود: عظنى. فقال الشيخ: أخرج هؤلاء الغرباء. أشار محمود؛ فخرج الجميع. قال محمود: احكك لى حكاية عن أبى يزيد. قال الشيخ: هكذا قال أبو يزيد: من رآنى، أمن من الشقاء. فقال محمود: إن مكانة الرسول كبيرة. وكان أبو جهل وأبو لهب وكثير من المنكرين له يرونه، ومع ذلك فهم من الأشقياء. قال الشيخ لمحمود: احفظ الأدب، وتصرف فى ولايتك. فلم ير المصطفى عليه الصلاة والسلام سوى أربعة من صحابته، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾(١٤٣).

طاب هذا القول لمحمود. وقال له: عظنى. فقال: عليك بأربعة: اجتناب المناهى، وصلاة الجماعة، والسخاء، والشفقة على الخلق. قال محمود: ادعو لى. فقال: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات». قال: خصنى بالدعاء. قال: لتكن عاقبتك محمودة يامحمود. وبعد ذلك وضع محمود بدرة ذهب أمام الشيخ. فقدم له الشيخ رغيفاً من الشعير، وقال: كل. فكان محمود يمضغه، ويبلعه. قال الشيخ: ربما سد حلقك. قال: بلى فقال له: أتريد أن تسد بدرة الذهب هذه حلقى؟ خذها، فقد طلقت هذا ثلاث طلقات. قال محمود: انفقها في شيء. قال: لا قال: اعطنى تذكاراً منك. فمنحه الشيخ خرقته. قال محمود عند عودته: أيها الشيخ! ماطيب صومعتك. قال: أتلزمك مع كل ماتملك! ثم وقف الشيخ له عند الرحيل. قال محمود: لم تهتم بى حين جئت، والآن تقف لى! ماهذه الكرامة؟ ولماذا لم تهتم بى فى أول الأمر؟ قال الشيخ: لقد جئتنى فى البداية برعونة الملك، وعلى سبيل الامتحان، ورحلت عنى فى النهاية منكسراً عاجزاً؛ لأن شمس دولة الفقر قد أشرقت عليك. فلم أنهض فى البداية من أجل ملك، والآن أنهض من أجل فقير. بعد ذلك مضى السلطان، وذهب فى ذلك الوقت لغزو سومنات، وهو يخشى الهزيمة. فجأة نزل من فوق جواده، وذهب إلى زاوية، وعفر وجهه بالتراب، وأمسك بخرقة الشيخ، وقال: إلهى! بحق كرامة صاحب هذه الخرقة، انصرنى على هؤلاء الكفار، وسأمنح الفقراء كل ماأظفر به من غنائم. فظلل الكفار غبار وظلمة فجأة، فضربوا بعضهم البعض بالسيوف، وكانوا يقتلون

ويتفرقون وانتصر جيش المسلمين. وفى تلك الليلة رأى محمود فى المنام: أن الشيخ كان يقول له: يا محمود! اهدرت قيمة خرقتنا فى بلاط الحق، وإن رغبت لأسلم الكفار جميعهم فى تلك اللحظة.

يروى أن الشيخ قال ذات ليلة: إنهم سيتوغلون فى الصحراء الفلانية هذه الليلة، ويجرحون الكثير من الأشخاص. وسألوا عن ذلك الحال، فوجدوه قد تحقق كما قال الشيخ تماماً. والعجيب أنهم قطعوا رأس ابن الشيخ فى الليلة ذاتها، ووضعوها على عتبته. ولم يكن الشيخ يعلم شيئاً. فكانت امرأته ـ المنكرة له ـ تقول: ماذا تقول فى رجل يعلم ما يدور على بعد عدة فراسخ، ولايعلم أن رأس ابنه قد قطعت، ووضعت على عتبته. قال الشيخ: بلى، فى الوقت الذى كنت أرى فيه ذلك، كان الحجاب قد رفع. وفى الوقت الذى كان يقتل فيه الابن، كان الحجاب قد أسدل. ثم رأت الأم رأس ابنها، فقطعت جديلتها، وبعثرتها على رأسه، وأخذت تنوح. ونتف الشيخ أيضاً بعض الشعر من لحيته، ووضعه على الرأس، وقال: لقد غرس كلانا هذه النبتة، وحدث لنا ما حدث. فقطعت أنت جديلتك، ونتفت أنا لحيتى.

يروى أن الشيخ كان قد جلس فى الصومعة مع أربعين فقيراً. وانقضت سبعة أيام لم يكونوا قد تناولوا فيها طعاماً قط. وقدم رجل إلى الصومعة، ومعه حمل دقيق وشاة. وقال: لقد أحضرت هذا للمتصوفة. فلما سمع الشيخ هذا، قال: من صحت منكم نسبته إلى

المتصوفة، يأخذه. فأنا أجرؤ على ادعاء التصوف. فسكت الجميع. وأعاد الرجل الدقيق والشاة.

يروى أن الشيخ قال: كان هناك أخوان وأمهما. كان أحدهما يقوم على خدمة أمه فى كل ليلة. وينشغل الآخر بعبادة الله. أما من انشغل بعبادة الله، سر بعبادته، وقال لأخيه: اتركنى الليلة أيضاً فى طاعة الله. ففعل. فسجد ـ فى تلك الليلة ـ طاعة لله، واستغرق فى النوم، فنودى: لقد غفرنا لأخيك، وعفونا عنك من أجله. فقال: إننى انشغلت بطاعة الله، وانشغل هو بخدمة أمه، وتعفو عنى من أجله! قيل: لأننا لسنا فى حاجة إلى ماتفعله، ولكن أمك فى حاجة لما يفعله أخوك.

يروى أن الشيخ لم يضع رأسه على وسادة طيلة أربعين سنة، كان يصلى خلالها صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء. وفجأة طلب وسادة فى أحد الأيام. فسر الأصحاب، وقالوا: ماذا أصابك أيها الشيخ؟ فقال: أدرك أبو الحسن الليلة استغناء الله تعالى وعدم حاجته. وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: من صلى ركعتين، ولم تجل الدنيا بخاطره قط، تمحى سيئاته كيوم ولدته أمه. وقد صلى أحمد بن حنبل هذه الصلاة، ولم يفكر فى الدنيا قط. وحين انتهى من الصلاة، بشر ابنه قائلاً: لقد أديت هذه الصلاة دون أن أفكر فى الدنيا.

أخبروا الشيخ بهذه الحكاية، فقال: هذا هو أبو الحسن أمضى فى كلاته[١٤٤] ثلاثين سنة، لم ينشغل خلالها بغير الحق قط.

يروى أن صوفياً سقط من الهواء، وكان يخطو أمام الشيخ، ويقول: أنا جنيد عصرى، وشبلى عصرى، وأبو يزيد عصري. فنهض الشيخ، وكان يخطو، ويقول: أنا مصطفى عصرى، ورب عصرى. والمعنى هو ذاته الذى شرحته فى قول الحسين بن منصور «أنا الحق». وهو المحو ويقولون: إن الأولياء لا يخالفون السنة، كما قال عليه السلام: «إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن».

يروى أنه كان يتفوه بكلمات، وقد غلبه حال البسط. فنودى فى سره: يا أبا الحسن! ألا تخشى الخلق؟ قال: إلهى! إن لى أخاً، كان يخشى الموت. لكنى لا أخشاه. قال: أتخشى منكر ونكير فى الليلة الأولى؟ فقال: الناقة ذات الأربع أسنان، لا تخشى صوت الجرس. فقال: أتخشى القيامة وأهوالها؟ قال: كنت أفكر قائلاً: حين تبعثنى من التراب غداً، وتجمع الخلق فى العرصات، أخلع خرقة أبى الحسن عنى فى ذلك الموقف، وأغوص فى بحر الوحدانية، حيث الكل الواحد. ولايبقى أبو الحسن. ويعتزلنى الموكل بالخوف والمبشر بالرجاء.

يروى أنه كان يصلى ذات ليلة، فسمع صوتاً : احذر يا أبا الحسن، أتريد أن أقول للخلق ماأعرفه عنك؛ حتى يرجموك؟ قال الشيخ: يا إلهى العظيم! أتريد أن أبوح للخلق بما أعرفه عن رحمتك، وما أجده من كرمك؛ حتى لا يسجد لك أحد ـ قط ـ ثانية. فنوديت: لن تبوح أنت ولا أنا.

وكان يقول مرة: يا إلهى، لا ترسل ملك الموت لى؛ لأننى لن أمنحه روحى. فلم آخذها منه؛ حتى أردها إليه. لقد وهبتنى أنت الروح، ولن أمنحها لأحد سواك.

وقال: استغرقت فى فنائى، حتى بقيت بك. كما لو أننى لا أعرفك مثقال ذرة.

قال: نوديت فى سرى: ما الإيمان؟ فقلت: يا إلهى! إن الإيمان الذى أنعمت به علىّ كامل. قال: فنوديت: أنت أنا، وأنا أنت. وأنا أقول: ألست أنت الله، وأنا عبد عاجز.

وقال: كان نداء ينبعث من الحضرة: لا تخف، إننى لم أطلبك من الخلق.

وقال: أراد الله عز وجل دليل العبودية من الخلق. وأراد منى دليل الربوبية.

وقال: حين وصلت إلى العرش، كان الملائكة يصطفون، ويتباهون قائلين: نحن الملائكة المقربون، والمعصومون. فقلت: نحن الربانيون. فخجلوا جميعاً، وسر المشايخ بإجابتى عليهم.

وقال: فتح الله تعالى باب الفكر علىّ قائلاً: لقد اشتريتك من الشيطان، وبشىء لا يوصف، فتعلم كيف تحافظ عليه.

وقال: أعرف غايات الأشياء جميعها إلا ثلاثة: غاية كيد النفس، وغاية درجات المصطفى عليه السلام، وغاية المعرفة.

وقال: جُمعت مثل حفنة تراب. ثم هبت ريح عاصفة، وملأت السموات السبع والأرض بى. واختفيت أنا.

وقال: وهبنى الله قدماً، فذهبت من العرش إلى الثرى بخطوة، وعدت من الثرى إلى العرش. ثم علمت أننى لم أذهب إلى مكان قط. فنادى الله: من له قدم مثل هذه إلى أين يصل؟ فقلت: ما أطول سفرنا، وما أقصره. فما أكثر ما طفت فى إثرك.

وقال: سمعت أربعة آلاف قول من الله، وإن بلغت عشرة آلاف، لما انتهت.

وقال: إننى أستطيع أن أجعل الخرقة السوداء حريراً رومياً إن أردت. والحمد لله تعالى وتقدس. أى أننى انقطعت عن الدنيا والآخرة، وانشغلت بالله.

وقال: من له إلى الله سبل كثيرة: من الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى العرش، ومن العرش إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾(١٤٥)، ومن قاب قوسين إلى مقام النور لا يكون رجلا صالحاً، ما لم ير نفسه كبعوضة.

وقال: أنا مدين لآلاء الحق. أى أن وجودى كله فان فى وجود الحق فى الحقيقة. وما بقى هو خيال.

وقال: إن خرجت قطرة مما فى قلبى، لأصبحت الدنيا كما كانت فى عهد نوح عليه السلام.

وقال: الوقت الذى أرحل فيه عنكم، ويأتى ملك الموت من خلف جبل قاف لأحد أبنائى، ويقبض روحه، ويتحدث إليه. أرفع يدى من القبر، وأنثر لطف الله على شفتيه ولسانه.

وقال: حل بى شئ من عند الله؛ فاتجهت إلى الله، وقلت: إلهى! إن أنعمت على بشئ، فانعم على بشئ لم يكن قد ورد على لسان أحد قط منذ عهد آدم وحتى القيامة. فإننى لا أستطيع تناول بقايا أحد قط.

وقال: لا أشعر بالسكينة كل ليلة، ما لم افتح حسابى مع الله عند صلاة العشاء.

وقال: لم أرنى مخلصاً فى العمل، ما لم أر وحدانيتى.

وقال: إن غفر الله عز وجل يوم القيامة لجميع من عاصرونى، من حيث تشرق الشمس إلى حيث تغرب، لا أبالى؛ لما لى من همة كبيرة فى بلاط الحق.

وقال: إن عرش الله كان قد ألقى على كاهلنا، فتحملوا أيها الشباب، وتشجعوا؛ لأن الحمل ثقيل.

وقال: ماذا تقولون فى رجل لايخطو فى خراب أو عمار. وينزله الحق تعالى فى مقام، بأن يبعثه يوم القيامة، فينهض أهل الخراب والعمار جميعهم بنوره. ويغفر الله لجميع الخلق من أجله. وهو لم يدعو (لأحد) فى الدنيا، ولن يشفع (لأحد) فى الآخرة.

وقال: لأن أحيا مع الله فى الدنيا فى ظل أجمة شوك، أحب إلى من ألا أعلم عنه شيئاً وأنا فى الجنة فى ظل شجرة طوبى.

وقال: ربما جلست هنا، وقلت مغتراً بالقوة التى وهبنى الله إياها: أرفع يدى، وأزيح السماء من مكانها. وإن وضعت قدمى على الأرض، هويت إلى هوة. وتارة أنظر إلى نفسى، وأتجه إلى الله، وأقول: أتليق مثل هذه السلطنة بهذا الجسد والخلق الذى أحظى به.

وقال: أنا باق فان، وسامع فان، ومتحدث فان.

وقال: لم أكف عن العمل، ما لم أر أننى رفعت يدى فى الهواء، وجعلت الهواء فى يدى سبيكة ذهب. ولم أمد يدى لها، لأنها كرامة، ومن تخلى عن الكرامة، سُد أمامه ذلك الباب، ولم يفتح له ثانية.

وقال: إما أفنى حتى أختفى فى العالمين، أو أبقى فأكون أنا الجميع.

وقال: إياك أن تكون ميت القلب أو قرّاء.

وقال: سألت الحجر الأبيض مسألة، فأجابنى عن أربع آلاف مسألة فى الكرامة.

وقال: اعلموا أن الرجل الذى أجرؤ على طلب الخبز منه، أفضل من الملائكة.

وقال: اليوم بليلته أربع وعشرون ساعة. وقد مت ألف مرة فى ساعة، والثلاث وعشرون ساعة الأخرى، لا صفة لها.

وقال: يصوم الناس النهار، ويقومون الليل، على أمل الوصول إلى المنزل. وأنا نفسى المنزل.

وقال: أذكر كل شيء منذ تحركت فى أحشاء أمى ـ وعمرى أربعة أشهر ـ وحتى الآن. والوقت الذى أرحل فيه إلى العالم الآخر، أشرح لك ما يحدث فى القيامة، وما سوف يحدث. ثم قال: يقول الناس: إن فلاناً إمام. ومن لايعلم كل شيء كان قد خلقه الله من العرش إلى الثرى ومن المشرق إلى المغرب، لا يكون إماماً.

وقال: شاهدت الآدميين والملائكة والجن، والجافل والطائر، وجميع الأحياء، وكل ماخلقه الله. وأستطيع أن أخبرك عن كل شيء فى أنحاء الدنيا، فضلاً عما يوجد حولنا.

وقال: إن الشوكة يشاكها إصبع رجل من تركستان إلى الشام، توخزنى وإن تعثر قدم رجل من بلاد الترك حتى الشام فى حجر، يؤذينى. وإن حزن قلب، فهو قلبى.

وقال: لا أعجب من نفسى، بل أعجب من الله الذى جعل مثل هذه العظمة فى دون أن أدرى. ثم أطلعنى عليها، فبقيت عاجزاً فى ألوهية الله تعالى.

وقال: بداخلى بحر، كلما هبت عليه الرياح، تصاعد منه الغيم والمطر. فتمطر من العرش إلى الثرى.

وقال: يسر الله لى سفر، طويت فيه الصحارى والجبال، والتلال، والأنهار، والمرتفعات والمنخفضات. وتجاوزت الخوف والرجاء،

والسفن والبحار. وتركت كل شيء من الظفر والشعر حتى إصبع القدم. بعد ذلك عرفت أنني لست مسلماً. فقلت: إلهى! إننى مسلم فى نظر الخلق، ومجوسى فى نظرك. فاقطع زنارى، حتى أكون مسلماً فى نظرك.

وقال: عليكم أن تحيوا، وكأنكم أشرفتم على الموت، فمنذ أربعين عاماً وأنا أحيا على هذا الحال.

وقيل له: عظ. قال: وهل أستطيع الوعظ فى هذا المقام الذى نزلت فيه؟ فإن شرحتُ حالى معه. لما عمل به الخلق. وإن شرحت حاله معى، يكون مثل نار تلقى فى قطن. وآبى أن أكون مع نفسى، وأتحدث عنه بلسانى. وأخجل أن أبقى معه، وأتحدث عنه.

وقال: هذا المقام الذى وهبنى الله إياه، لا سبيل لخلق الأرض وملائكة السماء إليه. وإن رأيت شيئاً فى هذا المقام سوى شريعة المصطفى؛ تخليت عنه؛ لأننى لا أكون فى قافلة، لا يكون زعيمها محمد.

وقال: قال شيخ فى يده كراسة: إننى أقرأ من هذه الكراسة. فمن أين تتحدث أنت؟ إن وقتى لا يتسع للحديث.

وقال: للخلق أول وآخر، مالا يفعلوه فى الأول، يكافأون عليه فى الآخر. وقد منحنى الله تعالى وقتاً يتطلع إليه الأول والآخر.

وقال: إننى لا أقول: ليس هناك جحيم أو جنة. بل أقول: إن الجحيم والجنة لا مجال لهما عندى؛ لأنهما مخلوقان، ولا مكان لمخلوق حيث أكون.

وقال: أنا عبد فكره السموات السبع والأرض، كل ما أقوله نعت لهما. وليس لى أسفل أو أعلى، أو أمام أو خلف، أو يمين أو يسار.

وقال: الغيب شجرة، وقد جلست على أغصانها. واستظل بها الخلق جميعهم.

وقال: لى سجدة واحدة فقط طوال عمرى.

وقال: لا يمكننى التحدث إلى الخاصة؛ لأنهم مزقوا الحجاب. ولا يمكننى التحدث إلى العامة؛ لأنهم لا يسلكون الطريق إليه. ولا أستطيع الحديث إلى ذاتى؛ لأنها تزهو، ولا أملك اللسان الذى أتحدث به إليها.

قال له رجل: عد من المقام الذى تنزل فيه. فقال: لا أستطيع ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(١٤٦) قال: إلى العرش. فقال: ماذا أفعل بالعرش؟ والعرش هنا.

قال: مر بى وقت، بكت فيه المخلوقات جميعها علىّ.

وقال: يلزمنى رجل لا يوجد بينه وبين الله حجاب؛ حتى أقول له: ماذا كان الله تعالى قد فعل بمحمد. فيعجز قلبه ولسانه، ويسقط.

وقال: حين أخذنى الحق تعالى باللطف، غارت الملائكة، فحجبنى عنهم، وأفنانى، وأبقانى به معه. وإن لم يتصف بمثل هذه الحكمة؛ لما كان يرانى إلا كرام الكاتبين.

وقال: لقد أحضر كفنى من السماء منذ عشرين سنة، وألقى على رأسى. فأخرجت رأسى من الكفن، وتحدثت.

وقال: احترقت فى رحم أمى، وانصهرت حين ولدت. ولمابلغت، صرت شيخاً.

وقال: كان شيئاً يقطر فى فمى مثل قطرة الماء فى وقت ما، ويختفى ثانية وإن لم يختف، لما بقيت بين الخلق.

وقال: خلق الله جميعهم مثل السفينة، أنا الملاح. ولايشغلنى غرق تلك السفينة؛ لأننى فيها.

وقال: ألهمنى الحق تعالى فكرة، رأيت فيها كل ما أخلقه، واستغرقت فيها، وانشغلت بها ليلاً ونهاراً. فصارت تلك الفكرة بصيرة، وأصبحت انبساطاً ومحبة، ثم استحالت هيبة وحملا ثقيلاً. واستغرقت فى وحدانيته بسبب تلك الفكرة. ووصل بى الحال إلى أن استحالت الفكرة حكمة وطريقاً مستقيماً وشفقة على الخلق. فلم أر أحداً أكثر شفقة على الخلق منى. قلت: ليتنى مت بدلاً من الخلق جميعهم؛ لأنه لايجوز أن يرى الخلق الموت. ليته كان يحاسبنى حساب الخلق جميعهم؛ لأنه لاينبغى أن يحاسب الخلق يوم القيامة، ليته كان يعاقبنى عقوبة الخلق جميعهم؛ لأنه لايجوز لهم رؤية الجحيم.

وقال: ينزل الحق تعالى أولياءه فى مقام لا سبيل لمخلوق إليه. وأبو الحسن صادق فى هذا القول. وإن تحدثت عن لطفه؛ أسمانى الخلق مجنوناً. كما فعلوا مع المصطفى عليه الصلاة والسلام. وإن تحدثت به إلى العرش، اهتز. وإن تحدثت به إلى الشمس، لما غربت.

وقال: أمرنى الحق تعالى بألا أتجلى للتعساء، بل أتجلى لمن يحبنى وأحبه. الآن أنظر من أحضر. كل شخص أحضره اليوم فى هذا الحرم سوف يحضره هناك معى غداً. وقلت: إلهى! قربنى إليك. فصدر نداء من الحق تعالى: لى حكم عليك. أعلم أن كل من أحبه، يأتى إليك، ويراك. وإن لم يستطع المجىء، أسمعه اسمك، حتى يحبك. فقد خلقتك من صفائى. ولم يحبك سوى الأصفياء.

وقال: إن لم يستحوذ الحق تعالى على محبتى، لما جعلنى محبوب الخلق.

وقال: حين ذهبت إلى الحضرة بالجسد، دعوت القلب، فجاء. ثم جاء الإيمان واليقين والعقل والنفس. ووضعت القلب بينهم، فاختار اليقين والإخلاص، وأخذ الإخلاص فى العمل. فأدركت الحق. ثم ظهر مقام لم أر فيه نفسى، ورأيت الجميع الحق. ومن ثم صارت تلك الأشياء الأربعة التى كنت قد حملتها إلى هناك فى حاجة لى.

وقال: زهدت فيما سوى الحق، ودعوت نفسى فى ذلك الوقت، فسمعت الإجابة من الحق؛ فعلمت أننى تجاوزت الخلق، فقلت: لبيك اللهم لبيك، وأحرمت، وحججت، وطفت فى الوحدانية؛ فزارنى البيت المعمور، وسبحت لى الكعبة، وأثنى علىّ الملائكة. ورأيت نوراً كانت الحضرة الإلهية فيه. ولما وصلت إلى الحضرة الإلهية، لم يكن قد بقى منى شىء قط.

وقال: ظلت فكرة تراودني طيلة سنتين. واستغرقت فى النوم، لعلها تتركنى. وأنتم تعتقدون أن هذا الطريق سهل!

وقال: إن وجدتوني، لا تمنحوني لمن يمشى على الماء أو يطير فى الهواء. ولا تعطوني لمن يكبر التكبيرة الأولى فى خراسان، ويسلم فى الكعبة، فذلك كله واضح. لكن ذكر المؤمن لله لا حد له.

وقال: بلغنى أن هناك أربعمائة رجل من الغرباء. فقلت: من هم؟ ومضيت حتى وصلت إلى بحر، ورأيت نوراً، ووجدت الغرباء لم يكونوا سوى الله تعالى.

وقال: علمت ـ فى البداية ـ أنه قد عهد لى بأمانة. ولما حفظتها، خف العرش بأمر الله. لأننى حين حفظتها، عهد الله تعالى بنفسه لى، وشكرنى لأن الحمل ثقيل.

وقال: لن أدلكم على معاملتى، بل أدلكم على قداسة الله ورحمته ومحبته. فالأمواج تتلاطم، والسفن تتصادم.

وقال: منذ خمسين سنة وأنا أتحدث عن الحق، ولم يصُف قلبى ولسانى بذلك.

وقال: لم أعلم قط أن الله تعالى يحسن إلى حفنة تراب وماء مثلما أحسن إلىّ. ولم يدركنى غير المصطفى، وأنا على يقين بأن تصديقه واجب. ولم تكن رؤيته لى إلا لحاجة.

وقال: هذا الذى تسمعوه من هو من اكتسابى أو عطائه. ولا يجوز لى أن أتحدث إلى الخلق عن توحيده قط.

قال: ابق فى مكانك كجمرة نار تلقيها فى القش.

وقال: لقد جئت من هناك، وأعلم أننى سأعود إلى هناك، ولا أسألك عن الدليل والخبر. فصدر نداء من الحق: إننا لم نرسل جبريل لأحد بعد المصطفى. قلت: إن جبريل هو وحى القلوب ليس إلا. ووحى القلوب معى دائماً.

وقال: عشت بالحق ثلاث وسبعين سنة، لم أخالف خلالها الشرع فى سجدة، ولم أوافق النفس لحظة. وسافرت كذلك، واجتزت المسافة من العرش إلى الثرى فى خطوة.

وقال: صدر نداء من الحق تعالى: إن جئتنى ياعبدى حزيناً، سررتك. وإن جئتنى محتاجاً، أغنيتك. وإن فنيت عن نفسك، سخرت لك الماء والهواء.

وقال: يقول العلماء: ينبغى معرفة الله بالدليل العقلى. والعقل ذاته غير مدرك لذاته، ولا يعرف السبيل إلى الله تعالى، فكيف يمكن أن يعرفه (الله) بذاته؟ وكثير من العقلانيين يضللون الخلق. وقد حظيت بالمشاهدة، وانقطعت عن الخلق، واهتديت إلى الله. ولا يستطيع مخلوق المجىء إلى المكان الذى أتواجد فيه.

وقال: جلبت كنوز الأرض جميعها، لأطلع عليها. فقلت: ليغتر من يغتر بهذه الأشياء. فصدر نداء من الحق: يا أبا الحسن! لا نصيب لك من الدنيا، وأنا نصيبك من العالمين.

وقال: يا إلهى! لتجعل الدنيا إثم فى نظرى.

وقال: منذ انقطعت عن الدنيا، لم أنشغل بها قط. ومنذ قلت الله، لما ألجأ إلى مخلوق قط.

وقال: صرت شيخاً. وفعلت كل مايتأتى من العبد من أعمال أثناء المسير بتوفيق الله، وامتن على (الله) بكل ما أنعم به على عباده. وتارة أقول هذا الكلام بسبب المعاملة، وتارة أقوله بسبب العطاء. ولا سبيل للخلق لقهر الموت، وأبو الحسن يقهر الموت منذ خمسين سنة؛ حتى حسن إيمانه.

وقال: أتريدون صحبة الخضر عليه السلام؟ قال صوفى: بلى. قال له: كم عمرك؟ قال: ستون سنة. قال: ابدأ العمر من جديد، وأخلقك حتى تصحب الخضر؟ فمنذ أن صحبت الله لم أرغب فى صحبة مخلوق قط.

وقال: لا يستطيع الخلق قدحى أو مدحى؛ فأنا مغاير لكل ما يعبرون به على.

وقال: إننى أستحوذ على الجنة فى الفناء. فإلى أين سوف تحمل أهل الجنة؟ وأستحوذ على الجحيم فى الفناء. فإلى أين ستحمل أهل الجحيم؟

وقال: يقول الله تعالى يوم القيامة: اشفع لعبادى. فأقول: الرحمة ملكك، والعبد ملكك، وقد سبقت شفقتك على العبد شفاعتى.

وقال: يداهم الوقت كل شىء، ولايداهمه شىء. والخلق أسرى الوقت. وأبو الحسن رب الوقت. وإن قلت شيئاً عن وقتى، فر الخلق منى.

وقال: تقر أرواح الفتيان بوجود الحق منذ عهد المصطفى عليه السلام وحتى القيامة.

وقال: نظرت إلى وجوده، فبدا لى عدمى. وحين نظرت إلى عدمى، بدا لى وجوده. فبقيت محزوناً، حتى صدر نداء من الحق إلى القلب: اعترف بوجودك. فقلت: من يعترف بوجودك سواك. ألم تقل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾؟[١٤٧]

وقال: حين يسر الحق تعالى هذا الطريق لى، واجهتنى الكثير من المفارقات أثناء السير. وكنت أقول فى كل سنة: تجاوزت الكفر إلى النبوة. فيالها من مفارقة.

وقال: لى لحظة واحدة ـ فى كل يوم بليلته ـ من الحق ومع الحق. لا شأن لى بالخلق، وإن وضعت قدمى هناك حيث الهمة، أصل إلى مكان لا سبيل للملائكة الحُجّاب إليه.

وقال: قال فتى بالأمس: آه! لقد احترقت السماء والأرض. فقال الشيخ: رأيت أهلهما نورانيين جميعاً. كان بعضهم أكثر نورانية، وبعضهم أقل. فقلت: إلهى! أظهر لهم ماخلقته فيهم. فقال: ياأبا الحسن! لقد بقى حكم الدنيا. وإن كشفتهم لأنفسهم، عم الدنيا الخراب.

وقال: ضقت بنفسى، فأغرقتها فى الماء، فلم تغرق. وحرقتها بالنار، فلم تحترق. ومنعت عنها مايأكله الخلق أربعة أشهر ويومين، فلم تمت. فبقيت عاجزاً. فحدث لى فتح، وبلغت مكانة لا يمكن وصفها.

وقال: نظرت، فوجدت معاملة خلق السماء والأرض لم تفدنى شيئاً، لأننى كنت أنظر إلى ما يملكه. فنوديت: أنت وسائر الخلق بالنسبة لى، مثل هؤلاء الخلق بالنسبة لك.

وقال: أنا لست عابداً ولا زاهداً ولا عالماً ولا صوفياً. إلهى! أنت واحد وأنا واحد لوحدانيتك.

وقال: كيف يكون الرجل رجلا، ولا يصمد مع الله كما صمدت السماء والأرض والجبل. ومن يتظاهر بالإحسان ليس بمحسن؛ لأن الإحسان صفة الله.

وقال: لم أر إخلاصى فى العمل، ما دمت أرى أحداً سواه. حين رأيته الجميع، تجلى الإخلاص. فنظرت باستغنائه، فلم أر أعمال الخلق جميعهم إلا جناح بعوضة. ونظرت برحمته، فلم أر الخلق جميعهم إلا ذرات عديدة. فماذا يتأتى منهما هناك؟

وقال: عجبت لأمر الله؛ لأنه كان قد سلبنى العقل منذ سنوات، وكان يظهرنى عاقلاً أمام الخلق.

وقال: إلهى! ماذا لو لم يكن هناك جحيم وجنة. أكان أحد يعبد الله!

وقال: كشف الله تعالى لى سوقى. فكان بعض من فيه جدير بالقول، والبعض جدير بالاستماع، والبعض جدير بالعلم. وحين وقفت فى هذا السوق، حجبه على.

وقال: أظهر الله لى طاعتى، فرأيت القيامة أولى وآخرى. كل مامنحه لى فى الأولى، منحه لى فى الآخرة. ومد جسر الصراط من مفرق رأسى حتى أخمص قدمى، وقال: لقد تجاوزت نفسك، وتراجعت عن الصراط.

وقال: لكل شخص عطاء من هذا الإله، والحزن الدائم عطاؤنا. فليمنحنا الله القوة حتى نحتمل هذا العبء الثقيل.

وقال: عجبت لأمر هذا الإله الذى وضع ـ منذ البداية ـ كل هذه العظمة داخل هذا الجلد دون علمى. ثم أطلعنى عليها فى النهاية؛ فأصبت بالحيرة «فيا دليل المتحيرين زدنى تحيراً».

وقال: شعر رأسى العرش، وقدماى تحت الثرى، ويداى المشرق والمغرب.

وقال: الطرق إلى الله لا يمكن حصرها. كما أن لكل عبد طريق إلى الله. وفى كل طريق سلكته رأيت قوم فقلت: إلهى! أرشدنى إلى طريق، أكون فيه أنا وأنت، ولايكون فيه خلق. فيسر لى طريق الحزن. فقلت: إن الحزن عبء ثقيل، لايستطيع الخلق احتماله.

وقال: الرجل عند الله، طفل عند الخلق، والرجل عند الخلق، ليس برجل هناك. احفظوا هذا الكلام، فإننى فى حال لا يمكن وصفه.

وقال: من سمع هذا الكلام، وعرف أننى أثنيت على الله، يعزه الله. ومن ظن أننى أثنيت على نفسى، يذله. فقولى هذا من بحر صاف، لا نصيب فيه للخلق.

وقال: طلبت العافية، فوجدتها فى الوحدة. والسلامة فى الصمت.

وقال: صدر نداء للقلب من قبل الحق: يا أبا الحسن! طع أمرى، فإننى حى لا أموت؛ حتى أهبك حياة لا موت فيها. واجتنب ما نهيتك عنه، فإننى ملك لا زوال لملكه؛ حتى أمنحك ملكاً لا يزول.

وقال: من أحبنى، أحب الحق. ومن أحب الحق، صحب الفتيان. ومن صحب الفتيان، صحب الحق.

وقال: نطق لسانى بكلمة التوحيد، فرأيت السموات والأرضين كانت تطوف حولى، والخلق غافلون.

وقال: صدر نداء من الحق إلى قلبى: إن الناس يطلبون الجنة، وهم لم يشكرونى على الإيمان، ويطلبون منى شيئاً آخر.

وقال: لاتمزحوا، فإن كان للمزاح صورة، فلا جرأة له على الدخول فى تلك المحلة التى أكون فيها.

وقال: ينهض العالِم فى الصباح، ويطلب زيادة العلم. ويطلب الزاهد زيادة الزهد. وينشغل أبو الحسن بإدخال السرور على قلب أخ.

وقال: من لا يعلم أننى سأقف فى القيامة، وأتقدم عليه، لا يدخل الجنة. فقل له: لا تأت هنا، ولا تسلم علىّ.

وقال: أصابنى شىء، أماتنى ثلاثين يوماً. ولأن هؤلاء الخلق يحيون به فى الدنيا والآخرة؛ فقد أحيانى حياة لا موت فيها.

وقال: إن ركبت حماراً، وخرجت من نيسابور، ووعظت وعظاً لا يجلس عالم على كرسى حتى القيامة.

وقال: تصالحت مع خلق الله، ولم أخاصمهم قط. وخاصمت النفس، ولم أصالحها قط.

وقال: إن لم يقل الناس: إن أبا الحسن بلغ مكانة أبى يزيد، ولم يحفظ الحرمة؛ لكنت أقول لكم ما قاله أبو يزيد لله، وفكر فيه.

والعجيب أنه يروى عنه، أنه قال: كل شيء أدركه أبو يزيد هناك بالفكر، أدركه أبو الحسن بالقدم.

وقال: تركت الدنيا لأهلها، وتركت الآخرة لأهل الجنة. وسرت إلى مكان لا سبيل لمخلوق إليه.

وقال: خرجت كما تخرج الحية من جلدها.

وقال: قال أبو يزيد إننى لست مقيماً ولا مسافراً. وأنا مقيم وأسافر فى وحدانيته.

وقال: لن أقول يوم القيامة: لقد كنت عالماً أو زاهداً أو عابداً بل أقول: أنت واحد، وقد كنت من أحديتك.

وقال: لا أستطيع الحديث عن المكان الذى بلغته. فإن أفشيت أمرى معه للخلق، لا يطيقونه. وإن أفش هو ماله معى، يكن مثل النار تلقيها فى الأجمة. فامتنعت عن الحديث عنه، وأنا باق مع نفسى.

وقال: منذ خلقنى الله تعالى، وأنا أطلب الجنة؛ وأخشى الجحيم. وإن مرت الجنة والجحيم حيث أكون، فنت وأهلها فى؛ لأن خوفى من الله ورجائى فيه، ومن سواه أخاف وأرجو؟

وقال: أردت التكبير لأصلى فرض. فتجلت لى جنة مزدانة، وجحيم ملتهب، ورضوان ومالك. وكبرت تكبيرة الإحرام، فأبصرت مكاناً لا هو بالجنة ولا الجحيم. فقلت لرضوان: ادخل، تجد نصيبك هذه اللحظة. فدخل، ولم يجد عرقاً من عروقى الثلاثمائة والستين والخمسة خشاه.

وقال: من قصد باب الحق، وجد شيئاً، وطلب شيئاً، والبعض طلب ولم يجد. وعرض شيء على الفتيان، فلم يقبلوه. ولم يقبله أبو الحسن. ونودى أبو الحسن: نمنحك كل شيء سوى الربوبية. فقال: إلهى! دعك من هذا العطاء والمنح. فإنه يكون بين الغرباء، ولا ينبغى أن تكون هناك غربة.

وقال: فكرت قائلا: أيوجد عبد أكثر رجاء منى؟ ففتح الله تعالى عين باطنى، ورأيت الراجين له، فخجلت من رجائى، وأردت أن أعرض عشق الفتيان على هؤلاء الخلق، حتى يعلمون أن أى عشق ليس بعشق. ومن كان يرى معشوقه، يخجل أن يصرح له بحبه.

وقال: يقول الخلق: إنهم مع الحق. ويقول أبو الحسن: إن الحق معه.

وقال: اتجهت إلى هؤلاء القوم ثلاثين سنة، وتحدثت إليهم. ويعلم الخلق أننى أتحدث إليهم، وإلى الحق بقول واحد. ولم أخن هؤلاء الخلق، وكنت مع الحق فى الظاهر والباطن. وإن دخل محمد عليه الصلاة والسلام من هذا الباب، لاينبغى لى أن أكف عن هذا القول.

وقال: إن والدىَ من أبناء آدم. ولا يوجد آدم أو أبناؤه حيث أكون. فالفتوة والصدق مع الله، وكفى.

وقال: كنت قد استلقيت على ظهرى. وكان شيئاً يقطر من العرش فى فمى قطرة قطرة، وكانت حلاوته تنتشر فى باطنى.

وقال: رأيت فى المنام: أننى وأبا يزيد وأويس القرنى كنا فى كفن واحد.

وقال: رآنى إنسان واحد فى الدنيا بأسرها، وهو أبو يزيد.

يروى: أنه كان يقرأ هذه الآية يوماً قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾(١٤٨) . فقال: إن بطشى أشد من بطشه، فهو يبطش بالعالم وأهله، وأنا أبطش بكبريائه.

وقال: لم يخفق قلبى للعشق، ولم أجد محرماً فى العالم بأسره، أتحدث إليه.

وقال: يقول الله تعالى غداً لى: اطلب ماتريد. فأقول: يا إلهى العظيم! أنت أعلم (بما أريد) . فيقول: منحتك الهمة؛ فاطلب شيئاً سواها. فأقول: إلهى! أريد تلك الجماعة التى عاصرتنى، والتى بقيت بعدى، وجاءت لزيارتى، وسمعت اسمى أو لم تسمعه. فصدر نداء من الحق تعالى: لقد فعلت ما أمرناك به فى الدنيا. والآن نفعل ما تريد.

وقال: يقدم الله تعالى الجميع علىّ. فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام قدمتك علىّ. فأقول: يارسول الله؛ لقد كنت تابعاً لك فى

الدنيا، وسأتبعك هنا أيضاً. فبسط بساط من نور، اجتمع عليه أبو الحسن ومريدوه فيسر المصطفى بذلك الجمع، ويندهش أهل القيامة جميعهم، ويمر ملائكة العذاب، ويقولون: هؤلاء هم القوم الذين لا سلطان لنا عليهم.

وقال: يأتى المصطفى عليه السلام غداً برجال لا مثيل لهم فى الأولين والآخرين، ويأتى الحق تعالى بأبى الحسن لمقابلتهم، ويقول: يا محمد! إنهم يتصفون بصفاتك. وأبو الحسن يتصف بصفاتى.

وقال: أوحى الحق تعالى إلى، وقال: من شرب من نهرك هذا، وهبته لك.

وقال: لست أنا من يشفع لزائريه يوم القيامة؛ لأنهم أنفسهم يشفعون للآخرين.

وقال: من سمع كلامنا، وعمل به. أقل درجة يحظى بها هى ألا يحاسب غداً.

وقال: أوحى إلى أننى ملكت كل رخيص غير الخفية.

وقال: تارة أكون أنا أبا الحسن، وتارة يكون هو أبو الحسن. والمعنى هو: حين يكون أبو الحسن فانياً، يكون هو أبا الحسن وحين يكون باقياً، كل شئ يراه، يراه أبا الحسن. وبمعنى آخر هو: حين قال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(١٤٩) فى الحقيقة. من ثم فى ذلك الوقت الذى أجاب فيه: بلى. كان هو أبو الحسن. وكان أبو الحسن فانياً. فكان أبو الحسن هو. وورد هذا المعنى فى القرآن، يقول الحق تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى(١٥٠)﴾.

وقال: وضعتُ سبعمائة ألف سلم لا نهاية لها، حتى وصلت إلى الله، ولم أكد أضع قدمي على أول درجة حتى وصلت إلى الله. ومعنى ذلك أن إدراك الحق بخطوة أمر هين. ومهما كان السلم بلا نهاية فهو متدنى. وهذا سفر في نور الله، ونور الله بلا نهاية.

وقال: يقول الناس: الله ثم الرزق، ويقول البعض: الرزق ثم الله. وأنا أقول الله دون خبز، الله دون ماء، الله دون شيء قط.

وقال: الناس مختلفون، هل سيرون الله غداً أم لا؟ وأبو الحسن يقايض المسكين الذى لايملك قوت يومه، ويرفع العمامة عن رأسه، ويسبغ ثوبه. ومحال أن يبيع بالأجل.

وقال: زهدت فيما سوى الحق. عندئذ وجدت نفسي

وقال: لن أجيء إلى ولايتك؛ لأن مكرك شديد.

وقال: إن وضعتنى على بساط المحبة، ثملت بمحبتك. وإن وضعتنى على بساط الهيبة، جننت لقهرك. ولما يسطع النور، أكون أنا كلا الاثنين. وأنيتى أنت.

وقال: اتجهت إلى الله، وقلت: هناك رجل واحد دعانى إليك هو المصطفى عليه السلام. وإن تجاوزته، دعوتُ خلق السماوات والأرض جميعهم إلى طاعتك. وهذا هو بيان الحقيقة بإثبات الشريعة.

وقال: اتجهت إلى الله، وقلت: إلهى! الحسن قابع فيك، وتبشير إلى الجنة!

وقال: فتح الله تعالى باب الغيب لى، فعفوت عن الخلق جميعهم إلا واحد ادعى محبتى. واتجهت إليه أنا أيضاً، وقلت: إن لم يبد العفو من ذلك الجانب، لما بدا الندم من هذا الجانب، فاسع حتى نسعى، ولسنا نادمين على ما قلناه.

وقال: اتجهت إلى الله، وقلت: إلهى! تنفض الخصومات يوم القيامة، ولا تنفض الخصومة بينى وبينك.

وقال: إذا نظرت إلى روحى، آلمتنى. وإذا نظرت إلى قلبى آلمنى وإذا نظرت إلى فعلى، آلمتنى آخرتى. وإذا نظرت إلى الوقت، آلمنى ألمك. إلهى! نعمتك فانية، ونعمتى باقية. وأنا نعمتك، وأنت نعمتى.

وقلت: إلهى! كل ما تقوله لى، أقوله لخلقك. وكل ما تمنحه لى، أمنحه لخلقك. وقال: إلهى! إنهم لا يقبلون حديثى عنك.

وقال: ليس هناك أحد قط، جالسه، وقال له: قلت لى شيئاً لا يتأتى فى هذه الدنيا. وأجبتك إجابة لا تتيسر فى الدنيا والآخرة وهكذا كان يجيب، ولم يكن أحد حاضراً.

وقال: إلهى! يجلس الأنبياء يوم القيامة على منابر من نور، ويشاهدهم الخلق. ويجلس أولياؤك على أرائك من نور، ويشاهدهم الخلق. ويستغرق أبو الحسن فى وحدانيتك، حتى يشاهدك الخلق.

وقال إلهى! لا تجعل ثلاثة أشياء لى فى يد الخلق: روحى، فقد وهبتنى إياها، ولن أمنحها لملك الموت. وأنت معى ليلاً ونهاراً، وأى شأن للكرام الكاتبين بنا؟. ولا أريد سؤال منكر ونكير، حتى أمنحهما نور اليقين. وما داما لا يؤمنان بك، لا أرفع يدى عنهما.

وقال: إن اجتاز عبد المقامات جميعها بإخلاص. لايتجلى وجود الحق قط، ما لم يرد إليه ما أخذ منه عنوة.

وقال: إلهى! لا تدعنى فى مقام أقول فيه الخلق والحق، أو أقول فيه: أنا وأنت. وأبلغنى مقاماً أفنى فيه، وتكون أنت الجميع.

وقال: إلهى! إن آذيتُ الخلق، يفرون منى لما يرونى. وأنت معى مهما عصيتك.

وقال: هذا طريق الأتقياء. إلهى! أتوسل إليك أن أتجلى بك لجميع الخلق، أو أفنى، وأتوارى. حفظت الصدق ولم أجده. سألت عن كرامة كل زاهد، وكان يحذر المرور علىّ ليلاً أو نهاراً. ولما جاءنى الخضر عليه السلام كان حذراً.

وقال: ما دام الاثنان متماثلين، فإن الواحد لامثيل له.

وقال: إلهى! أنفقت كل ما أملك فى سبيلك، وأنفقت كل ما تملكه أنت فى سبيلك. حتى تزول أنيتى، وتكون أنت الجميع.

وقال: أنا مولاك على أى حال، وتابع لرسولك، وخادم لخلقك.

وقال: كبّرت ثمانين تكبيرة: الأولى: على الدنيا، والثانية: على الخلق، والثالثة: على النفس، والرابعة: على الآخرة والخامسة: على الطاعة. ويمكن إفشاء هذا للخلق. ولا مجال للتكبيرات الأخرى.

وقال: خطوت أربعين خطوة وقطعت المسافة من العرش إلى الثرى فى خطوة. أما الخطوات الأخرى، فلا يمكن وصفها. وإن قلت

لأحد: ليس هناك حجاب بين أبى الحسن وبين الله؛ ضاع قلبه، وزهقت روحه.

وقال: إلهى! إن كان هناك حجاب بينى وبينك، لما كنت على هذا النحو. وينبغى لرجل يحيا بالله، حتى أصفك له. فهؤلاء الخلق ليسوا أحياء.

وقال: إن لم يكن هؤلاء الرسل والجنة والجحيم. لبقيت اليوم من أجل محبتك وطاعتك ومن أجلك.

وقال: حين تذكرنى، يجعل الله رو حى فداءك. وحين يذكرك قلبى، يجعل الله نفسى فداء قلبى.

وقال: إلهى! إن آلمنى جسدى، فإنك تشفينى. وإن آلمتنى أنت، فمن يشفينى!

وقال: إلهى! خلقتنى من أجلك، وولدتنى أمى من أجلك، فلا تجعلنى فريسة لمخلوق قط.

وقال: بعض عبادك يحبون الصلاة والصوم، والبعض يحب الحج والغزو، والبعض يحب العلم والسجادة. فحررنى من ذلك؛ لأن حياتى ومحبتى من أجلك ليس إلا.

وقال: إلهى! إن كان هناك جسد وقلب من نور، فهما لايليقان بك. فكيف بجسد مضطرب وقلب مشتت!

وقال: إلهى! أَذكرك واحد من أحبائك كما يليق بك، حتى أقتلع عينَى، وأضعهما تحت قدميه، وهل هو معاصر لى؛ حتى أفتديه بروحى، أو أنه سيأتى بعدى؟!.

وقال: إلهى! هكذا أظهرتنى لهؤلاء الخلق، فارتديت رداءهم. وإن تجليت أنت لهم، فأى رداء صنعوه حتى أرتديه.

وقال: إلهى! سأ دعى عليك ما أريد فى الدنيا، وافعل بى ما تريد غداً.

وقال: إلهى! أرسلت ملك الموت ليقبض روحى؛ وأقبض أنا روحه، ويُحمل كلانا إلى المقابر.

وقال: إلهى! هناك جمع يبعثون يوم القيامة شهداء؛ لأنهم قتلوا فى سبيلك. وأنا أبعث شهيداً؛ لأننى قتلت بسيف الشوق إليك وأصابنى داء لايزول. بحثت عن الداء فلم أجده. وبحثت عن الدواء فلم أجده لكننى وجدت العناية.

وقال: سبق الطلب الأعمال جميعها، ثم أعقبته الإجابة، إلا فى هذا الحديث، فقد سبقت الإجابة الطلب.

وقيل للمريدين: إنكم تتعبون أنفسكم، وقد وصل الرجال دون تعب. فهو يُعجز الأخساء، ويبقى الرجال.

وقال: قال أبو يزيد للمريدين: قال الحق: من يريدنى، أحسن إليه كثيراً. ومن يريديك أنت يا أبا يزيد، أفنيه ولا أظهره فى مكان قط. فما قولكم الآن؟ قالوا: إن لم يفنه، قضينا عليه.

وقال: يقف العبد أمام الحق كائنين فى واحد. وذلك المسلك لا يمثل شيئاً فى مقام الرجال الآن. فسئل: كيف يكون الاثنان واحداً؟

قال: كما يمثل الخلق أمامه، ويبقى هو أيضاً بنفسه، ويأكل، ولايتذوق الطعام، ويمر عليه البرد والحر، ولا يشعر بهما. وحين يفنى عن نفسه، لا يبقى سوى الحق.

وقال: هناك رجل لا ينتابه حال الصحو مرة طيلة سبعين سنة، ورجل لا ينتابه مرة طيلة خمسين سنة، ورجل لا ينتابه مرة فى أربعين سنة، ورجل لا ينتابه مرة طيلة عشرين سنة، ورجل لا ينتابه مرة فى السنة، ورجل لا ينتابه مرة فى الشهر، ورجل لا ينتابه فى وقت الصلاة، ورجل تجرى عليه الأحكام، ولا خبر له عن الدنيا والآخرة.

وقال: لا تقول أنا رجل بسهولة. حتى يكون مسلكك ـ طيلة سبعين سنة ـ كما لو أنك تكبر التكبيرة الأولى فى خراسان، وتسلم فى الكعبة، وترى ما فوق العرش وما تحت الثرى، وتجد الجميع مثل نساء حائضات. عندئذ اعلم أنك لست رجلاً.

وقال: من أحسن فى الدنيا، يجب أن يظفر من الله بأن يقف إلى جانب الجحيم يوم القيامة، ويمسك بيد من يرسله الله إلى الجحيم، ويأخذه إلى الجنة.

وقال: يطوف بعض الخلق حول الكعبة، ويطوف البعض حول البيت المعمور فى السماء، ويطوف البعض حول العرش، ويطوف الفتيان فى وحدانيته.

وقال: يصلى الخلق جميعهم، ويصومون. ولكن الفتى من أمضى ستين سنة، ولم يسجل عليه الملك شيئاً، يخجله أمام الحق. ولا يغفل عن الحق طرفة عين، إلا حين ينام.

يقال: إن رجلا من بنى إسرائيل، كان يمضى سنة فى السجود، وسنتين فى مشاهدة ماتنشغل به هذه الأمة. ولحظة تفكير لهذا العبد تعادل سنة من سجود الأمة.

وقال: ينبغى أن ترى قلبك مثل موج البحر، تنبعث النار من بين ذلك الموج، فيحترق الجسد، وتنمو شجرة الوفاء من الرماد، وتثمر فاكهة البقاء الظاهر. ولما تأكل الفاكهة، تسرى عصارتها فى شرايين القلب، فتفنى فى وحدانيته.

وقال: لله عبد على وجه الأرض، أفاض على قلبه بنور من وحدانيته، إن مر أى شىء - من العرش إلى الثرى - على ذلك النور، احترق مثل ريش عصفور سقط فى النار.

قال عالم: سألت عن شىء، فقال: لا يمكنك معرفته ما لم تبلغ ذلك المقام وهو: أن تموت فى اليوم سبعين مرة، وسبعين مثلها فى الليلة، وتحيا على هذا الحال أربعين سنة.

وقال: إن صعدت ذرة - مما بداخل الولى - إلى شفتيه وأسنانه، لفزع خلق السماء والأرض جميعاً.

وقال: لله عبد على ظهر الأرض، كان قد نام فى الليل الحالك، فى بيت مظلم، وبسط اللحاف. فرأى النجوم تدور فى السماء والقمر كذلك. ورأى طاعات الخلائق جميعهم ومعاصيهم ترفع إلى السماء. ورأى أرزاق الخلق تهبط من السماء إلى الأرض. ورأى الملائكة يتنقلون بين السماء والأرض، ورأى الشمس تمر فى السماء.

وقال: من كان قد استغرق في الله كلية، أقر بوجوده من شعر رأسه حتى أخمص قدمه.

وقال: بقى العارفون بالله، وسيبقون دائماً.

وقال: سمع البعض «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ». كما هى، وسمعها البعض: ألست حبيبكم؟ وسمعها البعض: ألست أنا الجميع؟!

وقال: أحسن الله تعالى إلى أوليائه، وكان إحسانه مثل مكره.

وقال: من نظر إلى الله بالله، لا يرى الخلق.

وقال: مثل الروح كمثل طائر: له جناح فى المشرق وجناح فى المغرب، وقدم فى الثرى، ورأس فى مكان لا يمكن الاهتداء إليه.

وقال: إذا وجد الحبيب مع الحبيب، رأى الكل الحبيب، ولم ير نفسه.

وقال: من يشغل قلبه بما يوجب عليه الاستغفار، غير جدير بالمحبة.

وقال: لا يفشى الله تعالى سر الفتيان فى الدنيا أو الآخرة. وهم لا يفشون سره كذلك.

وقال: قلة التعظيم (للخلق) أفضل من كثرة العلم والعبادة والزهد.

وقال: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾(١٥١) فكف الفتيان جميعهم عن السؤال والكلام.

وقال: نظر الفتيان إلى غيبة الله، فوقع شىء فى قلوبهم، وذاقوا ماذاقه الأولياء والأنبياء.

وقال: وضعت قلوب الأولياء فى حمل إن وضع على مخلوق، انعدم. والله يحفظ أولياءه، حتى يمكنهم حمله، وإلا انفصلت عروقهم وعظامهم بعضها عن بعض.

وقال: أى رجل مثل فتوحه مثل طائر عشه من ذهب؟ وأى رجل يهديه الحق تعالى إلى طريق لا سبيل لمخلوق إليه؟

وقال: لله تعالى عبد على ظهر الأرض يذكر الله؛ فتتبول الأسود جميعها، وتكف الأسماك عن العوم فى البحر، وتفزع ملائكة السماء، وتزهو السماء والأرض والملائكة.

وقال كذلك: لله عباد على وجه الأرض، يذكرون الله، فيكف السمك فى البحر عن العوم، وتنزلزل الأرض، ويظن الخلق أنه الزلزال. وله عبد كذلك يسطع نوره على الخلق جميعهم، حين يذكر الله. ويتزلزل ما بين العرش والثرى.

وقال: إن تناثرت قطرة من ماء المحبة الذى تجمع فى قلوب المحبين، غرق العالم بأسره. وإن خرجت جمرة من تلك النار التى اشتعلت فى قلوب المحبين، احترق ما بين العرش والثرى.

وقال: يهاب الملائكة الأولياء فى ثلاثة مواضع: أولاً: ملك الموت عند النزع، ثانياً: الكرام الكاتبين عند التسجيل، ثالثا: منكر ونكير عند السؤال.

وقال: من اصطفاه الله، وهبه صفاء لا كدورة فيه. ومنحه القدرة على أن يقول للشىء كن فيكون بين الكاف والنون.

وقال: صدر نداء من الحق: عبدى الذى تبحث عنه، غير موجود فى الأول؛ فكيف يمكن إدراكه فى الآخر. هذا سبيل من الله إلى الله؛ لايهتدى إليه العبد.

وقال لرجل: أرأيت دمك حيث قتلت. ثم قال: قل: ليس هناك مخلوق قط ـ فى ذلك المكان الذى قتلت فيه ـ أبيح له دم الفتيان.

وقال: لما أمعنت النظر إلى عمرى، وجدت طاعتى طيلة ثلاث وسبعين سنة جميعها تعادل طاعة لحظة واحدة. وحين نظرت إلى المعصية، وجدتها أطول من عمر نوح.

وقال: لم أتقاعس عن العمل، منذ عرفت أن رزقى عليه. ولم أعتمد على الخلق، منذ رأيت عجزهم.

وقال: نزل فتى بالبادية، ونظر إليها، وعاد، وقال: هذا المكان لا يسعنى.

وقال: ينبغى عليك أن ترسل الملائكة الموكلة بك بالرضا؛ وإلا تأخذ السجل من أيديهم ليلاً، وتمحو ما ينبغى أن يمحى، وتكتب ما ينبغى أن يكتب، فيعودون ليلاً ويقولون: ليس له حسنات ولا سيئات. فيقول الله تعالى: سأبين لكم حسناته.

وقال: لا يحزن أولياء الله ولا يسرون، وحزنهم وسرورهم بالله.

وقال: ائتنسوا بالله، ولا تأنسوا بالخلق؛ فالله جدير بالمشاهدة، وجدير بالمحبة، وجدير بالرجاء، وجدير بالقول، وجدير بالسماع.

وقال: هناك رجل يذهب إلى مكة فى ثلاثة أيام، ويعود. ورجل يذهب فى يوم وليلة. ورجل يذهب فى ليلة. ورجل يذهب فى طرفة عين. والقدرة تذهب فى طرفة عين وتعود.

وقال: مادام لله تعالى عبد بينه وبين الخلق، فهو لا يكف عن التفكير فى الخلق ولما ينفر قلبه من الخلق، لايفكر فى مخلوق، ويفكر فى الحق. أى لا ينشغل قلبه بالفكر.

وقال: يهب الله تعالى مؤمناً هيبة أربعين ملكاً، وهى أقل هيبة كان قد منحها له. ويخفى تلك الهيبة عن الخلق؛ حتى يستطيع الخلق العيش معه.

وقال: إن كان رجل قد جلس هنا، ووقعت عيناه على اللوح. فهذا جائز، وأنا أقبله. ولكن ينبغى أن يدلنى عليه.

وقال: إن عرفت الله تعالى بالعقل، حظيت بالعلم. وإن عرفته بالإيمان، حظيت بالراحة. وإن عرفته بالمعرفة عانيت الألم.

وقال: قال على الدهقان: يتخلف الرجل سنتين عن الطريق إلى الحق تعالى بفكرة خاطئة يتبناها.

وقال: أعجب من هؤلاء التلاميذ الذين يقولون: ذهبنا إلى الأستاذ. ولكنكم تعلمون أننى لم أتخذ أحداً قط أستاذاً لى وأستاذى هو الله تعالى. وأجل المشايخ جميعهم.

وسأله عالم: أين مقر العقل والإيمان والمعرفة؟ فقال: اشرح لى كنهها؛ أرشدك إلى مقرها. فبكى العالم، وانزوى.

سئل الشيخ: من همْ الواصلون من الرجال؟ قال: إن تجاوزت المصطفى عليه السلام، فالرجل من لا يدرك شيئاً من هذا. وما دمت مخلوقاً، فإنك تدرك كل شيء. أى كن من عالم الأمر، ولا تكن من عالم الخلق.

وقال: لايفصح الرجال عن مقاماتهم، ويتمهلون؛ حتى يفهم السامع قولهم.

وقال: يزهو كل رجل بما يعلم، حتى يعلم أنه لايعلم شيئاً. ما دام علم أنه لم يعلم شيئاً. يخجل من علمه، حتى تبلغ معرفته الكمال.

وقال: لا ينبغى معرفة الله بالتهمة، ولا يجب معرفته بالفكرة فكأنك تعرفه ولا تعرفه. وإنما ينبغى عليك مهما عرفته أن تقول: ليتنى كنت أعرفه أفضل.

وقال: الأفضل للعبد من ربه ألا يتركه حياً أو ميتاً.

وقال: لما يهدى الله تعالى العبد إلى طريقه، ويكون سفر هذا العبد وإقامته فى وحدانيته، ينتهى سفره وإقامته.

وقال: القلب المريض بالحق سليم؛ لأنه لا يشفى إلا بالحق.

وقال: من يحيا بالله، يرى كل ما هو جدير بالرؤية، ويسمع كل ما هو جدير بالسماع، ويعمل كل ماهو جدير بالعمل، ويعلم كل ماهو جدير بالعلم.

وقال: قسماً ببارىء السماء والأرض، لاتعادل الطاعة إنكار هؤلاء الفتيان قط.

وقال: هناك سوق فى طريق الحق يطلق عليه سوق الفتيان، ويسمى سوق الحق أيضاً. فهل شاهدتموه؟ قالوا: لا، قال: فى ذلك السوق صور بديعة. حين يصل إليها السالكون، يمكثون عندها. وهى صور الكرامة والطاعة الكثيرة. وتبقى عندها الدنيا والآخرة، ولا تصل إلى الله. والأفضل للعبد أن يترك الخلق، ويختلى مع الحق، ويسجد، ويعبر بحر اللطف، فيدرك وحدانية الحق، ويتحرر من نفسه، ويجرى عليه كل شىء، وهو فان.

وقال: لهذا العلم ظاهر ظاهرى، وباطن باطنى. علم الظاهر وظاهر الظاهر هو الذى يتحدث به العلماء. وعلم الباطن يتحدث به الفتيان إلى الفتيان، وعلم باطن الباطن هو سر الفتيان مع الحق تعالى، ولاسبيل للخلق إليه.

وقال: مادمت طالباً للدنيا، تفرض سلطانها عليك. وحين تنصرف عنها، تفرض سلطانك عليها.

وقال: الفقير ليست له دينا ولا آخرة، ولا يرغب فيهما؛ لأن الدنيا والآخرة أحقر من أن ينشغل بهما.

وقال: كما أن الحق لا يفرض عليك الصلاة قبل حينها، فلا تطلب أنت أيضاً الرزق قبل حينه.

وقال: الفتوة بحر له ثلاثة منابع: السخاء والشفقة، والاستغناء عن الخلق، والاحتياج الى الحق.

وقال: النَّفَس الذى يصعد من العبد، ويذهب إلى الحق، يريح العبد. والنظرة من الله إلى العبد تؤلمه.

وقال: ليس هناك خبر عن الحال، وإلا كان علماً لا حالاً. فهو سبيل إلى الحق. أو أنه لا سبيل لرجل إلى الحق. ويستقر الخلق جميعهم فى أبى الحسن، ولا موضع لقدم لأبى الحسن فى نفسه.

وقال: يصطفى الله رجلاً من كل قوم، ويغفر لأولئك القوم بشفاعته وأحب الله قوماً، وفضلهم على الخلق.

وقال: اجلسوا فى الخلوة، واتجهوا إلىّ.

وقال: الرجال الذين يسمون، يسمون بإخلاصهم، لا بكثرة أعمالهم.

وقال: إن فتح عليك بذرة من لطفه، فلا ينبغى عليك سماع أحد فى العالم أو محادثته.

وقال: يقول العلماء: نحن ورثة الأنبياء، والرسول فضل الفقر. والفقر اختيارنا. وقد كان الرسول سخياً وحسن الخلق ووفياً، وحسن المنظر، وإماماً للخلق، وكريماً. وجد الخير والشر من الله تعالى، ولم يغش خلقه، ولم ينشغل بالوقت، ولم يخف مما يخاف الخلق منه، ولم يرج مايرجوه الخلق. لم يغتر بشىء قط. وهذه هى صفات الفتيان. كان الرسول عليه السلام بحراً بلا شاطئ؛ إن تناثرت قطرة منه، غرق العالم بأثره. وطليعة قافلتنا الحق ومؤخرتها المصطفى، ويليه الصحابة. فطوبى لأهل هذه القافلة، وقد اتحدت أرواحهم بعضها ببعض، ولم تتحد روح أبى الحسن بمخلوق قط.

وقال: خلق الله تعالى أولياءه وأنبياءه جميعاً ظمأى، وأماتهم ظمأى.

وقال: ليس هذا هو البحر الذى يعرقل السفن. بل يغرق مائة ألف على يابس هذا البحر، قبل أن يصلوا إليه. فما الذى يمنعهم؟ إنه الله، وكفى.

وقال: يدخل الرسول عليه السلام الجنة، فيجد خلقاً غفيراً، فيقول: إلهى! بماذا دخل هؤلاء الجنة؟ يقول: بالرحمة، فمن شملته رحمة الله، دخل الجنة. والفتيان يقبلون على الله، فيرشدهم الله إلى طريق لا خلق فيه.

وقال: هناك ألف منزل بين العبد وربه. أولها: الكرامات فإن كان العبد ضعيف الهمة، لم يبلغ أى مقام آخر.

وقال: الطريق طريقان: طريق الهداية وطريق الضلالة. طريق الضلالة هو طريق العبد إلى الله، وطريق الهداية هو طريق الله إلى العبد. فمن قال: وصلت إليه، لم يصل. ومن قال: وصّلنى إليه، فقد وصل.

وقال: من أدركه، لم يبق. ومن لم يدركه، لم يمت.

وقال: ظهرت ذرة عشق من عالم الغيب، ،وشمت صدور المحبين جميعها، ولم تجد محرماً قط؛ فمضت إلى الغيب ثانية.

وقال: يولد رجل كل مائة سنة، يليق بتوحيد الله.

وقال: لله رجال لايخالجهم المشرق والمغرب أو العلا والثرى.

وقال: كل قلب انشغل بشىء سوى الله، هو ميت، وإن كان مفعماً بالطاعة.

وقيل له: كيف حال قلبك؟ فقال: لقد وقعت القطيعة بيني وبينه منذ أربعين سنة.

وقال: تقول الأم لابنها مراراً، فلتمت. ولكنها لاتطيق موته. وهي صادقة في ذلك القول.

وقال: حفظ هذه الثلاثة أمر شاق: السر مع الحق، واللسان مع الخلق، والإخلاص في العمل.

وقال: لايمكن أن يحجب العبد عن ربه شيء سوى النفس والجميع يشكوها إلى الله، والأنبياء أيضاً.

وقال: لايشكل الشيطان فتنة على الدين مثل رجلين: عالم حريص على الدنيا، وزاهد عار من العلم.

وقال لصوفي: إن اختلى شاب بامرأة في منزل، سلِم. وإن اختلى بقراء في المسجد، لم يسلم.

وقال: احذر، ولاتأمن إبليس فإنه يتحدث في سبعمائة درجة للمعرفة.

وقال: أعظم الأعمال: ذكر الله، والتقوى، والسخاء، وصحبة الأخيار.

وقال: إن سرت ألف فرسخ؛ حتى لاترى أحداً من السلاطين، فقد أفدت فائدة كبيرة.

وقال: إن زرت مؤمناً، ينبغي عليك ألا تقبل ثواب مائة حجة مقبولة على هذه الزيارة، لأن زيارة المؤمن ثوابها أكبر من ثواب

مائة ألف دينار تمنحها للفقراء. إذا زرت مؤمناً، فاعلم أن الله تعالى قد رحمك.

وقال: القبل خمس: الكعبة: وهى قبلة المؤمنين، وبيت المقدس: وهو قبلة الأنبياء والأمم السابقة، والبيت المعمور فى السماء: وهو مجمع الملائكة، والعرش: وهو قبلة الدعاء، والله: وهو قبلة الفتيان، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(١٥٢).

وقال: هذا الطريق حافل بالبلاء والخطر. عشرة مواضع منه سم، والحادى عشر سكر.

وقال: لا تبحث عما لا يبحث عنك؛ لأن ما تبحث عنه، يبقى بك حين تجده، ويكون مثلك.

وقال: الأكثر انتفاعاً بالعلم هو العامل به، وأفضل العمل ما فرض عليك.

وقال: إذا وهب العبد عزه لله، أضاف الله ـ تعالى ـ عزه إلى عزه، ورده إليه، فصار عزيزاً بالله.

وقال: يرى العقلاء الله بنور القلب، ويراه المحبون بنور اليقين، ويراه الفتيان بنور المعاينة.

وسئل: أين رأيت الله؟ فقال: حيث لم أر نفسى.

وقال: هناك رجال قصدوا المعرفة، ولم يعلموا أن المعرفة محالة. ورجال قصدوا المشاهدة، ولم يعلموا أن المشاهدة حجاب.

وقال: من انشغل بالتفكير فى الحق والباطل، لا نعده من الواصلين.

وقال: إننى لا أقول: إنه لاينبغى عليك العمل، لكن عليك أن تعلم هل أنت الذى تفعل ماتفعله أم أنه يُفعل بك؟ تلك هى التجارة التى يتاجر فيها العبد بواسطة الحق. لما تمنح رأسمالك للحق، تلزم البيت. فإن لك رب فى الأول، وفى الآخر، وفيما بينهما أيضاً. وسوقك رائج به لا بك. ومن انتظر نصيبه من السوق، ضل الطريق إليه.

وقال: لا تخرج المجاهدات عن ثلاث: إما طاعة الجسد أو ذكر اللسان أو فكر القلب. ومثلها مثل الماء الذى ينفذ إلى البحر، فكيف يظهر فى البحر؟

وقال: إذا فاض البحر، غرق راكبوه جميعاً ومن بينهم الفتيان. والفتوة: ألا ترى فعلك.

وقال: فعلك مثل السراج، وذلك البحر مثل الشمس. فأى حاجة لك بالسراج إن أشرقت الشمس؟

وقال: انتبهوا أيها الفتيان! فإنكم لا تستطيعون إدراكه بالمرقعة والسجادة. ومن ادعى هذا: «قل لما تريد كن» عوقب.

وقال: الفتى من ليست له نفس ولا روح، وهو خصم الخلق يوم القيامة. والله خصمنا. وحين يكون الله الخصم، لا تنفض الخصومة قط. فقد عنفنا وعنفناه.

وقال: كن عالى الهمة مع الله، فالهمة تمنحك كل شيء ما عدا الربوبيـة. وإن قـالت: أمنحك الربوبيـة أيضاً، قل: إن العطاء والمنح صفة الخلق.

وقال: قل: الله لا مكان لـه، الله لا رغبة له، الله مستغن عن كل شيء.

وقال: نشوة الثمل فى أنه كان قد شرب الخمر.

وقال: إلام تقـول: أنا وصاحب رأى، وصاحب حديث. قل مرة: الله، وأنت فان عن نفسك. أو قل الله كما يليق به.

وقال: يقترف أناس المعصية، ويقوم أناس بالطاعة. وليس هذا هو الطريق، ولا يتسع لهما قط. فتخل عنهما، ولن يبقى سوى الله. ومن لا يراقب الله فى حديثه وفكره، تصبه الآفة فى هذين الأمرين.

وقال: الخلق جميعهم مزمعون على أن يحملوا إلى ذلك المكان شيئاً يليق به. ولايمكن حمل شيء قط من هذا المكان. ويحملون شيئاً من هذا المكان إلى ذاك، يكون غريباً هناك، وهو العدم.

وقال: الإمام من كان قد سلك كل السبل.

وقال: أية زيادة قد تجلت هناك من طاعة خلق السماء والأرض، حتى تتجلى منك! وأية زيادة للزيادة؟ يكفيك من المعاملة ما تقضيه الشريعة منك، ويكفيك من العلم أن تعلم ما أمرت به، ويكفيك من اليقين أن تقول وتعلم أن رزقك سيأتى إليك، ويكفيك من الزهد أن تعلم أن ماتأكله هو رزقك؛ حتى لا تقول: آكل هذا أم ذاك.

وقال: يحسن الله تعالى إلى العبد بأن يجعل مقامه فى العليين. وإن جال بخاطره أنه ينبغى لأحد من رفاقه رؤيته، لم يكن صالحاً.

وقال: فلتحصى الأفلاك، لتعرف الله. واعلم أن طريقك طويل، فاسلكه بنور اليقين؛ حتى تختصره.

وقال: ينبغى أن تقول الله، حتى تفنى.

وقال: كُتب على كل شىء إلا الماء. فإن عبرت البحر، فاكتب بدمك على الماء؛ حتى يعلم من يأتى بعدك أن العشاق والسكارى والمحترقين قد رحلوا.

وقال: إذا ذكرت الأخيار، تظهر سحابة بيضاء، وأمطرت الرحمة. وإذا ذكرت الله، ظهرت سحابة بيضاء، وأمطرت العشق. فذكر الأخيار رحمة للعامة، وغفلة للخاصة.

وقال: المؤمن غريب عن الناس جميعهم إلا ثلاثة: الله، ومحمد عليه السلام، ومؤمن آخر تقى.

وقال: الأسفار خمسة: سفر بالقدم، وسفر بالقلب، وسفر بالهمة، وسفر بالمشاهدة، وسفر فى فناء النفس.

وقال: نظرت إلى العرش، لأتطلع إلى غايات الناس، فرأيت فيه غايات استغنى عنها العارفون، وكان استغناء العارفين هو غاية الرجال. ولما تقع أعينهم على قدسية الله، يشعرون بالاستغناء.

وقال: السالكون إلى الله، يصيبهم من الله شىء، فيسقط عنهم ما فرض عليهم من زكاة وصيام وقرآن وتسبيح ودعاء. فقد جاءت من

عند الله، واستوطنتهم. أى أن كل طاعة يؤدونها بعد ذلك، لا يؤدونها هم، بل تسرى عليهم. فهناك ألف رجل يتبعون الشرع، ورجل واحد يتبعه الشرع.

وقال: للصوفى تسعة وتسعون عالماً: عالم يمتد ظله من العرش إلى الثرى، ومن المشرق إلى المغرب. وثمانية وتسعون عالماً لا يمكن رؤيتها أو الحديث عنها.

وقال: الصوفى لا حاجة له بالشمس فى نهاره، وليله بلا قمر أو نجوم، فهو ليس بحاجة إلى القمر أو النجوم.

وقال: من أراده الحق، هداه إلى الطريق، ثم اختصر له الطريق.

وقال: محبة الله هى طعام الفتيان وشرابهم.

وقال: الغائب يتحدث عنه الجميع، والحاضر لا يمكن الحديث عنه قط.

وقال: يجعل الله ـ تعالى ـ بناء من نور فى قلوب أوليائه، ويشيد بناء فوق هذا البناء، وهكذا. حتى تكون جميعها الله.

وقال: لقد تجلى الله بشيء من وجوده على هؤلاء الرجال. إن قال واحد: هذا حلول. أقول: إنه يريد نور الله. «خلق الخلق فى ظلمته ثم عرش عليهم من نوره».

وقال: مهد الله للعبد السبيل إليه. حين يريد أن يسير، يسير فى وحدانيته. وحين يريد أن يبقى، يبقى فى وحدته. من كان قد احترق بالنار، أو غرق فى البحر، عليكم بمجالسته.

وقال: الفقير من لا ينشغل قلبه بالفكر. يتحدث دون حديث، ويرى دون بصر، ويسمع دون سمع، ويأكل ولا يتذوق الطعام، وليست له حركة أو سكون، ولاسرور أو حزن.

وقال: يخرج هؤلاء الخلق صباحاً ومساءً، ويقولون: إننا نطلبه، والطالب من طلبه.

وقال: اختم على لسانك ولا تتحدث إلا عن الله، واختم على قلبك؛ حتى لا تفكر فيما سوى الله. واختم على معاملتك، حتى لا تؤدى عملاً إلا بإخلاص، واختم على فمك، فلا تأكل إلا حلالا.

وقال: إذا قال العالم: إنه مَنّ كنت أنت نصف. وإذا قال: إنه نصف مَنّ. كن أنت ربع مَنّ.

وقال: إنكم موجودون ما دمتم غير موجودين. يقول الله تعالى: لقد خلقت الخلق جميعهم. ولكننى لم أخلق صوفياً. أى أنه لم يكن قد خلق معدوماً. ومعنى (آخر) هو: أن الصوفى من عالم الأمر لا عالم الخلق.

وقال: الصوفى: جسد ميت، وقلب فان، وروح محترقة.

وقال: لحظة مع الله أفضل من السموات والأرض جميعها.

وقال: كل ما تفعله من أجل الله، إخلاص. وما تفعله من أجل الخلق رياء.

وقال: العمل مثل أسد. إذا جعلت قدمه فى عنقه، صار ثعلباً.

وقال: لقد قال المشايخ: إذا خرج المريد طالباً للعلم، كبر عليه أربع تكبيرات، ودعك منه.

وقال: الطريق المؤدى إلى الجنة قريب، والطريق المؤدى إلى الله بعيد.

وقال: ينبغى عليك أن تموت فى اليوم ألف مرة، ثم تحيا. فتحيا حياة لا موت فيها.

وقال: حين إذا منحت الله فناءك، منحك هو بقاءه.

وقال: ينبغى أن تصاب قدماك بالجدرى من المسير، ويصاب به جسدك من الجلوس، ويصاب به قلبك من التفكير. فمن سافر فى الأرض، أصيبت قدماه بالجدرى. ومن سافر فى السماء، أصيب قلبه بالجدرى. وسافرت أنا فى السماء، فأصيب به قلبى.

وقال: من اعتزل، أنس بربه، وعلامته هى أنه يحب ربه.

وقال: قال الأستاذ أبو على الدقاق: لم يسلك أحد هذا الطريق منذ عهد آدم وحتى القيامة، إلا وسلك طريقاً وعراً. وإننى لأشفق على الأولياء والأنبياء. فإن كان الطريق الذى يسلكه العبد إلى الله طريقاً وعراً، فكيف يكون الطريق من الله إلى العبد!

وقال: إنه يظهرك لنفسك كما كان قد أظهر لك الشهادة والمعرفة والكرامة والجود؛ حتى يبين لك أن المخلوقات جميعها مثله، ولا صفة لها.

وقال: يحفظ الله تعالى لطفه للمحبين، ورحمته للعاصين.

وقال: اعرف ربك، فالغريب الذى له معارف في المدينة، يقوى بهم.

وقال: قل لمن لا يستطيع الانشغال بالله في دنياه وطوال عمره، لاتدعى أنك ستمر على الصراط يوم القيامة دون عبء.

قال أبو الحسن لرجل: أين تذهب؟ فقال: إلى الحجاز. فقال له: وماذا تفعل هناك؟ قال: أطلب الله. فقال له: وأين رب خراسان حتى تذهب إلى الحجاز؟ فقد قال الرسول عليه السلام: اطلبوا العلم ولو فى الصين، ولم يقل: اطلبوا الله.

وقال: إن لحظة يأنس العبد فيها بالله أغلى من سنوات يقضيها فى الصلاة والصوم. ومخلوقات الله جميعها شرك للمؤمن. ففى أى شَرَك منها يقع؟

وقال: من وصل الليل بالنهار، ولم يكن قد آذى مؤمناً، كان قد أنس بالرسول عليه السلام فى ذلك النهار بليلته. وإن آذى مؤمناً، لم يقبل الله طاعته فى ذلك اليوم.

وقال: ليس هناك شيء قط - بعد الإيمان الذى وهبه الله للعبد - أعظم من قلب مخلص ولسان صادق.

وقال: من خجل فى هذه الدنيا من الله ورسوله والمشايخ، خجل الله تعالى منه فى الآخرة.

وقال: ثلاثة أقوام لهم سبل إلى الله: صاحب علم مجرد، وصاحب مرقعة وسجادة، وصاحب فأس ويد. وإلا أهلك فراغ النفس الرجلَ.

وقال: مرتدو الخرق كثيرون، ويلزمهم إخلاص القلب. فأية فائدة للثياب! وإن استطاع الرجل السلوك بارتداء الخرقة وتناول الشعير، لكن ينبغى للحمار أن يصير رجلاً، فكلاهما يلبس الخرق، ويأكل الشعير.

وقال: ليس لى مريد؛ لأننى لم أدَّعِ أننى قلت الله. وكفى.

وقال: إن عصيته مرة واحدة ينبغى عليك أن تبكى عليها طوال عمرك. ولا تزول حسرتك وإن عفا عنك، وتقول: لماذا عصيتُ إلهاً مثله.

وقال: ينبغى على الرجل أن يكون أعمى البصر، وأخرس اللسان، وأصم، حتى تليق به الصحبة والحرمة.

وقال: طاعة الخلق بثلاثة أشياء: بالنفس واللسان والقلب. وينبغى على العبد أن يشغلها بالله دائماً. حتى ينسلخ عنها، ويدخل الجنة دون حساب.

وقال: التحير مثل طائر يخرج من عشه طلباً للحَب. فلا يجده، ولا يعرف الطريق إلى عشه ثانية.

وقال: من حقق رغبة للنفس، اعتراه ألف حزن فى سبيل الحق.

وقال: قسم الحق تعالى الأشياء على الخلق، وجعل الحزن نصيب الفتيان؛ فرضوا به.

وقال: ما أطيب ألا يعلم أحد (شيئاً قط) فى سبيل الحق، مادام علم، كان مثل طعام بلا ملح.

يروى عن الشيخ أبى يزيد أنه قال: لا تعقب الحسنة بالسيئة؛ حتى لا ترى السيئة لما يقع نظرك عليها، وترى الحسنة.

قال الشيخ: عليك أن تنسى الحسنة والسيئة.

وقال: لا يتخلى الفتيان عن العمل، ما لا يتخلى العمل عنهم.

وقال: إذا قضى الله تعالى أمراً، ورضيت به، كان أفضل لك من ألف ألف عمل خير تفعله، ولا يرضى هو عنه.

وقال: إن سقطت عليك قطرة من بحر الإحسان، لما رغبت فى التحدث عن شىء أو الاستماع إلى شىء فى العالم بأسره، أو رؤية أحد.

وقال: ليس فى الدنيا شىء قط أصعب من أن يكون له خصومة مع أحد.

وقال: الصلاة والصيام أمران عظيمان. ولكن اجتناب الكبر والحسد والحرص أعظم منهما.

وقال: المعرفة: هى الاندماج فى الشريعة، وهى البعد عن الشريعة، وهى موافقة الشريعة أيضاً. وينبغى على الرجل أن يدرك جوهر الثلاثة، حتى يحدث بها كل إنسان.

وقال: إن ذِكْر الله مرة واحدة أصعب من تلقى ألف ضربة سيف على الوجه.

وقال: المشاهدة هى ألا تشاهد سواه.

وقال: مجاهدة الرجال أربعون سنة: ينبغى عليهم مكابدة الألم عشر سنوات حتى يصدق اللسان، وعشر سنوات أخرى حتى تسلم اليد، وعشر سنوات أخرى حتى تصح العين، وعشر سنوات أخرى حتى يخلص القلب. فمن أتبع هذا أربعين سنة، وصدقت دعواه، كل صوت يصدر منه، لا يكون فيه هوى.

وقال: ابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً. واصمتوا كثيراً، وتحدثوا قليلا، وتصدقوا كثيراً، وكلوا قليلاً، واستيقظوا كثيراً، ولا تناموا..

وقال: من لا يتذوق حلاوة كلام الله، يخرج من هذه الدنيا دون أن يظفر بشىء.

وقال: لم يعامل الله الخلق بالمداراة، وعامل المصطفى بالمداراة. فاجترأ العقلاء مع الله؛ لأنه جرئ. ومن كان جريئاً، أحبه الجراء.

وقال: هذا الطريق طريق الشجعان والمجانين والسكارى. فالسكر والجنون والجرأة تجدى مع الله.

وقال: ذكر الله من أعماق الروح، والصلاة على محمد من منبت الأذن.

وقال: لا ترحل عن هذه الدنيا، ما لا تعتريك ثلاثة أحوال: أولاً: ينبغى عليك أن تذرف الدمع فى محبته، ثانياً: ينبغى عليك أن تبول من هيبته، ثالثاً: ينبغى أن تنسحق عظامك فى اليقظة وتضمحل.

وقال: تذكروا ما لا ينبغى فعله مرة أخرى. أى لا تنس، فينبغى تذكيرك.

وقال: تغيب أنت ويحضر هو. ثم لا تبقى أنت، ويكون هو الجميع.

وقال: لاتتحدثوا ما لم تجدوا مستمعاً لكلام الله. ولا تستمعوا ما لم تجدوا قائلاً لكلام الله.

وقال: من قال الله مرة واحدة، احترق لسانه، ولم يستطع أن يقولها مرة أخرى. وإذا وجدته يرددها فاعلم أنه ثناء الله على العبد.

وقال: ألم الفتيان حزن لا يسعه العالمان. وهم ينشدون ذلك الحزن؛ ليذكروا الله؛ ولكنهم لا يستطيعون ذكره كما ينبغى.

وقال: إن كان قلبك مع الله، وملكت الدنيا بأسرها، فلا ضرر، إن ارتديت الحرير. وإن ارتديت الخرقة، ولم يكن قلبك مع الله، فلا فائدة لك من ذلك قط.

وقال: إذا وجدت نفسك مع الله، فإنه الوفاء. وإذا وجدت الله معك، فإنه الفناء.

وقال: من تراه طفلاً بين هؤلاء الخلق، هو رجل عند الله. ومن كان رجلا بين الخلق، فقد مات عند الله.

وقال: هناك رجل يترك ما أخذ، ويغض البصر. ورجل يدخل إن أراد، ويخرج إن أراد. ورجل لايدعوه يخرج إن دخل.

وقال: أطلع الله تعالى الخلق على فعله، وإن أطلعهم على ذاته، يقولون: لا إله إلا الله، ولايبقون أي يغرقون.

وقال: ماذا تقول في رجل كان قد وقف في الصحراء، ولا يملك عمامة على رأسه، ولا نعلاً في قدميه، ولا لباساً على جسده. وتحرق الشمس رأسه، وتنبعث الحرارة من تحت قدميه، فلا تثبتا على الأرض، فلا يستطيع التقدم، ولا يجد سبيلًا للتراجع، ويظل حائراً في تلك البيداء.

وقال: الغريب من لم تكن له شعرة في السموات السبع والأرض وإنا لا أقول إنني غريب، بل إنني لا أنسجم مع الزمان، ولا ينسجم الزمان معي.

وقال: المتعطش إلى الله لا يرتوي، وإن منحته كل ما خلقه الله.

وقال: غايات العبد من الله ثلاث درجات: الأولى: أن يشاهده، ويقول: الله. والثانية: أن يقول الله وهو فان. والثالثة: أن يقول الله منه ومعه.

وقال: يخاطب الله العبد بأربعة أشياء: بالجسد والقلب والمال واللسان. فإن أخضعت الجسد للخدمة، ولم يسلك اللسان سبيل الذكر. فلا تمنحه القلب، ولا تجد عليه به. وأنا أملك هذه الأشياء الأربعة، وطلبت منه أربعة أشياء: الهيبة والمحبة والبقاء معه والسبيل إلى الوحدانية. ثم قلت: لاترج الجنة، ولاتخف النار فإن لدارنا منهما نصيب.

وقال: الناس ثلاثة: واحد يؤذيك دون أن تؤذيه، وواحد تؤذيه ويؤذيك، وواحد تؤذيه ولا يؤذيك.

وقال: غفلة الخلق رحمة، لأنهم إن علموا مثقال ذرة، احترقوا.

وقال: أهدر الله تعالى دم الأنبياء جميعهم ولم يخف، وطعنهم بهذا السيف، وضرب الأحباب جميعهم بهذه المقرعة، ولم يهب نفسه لأحد قط. فهو عيار، فاذهب أنت، وكن عياراً أيضاً، ولا تمد يدك لغيره.

وقال: تجلى الله تعالى على كل شخص بشيء من ذاته، ولم يجل ذاته لأحد.فيا أيها الفتيان! اذهبوا، وكونوا رجالاً مع الله؛ حتى لا يضن عليكم بشيء من ذاته.

وقال: ما أكثر الرجال الذين يطئون الأرض، وهم موتى. وما أكثر الرجال الذين رقدوا فى باطن الأرض، وهم أحياء.

وقال: يقول العلماء: تزوج الرسول عليه السلام تسع زوجات، ولم يكن يدخر لعام، وكان له أبناء. نقول: نعم، ولكنه عاش فى هذه الدنيا ثلاث وستين سنة، وهو لايعلم عنها شيئاً، وكان ذلك كله يسرى عليه. وماكان يعلمه، كان يعلمه عن الله.

وقال: الله فى كل جانب تنظر إليه. إن نظرت إلى أعلى، وإن نظرت إلى أسفل، وإن نظرت إلى اليمين، وإن نظرت إلى اليسار، وإن نظرت إلى الأمام، وإن نظرت إلى الخلف.

وقال: من احترق قلبه شوقاً إليه، وصار رماداً. تهب رياح المحبة، وتحمل ذلك الرماد، وتملأ به السموات والأرض.

وقال: إن أردت أن تكون مبصراً، يمكنك الرؤية هناك. وإن أردت أن تكون سامعاً، يمكنك السمع هناك. وإن أردت أن تكون ذائقاً، يمكنك التذوق هناك. ويلزمك التجرد والمروءة هناك.

وقال: إن كان هناك موضع، وذلك الموضع ليس له. وإن كان هناك رجل، وذلك الرجل ليس له. لما جعلنا ذلك القطيع فى ذلك الموضع مع ذلك الرجل.

وقال: فى الخطوة الأولى يقول: الله، ولا شىء آخر، والخطوة الثانية: الأنس، والخطوة الثالثة: الاحتراق.

وقال: تأتى فى كل لحظة وقد ارتكبت كثيراً من المعاصى، وتأتى تارة وقد أديت كثيراً من الطاعات. فإلى متى ترتكب المعاصى وتؤدى الطاعات؟ فاجتنب المعصية، واسقط فى بحر الرحمة. واجتنب الطاعة، واسقط فى بحر الاستغناء، وافن عن نفسك، وابق به.

وقال: ينبغى علىّ ألا أنام الليل، وألا آكل فى النهار، وألا اختال. فمتى أصل إلى المنزل؟

وقال: صاح جبريل فى السماء قائلاً: لم يكن هناك مثيل لكم، ولن يكون. فصدقوه، ولكن لا تأمنوا مكر الله، وآفة أنفسكم، وعمل الشيطان.

وقال: ما دام الشيطان يغوى، لا يتجلى الله. وحين لا يستطيع الشيطان الإغواء. يتجلى الله عليه بالكرامة. وإن لم ينخدع بالكرامة، يتجلى عليه بلطفه. ومن لا ينخدع بها، هو الفتى.

وقال: فى الغيب بحر، إيمان الخلق جميعهم مثل قشة فوق سطحه، تهب الرياح عليه، ويتلاطم موجه بين شاطئيه، والقشة لا تزال فوق سطحه.

وقال: الفتوة لسان بلا قول، وعين بلا رؤية، وجسد بلا عمل، ودليل بلا فكر ، ونبع من البحر، وأسرار البحر.

وقال: اكتسب العالم العلم، واكتسب الزاهد الزهد. واكتسب العابد العبادة، وتقربوا إليه بها. فاخف الإخلاص، وتقرب إليه غير مخلص، فهو القدوس.

وقال: من كانت حياته بالله، لا يقدر على نفسه وقلبه وروحه. ويكون وقته خادمه، ويكون الحق بصره وسمعه، ويحترق ما بين البصر والسمع، ولا يبقى شيء قط سوى الحق. ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١٥٣).

وقال: إن سألك أحد: أيرى الفانى الباقى؟ قل له: اليوم، يعرف العبد الفانى الباقى فى دار الفناء هذه، وتصير تلك المعرفة نوراً غداً، حتى يرى الباقى بنور البقاء فى دار البقاء.

وقال: لا يمكن للأولياء مشاهدة الله سوى محرم، كما أنه لا يمكن أن يرى أهلك إلا محرم. فمهما راعى المريد حرمة الشيخ، فإنه يمعن النظر إليه.

وقال: يصطاد الرجل السمك من البحر، ويصطاده هؤلاء الفتيان من البر. ويزرع الآخرون اليابس، وتزرع هذه الطائفة البحر.

وقال: إن امتلأت السماء والأرض بالطاعة، فلا قيمة لها إن أنكرت الفتيان.

وقال: ينبغى عليك ترك ألف رجل من هذه الدنيا، حتى تدرك رجلاً من الآخرة. وينبغى عليك أن تتجرع ألف جرعة من السم، حتى تتذوق شربة حلوة.

وقال: واسفاه! يوارى عدة آلاف من الأبطال والعيارين والعظماء والحكام والفتيان تراب الحسرة فى كفن الغفلة. ولا يليق واحد منهم لتولى أمر الدين.

وقال: الحياة فى الموت، والمشاهدة فى الموت، والعفة فى الموت، والفناء والبقاء فى الموت. وإن تجلى الحق، لم يبقِ شىء قط سوى الحق.

وقال: إنك تبقى مع الخلق، وتعرف الحامض والمر. ولما تنفصل الخلقية عنك، تحيا مع الله.

وقال: ينبغى أن يحيا المرء بين الكاف والنون، فلا يموت قط.

وقال: من صلى وصام، كان أقرب إلى الخلق ممن استغرق فى التفكير فى الله.

وقال: بين الشريعة والمعرفة سبع آلاف درجة، وبين المعرفة والحقيقة سبعمائة ألف درجة، وبين الحقيقة والحضرة (الإلهية) ألف ألف درجة.

وقال: يلزم كل رجل عمر مثل عمر نوح، وصفاء مثل صفاء محمد عليه السلام.

وقال: للقلب ثلاثة معان: الأول: الفانى، والثانى: النعمة، والثالث: الباقى. الفانى مأوى الفقر، والنعمة مأوى الغنى، والباقى مأوى الله.

وقال: ليس لى جسد ولا قلب ولا لسان. ومأوى هذه الثلاثة الله.

وقال: ليست ليس دنيا ولا آخرة، والله مأوى دنياى وآخرتى.

وقال: ماأطيب المريض الذى يجوب السماء والأرض، ولايشفى ما لا يمتن عليه بالشفاء.

وقال: العاملون كثر، ولكن ليس هناك فائز. والفائزون كثر، وليس هناك مفوض. وواحد هو من يعمل ويربح ويفوض.

وقال: العشق جزء من بحر لا سبيل للخلق إليه، ونار لا سبيل للروح إليها، وعمل لا علم للعبد به. وما يوضع فى هذه البحار، لا ينكشف سوى شيئين الحزن والحاجة.

وقال: يبتسم القراء، ويقولون: تجوز معرفة الله بالدليل، بل تجوز معرفة الله بالله، فكيف تعرفه بمخلوق؟

وقال: من أحب الله، أدركه. ومن أدرك الله، نسى نفسه.

وقال: من جلس حيث لا يجلس الخلق، كان قد جالس الله. ومن جالس الله، فهو العارف.

وقال: كل شيء فى اللوح المحفوظ نصيب اللوح والخلق. وما حفظ فى اللوح ليس نصيب الفتيان. وذكر الله تعالى كل شيء فى اللوح، ويقول للفتيان شيئاً لم يرد فى اللوح، ولايستطيع الجبل حمله.

وقال: ليس هذا هو الطريق الذى يقربه اللسان، أو تبصره العين، أو يدركه الفهم، أو تبلغه أعضاء البدن السبعة. فالجميع ملك له، والروح طوع أمره. وهنا تتجلى الربوبية وكفى.

وقال: رأيت أناساً انشغلوا بتفسير القرآن، وانشغل الفتيان بتفسير ذاتهم.

وقال: العالِم فى العالم من كان عالماً بذاته. وليس بعالم من كان عالماً بعلمه.

وقال: قسم الله تعالى قسمته بين الخلق، وأخذ كل منهم نصيبه، وكان الحزن نصيب الفتيان.

وقال: اغرس شجرة الحزن حتى تنمو، وتجلس أنت وتبكى. وفى العاقبة تسر بأن يقال لك: لم تبكى؟

وسئل: بماذا يدرك الحزن؟ قال: بأن تجتهد فى أن تخلص فى العمل له. وكلما تنظر، تعلم أنك لست مخلصاً، ولايمكن أن تكون. عندئذ يتجلى الحزن. وقد جاء مائة وعشرون وأربعة آلاف نبى إلى الدنيا، وخرجوا منها، وأرادوا أن يعرفوه كما يليق به، فلم يستطيعوا، ولم يستطع ذلك المشايخ جميعهم.

وقال: إن عمرت مثل نوح، ما وجدت الاستقامة فى هذا الجسد. ولم يثأر الله لى منه ما لم يحرقه بالنار.

وسئل عن الاسم الأعظم، فقال: أسماؤه كلها عظيمة، والأعظم منها فناء العبد فيها. وإن فنى العبد، رحل عن الخلق إلى هيبة الواحد.

وسئل عن المكر، فقال: هو لطفه، ولكنه أسماه مكراً، وما فعله مع الأولياء لم يكن مكراً.

وسئل عن المحبة، فقال: غايتها هى: كل معروف أسداه للعباد جميعهم، إن أسداه إليه (المحب) لا يطمئن له. وإن صب البحار فى حلقة شراباً، لا يرتوى، ويقول: هل من مزيد.

وسئل عن الإخلاص، فقال: كل شيء تفعله ابتغاء وجه الله، هو إخلاص وكل شيء تفعله ابتغاء مرضاة الخلق، فهو رياء. فلماذا ينبغي أن يكون هناك خلق، والله يحفظ موضع الإخلاص.

وسئل بما يعرف الفتى أنه فتى؟ قال: إن أنعم الله عليه بنعمة، وأنعم على أخيه بألف نعمة ـ أخذ نعمته ووضعها على نعم أخيه، حتى تكون لأخيه أيضاً.

وسئل: أتخشى الموت؟ فقال: لا يخشى الميت الموت. وكل وعيد توعد به الخلق عن الجحيم، لا يساوى ذرة مما ذقته، وكل وَعْد وَعَد به الخلق عن الراحة، لا يمثل ذرة مما أنشده.

وقال: إن قال الله تعالى: ماذا تريد من صحبة الفتيان هذه؟ أقول: أريدهم هم.

يروى أنه قال لعالم: أتحب الله؟ أم يحبك الله؟ قال: إننى أحب الله. فقال له: اذهب، وطف حوله؛ فمن يحب أحداً، يقتف أثره.

قال لمريد يوماً، ماهو الأفضل؟ قال المريد: لاأعلم.

فقال: الدنيا حافلة برجال جميعهم مثل أبى يزيد.

وقال: أفضل الأشياء قلب لا يحمل ضغينة قط.

قيل لرجل يوماً ماذا تفعل إن انقطع حبلك؟ قال: لاأعلم، فقال له: ضعه فى يده، حتى يصله.

وسئل عن معنى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(١٥٤). فقال علمت ما قال» قال الله تعالى: يا محمد! إننى أعظم مما قلته لك، فآمن بى. وأنت أعظم مما قلت، فادعو الخلق لطاعتى.

وسئل: بأى شئ يذكر الله؟ قال: يذكره البعض بالأمر، ويذكره البعض بالنفس، ويذكره البعض بالمحبة، ويذكره البعض بالخوف، لأنه سلطان.

وقيل له: عاش الجنيد واعياً، ومات واعياً. وعاش الشبلى ثملاً، ومات ثملاً. فقال: إن سئل الجنيد والشبلى كيف عشتما فى الدنيا، وكيف خرجتما منها، لما عرفا. وفى الحال نودى الشيخ في سريرته: صدقت، فقد سئلا عن ذلك، فأجابا: يعلم الله. وهما لايعلمان شيئاً عن الأمور الأخرى.

وقيل له: قال الشبلى: إلهى! اجعل الخلق جميعهم مبصرين حتى يرونك.

وقيل له: أيهما أسوأ الادعاء أم الذنب؟ فقال: الادعاء فى حد ذاته ذنب.

وسئل عن العبودية، فقال: قضاء العمر فى اليأس.

وقالوا له: ماذا نفعل حتى لا نغفل؟ فقال: اجعل العمر نفساً، واعلم أنه بلغ الأسنان والشفة.

وسئل: ما العبودية؟ فقال هناك دليل للربوبية حيث أكون، وليس هناك دليل للعبودية.

وسئل: ما علامة الفقر؟ فقال: إنه أسود القلب. قالوا: ما معنى هذا؟ قال: معناه أنه ليس هناك لون آخر بعد اللون الأسود.

وسئل: ما علامة التوكل؟ فقال: أن يستوى لديك الأسد والتنين والنار والبحر والفراش، فجميعها واحد فى عالم التوحيد. اجتهد فى التوحيد قدر استطاعتك، وإن تعثرت فى الطريق، ظفرت، ولا مجال للخوف.

وسئل: ما عملك؟ فقال: لقد ظللت طوال اليوم أردد: افسحوا الطريق. قيل: كيف هذا؟ قال: كل فكرة تطرأ على القلب دون الله، أبعدها عنه. فإننى فى مقام لا يخفى علىّ فيه سر ذبابة فى المملكة، ولأى شئ خلقت؟ وماذا أراد منها؟ أى أن أبا الحسن قذفنى، والله هو العالم. وأنا فان، وكل ما أحصل عليه، أقول (بشأنه): إلهى! لا تجعل هذه صفتى.

وقال: صحبت الله ـ خمسين سنة ـ بإخلاص لا سبيل لمخلوق قط إليه. كنت أصلى العشاء، و أثبت النفس وأخضعها لطاعته ليلا ونهاراً. وفى هذه المدة كنت أجلس على قدمى، فلا أستطيع. حتى

ذلك الوقت الذى كان فيه ظاهرى يستغرق فى النوم، وكان أبو الحسن يتنزه فى الجنة، ويتدحرج فى النار. واستوت لدى الداران (الجنة والجحيم). وكنت مع الحق حتى رأيت الجحيم، فنوديت هذا هو المكان الذى يخشاه الخلق جميعهم. فقفزت من ذلك المكان، وقبعت فى قعر الجحيم، وقلت: هذا هو مكانى. فاندحر الجحيم وأهله، ولايمكننى الإفصاح عما رأيت. ولكنه يعاتب المصطفى عليه السلام قائلًا: فتنت الأمة.

وقال: الطريق إلى الله أوله الحاجة، ثم الخلوة، ثم الحزن، ثم اليقظة وإن واظبت على أداء خمسين ركعة بين صلاتى الظهر والعصر، لا يشاركك فيها خلق السماوات والأرض. أنت فى حاجة إلى قضائها جميعاً، إن تجلت اليقظة.

وقال: لم أخبز الخبز طيلة أربعين سنة، ولم أعد شيئًا إلا من أجل ضيف، وتطفلنا نحن على ذلك الطعام. وإن جعلت الدنيا بأسرها لقمة، ووضعت فى فم ضيف، ما أوفى حقه. وإن جابوا المشرق والمغرب لزيارة أحد من أجل الله، لم يكن هذا بكثير.

وقال: تشتهى نفسى شربة ماء بارد أو شربة لبن حامض منذ أربعين سنة، ولم أمنحها لها.

يروى أنه اشتهى الباذنجان أربعين سنة، ولم يكن قد تناوله. فاستعطفت أمه الحصاد، وطلبته منه، حتى يأكل الشيخ نصف ثمرة باذنجان. وفى الليلة ذاتها، قطعت رأس ابنها، ووضعت على العتبة

وفى اليوم التالى، رأى الشيخ ذلك، فكان يقول: نعم، إن ذلك القدر الحار الذى وضعناه، لا يلزمه أقل من هذه الرأس. وقال: أقول لكم: إن أمرى معه ليس سهلاً وأنتم تقولون كل الباذنجان.

وقال: لقد حييت بالحق سبعين سنة، ولم أخط خطوة وفق مراد نفسى.

ويروى أن الشيخ سئل: ما الفرق بين مسجدك والمساجد الأخرى؟

قال: إن قصدتم الشريعة، فهو كامل. وإن قصدتم المعرفة، يطول الشرح. وإننى رأيت نوراً انبعث من المساجد الأخرى، وصعد إلى عنان السماء. وظلل هذا المسجد بقبة من نور كانت تصعد إلى عنان السماء. وفى ذلك اليوم الذى شيد فيه هذا المسجد، دخلته، وجلست. فجاء جبريل، ورفع علماً أخضر على العرش، ولا يزال يرفعه حتى يوم القيامة.

وقال: نادانى الله تعالى يوماً قائلا: من دخل مسجدك، حرمت النار على لحمة وجلده. ومن صلى فيه ركعتين فى حياتك أو بعد مماتك، بعث يوم القيامة من العابدين.

وقال: الأماكن جميعها مساجد للمؤمن، والأيام جميعها جُمَع بالنسبة له، والشهور جميعها عنده رمضان.

وقال: إن ملأ (الله) الدنيا بأسرها ذهبًا، وسمح للمؤمن بالتصرف فيها، لأنفقها كلها ابتغاء مرضاته. وإن وضعت ديناراً فى يد عفيف، حفر جباً، ووضعه فيه، ولم يخرجه منه، حتى يخرجه الورثة بعد وفاته، ويتنازعون عليه.

وقال: لأن أرحل عن هذه الدنيا، وأنا مدين بأربعمائة درهم، لم أسددها بعد، ويتشاجر معى الخصوم يوم القيامة، أحب إلىّ من أن يسألنى أحد حاجة، ولا ألبيها له.

وقال: تارة أبكى من كثرة الجهد والحزن والغم الذى يصيبنى من أجل لقمة قوم آكلها. وإن أردت، تركتها لك.

وقال: يقال لى فى القيامة غداً، بم جئت؟ فأقول: منحتنى كلباً فى الدنيا، وكنت قد بقيت عاجزاً حتى لاتقع الخصومة بينى وبين عبادك. وكنت قد وهبتنى طبعاً نجسا، أفنيت العمر كله فى تطهيره.

وقال: أخشى أن أُرى غداً فى يوم القيامة، فأُحضر وأعذب بذنوب الخراسانيين جميعهم.

وقال: كنت أجيء، وأجلس بجوار المقابر، وأقول: ليسكن هذا الغريب مع هؤلاء المساجين.

وقال: قال على رضى الله عنه: إلهى! تب علىّ ولو قبل وفاتى بيوم.

وقال: يدعو الناس، ويقولون: أجرنا إلهنا فى ثلاثة مواضع: الأول: فى وقت النزع، والثانى: فى القبر، والثالث: يوم القيامة، وأنا أقول: إلهى! أجرنى فى كل وقت.

يروى أنه قال: رأيت الحق تعالى فى المنام ذات ليلة، فقلت: أرجو محبتك طيلة ستين سنة، وأشتاق إليك. فقال الحق تعالى: طلبت ستين سنة، وقد أحببناك فى القدم منذ أزل الآزال.

وقال: رأيت الحق تعالى فى المنام مرة أخرى، قال: يا أبا الحسن! أتريد أن أكون أنا أنت؟ قلت: لا. قال: أتريد أن تكون أنت أنا؟ قلت: لا. قال: يا أبا الحسن! لقد احترق خلق الأولين والآخرين شوقاً فى أن أكون أحداً (منهم)، فلماذا فقلت هذا لى؟ قلت: يا إلهى العظيم! هذا هو الاختيار الذى اخترته على، فكيف أستطيع أن آمن مكرك؟ فإنك لاتتصرف وفق إرادة أحد قط.

وقال: رأيت فى المنام ذات ليلة أننى رفعت إلى السماء، فرأيت جماعة من الملائكة، كانوا ينتحبون. فقلت من أنتم؟ قالوا: نحن عشاق الحضرة. فقلت: إننا نقول لمثل هذا الحال فى الأرض حرارة ورعشة ورعدة. إنكم لستم عشاقاً. ولما مضيت من هناك، اعترضنى الملائكة المقربون قائلين: أحسنت الأدب. فأولئك القوم ليسوا عشاق الحضرة فى الحقيقة، والعاشق ينبغى عليه أن يجعل من رأسه قدماً، ومن قدمه رأساً. ويجعل أمامه خلفاً، وخلفه أماماً. ويجعل يمينه يساراً ويساره يميناً. ومن أدرك ذرة من ذاته، لم يعلم عن الحضرة الإلهية مثقال ذرة. فقبعت فى قعر الجحيم، وقلت: تجلى أنت حتى أتجلى أنا، فلمن منا تكون الغلبة؟

وقال: رجوت الحق تعالى أن يظهرنى لى كما أنا؛ فأظهرنى لى وأنا مرتد خرقة قذرة، فكنت أنظر وأقول: أهذا أنا؟ فصدر نداء: بلى. قلت: وما كل تلك الإرادة والخلق والشوق والتضرع والأنتحاب؟ فصدر نداء: أنا نداء كله، وأنت هذا.

وقال: لما نظرت إلى وجوده، تجلى عدمى من وجودى. ولما نظرت إلى عدمى، جلب وجودى عدمى. فبقيت، وجلست للمراقبة، وبعد برهة قلت: إن هذا ليس شأنى.

يروى: أنه حين دنا أجل الشيخ، قال: ليتهم كانوا يشقون قلبى الدامى، ويعرضونه على الخلق؛ حتى يعلمون أن عبادة الأوثان لاتتفق وهذا الإله. ثم قال: احفروا قبرى ثلاثين ذراعاً؛ فهذه الأرض مرتفعة عن بسطام، ولا يجوز، كما أنه ليس من الأدب أن يكون قبرى مرتفعاً عن قبر أبى يزيد. وعندئذ توفى. وحين دفن بعد ذلك، سقط برد شديد ليلاً، وفى اليوم التالى، شوهد حجر أبيض كبير فوق قبره، ووجدت آثار أقدام أسد، فصار معلوماً أن الأسد قد جلب ذلك الحجر.

ويقول البعض: إنهم شاهدوا الأسد، كان يطوف حول قبره وجرى. على الأفواه أن الشيخ قال: من وضع يده على قبرى، وطلب حاجة، تلبى حاجته، وهذا مجرب.

بعد ذلك رؤى الشيخ فى المنام، فسئل: ماذا فعل الحق تعالى بك؟ قال: أعطانى كتابى فى يدى. فقلت: لماذا تشغلنى بكتابى؟ فإنك علمت ما سيتأتى منى قبل أن أفعله، وأنا كنت أعلم ما سيتأتى منى. دع الكتاب للكرام الكاتبين، ليقرأوه كما كتبوه. ودعنى أبقى معك لحظة.

يروى أن محمد بن الحسين[١٥٥] قال: مرضت، وحزن قلبى بسبب النفس. فقال لى الشيخ فى النهاية: لا تخف الموت. فإنك

تقول: أخاف. قلت: نعم. قال: إن مت قبلك، سأحضر إليك عند وفاتك، وإن انقضت ثلاثون سنة. ثم توفى الشيخ، وتحسنت صحتى.

يروى أن ابنه قال: اعتدل أبى عند النزع، وقال: فلتدخل وعليك السلام. فقلت: من ترى ياأبى؟ قال: إنه الشيخ أبو الحسن الخرقانى، فقد وعد، وحضر بعد فترة؛ كى لا أخاف ومعه أيضاً جماعة من الفتيان. قال هذا، وأسلم الروح.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ إبراهيم الشيبانى(156)

هو سلطان أهل التصوف، والبرهان بلا تكلف. هو إمام الزمان، والهمام الأوحد، هو خليل الملكوت الروحانى، وقطب الوقت الشيخ إبراهيم الشيبانى رحمة الله عليه رحمة واسعة.

كان شيخاً حقاً. وإماماً مطلقاً، ومشاراً إليه. وكان محمود الأوصاف، ومقبولاً من لطوائف. وله فى المجاهدة والرياضة شأن عظيم. وكان آية فى الورع التقوى. كما قال عبد الله بن منازل: إبراهيم حجة الله على الفقراء، وأهل الآداب والمعاملات، وجلاد المدعين. كان رفيع القدر، وعالى الهمة. وله مجاهدة تامة، ومراقبة دائمة، وهو محفوظ فى كل وقت. وكما قال: خدمت أبا عبدالله المغربى أربعين سنة، ما أكلت خلالها شيئاً مما يأكله الخلق، ولم ينم شعرى، ولم يطل ظفرى، ولم تتسخ خرقتى. وما بت خلالها تحت سقف سوى سقف البيت المعمور.

وقال: منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً بشهوتى.

وقال: احضروا لى غضارة فيها عدس فى الشام، فتناولته، وذهبت إلى السوق. فجأة، نظرت إلى مكان، فرأيت دنان خمر. فقالوا:

أتنظر إلى دنان الخمر؟ قلت: وجب عليّ فرض الآن. فوقفت، وكنت أسكب دنان الخمر. فظن رجل متواضع: إنني عامل السلطان. ولما تعرفني، حملني إلى ابن طولون(١٥٥)، فضربت مائتي خشبة، وطرحت في السجن، وبقيت فيه مدة طويلة. حتى حل عبد الله المغربي بذلك البلد، وشفع لي. من ثم وقع بصره على حين أطلق سراحي، وقال: ماذا حدث لك؟ قلت: شبعة عدس ومائتي خشبة!! فقال لي: نجوت مجاناً.

وقال: كانت نفسي تشتهي قطعة لحم مشوي طيلة ستين سنة، ولم أمنحها إياها. وانتابني ضعف شديد يوماً، وأصاب السكين العظم، وفاحت رائحة اللحم، فصرخت النفس، وانتحبت كثيراً، وقالت: انهض بالله عليك، واطلب قطعة من هذا اللحم فنهضت، ومضيت في أثر رائحة اللحم. وكانت تلك الرائحة تنبعث من سجن. لما دخلت، رأيت رجلا، كانوا يكوونه، وكان يصرخ. وكانت رائحة اللحم المشوي تنتشر. فقلت للنفس: هلا، خذي اللحم المشوي، فخافت، وأذعنت للأمر، وقنعت بالسلامة.

ويروى أنه قال: كلما كنت أذهب إلى مكة، كنت أزور روضة النبي عليه السلام في البداية، ثم أعود إلى مكة. حينئذ كنت أذهب إلى المدينة، وأزور الروضة مرة أخرى، وأقول: السلام عليك يا رسول الله - فكان صوت ينبعث من الروضة: وعليك السلام يا ابن شيبان.

وقال: دخلت الحمام، وكان به ماء، فتجاوزته. فصاح شاب يشبه القمر من زاوية الحمام قائلاً: إلام تتجاوز ماء الظاهر، اترك الماء ينفذ إلى الباطن. فقلت له: هل أنت ملك أم جنى أم إنسى بهذا الجمال! قال: لست واحداً منهم. لكننى تلك النقطة الموجودة تحت باء «بسم الله». قلت: أهذه كلها مملكتك؟ قال: يا إبراهيم! تحرر من أفكارك؛ حتى ترى المملكة.

ومن أقواله، إنه قال: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة.

وقال: قل لمن أراد أن يكون حراً من الكون، فليخلص فى عبادة ربه؛ فمن تحقق فى عبادة ربه صار حراً مما سواه.

وقال: من تكلم فى الإخلاص، ولم يطالب نفسه بذلك ابتلاه الله بهتك ستره عند إخوانه وأقرانه.

وقال: من ترك حرمة المشايخ ابتلى بالدعاوى الكاذبة، وافتضح بها.

وقال: من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص.

وقال: السِّفلة من لا يخاف الله تعالى.

وقال: السِّفلة من يَمُنّ بعطائه على آخذه.

وقال: الشرف فى التواضع، والعز فى التقوى، والحرية فى القناعة.

وقال: إن الخوف إذا سكن القلب، أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد عنه رغبة الدنيا، وبعده عنها.

وقال: التوكل سر بين الله وبين العبد، فلا ينبغى أن يطلع على ذلك السر أحد.

وقال: عوض الله المؤمنين أمرين فى الدنيا مما لهم فى الآخرة: عوضهم عن الجنة بالجلوس فى المساجد، وعوضهم عن النظر إلى وجهه تعالى بالنظر إلى إخوانهم من المؤمنين.

وقال: قيل لى: لماذا لاتدعو الله؟ فقلت : من مخالفة الوقت سوء الأدب.

وطلب منه رجل وصية، فقال: اذكر الله ولاتنسه ، فإن لم تستطع، فلا تنس الموت.

رحمة الله عليه

ذكر أبى بكر الصيدلانى[158] رحمة الله عليه

هو فلك العبادة، وشمس السعادة. هو نبع الرضا، ونقطة الوفاء هو الشيخ الربانى، الشيخ أبو بكر الصيدلانى رحمة الله عليه.

كان من جملة المشايخ، وجلتهم، ولا نظير له فى الوسامة فى عهده.

كان فريداً فى الحال والمعاملة، والورع والتقوى، والمشاهدة. وهو من فارس، وتوفى فى نيسابور، وكان الشبلى يجله كثيراً.

ومن أقواله، إنه قال: هناك حكمة واحدة فى الدنيا بأسرها، ولكل امرئ نصيب من تلك الحكمة على قدر كشفه.

وقال: اصحبوا الله عز وجل، وإن لم تستطيعوا، اصحبوا من صحب الله، وببركة صحبته يوصلكم إلى الله، فتجدوا الخلاص فى الدنيا والآخرة.

وقال: من صحبه بالعلم، لابد له من مشاهدة الأمر والنهى.

وقال: العلم يحول بينك وبين الجهل، فاجتهد ألا يحول بينك وبين الله تعالى.

وقال: الوصل بلا فصل، طالما حل الفصل، لم يبق الوصل.

وقال: من حفظ الصدق بينه وبين الله، شغله الصدق عن الفراغ من الخلق.

وقال: الطرق بعدد الخلق. ثم قال: الطريق لله، وليس الطريق إلى الله.

وقال: أكثر من الجلوس إلى الله، وقلل من الجلوس إلى الخلق.

وقال: أفضل الخلق قوم لا يرون الخير في الغير، ويعلمون أن الطرق إلى الله كثيرة، سوى طريق من يعلم تقصير النفس فيما هو فيه.

وقال: ينبغي أن تكون حركات الرجل وسكناته لله، أو لضرورة اضطر إليها وما سوى ذلك، لا يكون شيئاً قط.

وقال: العاقل من تحدث على قدر الحاجة، وسكت عن الزيادة.

وقال: من ليس له صمت الوطر، فهو في فضول، وإن كان ساكناً.

وقال علامة المريد أن ينفر مما سوى جنسه، ويطلب جنسه.

وقال: ليست الحياة إلا في موت النفس، وحياة القلب في موت النفس.

وقال ليس من الممكن الخروج من النفس إلى النفس، ولكن يمكن الخروج من النفس إلى الله، ولا يصح ذلك إلا بصحة الإرادة إلى الله.

وقال: النعمة العظيمة هى الخروج من النفس؛ لأنها حجاب غليظ بينك وبين رب النفس ، والحقيقة هى موت النفس ليس إلا.

وقال: الموت باب من أبواب الآخرة، ولا يستطيع عبد قط إدراك الذات الإلهية إلا بالمثول فى تلك الحضرة.

وقال: ماذا أفعل والخلق جميعهم أعدائى؟

وقال: عليك ألا تغتر بالمكر، ويجوز أن يقع.

قال قال لى رجل: أوصنى فقال له: الهمة، الهمة، فهى مقدمة الأشياء جميعها؛ ومدارها، وإليها ترجع الأشياء جميعها.

وقال الأصحاب حين توفى الشيخ، نصبنا لوحاً على قبره، وكتبنا اسمه عليه. وفى كل مرة كان رجل يأتى، ويقلع ذلك اللوح، ويختفى. فيسرق اللوح ولم يقع مثله فى غيره من القبور .فسألت الأستاذ أبا على الدقاق عن سر هذا. قال: كان ذلك الشيخ قد آثر الخفاء فى الدنيا، وأنت تريد أن تشهر ما ستره الحق تعالى.

والله أعلم بالصواب

ذكر الشيخ أبى حمزة البغدادى[159] رحمة الله عليه

هو سالك طريق التجريد، والسائر فى سبيل التوحيد. هو ساكن حظيرة القدس، وخازن ذخيرة الأنس. هو مركز دائرة الحرية، ووتد العالم أبو حمزة البغدادى رحمة الله عليه.

كان من زمرة الكبار، ومن الأجلة الأبرار. وله فى الكلام حظ وافر، وبلغ الكمال فى علم التفسير ورواية الأحاديث.

كان الحارث المحاسبى شيخه، وكان قد صحب السرى، وكان قريناً للنورى وخير النساج. وقد أدرك كثيراً من المشايخ، وكان واحداً من أولئك القوم الذين قبض عليهم الخليفة؛ ليقتلهم. وتقدمهم النورى، ونجا الله ـ تعالى ـ الجميع.

كان يعظ فى مسجد رصافية[160] بغداد ، وكان الإمام أحمد يرجع إليه إذا اعترضته مسألة، ويقول له: ماذا تقول فيها؟ وكان له لسان شاف، وبيان صاف.

دخل يوماً على الحارث المحاسبى، فوجده قد ارتدى ثياباً جميلة وجلس. وكان للحارث طائر أسود، أخذ يصيح. فصرخ أبو حمزة صرخة فى اللحظة التى صاح فيها الطائر، وقال: «لبيك يا سيدى».

فنهض الحارث، وأخذ سكينة، وقال: «اضرب فيه»، وعزم قتله. فشفع له المريدون، وخلصوه منه. وقال الحارث لأبى حمزة: «اسلم يا مطرود» قالوا: أيها الشيخ! نحن جميعاً نعده من خاصة الأولياء والموحدين، فلماذا تشكك فيه الشيخ؟ قال الحارث: إننى لا أشك فيه، ولا أرى فيه سوى الخير، ولا أجد باطنه إلا مستغرقاً فى التوحيد. لكن لماذا يقول قولاً يشبه أفعال الحلوليين، أو أن يكون هناك أثر فى مسلكه من أقوالهم. فالطائر الذى لا يعقل، ويصبح كعادته، لماذا يسمع الحق فيه؟ والحق جل وعلا لا يتجزأ، ولا يطمئن أحبابه إلا بكلامه، ولا تطيب أوقاتهم وحالاتهم سوى باسمه، ولا حلول له فى الأشياء أو نزول. ولا يجوز الاتحاد والامتزاج على القديم.

قال أبو حمزة: إن نعمت بالراحة واللباس الفاخر - واستغرق طائر فى الصفاء - فلماذا خفيت عليك أحوال أهل الإرادة؟ فقال الحارث: تب عما قلت، وإلا سفكت دمك. فقال فى الحال: أيها الشيخ! إننى صادق أصلاً، لكن فعلى قد شُبِّه بفعل قوم ضالين. وأقواله كثيرة فى هذا الشأن، وكان يقول: رأيت رب العزة، وقال لى جهراً: يا أبا حمزة! لا تتبع الوسواس، وذق بلاء الناس، ولما سمعوا هذا الكلام منه، آذوه كثيراً، وكابد البلاء بسببه. إن قال رجل: كيف يمكن رؤية الله جهراً فى اليقظة، وعن طريق الحس؟ نقول: يمكن رؤيته دون كيف، إذا صار بصره صفة البصر لرجل، يمكن رؤيته فى اليقظة، كما أنه من الجائز رؤيته فى المنام. إن قيل: إن موسى عليه السلام لم يره، فكيف يكون هذا؟ نقول: كما اختص موسى عليه السلام بالكلام، اختص محمد ﷺ بالرؤية. وسمع أولئك القوم الذين كانوا مع

موسى عليه السلام كلام الحق. ولم يسمعوه بأنفسهم؛ لأنهم لم يطيقوا سماع كلام الحق تعالى ولكن سمعوه بنور روح موسى عليه السلام، ولم يسمعوه بدونه قط. وكذلك إن تحققت الرؤية لأحد من أمة محمد ﷺ، لم تكن من تلقاء نفسه، بل كانت بنور روح محمد ﷺ. ومائة ولى لا يبلغون تراب النبى لكن إن اصطفى محمد عليه السلام ولياً، ليرى شيئاً بنوره، فلا يدل ذلك على أن ذلك الرجل يفضل النبى لكن للنبى يد يمنح بها لقمة مما يأكله للأمة. مثلما أسمع موسى عليه السلام قومه كلام الحق، وكما قال محمد عليه السلام: «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما اختص محمد بالسلام، فإن حظى به واحد من أمته، فلا عجب. وبسبب هذا السر، قال موسى عليه السلام: إلهى! اجعلنى من أمة محمد.

وإجابة أخرى: أرأيت أن موسى عليه السلام كان يطلب ما كان يطلبه لنفسه. ومثل ذلك لا يسعه ثمانية عشر ألف عالم. وكانت رؤية أبى حمزة على قدره. كذلك مريد أبى تراب التخشبى الذى كان يرى الحق، ولم يستطع رؤية أبى يزيد؛ لأن الحق تجلى على قدر أبى يزيد، فلم يطق المريد، وسقط. وكما يتجلى للصِّديق مرة، وللخلق جميعهم مرة. لذلك بدا التفاوت فى الرؤية. لا جرم أنه مادام لم يستطع موسى عليه السلام الرؤية فى العالم، لم يره. وإن لم يكن هناك تفاوت فى الرؤية، لما سجد أهل الجنة غداً لنور نعلى بلال.

ولأبى حمزة أقوال كثيرة فى التجريد؛ فقد كان الأكثر تجريداً بين أهل زمانه.

وقال: حب الفقر شديد، ولا يصبر عليه إلا صدِّيق.

وقال: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكها، وهو الذى علمها بتعليم الله إياه. ومن علمها بالاستدلال فمرة يخطئ ومرة يصيب.

وقال: من رزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء ، فقد نجا من الآفات: بطن خال مع قلب قانع، وفقر دائم مع زهد حاضر، وصبر كامل مع ذكر دائم.

وقال : إن سلمت منك نفسك فقد أديت حقها، وإذا سلم منك الخلق فقد أديت حقوقهم.

وقال: علامة الصوفى الصادق: أن يفتقر بعد الغنى، ويختفى بعد الشهرة. وعلامة الصوفى الكاذب: أن يستغنى بالدنيا بعد الفقر، ويعز بعد الذل، ويشتهر بعد الخفاء.

وقال: كلما حلت بى فاقة، كنت أقول لنفسى: ممن أصابتك هذه الفاقة؟ ثم كنت أفكر، فلا أجد أحداً أولى منى بتلك الفاقة، فكنت أقبلها راضياً، وأنسجم معها.

قال: كنت يوماً فى جبل اللكام(١٦١)، فقابلت ثلاثة رجال، ارتدى رجلان منهم الخرقة، وارتدى رجل قميصاً منسوجاً من الفضة. فلما رأونى، قالوا: هل أنت غريب؟! قلت: من كان الله ملاذه، لم يشعر بغربة قط. ولما سمعوا هذا الكلام منى، أنسوا بى. ثم قال أحدهم: امنحوه الشراب. قلت: إننى لا أشربه دون سكر وقند. فمنحونى شراباً فيه سكر وقند - فى الحال - كما طلبت.

بعد ذلك سألت صاحب القميص: لماذا صنع هذا القميص من الفضة؟ قال: شكوت إلى الله تعالى من حشرات الملابس التى كانت قد دمرتنى، فكسانى بهذا القميص.

يروى: أنه كان حسن الكلام، فهتف به هاتف: ما أكثر ما تكلمت فأحسنت، بقى عليك أن تسكت فتحسن، فما تكلم بعد ذلك حتى مات. ولم يمض أسبوع بعد ذلك حتى توفى.

ويقول البعض أيضاً؛ إنه كان يتكلم يوم الجمعة فى مجلس، فتغير عليه حاله، وسقط عن كرسيه، وأسلم الروح.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى عمرو النجيد[١٦٣] رحمة الله عليه

هو العامل فى الجد والجهد، والموفى بالنذر والعهد. هو فرد الفردانية، ورجل الوحدانية. هو الطليق فى عالم القيد، الشيخ أبو عمرو النجيد رحمة الله عليه.

كان من كبار مشايخ عصره، ومن جلة المتصوفة، وله شأن عظيم فى الورع والمعرفة والرياضة والكرامة. وهو من نيسابور، وأدرك الجنيد، وكان آخر من توفى من مريدى أبى عثمان، وله آراء دقيقة.

يروى أن الشيخ أبا القاسم النصر آبادى صحب أبا عمرو فى سماع. فقال له أبو عمرو: لماذا تحضر السماع؟ فقال: لأن نحضر السماع ونستمع أفضل من أن نجلس ونغتاب ونسمع. فقال له أبو عمرو النجيد: لأن تغتاب أنت مائة سنة أنجى لك من أن تظهر فى السماع ما لست به.

يروى أنه كان قد تعهد ألا يطلب من الله شيئا سوى رضاه طيلة أربعين سنة. وكانت له ابنة متزوجة من أبى عبد الرحمن السلمى استطلقت بطنها، وعجز الأطباء جميعهم عن علاجها. فقال لها أبو

عبد الرحمن ذات ليلة: إن علاجك عند أبيك فقالت: كيف؟ فقال: إن ارتكب معصية، سهل الحق تعالى هذا الأمر. قالت الابنة: وهذا أعجب. قال أبو عبد الرحمن: لقد تعهد أبوك منذ أربعين سنة ألا يطلب من الحق تعالى سوى رضاه. فإن نقض العهد، ودعاه، يشفيك الحق تعالى. جلست المرأة فى محفة فى منتصف الليل، وذهبت إلى أبيها، فقال لها: يا بنيتى! إنك لم تأت إلى هنا قط منذ عشرين سنة، فلماذا جئت الآن فى منتصف الليل؟ فقالت: إن لى أب مثلك، وزوج مثل أبى عبدالرحمن إمام الوقت، وأنا أحب الحياة؛ حتى أسمع أوراد عبدالرحمن، وأتعلم رعاية دين الله منك، وأذكر الله أيضاً. ولقد جئتك الآن؛ حتى تنقض العهد، وتدعو الحق تعالى أن يشفينى. فقال لها أبو عمرو: نقض العهد غير جائز، وإنك إن لم تموتى الآن، فستموتين غداً والموت أفضل للميت. فاذهبى يا عزيزتى، ولا تحملينى على ارتكاب المعصية. فإن نقضت العهد لأجلك، كنت ابنة عاقة. فقالت الابنة: فلنودع بعضنا البعض إذن؛ لأننى أشعر بدنو أجلى، ولن أشفى من هذه العلة. فقال لها: سوف أجيء، وأصلى على جنازتك. فودعته ابنته، ومضت، وما إن وصلت إلى دارها حتى تبدلت العلة صحة، وعاشت أربعين سنة بعد وفاة أبيها.

وله أقوال سامية، ويذكر عنه أنه قال: لا يصفو لأحد قدم فى العبودية، حتى تكون أفعاله كلها ـ عنده ـ رياء، وأحواله كلها ـ عنده ـ دعاوى.

وقال: كل حال لا يكون عن نتيجة علم ـ وإن جل ـ فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه.

وقال: من ضيع ـ فى وقت من أوقاته ـ فريضة افترضها الله تعالى عليه، فى ذلك الوقت، حرم لذة تلك الفريضة إلا بعد حين.

وقال: آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه ومن كرمت عليه نفسه، هان عليه دينه.

وقال: من لم تهذبك رؤيته، فاعلم أنه غير مهذب، وغير مؤدب.

وقال: من قدر على إسقاط جاهه عند الخلق، سهل عليه الإعراض عن الدنيا وأهلها.

وقال: من استقام لا يعوج به أحد، ومن أعوج لا يستقيم به أحد.

وقال: من أراد أن يعرف قدر معرفته بالله تعالى، فلينظر قدر هيبته له، وقت خدمته له.

وقال: الأنس بغير الله تعالى وحشة.

وقال : أدنى درجات التوكل: حسن الظن بالله.

وقال: التصوف الصبر تحت الأمر والنهى.

والله أعلم

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى الحسن الصائغ[13] رحمة الله عليه

هو المطلع على الخواطر والأسرار، والمقبل على الأكابر والأبرار. هو سكينة جبل الصدق، والفارغ من الكون، الشيخ أبو الحسن الصائغ رحمة الله عليه.

أقام فى مصر، وكان من مشايخ الصوفية، وكان أوحد زمانه. وكان أبو عثمان المغربى يقول: ما رأيت من المشايخ أنور من أبى يعقوب النهرجورى، ولا أكثر همة من أبى الحسن الصائغ.

قال ممشاد الدينورى: رأيت أبا الحسن الصائغ فى البادية، كان يصلى، وكان ذلك النسر يظله.

سئل أبو الحسن عن الاستدلال بالشاهد على الغائب، فقال: كيف يستدل بصفات من يشاهد ويعاين، وهو ذو مثل، على صفة من لا يشاهد فى الدنيا، ولا يعاين، ولا مثيل له، ولا نظير؟!

وسئل عن المعرفة، فقال: رؤية المنة فى كل الأحوال، والعجز عن أداء شكر النعم من كل الوجوه، والتبرى من الحول والقوة فى كل شىء.

وسئل عن صفة المريد، فقال: صفته ما قال الله عز وجل: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾(١٦٤).

وقال: أهل المحبة ـ فى لهيب شوقهم إلى محبوبهم ـ ينعمون فى ذلك اللهيب، أحسن مما يتنعم أهل الجنة فيما أهّلوا له من النعيم.

وقال: محبتك نفسك هى التى تهلكها.

وقال: الأحوال كالبروق؛ فإذا ثبتت فهو حديث النفس وملائمة الطبع.

وقال: هذا الكلام محمود. وإن تدخلت النفس فيه، أفسدت كدورة الأنية صفاءه.

وقال: من فساد الطبع التمنى والأمل.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى بكر الواسطى[165] رحمة الله عليه

هو معظم مسند الولاية، وموحد مقصد العناية. هو خضر كنز الحقائق، وبحر رموز الدقائق. هو المعنى بالقبض والبسط، قطب العالم أبو بكر الواسطى رحمة الله عليه.

كان أكمل مشايخ عهده، وشيخ شيوخ عصره، والأعلى بين الأصحاب. ولم يكن هناك أحد أكثر منه همة، ولم يتقدم عليه أحد فى الحقائق والمعارف. وسبق الجميع فى التوحيد والتجريد والتفويض.

وكان من قدماء أصحاب الجنيد. ويقال إنه من فرغانة، وكان يقيم فى واسط، وكان محموداً بكل الألسنة، ومقبولاً من القلوب جميعها. وإن لم يكن صاحب كرامات، لما عاداه أحد.

له عبارات غامضة، وإشارات مبهمة، ومعان بديعة وعجيبة، وكلمات عالية لا يستطيع أحد الإحاطة بها. وبلغ الكمال فى فنون العلوم. والمجاهدة والرياضة التى ارتاضها لا يقدر عليها أحد. ولم يراقب أحد الله فى كل الأمور مثله، ولم يعبر أحد عن التوحيد أجمل منه.

يروى أنه أُخرج من سبعين مدينة، وما كان ليدخل مدينة حتى يطرد منها، ولما قدم إلى باورد، واستقر فيها، التف الناس حوله، لكنهم لم يفهموا كلامه، حتى وقعت حادثة؛ فمضى من هناك إلى مرو، وقبله أهل مرو؛ ومن ثم أمضى عمره هناك.

يروى أنه كان يقول لأصحابه يوماً: لا يمكن الاستدلال على أن أبا بكر قد أكل في النهار أو نام في الليل منذ بلغ.

ويقول أيضاً: دخلنا بستان لأداء مهمة. فكان طائر يطير فوقي على سبيل الغفلة، فأمسكت به عبثاً، وكنت أقبض بيدى عليه. فجاء طائر آخر، وكان يصيح فوق رأسي، فظننت أنها أمه أو قرينته، فندمت، وضقت، ومرضت. وظللت مريضاً مدة سنة. ورأيت المصطفى عليه السلام فى المنام، فقلت: يا رسول الله! منذ سنة وأنا أصلى قاعداً، وأصابني الضعف، وأثر المرض فى تأثيراً كبيراً فقال لى: لقد «شكت عصفورة منك فى الحضرة» بعد ذلك أنجبت قطة فى دارنا، وكنت مريضاً فى تلك الأثناء، فاتكأت، وأخذت أفكر، فرأيت ثعباناً جاء وأخذ القطة الصغيرة فى فمه، فهويت على رأسه بالعصا، فألقى القطة. وجاءت أمها، وأخذتها. فشفيت فى الحال، وتحسنت صحتى، وصليت واقفاً . وفى تلك الليلة، رأيت المصطفى عليه السلام فى المنام، فقلت: يا رسول الله، لقد شفيت تماماً اليوم. فقال لى: لقد «شكرت منك هرة فى الحضرة».

يروى أنه كان قد جلس مع أصحابه فى المنزل يوماً، وكانت لذلك المنزل كوة. وأشرقت الشمس على تلك الكوة فجأة؛ فكانت ألف

ذرة قد ظهرت معاً. فقال الشيخ: أتشوشكم حركة هذه الزرات؟ قال الأصحاب: لا. فقال الشيخ: الموحد من إن تحرك الكونان والعالمان وباقى الموجودات مثل هذه الذرات، لا تظهر داخله ذرة من تفرقة، إن كان موحداً.

وقال: «الذاكرون لذكره أكثر غفلة من الناسى لذكره» لأنه إذا ذكره الذاكر، فلا ضير إذا نسى ذكره، وإنما الضير فى أن يذكر ذكره وينساه؛ لأن الذكر غير المذكور، فالإعراض عن المذكور مع ذكر الذكر يكون أقرب إلى الغفلة من الإعراض بلا ذكر فالناسى لا يذكر حضور المذكور فى النسيان والغفلة. فذكر الحضور بلا حضور فى الغفلة أقرب إلى الغيبة دون ذكر؛ لأن هلاك طلاب الحق لائق بذكرهم. فحيثما كثر الذكر، قل المعنى، وحيثما كثر المعنى، قل الذكر. وترتبط حقيقة ذكرهم بهمة العقل، والعقل ينتج عن الهمة، وليست هناك صلة قط بين هذه الهمة وتلك. وأصل الذكر إما فى الغيبة أو الحضور. فإذا الغائب عن نفسه، وحضر بالحق. كان ذلك الذكر مشاهدة وإذا غاب عن الحق، وحضر بنفسه، لم يكن ذلك ذكر، وكان غيبة، والغيبة من الغفلة.

يروى أنه ذهب إلى البيمارستان يوماً، فرأى مجنوناً كان يصخب ويصيح، فقال له: هكذا قيدوا قدميك بقيود ثقيلة، فأى مجال للسرور؟ فقال: أيها الغافل! إن القيود تقيد قدمى لا قلبى.

يروى أنه كان يمر يوماً بمقابر اليهود، ويقول: هؤلاء القوم معذورون. سمع الناس هذا الكلام؛ فأمسكوا به، وجروه إلى بيت

القاضى. فناداه القاضى قائلاً: ما هذا الكلام الذى قلت؟ هل اليهود معذورون؟ فقال الشيخ: إنهم ليسوا معذورين فى قضائك. لكنهم معذورون فى قضائه الله.

يروى أن مريداً كان للشيخ، أهمل الاغتسال فى يوم الجمعة مرة، ثم اتجه إلى المسجد، فسقط فى الطريق، وجرح وجهه؛ فاضطر إلى العودة والاغتسال. أُخبر الشيخ بهذا، فقال له: اسعد؛ لأنهم أخذوك بالشدة، فإن تركوك، فرغوا من أمرك.

يروى أن الشيخ قدم إلى نيسابور، وسأل أصحاب أبى عثمان: بماذا يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها، برؤية منشئها ومجريها؟

يروى أن الشيخ أبا سعيد بن أبى الخير عزم زيارة مرو، وأمر فوضعوا طوبة فى خُرجه للاستنجاء، وقالوا: أيها الشيخ! سنجد الطوب فى مرو، فما السر فى هذا؟ قال الشيخ: لقد قال الشيخ أبو بكر الواسطى وكان سيد الموحدين فى وقته: إن تراب مرو تراب حىّ، ولا يجوز لى الاستنجاء بتراب حى وتلويثه.

ومن أقواله: لا خلق فى طريق الحق، ولا حق فى طريق الخلق. من التفت إلى نفسه، ولى عن الدين. ومن التفت إلى الدين، ولى عن نفسه. كل مكان فيه أنتيتك هو حظك، ومخالف للطريق وكل مكان فيه بأسك، هو مجال الدين.

وقال: شرع التوحيد وحق التوحيد. شرع التوحيد معبر بحر النبوة، وحق التوحيد هو المحيط. والسمع والبصر آلة طريق الشرع وإثباتك (ذاتك) ينسب إلى الشرك، والوحدانية منزهة عن الشرك. الإيمان الذى يسرى، يسرى فى كوكبة الشرك، والإيمان طاهر لكن الظن غذاؤه. والشرك لا يتشكل وكذلك المعرفة والعلم والحال.

ولقد غرق هؤلاء الخلق فى بحر الكينونة، وليست هناك وسائل لإنقاذهم. ويخرجون من بحر الخلقية والبشرية بواسطة الأنبياء. ويغرقون فى بحر الوحدانية، ويفنون ولا يدلنا أحد عليهم. شرع التوحيد مثل السراج، وحق التوحيد مثل الشمس. حين تكشف الشمس النقاب عن جمالها المزين للدنيا، يسطع نور السراج فى عالم العدم، وهو موجود فى العدم، ولا ولاية لنور السراج على نور الشمس قط. شرع التوحيد قابل للزوال، وحق التوحيد غير قابل للزوال، ولما ينمحي اللسان فى القلب، ويبلغ المرء القلب، يخرس اللسان، وينمحى القلب في الروح. عندئذ يكون كل ما يقوله من الله، وهذا الكلام لا يعنى الذات، لكنه يعنى الصفة، فالصفة تتحول، لكن الذات لا تتحول. تشرق الشمس على الماء، فيدفئ، وتتبدل صفة الماء، لكن ذاته لاتتبدل. قال الحق تعالى واصفاً الغرباء: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾(١٦٦) فهم أحياء فى الظاهر، لكنهم موتى فى الصفة. والحياة هى أن تتمتع الذات بالحياة، وهم خاسرون فى حياتهم. ويقول عن المؤمنين: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنـدَ رَبِّهِمْ﴾(١٦٧). ينبغى على المرء أن يضع روحه على قارعة الطريق، ويسلكه دون روح. هذه الطائفة من

المعدومين موجودون، والغرباء الموجودون معدومون .من عاش بذاته، مات. ومن عاش بالحق، لا يموت. والموت ليس موت الجسد، والعدم ليس انعدام الجسد. فحيث يتجلى الوجود، تكون الأرواح غريبة، فما بالك بالجسد؟!

وقال: معرفة التوحيد لا تقبل وجود أحد قط، ولا طاقة لأحد بأن يخطو في صحراء الوجود. وكما قال المشايخ: «إثبات التوحيد إفساد في التوحيد». ويقول شيخ: «أكثر ذنبي بمعرفتي إياه» ومن ينشد وجود ذاته مع وجود الله؛ يدلل على كفره. ومن ينشد وجود الله مع وجوده؛ يبرهن على شركه. ومن طلب بقاءه مع بقاء الحق كافر، ومن طلب بقاء الحق مع بقائه غافل. ومن رأى نفسه، لم يره الحق. ومن رأى الحق، لم ير نفسه، ولم يذكرها. وطارت روحه من السعادة، واستقرت في حجاب العزة، وأرسلها الحق تعالى من حضرة القدس للخلافة، ولكي تنوب عنه في ولاية الإنسانية. ويظهرها للخلق بدونه. وليس لهذا المرء عبارة أو إشارة أو لسان أو قلب أو عين أو لفظ أو صوت أو كلمة أو صورة أو فهم أو خيال أو شرك. إن عبّر كان كفراً، وإن أشار كان شركاً، وإن قال: علمت كان جهلاً، وإن قال: عرفت. كان زيادة، وإن قال: ما عرفت. كان مخذولاً ومطروداً . وكان عدماً في وجود، ووجوداً في عدم. ولم يكن في الحقيقة موجوداً ولا معدوماً، بل كان موجوداً ومعدوماً. والعبارة لا تبين بطريق التوحيد. والعلم غريب في طريق التوحيد، والتوهم والظن يفسدانه. التوحيد خالص في عالم القدس، ومنزه عن القول والسمع والعبارة والإشارة والرؤية والصورة والخيال، وأمثالها فهذا كله من

شرك البشرية، والتوحيد منزه عن الشرك: «وحده لا شريك له» وهذا يقتضى أن يبرق برق من شهب الإلهية؛ حتى يفعل بالبشرية ما فعلته عصا موسى بسحرة فرعون ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾(١٦٨) يحفظ النور الإلهى الأشياء جميعها فى كنفه، ويقول: لا تتوغلوا فى صحراء الوجود؛ فتحرقكم نار الغيره. وسوف نرزقكم. وأسرار المشايخ روضة التوحيد لا عين التوحيد. وفى الثناء على ذكر كبريائه يستوى وجود الخلق وعدمهم. وحيث تتجلى العزة يستوى افتقار الخلق وانكسارهم. وحيث تتجلى القدرة، يظهرون. وحيث يتجلى التوحيد، لا يستطيع المرء انكار نفيه لذاته، ففى إنكاره لذاته إنكار لقدرته. ولا يستطيع إثبات ذاته، فالإثبات فساد للتوحيد. ولا مجال للإثبات أو النفى. فالقدرة تجليك بالإثبات أو النفى، وتعزلك الوحدانية.

وقال: انطلقت ألسنة التهليل والتسبيح فى السموات كلها، ولكن يلزم قلب. قلب لا يحظى به سوى آدم وأبنائه، قلب يسد عليك طريق الشهوة والنعمة والضرورة والاختيار، ويهديك إلى الطريق. وينبغى أن يدعوك لسان القلب إليه، لا لسان القول. وينبغى على المرء أن يكون أخرس متحدثاً لا متحدثاً أخرس والرجل من يقهر المعبود القابع فى قميصه، ويجتهد فى قهر نفسه لا فى لعن الشيطان. ويقول إبليس عليه اللعنة: جعل وجهى مرآة، ووضعت أمامك. وجعل وجهك مرآة، ووضعت أمامى. فأنظر إليك، أبكى على نفسى، وتنظر أنت إلى، وتضحك على نفسك. فتعلم منه سلوك الطريق مرة، فإنه سلك طريق الباطل، وقبل لوم العالم له، ومضى فى طريقه رجلاً .فاستفت قلبك، وإن لعنك الكونان، فسوف تحبط. ولا تسلك هذا الطريق، لأن

هذا الحديث لا يعادل ملامة العالمين. ولا تتجرع هذه الشربة إن لم تنظر إلى العالمين بعين التحقير وكأنهما قشة .حتى لا تبرأ منك كل شعرة على رأسك وجسدك، ولا ينكرك هو، ولا يصح توليك إلى الحضرة. ولا تطلب شيئاً، يطلبك هو (أي الجنة)، ولا تفر من شيء، يفر هو منك (أي الجحيم). واطلبه (الله) منه. إن كان الله معك، خضعت لك الأشياء جميعها.

وقال: ينبغي أن ينمحي كل جزء من أجزائك في جزء من أجزاء الحق؛ فالاثنينية شرك في طريق الدين. وحتى لا يعلم اللسان، ماذا رأت العين؟ ولا تعلم العين أيضاً أن اللسان يفشي سره. وكل شيء ينتسب إليك، ينمحي في شواهد الألوهية، ويتحدث بحديث المحو والفقر. ومن الظلم الشديد لك أن ينفي الغير، ويثبت ذاته. والدليل على ذلك أنهم يأتون بالرجل إلى صحراء الحقيقة، ويرفعون الحجب من أمام عينيه، فيكون هو خلف الأشياء جميعها، ولا شيء خلفه.

وقال: الناطق بالحقيقة من أثر كلامه (الله) فيه، لم يبق له قول، وتبرأ من قوله. والحديث الذي يدور في الحضرة، لا يلوم المستمع، ويكرم المخالف والموافق، ويعين المتحدث. وكل قول لا يجعل المستمع مفلساً، ولا يغنيه عن العالمين، يكون فتوى النفس. تنطق به نفسه بلسان المعرفة، حتى يبقى هو في غروره، ويظل الخلق في غرورهم. كما يقول الحق عز وعلا: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(١٦٩). من لا يستمع إلى كلام متحدث بالحق، يجف ينبوع الحياة في صدره، ولا تنبع منه الحكمة قط. فمن خرج من داره،

ولم يُرد إليها ثانية. فإنه غير جدير بالتحدث فى الطريقة. وينبغى على الفقير أن يسير بنور القلب. وهم يسيرون فى عصرنا هذا بالعصا؛ لأنهم غير مبصرين. ومن عرف ماذا يقول؟ ومن أين يقول؟ فهو جدير بالقول. وكما أن للنساء حيضاً، فإن للمريدين فى طريق الإرادة حيض، وحيض المريدين من القول. وهناك رجل يصاب به، ولا يطهر منه قط. ورجل يبرأ منه، ويكون طاهراً على الدوام. لكن ليس هناك شىء قط له فضل الكلام. والكلام صفة من صفات الذات. ولقد كان الأنبياء جميعهم متكلمين. لكن كلامنا يتعلق برجل يدعى أنه لسان الغيب. ينبغى على المرء أن يكون متحدثاً صامتاً، وصامتاً متحدثاً. وتلك الحضرة أسمى من الصمت والكلام. أولاً ينبغى أن يسد ينبوع اللسان، حتى يتدفق القلب. فإنك ترى ألف لسان فصيح يخشى الحق، فى يد زبانية الجحيم. ولا ترى قلباً منوراً عارفاً بالله فى الجحيم. ويفيد المريد الصادق من صمت المشايخ أكثر من نطقهم .

وقال: مُنح رجل خلعة مختلطة بالشرك، كما مُنح رَجل شراباً ممتزجاً بالسم ومنح رجل الكرامة، ورجل الفراسة، ورجل الحكمة، ورجل المعرفة. من عشق الخلعة عجز عن إدراك مقصوده. وتلك المقامات فى عالم الشرع. فالرجال هم الذين يسلكون الطريق بنور الشرع، فالزهد والورع والتوكل والتسليم والتفويض والإخلاص واليقين جميعها شرع، ومنزل للسالكين الذين يسافرون بمركب القلب. وكل هؤلاء خدم، يرفعون الحجب فى حضرة الروح؛ حتى يشاهدوا الروح بالأبصار. أولئك الرجال الذين يسافرون بمركب

الروح، لا يمرون بهذه الأفعال والصفات، فهناك لا يوجد زهد ولا ورع ولا توكل ولا تسليم، أو ما شابه. وينبغي أن يكون السلوك بالروح كما هي لا أثرها. فطريقه لا يقبل الأثر أيضاً. ومن أخبرك عن الطريق، أخبرك عن صفات النفس، فهذا الحديث لا دليل عليه، ومنزه عن الطلب، لا يدركه البصر. ومن تراه قد استعد للطلب، كلما زاد طلبه، كان أبعد (عن مقصوده). وتبين لهم أن: أمرنا منزه عن العلة، والنظر من العلة. وعقدت طلبكم فى طرف الوجود بحكم الكرم، وعقدت الأثر بطرف العين، فما نظرتم إليه هو الظاهر، ولم يكن النظر قد أدرك العلة.

وقال: نزل هؤلاء الخلق بعالم العبودية، ولم يصل أحد قط إلى قاعه، ولم يستطع أحد قط عبور بحر العبودية هذا . إن علمت سر هذا، صحت عبوديتك. وطريق أهل الحقيقة فى العدم، وإن لم يكن العدم قبلتهم، ضلوا الطريق. وطريق أهل الشريعة فى الإثبات، ومن نفى وجوده؛ تزندق. لكن من أثبت وجوده فى طريق الحقيقة؛ كفر وينبغى الإثبات فى بلاط الشريعة، وينبغى النفى فى بلاط الحقيقة فالناظر إلى الصورة لا يرى إلا الصورة، والناظر إلى الصفة لا يرى إلا الصفة وهذا الحديث لا يتضح بالعين والصفة. وينبغى أن يخرج تمساح من بحر صدرك، يلتهم الذات الذليلة، والصفات الوضيعة، والصورة الباهتة، وكل صفة موجودة فى العالم. عندئذ، يسلك الرجل الطريق، «ولا يبقى فى الدار ديار».

والسعادة تكمن فى العدم، والشقاء فى الوجود. سبيل العدم فى القهر، وسبيل الوجود فى اللطف. وهؤلاء الخلق يعشقون الوجود،

ويستاءون من العدم؛ لأنهم لا يعرفون العدم ولا الوجود. والوجود الذى يعلمه الخلق ليس وجوداً فى الحقيقة بل عدم، والعدم الذى يعرفونه ليس عدماً. ويشير هؤلاء الفتيان إلى العدم بالمحو. والعدم عين الوجود، والمحو عين الإثبات، وطرفاه منزهان عن الإثبات. والوجود الذى طرفه عين الحياة ودليلها: «لم يكن فكان».

وقال: المريد مختار فى الخطوة الأولى، وإذا وصل، لم يبق له اختيار، ورأى علمه فى جهله، ووجوده فى عدمه، وإرادته فى قهره. بيانه لا يعدو هذه الآفة، والإشارة والعبارة لا تعبر عن هذا الحديث، فإنه ليس بالإشارة ولا العبارة ولا القال ولا الحال، ولا هو موجود أو معدوم. إن أردت أن تعلمه بالمجاهدة، ما علمته. فالمجاهدة فى بحور الهند والروم، والمشاهدة فى بحور الإسلام. والمجاهدة التى لا تكون فيها مشاهدة مثل رجل يغسل شيئاً بالبول، ويظن أنه صار نظيفاً، فيذهب لونه، لكنه يظل نجساً. فمن كان رجلاً فى الظاهر، كان رجلاً فى الباطن. وجميع المريدين مشركون فى ذلك المكان الذى يطأه الفتيان. وأساس طريق إرادة المريدين الشرك. وللإيمان نقيض وهو الكفر. وللتوحيد ضد وهو التشبيه. والشك ضد اليقين، وجميعها حجب، ومقامات ينبغى على المريدين تجاوزها. كما ينبغى قطع هذه الزنانير.

وقال: اجتنب الأمور التى توافق فيها نفسك قلبك، وانشغل بكل أمر تخالف فيه النفس. وثبت قدمك؛ حتى تبعث إلى خزانة القبول، وإن لم تؤد الطاعة ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(١٧٠).

وقال: الأشياء جميعها التى سميت باسم، ووجدت فى حيز الوجود، أقل من ذرة فى قبضة القدرة.

وقال: حين يتجلي الحق، يتلاشى العقل. وكلما اقترب الحق من المرء، فرّ العقل؛ لأنه عاجز، والعجز يدرك العجز. ومعرفة الربوبية لدى المقربين من الحضرة إيطال للعقل؛ لأن العقل وسيلة إقامة العبودية، لا وسيلة إدراك حقيقة الربوبية. ومن انشغل بإقامة العبودية، وطُلب منه إدراك الحقيقة، زالت عنه العبودية، ولم يصل إلى معرفة الحقيقة.

وقال أفضل العبادة الغيبة عن الأوقات.

وقال: نحن مجالى الأزل والأبد، ولا شك فى هذا. والأزل دليل ربانى فى «وقت أزل الآزال». عندئذ يدعو الخلق لرؤيته.

وقال: الكلام فى المعاملة طيب، ولكنه فى الحقائق ريح من بيداء الشرك والجهد. والطيبة تهب على عالم البشرية.

قال: أربعة أشياء لا تليق بالمعرفة: الزهد، والصبر، والتوكل، والرضا؛ لأن كل ذلك من صفة الأشباح.

وقال: إن تكن ابن الأزل والأبد أفضل من أن تكن ابن الإخلاص والصفاء، والصدق والحياء.

وقال: الفناء فى سبيل الحق أفضل من النظر بالتجريد والتوحيد، وهناك يكون المقام أو الوقوف أو الارتواء.

وقال: من أدرك الوحدانية، وفردانية الواحد، يصبح مقصود الحق. ومن أدرك صفة نعت الجلال، يصبح الحق مقصوده.

وقال: كل جناية، تدمرها رعاية الأصل، ولا تدعها قط.

وقال: إن يراك الله جل جلاله فى مذلة الإفلاس والعجز والانكسار، أفضل من أن يراك فى عجب مزهواً بالعز والمعاملة.

وقال: من قصد غير الذات، فهو مغبون ومنحوس، ويصدق عليه القول: إنه يسلك الطريق دون قصد أو نية، ويفنى فى طريق الحق، ويبقى بفنائه. عندئذ يقره الحق فى نقطة الوحدانية دون قصد (منه)، ولا يتحقق الوجود فى هذه الحالة.

وقال: كما صدق الصادقون فى الحقائق والأسرار، كذب العارفون فى حقيقة الحق.

وقال: أسوأ الأخلاق أن تتعلق بالقدر. أى أن ما كان مقدراً منذ الأزل، تريد أنت أن تتمرد عليه. وما كان مقسوماً تريد أن تغيره بالتوسل والرجاء والدعاء.

وقال: لهؤلاء القوم أربع صفات: رجل عرف، وطلب، ووجد. ورجل طلب ولم يجد. ورجل لم يجد غيره، ولم يسكن سوى إليه. ورجل لم يعرف، ولم يطلب؛ لأنه أعز من أن يدركه الطلب، وأوضح من أن يطلب.

وقال: لما كنت قد أوفيت بالعهد؛ فلم أخف قط من الحوادث التى تحدث فى الزمان.

وقال: كلما وقعت ظلمة الطمع فى باطنى، حجبت عن النفس جميع الحظوظ النفسانية.

وقال: المعرفة معرفتان: معرفة الخصوص، ومعرفة الإثبات. أما معرفة الخصوص فهى مشتركة. والشرك معرفة الأسماء والصفات، والدلائل والعلامات، والبراهين والحجب. ومعرفة الإثبات لا سبيل إليها. وتظهر من نعت القدم، فإذا ظهرت، صارت معرفتك معدومة غير موجودة؛ لأن معرفتك محدثة. إذا تجلت الصفة ونعت القدم، انعدمت المحدثات جميعها.

وقال: لا تنال فضل البارى تعالى بالاكتساب، وهو ليس مكتسباً؛ لأن كل مكتسب له عوض، والعوض خارج عن الفضل. عندئذ قال: اجعل الأفكار جميعها فكرة واحدة، واعكف عليها. واقصر النظر على واحد، فنظر جميع الناظرين واحد لا أكثر ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(١٧١).

وقال: لا تصعد الروح عن عالمها الكونى. وإن صعدت، رافقها القلب، وهذا الكلام لا يمكن شرحه.

وقال: مُجلى الأشياء، ومدير الأمور، أكثر تجلياً من الأمور، وأنت تريد أن تكون شريكاً له.

قال: حجاب كل موجود بوجوده، ومن وجوده.

وقال : إذا ظهر الحق على السرائر؛ لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف.

وقال: يتصف العوام بصفات العبودية، والخواص مكرمون بصفات الربوبية؛ حتى يحظون بالمشاهدة. لأن العوام لا يستطيعون

الاتصاف بتلك الصفات بسبب ضعف سرائرهم، وبعدهم عن مصادر الحق.

وقال: إذا غلبت الربوبية على السرائر، تمحو رسومها جميعاً، وتتركها خربة.

وقال: إذا نظرت إلى نفسك فرّقت، وإذا نظرت إلى ربك جمّعت.

وقال: جمع الخلق فى علمه، وفرقهم فى حكمه وتقديره. بل إن الجمع فى الحقيقة تفرقة، والتفرقة جمع.

وقال: الأزل والأبد والأعمار والدهور والأوقات جميعها مثل البرق فى الصفة: قال النبى عليه السلام: لى مع الله وقت لا يسعنى فيه معه شيء غير الله عز وجل.

وقال: أشرف الانتساب، هو الانتساب إلى الله تعالى بالعبودية.

وقال: أفضل الطاعات حفظ الأوقات.

وقال: المخلوق عظيم القدر، شديد الخطر، إن يؤدبه الحق، يتلاشى.

وقال: من قال: أنا نازع القدرة.

وقال: من عبد الله من أجل الجنة؛ فهو أجير نفسه. ومن عبدالله من أجل الله، فهو جاهل عنه. أى أن الله غنى عن عبادته. فهل تظن أنك تعمل من أجله، إنك تعمل من أجلك أنت.

وقال: أبعد رجل عن الله، من أكثر من ذكره «يعنى من عرف الله كل لسانه».

وقال: من تعظيم حرمات الله ألا تنظر إلى شىء من الكونين، أو إلى شىء من طرق الكونين.

وقال: اقترنت صفة الجمال بالجلال، ونتجت عنهما الروح.

وقال : إن ظهرت روح الكافر؛ سجد لها أهل العالم، ظانين أنها الحق من شدة الحسن واللطافة.

وقال: الجسد مفعهم بالظلمة، وسراجه السريرة ومن لا سريرة له، يعيش دائماً فى ظلمة.

وقال: أحوال الخلق قسمة قسمت، وحكمة أسديت، ولا مجال للحيلة والوسيلة لإدراكها.

وقال: ضقت بإله رضى على بطاعتى، وغضب منى بمعصيتى، وهو مقيد بما أفعل. لا، بل إن الأحبة أحبة منذ الأزل، والأعداء أعداء منذ الأزل.

وقال: من رأى نفسه من الله، ورأى الأشياء جميعها من الله، استغنى بالله عن الأشياء جميعها.

وقال: حياة القلوب بالله تعالى، بل بقاء القلوب مع الله، بل الغيبة عن الله بالله.

وقال: الشرك رؤية، وعثرات النفس، وملامتها.

وقال: لا تصح محبة رجل قط، مادام للإعراض أثر فى سريرته، وللشواهد خطر فى قلبه. بل إن صحة المحبة نسيان جملة الأشياء فى الاستغراق فى مشاهدة المحبوب، وفناء المحب عن المحبوب بالمحبوب.

وقال: الرحمة فى الصفات جميعها عدا المحبة، فليس فيها رحمة قط. فهو يقتل، ويطلب الدية من القتيل.

وقال: العبودية ألا تركن إلى الحركة والسكون. وكلما زالت هاتان الصفتان عن العبد، بلغ حق العبودية.

وقال: التوبة المقبولة، تكون مقبولة قبل ارتكاب المعصية.

وقال: الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب.

وقال: التوبة النصوح لا تبقى على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً. ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالى كيف أمسى أو أصبح.

وقال: التقوى أن يتقى (المرء) من تقواه يعنى: من رؤية تقواه.

وقال: الزهاد الذين يتكبرون على أبناء الدنيا، يدعون الزهد. فإن لم تنشغل قلوبهم بالدنيا؛ لما تكبروا على غيرهم، لإعراضهم عنها.

وقال: أية صولة صلتها بزهدك فى شىء، وإعراضك عن شىء، فجميعها لا تساوى عند الله تعالى جناح بعوضة.

وقال: الصوفى لا يتحدث بالعبرة، وسريرته منيرة بالفكرة.

وقال: لا تصح المعرفة وفى العبد استغناء بالله وافتقار إليه. أى أن استغناءه وحاجته حجاباه.

وقال: من عرف الله تعالى انقطع، بل خرس وانقمع.

وقال: من لا يستطيع بلوغ مقام الأنس، يستوحش الكون بأسره.

وقال: مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل.

وقال: المقامات أقسام قسمت، ونعوت أجريت، كيف تستجلب بحركات؟ أو تنال بسعايات؟

وقال: من طُلبت منه الطاعة، والمعرفة الحقيقة بالله تعالى، ضل المقامين.

وقال: طلبت معادن قلوب العارفين، فرأيتها كانت تطير فى فضاء روح الملكوت، إلى جوار الحق تعالى، تبقى به، وترجع إليه.

وقال: لا يصح توحيد الرجل، مالم تصبح كل ذرة - من سرادقات العرش حتى منتهى الثرى - مرآة لتوحيده، ويراه (الله) فى كل ذرة.

وقال: استعمل الرضا جهدك، ولا تدع الرضا يستعملك؛ فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع. أى ما دام الرجل يتلذذ بالرضا، يعجز عن مشاهدة الحق.

وقال: احذر، ولا تغتر بلذة الطاعة وحلاوة العبادة؛ فهى سم قاتل.

وقال: السرور بالكرامات من الغرور والجهل، واللذة بالوصول نوع من الغفلة.

وقال: لا تكن من أولئك القوم الذين يقابلون إنعامه بالطاعات. ولكن كن ابن الأزل، لا ابن العمل.

وقال: العمل بحركات القلب أشرف من العمل بحركات الجوارح. إن كان للفعل قيمة عند الحق، لما ظل الرسول عليه السلام فارغاً أربعين سنة. إننى لا أقول: لا تعمل، لكن لا تنشغل بالعمل.

وقال: من ذكر من القسمة، ما قُدِّر له فى الأزل، فرغ من السؤال والدعاء.

وقال: إننى مؤمن بما علمه الحق تعالى عنى؛ لأننى لا أثق فيما أعلمه.

وقال: يقول العبد : الله أكبر أى أن الله أكبر من أن يعامله بعمله؛ فيمتن عليه بأداء هذا العمل، وينقطع عنه لتركه. لأن الاتصال به والانقطاع عنه ليس بالحركات، بل بقضاء أزلى سابق.

وقال: الناس على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: مَنَّ الله عليهم بأنوار الهداية، فهم معصومون من الكفر والشرك والنفاق. والطبقة الثانية: مَنَّ الله عليهم بأنوار العناية، فهم معصومون من الصغائر والكبائر. والطبقة الثالثة: مَنَّ الله عليهم بالكفاية، فهم معصومون عن الخواطر الفاسدة، وحركات أهل الغفلة.

وقال: تحقير الفقر، وسرعة الغضب، وحب المنزلة من رؤية النفس. وهو خلع للعبودية، وسعى نحو الألوهية.

وقال: من عرف الله، فنى. ومن غرق فى بحر شوقه، ذاب. ومن عمل لوجه، أثابه. ومن سخط، لحق به العذاب.

وقال: أسمى مقامات الخوف: من يخاف أن ينظر الله إليه بغضب، ويأخذه بالمقت، ويعرض عنه.

وقال: حقيقة الخوف تظهر عند الموت.

وقال: علامة الصادق أن يكون مع الإخوة بالجسد، ومع الله بالقلب.

وقال: الخلق العظيم: أن لا يُخاصِم ولا يُخاصَم؛ من شدة معرفته بالله تعالى.

وقال: الفزع الأكبر يكون من القطيعة؛ لأنهم ينادون قائلين: يا أهل الجنة! خلود ولا موت، ويا أهل الجحيم! خلود ولا موت ثم يقولون: «اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ»(١٧٢).

وقال: المستحى يسيل منه العرق، وهو الفضل الذى فيه.

وقال : الاختيار فيما مضى فى الأزل، أفضل من معارضة الوقت.

وقال : الخلة التى تتم بها الحسنات، وبغيابها تتبدل الحسنات سيئات، استقامة تقبل منك نصيب النفس، وتيسر لك نصيبك.

وقال: الفراسة: سواطع أنوار لمعت فى القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر فى الغيوب من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها؛ فيتكلم على ضمير الخلق.

وقال: كان للقوم إشارات، ثم صارت حركات، ثم لم يبق إلا حسرات.

وقال: جعلوا سوء أدبهم إخلاصاً، وشره نفوسهم انبساطاً، ودناءة الهمم جلادة، فعموا عن الطريق، وسلكوا فيه المضيق، فلا حياة تنمو فى مشاهدتهم، إن نطقوا فبالغضب، وإن خاطبوا فبالكبر. توثُّب أنفسهم ينبئ عن خبث ضمائرهم، وشرهم فى المأكول يظهر ما فى سويداء أسرارهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١٧٣).

وقال: ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوى المروءة.

وقال: أُخذ جوال، ومُلِئ بالكلاب، ووضعت فى ذلك الجوال بعض الملائكة . ومهما حاولت واجتهدت، لم أوفق فى ألا تشتبك هذه الكلاب مع العارفين.

وسئل عن الإيمان، فقال: ينبغي على المرء أن يقضي أربعين سنة في الكفر، حتى يصل إلى الإيمان. فقيل له: ما معنى هذا أيها الشيخ؟ فقال: لم يهبط الوحي على نبي، مالم يبلغ الأربعين من عمره. ولا يعني هذا أن الأنبياء لم يؤمنوا حتى بلغوا سن الأربعين، نعوذ بالله. لكنهم لم يحظوا بذلك الكمال في بداية أمرهم، وتحقق لهم بعد النبوة. أما وإنك صاحب نفس أمارة، والنفس ملحدة بحكم الحديث، فإنك لا تدرك الإيمان الحقيقي مالم تتخلص من إلحاد النفس.

وسئل: هل تجاوز أحد مقام محمد عليه السلام؟ فقال: لم يبلغ أحد قط مقام محمد. ومن ادعى أن أحداً بلغ مقامه أو تجاوزه؛ فهو زنديق؛ لأن نهاية درجات الأولياء، بداية درجات الأنبياء.

وسئل: أي الطعام أشهى؟ قال: لقمة من ذكر الله تعالى، تتناولها بيد اليقين من مائدة المعرفة، في حال تحسن الظن فيه بالله.

وقالوا له عند وفاته: عظنا. فقال: احفظوا إرادة الله تعالى فيكم.

وطلب آخر وصية، فقال له: احفظ أوقاتك وأنفاسك.

رحمة الله عليه.

ذكر الشيخ أبي علي الثقفي(١٧٤) رحمة الله عليه

هو ربيب الأسرار، والمعتاد على الأنوار. هو المفتي بالتقوى، والمهدي في المعنى. هو الولي الصفي، شيخ الوقت أبو علي الثقفي رحمة الله عليه.

كان إمام الوقت، وعزيز الزمان. وصحب أبا حفص وحمدون. وبه ظهر التصوف في نيسابور. وبلغ الكمال في العلوم الشرعية.

وكان مقدماً في كل فن، وعطل علومه، واشتغل بعلم أهل التصوف، وتكلم فيه أحسن كلام وحظي ببيان حسن وخلق عظيم.

كما يروى أنه كان له جار لاعب بالحمام، و كان يزعجه كل يوم؛ فقد كان حمامه يحط على سطح الشيخ، وكان هو يقذفه بالحجارة. وكان الشيخ قد جلس يوماً يقرأ القرآن. فقذف الجار حمامة بحجر، فسقط الحجر على جبهة الشيخ، وجرح، وسال الدم على وجهه. فسر الأصحاب، وقالوا: فليذهب الشيخ غداً إلى حاكم المدينة، ويدفع شر الجار؛ فقول الشيخ مقبول من الأمير. ونتخلص نحن من إزعاجه . فدعا الشيخ خادماً، وقال: اذهب إلى البستان،

واقتلع عصا، واحضرها، فلما اقتلع الخادم العصا. قال الشيخ له اذهب الآن، وامنحها للجار، وقل له: ذب هذا الحمام بهذه العصا.

يروى أنه قال: رأيت جنازة يوماً. وكانوا قد رفعوا ثلاثة رجال وامرأة، وحملوهم. فرفعت نعش المرأة، وحملته إلى المقابر، وصليت عليها، ودفنتها، وقلت: ألم يكن لكم جار آخر حتى يقدم العون؟ فقالوا: نعم، ولكنهم كانوا يحتقرونه (الميت). قلت: أكان يعمل؟ قالوا: إنه كان مخنثاً، فأشفقت عليه. ورأيت فى المنام أن رجلاً جاء وجهه مثل البدر، وكان يرتدى ثياباً فاخرة، ويبتسم فقلت: من أنت؟ قال: أنا ذلك المخنث الذى صليت عليه، ودفنته. وقد رحمنى الله تعالى، فيما احتقرنى الناس به.

ومن أقواله، إنه قال: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ، أو إمام، أو مؤدب ناصح. ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه، يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه؛ لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات.

وقال: لا تلتمس تقويم مالا يستقيم، ولا تأديب من لا يتأدب.

وقال: من صحب الأكابر على غير طريق الحرمة حرم فوائدهم، وبركات نظرهم؛ ولا يظهر عليه من أنوارهم شيء.

وقال: الفروع الصحيحة لا تتفرع إلا من أصل صحيح. فمن أراد أن تصح له أفعاله على السنة، فليصحح الإخلاص من قلبه؛ فإن تصحيح ظواهر الأعمال، بصحة بواطن الإخلاص.

وقال: لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان صواباً؛ ومن صوابها إلا ما كان خالصاً؛ ومن خالصها إلا ما وافق السنة.

وقال: ينبغى ألا تفارق هذه الخلال الأربعة: صدق القول، وصدق العمل، وصدق المودة، وصدق الأمانة.

وقال: العلم حياة القلب من الجهل، ونور العين من الظلمة.

وقال: أف من أشغال الدنيا، إذا أقبلت! وأف من حسراتها إذا أدبرت! والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلاً، وإذا أدبر كان حسرة.

وقال: يا من باع كل شىء، بلا شىء! واشترى لا شىء بكل شىء!

وقال: يأتى على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن، إلا بعد استناده إلى منافق. نعوذ بالله من شر ذلك.

ذكر الشيخ جعفر الخلدى[175] رحمة الله عليه

هو صاحب الهمة، والرابط الجأش فى الأمة. هو جبل الحلم، وبحر العلم هو السعيد الأزلى والأبدى، الشيخ جعفر الخلدى رحمة الله عليه.

كان عالم زمانه، والأوحد فى علم الطريقة. وكان من كبار أصحاب الجنيد، ومن قدمائهم. وكان متبحراً فى أنواع العلوم، ومختصاً بأصناف الحقائق.

وله كلمات عالية، نسبها إلى رجل آخر. وكان يقول: عندى مائة ونيف وثلاثين ديواناً من دواوين الصوفية. فقيل له: عندك من كتب محمد بن على الترمذى شيئاً؟ فقال: لا! ما عددته فى الصوفية. وقد كان زينة المشايخ، ومقبولاً منهم.

يروى أنه كان قد حج ستين مرة. وكان له مريد يدعى حمزة العلوى. أراد حمزة أن يذهب إلى منزله ذات ليلة. فقال له الشيخ: أقم عندنا الليلة. وكان حمزة يريد أن يعلق طيراً فى التنور؛ ليأكله أبناؤه. فقال: إن بقيتُ هنا الليلة، ينبغى أن أصلى الصبح هنا غداً، وأبقى

حتى صلاة الصبح، وأقضى الضحى مع الشيخ، ويتأخر الوقت، ويجوع الأطفال، وهم مسئوليتى. ثم قال: أيها الشيخ! سأمضى. فقال له الشيخ: ابق هنا الليلة. فقال: لدى عمل. و رجع المريد إلى المنزل، ووضع الطير فى التنور.

وفى اليوم التالى، قال للجارية: احضرى الطعام. غرفت الجارية الطعام من التنور، وبينما كانت تسير، تعثرت قدمها فى حجر، وسقط الإناء وتحطم، وانسكب الطعام، وسقط الطير فى الطريق. قال حمزة: ارجعى، واحضرى ذلك الطير، حتى أنظفه، ونتناوله. وفى تلك الأثناء، دخل كلب من الباب فجأة، وحمل الطير. فقال المريد: ما دام هذا كله قد ضاع من يدى، فلأنهض، ولا أضيع صحبة الشيخ. ودخل على الشيخ . فلما وقعت عين الشيخ عليه، قال: من لم يحفظ قلوب المشايخ، سلط عليه كلب يؤذيه. فندم حمزة، وتاب.

يروى أنه رأى النبى عليه السلام فى المنام. فقال له: ما التصوف؟ فقال: ترك الدعوى، وستر المعنى.

وسئل: ما التصوف؟ فقال: حال تظهر فيه عين الربوبية، وتضمحل فيه عين العبودية.

وقال: التصوف طرح النفس فى العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الله تعالى بالكلية.

وسئل عن تلوين الفقر. فقال: تلوينهم تلوين من أجل الزيادة؛ لأن من لا تلوين له، لا زيادة له.

وقال: إذا رأيت الفقير يأكل، فاعلم أنه لا يخلو من إحدى ثلاث. إما لوقت قد مضى عليه، أو لوقت يريد أن يستقبله، أو للوقت الذى هو فيه.

وسئل عن التوكل، فقال: استواء القلب عند الوجود والعدم، بل الطرب عند العدم، والخمول عند الوجود، بل الاستقامة مع الله تعالى على الحالين.

وقال: خير الدنيا والآخرة فى لحظة صبر.

وقال: الفتوة احتقار النفس، وتعظيم حرمة المسلمين.

وقال : العقل ما يبعدك عن مراتع الهلكة.

وقال: كن لله عبداً خالصاً، تكن عن الأخيار حراً.

وقال: سعى الأحرار لإخوانهم، لا لأنفسهم.

وقال: كن شريف الهمة، فإن الهمم تبلغ بالرجال، لا بالمجاهدات.

وقال: لا يجد العبد لذة المعاملة مع لذة النفس، لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التى تقطعهم عن الحق، قبل أن تقطعهم العلائق.

وقال: من لا يجتهد فى معرفته، لا يقبل خدمته.

وقال: من ألقى إليه روح الصلاح، التزم الحرمة للخلق. ومن ألقى إليه روح الصديقية، طالب نفسه بالصدق فى أحواله. ومن ألقى إليه روح المعرفة، عرف موارد الأمور ومصادرها .ومن ألقى إليه روح المشاهدة أكرم بالعلم اللدنى.

ويروى أنه كان له دعاء مجرب للضالة تُرد، ووقع فص له فى دجلة، فدعا به ونظر فى الحال، فوجد الفص فى أوراق كتاب كان يتصفحه. يقول الشيخ أبو نصر السراج: كان هذا الدعاء هو: «يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع ضالتى».

ولما حانت وفاته، كان ببغداد. وقبره بالشونيزيه عند قبر السرى السقطى، والجنيد.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى على الروذبارى[١٧٦] رحمة الله عليه

هو الكادح فى المجاهدة، وركن المشاهدة المختار، هو بحر الحلم والمحبة، الشيخ على الروذبارى رحمة الله عليه رحمة واسعة.

كان من جلة أهل الطريقة، ومن أهل الفتوة، ومن أظرف المشايخ وأعلمهم بعلم الحقيقة. وكان عظيم الشأن فى المعاملة والرياضة والكرامة والفراسة؛ وأطاعه أهل بغداد جميعهم. وأقر الجنيد بفضله. وكان صائباً فى كل فن، وله لسان بليغ فى الحقائق. وكان يقيم فى مصر، وصحب الجنيد والنورى وابن الجلاء، وله كلمات بليغة، وإشارات عالية.

يروى أن شاباً صحبه مدة، فلما أراد العودة، قال: يقول الشيخ شيئاً، فقال: يا فتى! كان القوم لا يجتمعون عن موعد، ولا يتفرقون عن مشورة.

وقال: قدم علينا فقير، فمات، فدفنته، وكشفت عن وجهه لأضعه فى التراب؛ ليرحم الله عز وجل غربته، ففتح عينيه، وقال: يا أبا على، أتدللنى بين يدى من دللنى؟ فقلت: يا سيدى أحياة بعد موت؟

فقال لى: بل أنا حيّ، وكل محب لله حيّ لأنصرنك غداً بجاهى يا روذبارى.

يروى أنه قال: كانت لى مبالغة فى أمر الطهارة، فنزلت البحر يوماً إحدى عشرة مرة، وبقيت فيه حتى غروب الشمس، ولم يسكن قلبى؛ فحزنت، وقلت: إلهى! العافية. فهتف بى هاتف: «العافية فى العلم».

سئل: من الصوفى؟ فقال: الصوفى من ارتدى الصوف من الصفا، وأذاق النفس طعم الجفا، وأطاح بالدنيا وراء القفا، وسلك طريق المصطفى.

وقال: إذا قال الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع، فألزموه السوق، وأمروه بالكسب.

وقال: التصوف: صفوة القرب بعد كدورة البعد.

وقال التصوف: الإناخة على باب الحبيب، وإن طرد عنه .

وقال: التصوف عطاء الأحرار.

وقال: الخوف والرجاء، هما كجناحى الطائر، إذا استويا استوى الطائر، وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما، وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الشَرَك.

وقال: حقيقة الخوف ألا تخشى مع الله سواه.

وقال: المحبة أن تهب نفسك لمحبوبك، ولا يبقى لك شيء منك.

وسئل عن التوحيد، فقال: استقامة القلب باثبات مفارقة التعطيل، وإنكار التشبيه.

وقال: أنفع اليقين ما عظم الحق فى عينيك؛ وصغَّر ما دونه عنك، وأثبت الخوف والرجاء فى قلبك.

وقال: الجمع سر التوحيد، والتفرقة لسان التوحيد.

وقال: ما أظهر من نعمه دليل على ما أبطن من كرمه.

وقال: كيف تشهده الأشياء، وبه فنيت بذاوتها عن ذواتها؟ أم كيف غابت الأشياء عنه، وبه ظهرت وبصفاته؟ فسبحان من لا يشهده شيء! ولا يغيب عنه شيء!

وقال: يحب الحق تعالى أهل الهمة؛ لأن أهل الهمة يحبونه.

وقال: بلغنا فى هذا الأمر (التصوف) إلى مكان مثل حد السيف، إن ملنا كذا ففى النار.

وقال: إن زالت مشاهدته عنا، سقط عنا اسم العبودية. أى لما بقينا أحياء.

وقال: كما فرض الله تعالى على الأنبياء إظهار المعجزات والبراهين، فرض على الأولياء إخفاء الأحوال والمقامات؛ حتى لا تقع عليها عين الأغيار، ولا يراها أحد.

وقال: من نظر إلى فطرته فى طريق التوحيد، عتقه ذلك التوحيد من النار.

وقال: إذا فرغ القلب من اليسار واليمين، وتفرغت النفس من اليسار واليمين، وفرغت الروح من اليسار واليمين. نبعت الحكمة من القلب، والخدمة من النفس، والمكاشفة من الروح. وبعد هذه الأمور الثلاثة: تتحقق للمرء رؤية صانعه، ومطالعة سرائره، ومعاملة حقائقه.

وقال: علامة ما قلته ألا تنظر يساراً أو يميناً.

وسئل عن السماع، فقال: ليتنا تخلصنا منه رأساً برأس.

وسئل عمن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلال؛ لأني قد وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال. فقال نعم! قد وصل لعمري، ولكن إلى سقر الجحيم.

سئل عن الحسد، فقال: إنني لم أبلغ هذا المقام بعد؛ ولا أستطيع الإجابة، ولكنهم قالوا: «الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد».

وقال: دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة: سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة. فقالوا: أيها الشيخ! ما سقم الطبيعة؟ فقال: أكل الحرام. فقالوا: وما ملازمة العادة؟ فقال: النظر والاستماع بالحرام، والغيبة. فقالوا: فما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاجت في النفس شهوة، تبعتها.

وقال: لا يخلو العبد من أربعة أنفاس: إما نعمة توجب الشكر، أو منة توجب الذكر، أو محنة توجب الصبر، أو ذلة توجب الاستغفار.

وقـال: لكل شىء واعظ، وواعظ القلب الحـيـاء، وهو أفـضل كنز للمؤمن.

وسئل عن الوجد فى السماع، فـقال: مكاشفة الأسرار بمشاهدة المحبوب.

وقال: الطريقة بين الصفة والموصوف. فمن نظر إلى الصفة حجب، ومن نظر إلى الموصوف ظفر.

وقال : القبض أول أسباب الفناء. والبسط أول أسباب البقاء.

وقال: المريد الذى لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له. والمراد لا يريد من الكونين شيئاً غيره.

وقال: أضيق السجون، مجالسة المنافقين.

ولما قرب أجله، قالت أخته: كان رأسه فى حجرى، ففتح عينيه، وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زينت، وها هو يتجلى علينا ويقول: يا أبا على! قد بلغناك الرتبة القصوى، وإن لم تردها. وتنثر الحور العطايا، وتظهر الاشتياق. وهاهو قلبى يقول: «بحقك لا أنظر لغيرك عمرى».

والسلام

ذكر الشيخ أبى الحسن الحصرى[١٧٧] رحمة الله عليه

هو العالم الربانى، والحاكم الروحانى. هو زعيم قافلة العصمة، مركز دائرة الحكمة. هو المحرم السرور، الشيخ أبو الحسن الحصرى رحمة الله عليه.

كان شيخ العراق، ولسان الوقت. وله أحوال تامة، وعبارات رفيعة. وكان يقيم فى بغداد، ويصحب الشبلى، وكان مفسراً كبيراً للأحلام. وكان يقيم مجالس السماع لأصحابه فى بغداد. ووشوا به عند الخليفة قائلين: هناك قوم يجتمعون، وينشدون الأناشيد، ويرقصون، ويتواجدون، ويجلسون للسماع.

كان الخليفة قد اتجه إلى الصحراء يوماً. وكان الحصرى يمضى مع أصحابه. فقال رجل للخليفة: هاهو ذلك الرجل الذى يصفق ويرقص. فأطلق الخليفة العنان، وقال للحصرى: بأى مذهب تتمذهب؟ فقال: تمذهبت بمذهب أبى حنيفة، ثم عدت إلى مذهب الشافعى، والآن أنا مشغول بشىء لا علاقة له بأى مذهب. فقال: وما هو؟ قال: التصوف. قال: ومن الصوفى؟ قال: من لا يسكن إلى شىء

من العالمين سواه . قال: وماذا أيضا؟ قال: من يترك أمره لربه؛ حتى يتولاه بقضائه. قال: وماذا أيضا؟ قال الحصرى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾(١٧٨) وما داموا أدركوا الحق، فهم لا يبالون بشيء آخر. قال الخليفة: لا تغضبوهم؛ فهم قوم عظماء. يتولى الحق تعالى أمرهم.

يروى أن أحمد بن نصر(١٧٩) كان قد حج ستين مرة، وغالباً ما كان يحرم من خراسان. ووعظ فى الحرم مرة؛ فاخرجه شيوخ الحرم من الحرم، وقالوا: أتعظ فى الحرم، وفيه مائتا وثمانون شيخاً!

وفى تلك الأثناء خرج أبو الحسن من الخانقاه، وقال للحارس: لا تسمح لهذا الشاب الخراساني ـ الذى يأتى إلى هنا كل سنة ـ بالدخول إن جاء هذه المرة. ولما جاء أحمد إلى بغداد، اتجه إلى خانقاه الشيخ فى جرأة، فقال له الحارس: لقد خرج الشيخ، وقال: لا تسمح له بالدخول. وصادف ذلك الوقت، الوقت الذى كان قد أُخرج فيه من الحرم. فسقط أحمد بن نصر مغشياً عليه، وظل على هذا الحال بضعة أيام. وفى النهاية، خرج الشيخ أبو الحسن، والتفت إليه، وقال: إنك أسأت الأدب، وينبغى عليك أن تنهض، وتذهب إلى الروم، وترعى الخنازير ـ هناك ـ سنة، وقد كان هناك مقراً للمسلمين فى طرطوس، استولى عليه الكفار، وخربوه. فاذهب إليه، وارع الخنازير فى النهار، وامض إلى ذلك المكان ليلاً، وصل فيه حتى الصباح، وراقب، ولا تنم لحظة؛ حتى تقبلك قلوب الأعزاء. أطاع الرجل الأمر، ونهض، ومضى إلى الروم، وخلع رداء النعمة، وعقد حزام

الحاجة، ورعى الخنازير سنة ـ كما أمر ـ ثم عاد، ورجع إلى بغداد. ولما وصل إلى الخانقاه، قال له الحارس: أسرع؛ لقد خرج الشيخ مرات اليوم ملهوفاً؛ ليسأل عنك. ولما سمع الشيخ أبو الحسن صوته، خرج، وعانقه، وقال: «يا أحمد ولدى وقرة عينى» فأجابه أحمد مسروراً: لبيك ثم اتجه إلى البادية؛ ليحج مرة أخرى. ولما وصل إلى الحرم . جاءه شيوخ الحرم، وقالوا: «يا ولداه وقرة عيناه» . كان جرمه، أنه كان قد وعظ مرة فى الحرم. واليوم يتفيهق الجميع بمصطلحات الصوفية على أبواب الحوانيت.

يروى أنه قال: صليت فى السحر، وناجيت، وقلت: إلهى! هل أنت راض عنى؟ فأنا راض عنك. فنوديت: أيها الكذاب! إن رضيت عنا، لما طلبت رضاءنا.

وقال: الناس يقولون: الحصرى لا يقول بالنوافل، وعلىّ أوراد من حال الشباب، لو تركت ركعة لعوتبت.

وقال: نظرت فى ذل كل ذى ذل، فزاد ذلى على ذلهم. ونظرت فى عز كل ذى عز، فزاد عزى على عزهم ثم قرأ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(١٨٠) .

وقال : أصولنا فى التوحيد خمسة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القدم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما عُلم وجهل.

وقال: دعونى وبلائى! هاتوا مالكم! ألستم من أولاد آدم، الذى خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثم أمره بأمر

فخالفه؟! إذا كان أول الدن درديا، كيف يكون آخره؟! أى أنه إذا ترك الآدمى لنفسه، يكون كله مخالفة، إما إذا وافاه بعنايته يكون كله محبة.

وقال: علمنا الذى نحن فيه يوجب إنكار كل معلوم مرسوم، ومحو كل معلوم معلول. فلا تنبع ينابيع الحكمة من سويداء قلبك.

وقال: من ادعى فى شىء من الحقيقة، كذبته شواهد كشف البراهين.

وقال: جلسة خير من ألف حجة، وإنما أراد جلسة تجمع الهم على نعت الشهود (حضور القلب).

وقال: الإقامة خير من ألف سفر.

وقال: سألت البعض عن الزهد، فقالوا: تركك ما أنت فيه، لما أنت فيه.

وسئل عن الملامة، فقال: إن كان هناك أنبياء فى هذا الزمن، لكنت من بينهم.

وقال: ينبغى أن يكون للسامع ظمأ دائم، فكلما ازداد شربه، ازداد ظمؤه.

وقال: ما أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يُسمع منه؟ ينبغى أن يكون سماعك متصلاً غير منقطع.

وقال: الصوفى إذا فنى عن الآفات، لا يعاودها. وإذا اتجه إلى

الحق، لا يحيد عنه. ولا تؤثر فيه الحوادث.

وقال: الصوفي لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده.

وقال: الصوفي وجده وجوده، وصفاته حجابه. يعني: «من عرف نفسه عرف ربه».

وقال: التصوف: صفاء السر من كدورة المخالفة.

وقال: ما دام الكون موجوداً، فالتفرقة موجودة.

إذا غا ب الكون، ظهر الحق، وهذه هي حقيقة الجمع فهم لا يروا سوى الحق، ولا يتحدثوا إلا عنه.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ أبى إسحق شهريار الكازرونى(١٨١) رحمة الله عليه

هو المتقى المشهور، والمنتهى المذكور. هو الشيخ العالم بالإخلاص، ومحرم الحرم الخاص. هو المشتاق المُسيِّر، أبو إسحق شهريار رحمة الله عليه.

كان أوحد عهده، وله نفس مؤثر، وكلام آخاذ، وصدق شديد، وحرقة لا نهاية لها. بلغ الكمال فى الورع، وكان بعيد النظر، حاد الفراسة فى الطريقة. وهو من كارزون. وكان قد صحب كثيراً من المشايخ. ويطلقون على قبر الشيخ «الترياك الأكبر»؛ لان كل شيء يُطلب عنده، يلبيه الحق تعالى بفضله.

يروى: أنه فى تلك الليلة التى كان الشيخ قد ولد فيها شوهد نور ينبعث من الدار، ويمتد إلى السماء مثل عمود، ولذلك النور أشعة، ويتجه كل شعاع من ذلك النور إلى ناحية. وكان والدا الشيخ مسلمين أما جده فكان مجوسياً.

يروى أن أبا الشيخ أرسله إلى معلم فى طفولته؛ حتى يعلمه القرآن. وكان جده يرفض، ويقول: الأولى أن تعلمه صنعة فقد كانوا

شديدى الفقر. وكان الشيخ يريد أن يتعلم القرآن، وصرح برغبته لوالديه وجده، فوافقوا. وكان الشيخ حريصاً على تحصيل العلم، وكان يحضر قبل الأطفال جميعهم، حتى تقدم عليهم جميعاً.

وقال: من أطاع الحق تعالى فى طفولته وشبابه وشيخوخته أيضاً، يستنير باطنه بنور المعرفة، وتفيض ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. ومن عصاه فى طفولته وشبابه، وتاب فى شيخوخته، يسمى مطيع، لكنه يؤتى كمال الحكمة متأخراً.

وقال: أردت فى بداية تحصيلى للعلم، أن أتعلم الطريقة من شيخ، وألتزم بخدمته، وبطريقته؛ فصليت ركعتين استخارة، وسجدت، وقلت: إلهى! دلنى إلى أى شيخ أرجع من هؤلاء المشايخ الثلاثة: عبدالله بن خفيف، والحارث المحاسبى، وأبو عمرو بن على(١٨٢). رحمهم الله واستغرقت فى النوم، فرأيت رجلاً قادماً، ومعه ناقة محملة بالكتب، وقال لى: هذه الكتب ملك الشيخ أبى عبدالله بن خفيف، وقد أرسلها لك جميعها وهذه الناقة. ولما استيقظت، عرفت، أننى أحلت إلى خدمته. بعد ذلك جاء الشيخ حسين آكار رحمه الله، وأحضر لى كتب الشيخ أبى عبدالله؛ فزاد يقينى، واخترت طريقته، واتبعته.

يروى أن أباه قال له: إنك فقير، ولا تستطيع استضافة كل مسافر يأتى إليك. وربما عجزت عن أداء هذا الأمر. فلم يقل الشيخ شيئاً. حتى حلت جماعة من المسافرين فى شهر رمضان، ولم يكن لديه

شىء قط. وحل الليل. فدخل رجل فجأة ومعه عشرة أحمال من الخبز والعنب والتين، وقال له: أنفقها على الفقراء والمسافرين. فلما رأى أبو الشيخ ذلك، ترك الملامة، وازداد يقيناً، وقال له: اخدم الخلائق بقدر استطاعتك؛ فلن يضيعك الحق تعالى.

يروى أنه لما أراد أن يشيد مسجداً، رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم في المنام. كان قد جاء، ووضع أساس المسجد. وفى اليوم التالى، بنى ثلاثة صفوف من المسجد، فرأى المصطفى ﷺ فى المنام كان قد جاء مع أصحابه، وأمره بتوسعة المسجد.

يروى أن الشيخ حين قصد الحج، حضرت مجموعة من المشايخ إلى البصرة، ووضعوا مائدة عليها لحم مطهو. ولم يتناول الشيخ اللحم. فظنوا أن من عادة الشيخ ألا يأكل اللحم. فقال الشيخ: ما داموا يظنون ذلك، فلا يمكن أن أتناول اللحم. وقال فى نفسه: لا آكل اللحم إذا كنت بين الجمع، وآكلها إذا اختليت بنفسى. ثم عزم على ألا يأكل اللحم، ما دام حياً. وكان قد نذر ألا يأكل التمر أيضاً، ولم يأكله .ونذر ألا يأكل السكر، ولم يأكله. وقد مرض الشيخ ذات مرة؛ فأمره الطبيب بتناول السكر، فلم يأكله مهما حاولوا معه.

ولم يشرب الشيخ من جدول خورشيد المجوسى(١٨٣) ـ الذى كان حاكماً على كازرون ـ قط.

يروى أن الشيخ كان قد أوصى المريدين بألا يأكلوا شيئاً قط فرادى.

يروى أن مريداً استأذنه فى أن يعاود أقاربه. فلم يأذن له الشيخ. ثم حدث أن مضى المريد. وكان أقاربه قد أعدوا لحماً مدقوقاً، فتناول بعض لقيمات معهم ولما عاد إلى الشيخ، حدث أن تناظر مع درويش، فأخطأ، ومنح الملابس - التى كان قد ارتداها - للفقراء غرامة، وبقى عارياً. فلما رآه الشيخ، قال: أفسد اللحم الأمر عليك.

يروى أن كمية من الغلة كانت قد جلبت من القدس من أجل قوت الشيخ، وبذرت، وغُرست فى الأراضى المباحة بقدر حاجة الشيخ من القوت، وادُخر بعضها فى قماش. وجمعت البذور من الحلال. وكانت تُزرع فى كل سنة، وكانت كسوة الشيخ منها، وأحياناً كان يرتدى الصوف، وكان ورعاً جداً وتقياً.

يروى أن أصحاب الشيخ - فى البداية - كانوا يأكلون العشب من شدة الفقر والحاجة، حتى كانت خضرة العشب تظهر من تحت جلدهم، وكانوا يجمعون الرقع البالية، ويصنعون منها بساط الصلاة، وما يستر العورة.

وتوفى الشيخ يوم الأحد الثامن من ذى القعدة سنة ست وعشرين وأربعمائة، وكان عمره اثنتين وسبعين سنة، ويقال: ثلاث و سبعين سنة قدس الله سره.

يروى أن عالماً كان حاضراً فى مجلس الشيخ. ولما فرغ الشيخ من المجلس . جاءه العالم، وتذلل له. فقال له الشيخ: ماذا أصابك؟ فقال: فى الوقت الذى كنت تعظ فيه فى المجلس، جال بخاطرى: أن

علمى أشمل من علمك. وأنا أحصل على قوتى بالجهد، وأجد اللقمة بمشقة. وهذا الشيخ يحظى بكل هذا الجاه والقبول، والمال الوفير الذى يجرى بين يديه. فما الحكمة فى هذا؟ حين جال هذا بخاطرى، نظرت إلى القنديل فى الحال، وقلت: تباهى الماء والزيت فى هذا القنديل بعضه على بعض. وقال الماء: أنا أعز منك، وأفضل. وحياتك والكائنات جميعها منى. فلماذا تربعت على رأسى؟ قال الزيت: لأننى عاينت كثيراً من الزرع والجنى والسحق والعصر، وغيرها مما لم تعانه. ومع هذا كله أحترق فى نفسى، وأضيىء للناس، وأنت تسير وفق إرادتك، وإن ألقى شىء فيك، تصيح وتضطرب. لهذا السبب تربعت فوقك.

وقال: ما ألبسه، ألبسه من أجل الله.

وقال: فكرت يوماً فى سبب انشغالى بتلقى الصدقات، وإنفاقها على الفقراء المقيمين والمسافرين؟ فأى شأن لى بالأخذ والعطاء؟ فربما قصرت، وعوتبت يوم القيامة، وحوسبت على ذلك لوأردت أن أقول للفقراء: ليعد كل واحد إلى وطنه، وينشغل بالعبادة. واستغرقت فى النوم، فرأيت المصطفى ﷺ: قال لى: يا إبراهيم! خذ، واعط، ولا تخف.

يروى أن رجلين التحقا بخدمة الشيخ، وكان لكل منهما مطمع فى الدنيا! وكان الشيخ يعظ فوق المنبر، وقال أثناء الحديث: من زار إبراهيم، ينبغى أن تكون زيارته «حسبة لله»، ولا يكون له مطمع دنيوى قط. ومن جاءه بمطمع وغرض دنيوى، لن يثاب قط.

وكان فى يده جزء من القرآن. فقال: بحق الله الذى هذا كلامه، سأنفذ ما أمر به فى هذا الكتاب من أوامر، واجتنب ما نهى عنه من نواه. كان القاضى طاهر[١٨٤] حاضراً فى ذلك المجلس، فجال بخاطره: أن الشيخ لم يتزوج بعد، فكيف (يدعى أنه) يطيع أوامره ويجتنب نواهيه؟ فالتفت إليه الشيخ، وقال: لقد غفر الحق تعالى هذه لى.

وقال: أتعبد فى الصحراء فى بعض الأوقات، ولما أقول: «سبحان ربى الأعلى» فى سجدة، أسمع رمال تلك الصحراء وحصاها يسبح موافقة لى.

يروى أن يهودياً كان قد سافر إلى الشيخ، وكان يجلس خلف عمود المسجد، ويستتر. وكان الشيخ يرسل إليه طعاماً كل يوم. وبعد مدة طلب الإذن من الشيخ، ليرحل. فقال الشيخ: لماذا سترحل أيها اليهودى؟ ألا يطيب لك المكان! فخجل اليهودى، وقال: أيها الشيخ! ما دمت تعلم أننى يهودى، فلماذا أكرمتنى؟ فقال الشيخ: ليس هناك سر قط، لا يساوى رغيفين.

يروى أن الأمير أبا الفضل الديلمى[١٨٥] جاء لزيارة الشيخ. فقال له الشيخ: تب عن شرب الخمر. فقال: أيها الشيخ! إننى نديم الوزير فخر الملك، وربما نقضت توبتى؟ فقال الشيخ: تب واذكرنى إن تعرضت لأذى فى محفله أو ظلم. فتاب، ومضى. بعد ذلك، كان حاضراً فى مجلس خمر يوماً، وكان المحتسون يلحون عليه أمام

الوزير بأن يشرب الخمر. فقال: أين أنت أيها الشيخ؟ فجرى قط فى الحال، وتحطم دن الخمر، وانسكب، واضطرب المجلس. ولما رأى أبو الفضل تلك الكرامات، بكى كثيراً؛ فقال الوزير: لم تبكى؟ فشرح حاله للوزير. فقال له الوزير: حافظ على توبتك ولم يضايقه مرة أخرى.

يروى أن أبا وابنه جاءا إلى الشيخ؛ ليتوبا. وقال الشيخ: من تاب أمامنا، ثم نقض توبته، عُذب فى الدنيا والآخرة، فتابا، وحدث أن نقضا توبتهما. وكانا يشعلان النار يوماً، فاشتعلت فيهما، واحترقا.

يروى أن طائراً طار يوماً، وحط على يد الشيخ. فقال الشيخ: لما كان هذا الطائر مطمئناً لى؛ فقد حط على يدى.

وجاء غزال كذلك يوماً، ومر من بين الناس، حتى وصل إلى الشيخ. فمسح الشيخ بيده المباركة على رأس الغزال، وقال: لقد قصدتنا. ثم أمر الخادم، فحمله إلى الصحراء، وحرره.

يروى: أن رائحة ذكية كانت تفوح من الشيخ، ولم تكن رائحة مسك أو عود، وكانت تلك الرائحة تبقى فى كل مكان كان الشيخ يمر به.

يروى: أنه كان يقول يوماً: أعجب من رجل يملك ثياباً نظيفة، ويصبغها بلون فيه شبهة - أى اللون الأزرق - ولما كان يقول هذا، كان يرتدى خرقة زرقاء. فقال: لون هذه الخرقة من النيلة الحلال التى جلبت لى من كرمان.

وقال: من لا يحاسب نفسه فى المأكل والمشرب والملبس، يكون حاله كحال البهائم.

وقال: اذكر الحق تعالى بقلبك، واجعل الدنيا فى يدك. ولا تكن كمن ذكر الله بلسانه، وشغل قلبه بالدنيا.

وقال: يبصر المؤمن بنور القلب؛ لأن الآخرة غيب، ونور القلب غيب، ويمكن رؤية الغيب بالغيب.

وقال: أقل عقوبة للعارف أن يسلب حلاوة الذكر.

وقال: يؤاخذ أهل الدنيا العباد بعيب الجوارح، وينظرون إلى ظاهرهم. ويؤاخذ الحق تعالى العباد بعيب القلب، وينظر إلى باطنهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾(١٨٦).

وقال: ماذا حدث أيها القوم؟ اتركوا كل ماهو موجود. واتجهوا إلى الله؛ فلا مفر لكم منه فى الدنيا والآخرة.

وقال: المجوس كُثُر اليوم فى كازرون، والمسلمون قلة، ويمكن حصرهم. لكن سرعان ما يكثر المسلمون، ويقل المجوس.

يروى أن أربعة وعشرين ألف مجوسى ويهودى أسلموا على يديه.

يروى أن جندياً ثرياً كان يلح على الشيخ مراراً أن يقبل منه شيئاً، فرفض. فى النهاية أرسل رجلاً إلى الشيخ ليخبره بأن الجندى حرر كثيراً من العبيد، ووهبه ثواب ذلك. فقال الشيخ: تحرير العبيد ليس فى مذهبنا، ولكن مذهبنا هو أسر الأحرار بالرفق والمداراة.

وقال: الرجل من أخذ وأعطى. والأمرد من أعطى ولم يأخذ. والسفلة من لا يعطى ولا يأخذ.

وقال: رأيت فى المنام أن معراجاً يصل المسجد بالسماء، وكان الناس يأتون، ويعرجون إلى السماء.

وقال: لقد أكرم الحق تعالى هذه البقعة، فمن قصد زيارتها حقق الحق تعالى له مقصوده الدينى والدنيوى.

وقال: إن أصابك عرى وجوع، وذل وفاقة فى أيام الدنيا المعدودة هذه، فاصبر، فسرعان ما تزول، وتحظى بنعيم الآخرة.

وقال: لا يفلح ثلاث: البخلاء والمحزونون والغافلون.

وقال: اجتهدوا، وإن لم تستطيعوا أن تكونوا من السابقين، كونوا من أحبابهم «المرء مع من أحب».

وقال: اجتهد فى الدنيا، حتى تستيقظ من الغفلة، فلن يفيد الندم فى الآخرة.

وقال: آثر الإخوة، حتى يؤثرك الله.

وقال: ليس هناك ذنب أعظم من أن يحقر أحد أخيه المسلم.

وقال: لا يدرك المؤمن لذة ذكر الحق تعالى مالا يترك ملذات الدنيا.

وقال: منح الحق تعالى كل عبد عطاء ومنحنى حلاوة المناجاة.

وأنس كل رجل بشىء   وأنعم على بالأنس به

وقال: إلهى العظيم! يدعوك الجميع، ويطلبونك. فلمن أنت؟ ومع من أنت؟ ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(١٨٧).

وقال: اجتهد أن تقوم آناء الليل، وتتوضأ، وتصلى أربع ركعات. وإن لم تطاوعك النفس، صل ركعتين. وإن لم تستطع، قل لما تستيقظ «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

يروى: أن أسداً قيد أمام الرباط يوماً. فلما رآه الشيخ، قال: ماذا جنيت حتى وقعت فى هذا القيد والفخ؟ ثم قال أيها القوم! لا تركنوا إلى أحوالكم؛ فإن للشيطان شباك كثيرة، لا نعلمها وكثير من أسود الطريقة وقعوا فى فخ الشيطان. فبكى الأصحاب. وقال: إلهى! إن أحسنت إلى فى يوم القيامة، انزلنى على ربوة، وأظهر لى أحبائى جميعاً وأصحابى؛ حتى يسروا، وندخل الجنة معاً بفضلك ورحمتك. وإن كان الحال غير ذلك، ارسلنى إلى طريق فى الجحيم، لا يرانى فيه أحد؛ حتى لا يسر أعدائى.

وقال: من غلبه هوى الشهوة ينبغى عليه أن يتزوج؛ حتى لا يفتتن. وإن لم يستو لدى الحائط والمرأة، لتزوجت.

وقال : إننى كغريق فى بحر، تارة أرجو الخلاص، وتارة أخشى الهلاك.

وقال: يقول الحق تعالى: يا عبدى! اعرض عن العالم بأسره، واتجه إلينا. فلا مفر لك منى على أية حال. إلام تفر منى، وتشيح بوجهك عنى؟!

وقال: التعيس من رحل عن الدنيا، ولم يذق لذة الأنس بالحق تعالى ومناجاته. ومن ذاقها، يقول دائماً: «سلْم سلْم».

وقال: كيف لا يخاف عبد لديه نفس من جانب، وشيطان من الجانب الآخر، وهو عاجز بينهما.

وقال: من استقام له أمر الدنيا، لم يستقم له أمر الآخرة، ولم تطب له الحياة فيهما قط.

وقال: من تجرأ على سلطان الدنيا، ضاع ماله ومن تجرأ على الصالحين، وخالفهم، ضاع أساسه، وتعرض إيمانه للخطر.

وقال: احذروا أن تنخدعوا بما يتقرب الناس به لكم، ويتقبيلهم أياديكم؛ فإنكم لا تعلمون أية آفة فى ذلك؟!

وقال: حافظة السخى محلولة، ويداه مبسوطة. وأبواب الجنة مفتوحة أمامه. وحافظة البخيل مربوطة، ويداه مغلولة، وأبواب الجنة مسدودة أمامه.

وقال: إلهى! إن نعمك علىّ لا تحصى، منها أنك وفقتنى أن أذكرك باللسان، وأشكرك بالقلب. وأنت إله قادر وكريم. ونحن عباد عاجزون ومساكين. الحمد لك، والشكر لك، والنعم كلها من فضلك.

وقال: من مد يده ليضرب مسلماً، ليس منى.

وقال: لا تمض خالى الوفاض من أربعة: العيال، والمريض، والصوفى، والسلطان.

وقال: إذا رأيت يديك مشغولة بالمخالفة، ولسانك مشغولاً بالكذب والغيبة، وسائر جوارحك مشغولة باتباع هوى النفس. فمن أين يتأت لك الإلهام والكشف؟

وقال: يعاقب الحق تعالى العامة، ويعاتب الخاصة، والمحبة باقية ما دام العتاب.

يروى أنه لما كان رجل يلتحق بخدمة الشيخ؛ ليسلك الطريق. كان الشيخ يقول له: يا بنى! إن التصوف أمر شاق، وينبغى عليك احتمال الجوع والعرى والذلة، ومع هذا كله، تكون بشوشاً. إن اتبعت هذا، انخرط فى الطريقة، وإلا فانشغل بأمر نفسك.

وقال: قال شيخ: فى الإخلاص ساعة خلاص دائمة، ولكنها عزيزة.

وقال: فلتخافوا، ولا تسيئوا إلى أحد قط. وإن أساء أحد إلى أحد. يختار له الحق تعالى أحداً ليجازيه على السيئة .كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(١٨٨).

وقال: للحق - تعالى - شراب فى الغيب، يمنحه للأولياء فى السحر. يحتسونه، يستغنون عن الطعام والشراب.

وقال: من أحب الله، لم يحب الدنيا قط. ومن أحب الدنيا، لم يحب الله قط.

وكان الشيخ يدعو بهذا الدعاء: اللهم اجعل هذه البقعة عامرة بذكرك، وأوليائك، وأصفيائك إلى الأبد. واجعل قوتنا وقوتهم يوماً

بيوم من الحلال من حيث لا يحتسب. اللهم اجعلنا من المتحابين فيك، ومن المتبادلين فيك، ومن المتزاورين فيك، بحرمة نبيك المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. وانظر إلى حوائجه كما ينظر الأرباب فى حوائج العبيد، وإلى ما يعمله من الذنوب. اللهم اغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، وبطاعتك عن معصيتك، يا من إذا دُعى، أجاب. وإذا سئل، أعطى. هب لنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشداً اللهم اغننا عن باب الأطباء، وعن باب الأمراء، وعن باب الأغنياء. اللهم لا تجعلنا بثناء الناس مغرورين، ولا عن خدمتك مهجورين، ولا عن بابك مطرودين، ولا بنعمتك مستدرجين، ولا من الذين يأكلون الدنيا بالدين، وارحمنا يا أرحم الراحمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً دائماً أبداً كثيراً برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقال: إلهى! دعاك إبراهيم خليك عليه السلام قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١٨٩) وأجبت دعاءه. وإننى لست إبراهيم الخليل وأنت رب جليل. وأنا أدعوك أيضاً قائلاً: اللهم إن تجعل هذا الوادى القفر، والمكان الوعر، أهلاً عامراً بذكرك وأوليائك من عبادك وأصفيائك. اللهم اجعل دعائى مرفوعاً، وندائى مسموعاً، واجعل أفئدة من الناس

تهوى إليهم، وهممهم واقفة عليه؛ حتى يتصل فيه الخبرات، وتدوم إقامة الطاعات.

وقال: كيف لا أخشى الحق تعالى، وقد خشاه الحبيب، والخليل، والكليم صلوات الله عليهم أجمعين، والروح عليه السلام.

وقال: يحب أهل الدنيا متاعها، وأنا أحب ذكر الله وتلاوة القرآن.

وقال فى معنى هذا الحديث «إن الشيطان يجرى مجرى الدم» لأن الشيطان نجس، والدم نجس، يجرى النجس فى النجس. لكن ذكر الحق تعالى طاهر، والروح طاهرة، والطاهر ينسجم مع الطاهر .

وقال: كرامة الرجل أن يجرى الحق تعالى على يديه الخيرات، ومن جرى على إحدى يديه شيء من الخيرات، لم يجر على يده الأخرى.

وسئل: الحبيب نجس، والنجاسة تحول دون المحبوب. فكيف يدنس الحق تعالى المؤمن بالذنب؟ وما السر فى هذا؟ قال:من حكمة الحق تعالى أن يذنب العبد، ويتوب؛ حتى يتجلى لطف الحق تعالى ورحمته عليه. ويعرف قدر الطاعة. ولما يصيبه الظمأ والجوع، يعرف قدر الطعام والشراب، ولما يمرض، يعرف قدر الصحة والعافية.

وقال: العبارة حظ النفس، والإشارة حظ الروح. فالعبارة ملك البدن، والإشارة ملك الروح.

وسئل: لماذا نسأل الحق تعالى ونرجوه ما دام الرزق مقسوماً؟

قال: حتى يظهر عز المؤمن وشرفه. وكما قال: لو أعطيتك من غير مسألة لم يظهر كمال شرفك، فأمرتك بالدعاء؛ لتدعونى، فأجيبك.

وقال: المرقعة لباس التقوى؛ لأن الطمأنينة والذوق يتحققان برؤية صاحب المرقعة.

يروى أن الشيخ كان يمضى يوماً، وكان الناس يحيونه والأطفال أيضاً. فقيل له: أيها الشيخ! كيف يعرفك الأطفال الجاهلون، ويحيوك؟ قال: إن هؤلاء الأطفال يريدون منى الدعاء بالخير والصلاح.

وقال: نهاية المجاهدة أن يمنحوا كل جد يملكوه إلى من لا يملكه. أى الحق تعالى، وغايته بذل الروح.

وقال: الإيمان خاص، والإسلام عام.

وسئل: إن أحضر ندماء السلاطين وعمالهم شيئاً إلى الشيخ، وقالوا: إنه حلال، أيقبله؟ قال: لا؛ لأنهم اعتادوا الفساد، وإذا لم يصلحوا من أنفسهم، فكيف يهتمون بصلاح الآخرين.

وقال: من طلب العزة بغير الحق تعالى، وطاعته، لا يرحل عن الدنيا، ما لم يذل بطلبه للعزة.

وكثيراً ما كان الشيخ ينشد هذا الشعر:

مصاحبة الغريب مع الغريب كمن بنى البناء على الثلوج

فذاب الثلج وانهدم البناء وقد عزم الغريب على الخروج

وقال: ينبغى أن تقول آناء الليل لما تتجه إلى الله: يا من لك عبد مثلى، ويا من ليس لى أحد مثلك.

وقال: ينبغى أن ننشغل دائماً بتحصيل العلوم الشرعية؛ فلا مفر

لأهل الطريقة والحقيقة من تحصيل العلم. وإذا تعلمت العلم، تعفف عن الرياء والسمعة، ولا تخف ما تعلمه. واطلب رضاء الحق تعالى دائماً، واجتهد فى أن تقرن العلم بالعمل، وإلا كنت مثل جسد بلا روح واحذر ولا تطلب مع العلم شيئاً من حطام الدنيا. واحذر أن تجعل من االعمل والعلم حرفة، تجذب بها الآخرين. وقال المصطفى ﷺ: من طلب الدنيا بعمل الآخرة، سُلب الكرامة، وساءت سمعته، وسجل اسمه مع أهل الجحيم. ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا، لم يكن نصيبه فى الآخرة بالقليل. وبعد تحصيل العلم، ليس هناك شىء قط أفضل من طلب الحلال فى الطعام والملبس. فهو لا يقبل عمل آكل الحرام، ولا يجيب دعواه. وينبغى عليك أن تطلب الفقر دائماً، وتترك الزينة والتجمل. واعلم أن عزك فى طلب طاعة الحق تعالى، والخضوع له. وينبغى أن تقنع دائماً، وقال المصطفى ﷺ: أسوأ طائفة فى أمتى من يرفلون فى النعمة، ويهتمون بتربية أجسامهم. فاجتهد فى أن تصحب الصالحين والفقراء دائماً، فقد قال المصطفى ﷺ: إن الحق تعالى ليحفظ هذه الأمة ما دام أهلها يجتنبون هذه الثلاثة: ألا يذهب الأخيار لزيارة الأشرار، ولا يجل الفضلاء الأخساء، ولا يميل أهل الطريقة، والمتبعون للسنة، للأمراء والظالمين. وإن فعلوا ذلك، ابتلاهم الحق تعالى بالذلة والفقر والعار، وسلط عليهم جباراً يؤذيهم.

واحذر، ولا تنظر إلى النساء الأجنبيات، والمخنثين؛ فهم سهام من سهام الشيطان. وقطعاً لا تصحب أهل البدعة. ولا تكف عن الأمر بالمعروف، وقدم النصيحة للأصحاب. واجتهد فى أن تنشغل بتلاوة

القرآن صباحاً ومساء، فإن الرحمة تحل على القارئ والمستمع. واجتهد فى أن تواظب على قيام الليل؛ فإن له فضيلة وأثر عظيم. وعليك باعتزال الناس دائماً، وجاهد فى العزلة، حتى لا يظلمك الشيطان، ويفضحك. وإن لم تستطع المجاهدة مثل الرجال، فانشغل بخدمة خلق الله.

يروى أنه لما دنا أجل الشيخ، تجمع الأصحاب عنده. فقال الشيخ: سرعان ما أرحل عن الدنيا، والآن أوصيكم بأربعة أشياء، فلتقبلوها، وتؤدوها: أولاً: احترموا من يخلفنى، ويجلوه، وأطيعوا أمره. ثانياً: داوموا على دراسة القرآن فى الصباح. ثالثاً: إن حل بكم غريب أو مسافر، أكرموه، وأعزوه، ولا تتركوه ينزل فى زاوية أخرى. رابعاً: اخلصوا بعضكم لبعض.

يروى أنه ملك دفتراً، كان قد سجل فيه أسماء التائبين والمريدين والمحبين. وأوصى أن يوضع معه فى القبر.

يروى أن الشيخ رؤى فى المنام بعد وفاته. وقيل له: ماذا فعل الحق تعالى بك؟ قال: غفر لأولئك الرجال الذين سجلت أسماءهم فى تلك التذكرة جميعاً بشفاعتى.

وكان الشيخ يقول: إلهى! من جاءنى بحاجة، وزارنى. حقق له مقصوده ومراده، واغفر له.

قدس الله روحه العزيز

ذكر أبى العباس السيارى(١٩٠) رحمة الله عليه

هو قبلة الإمامة، وكعبة الكرامة. هو المجتهد فى الطريقة، والمتفرد بالحقيقة. هو الشمس المتوارية، شيخ العالم أبو العباس السيارى رحمة الله عليه.

كان من أئمة الوقت، وكان عالماً بعلوم الشرع، وعارفاً بالحقائق والمعارف. وكان قد أدرك كثيراً من المشايخ، وكان مهذباً، وأظرف القوم. وكان أول من تكلم فى الحقائق فى مرو. وكان فقيهاً ومحدثاً، ومريداً لأبى بكر الواسطى.

وكان - فى البداية - من بيت علم ورئاسة، ولم يتقدم أحد قط فى مرو على أهل بيته فى الجاه والقبول، وورث عن أبيه ميراثاً كبيراً أنفقه كله فى سبيل الله، وملك شعرتين من شعر الرسول عليه السلام، واحتفظ بهما. وتاب الحق تعالى عليه ببركتهما ولقى أبا بكر الواسطى، وكان إماماً لفرقة من المتصوفة يقال لهم السيارية. وبالغ فى الرياضة إلى حد أن رجلاً كان يدلكه. فقال له الشيخ: فلتبرد قدماى؛ حتى لا تخطو خطوة قط فى معصية.

يروى أنه ذهب يوماً إلى دكان بقال؛ ليشترى جوزاً، وأعطاه الفضة فقال صاحب الدكان للخادم: انتق أفضل جوز. قال الشيخ: أتوصيه بأن يفعل هذا مع كل من تبيع له أم لا؟ قال: لا. لكنى أوصيه بك من أجل علمك. فقال: إننى لا أمنح فضل علمى بانتقاء الجوز وتركه .

يروى أنه نسب إلى الجبر؛ فتألم كثيراً لذلك. حتى يسر الحق تعالى الأمر عليه فى العاقبة.

ومن أقواله: إنه قال: كيف السبيل إلى ترك ذنب كان عليك - فى اللوح المحفوظ - محفوظاً؟

وقال: قيل لبعض الحكماء: من أين معاشك؟ فقال: من عند من ضيق المعاش على من شاء، من غير عله؛ ووسع على من شاء من غير علة.

وقال: ظلم الأطماع تمنع أنوار المشاهدات.

وقال: ما استقام إيمان عبد حتى يصبر على الذل، مثلما يصبر على العز.

وقال: من حفظ قلبه مع الله بالصدق، أجرى الله على لسانه الحكمة.

وقال: الخطرة للأنبياء، والوسوسة للأولياء، والفكرة للعوام، والعزم للفتيان.

وقال: الحق إذا لاحظ عبداً ببره، غيبه عن كل مكروه فى وقته. وإذا لاحظه بسخطه، أظهر عليه من الوحشة ما يهرب منه كل أحد.

وقال: ما نطق أحد عن الحق إلا من كان محجوباً.

وسئل عن المعرفة، فقال: حقيقة المعرفة الخروج عن المعارف.

وقال: التوحيد أن لا يخطر بقلبك مادونه. أى أنه ما إن يتغلب التوحيد، حتى ينمحى كل ما يخطر بالبال فيه، ويصطبغ بصبغته. وكما أن الجميع ظهر من التوحيد فى البداية، واصطبغ بصبغة العدد، وتلون بلون الأحد «كنت له سمعاً وبصراً» الحديث.

وقال: ما التذ عاقل بمشاهدة قط؛ لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيه لذة ولا التذاذ.

وسئل: ماذا تريد من الحق تعالى؟ قال: كل ما يعطيه؛ لأن كل ما تمنحه للمسكين، يؤثره.

وسئل: بم يروض المريد نفسه؟ وكيف يروضها؟ فقال: بالصبر على الأوامر، واجتناب النواهى، وصحبة الصالحين.

وقال: العطاء عطاءان: الكرامة والاستدراج. الكرامة ما حفظ لك، والاستدراج ما زال عنك.

وقال: لو جازت صلاة بغير قرآن، لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالاً   أن يرى فى الحيوة طلعة حر

ولما حان وقت وفاته، أوصى فوضعوا شعرتى النبى عليه السلام - الذين كانا قد احتفظ بهما - فى فمه؛ ليحتفظ بهما كذلك بعد وفاته. وقبره فى مرو. والناس يذهبون إليه لطلب الحاجات، وتحقيق الأمنيات، وهو مجرب.

رحمة الله عليه

ذكر الشيخ ابى عثمان المغربى[١٩١] رحمة الله عليه

هو المؤذب بالرياضة، والمربى بالعناية. هو المبصر لأنوار الطرائق، والعارف بأسرار الحقائق. هو وارث النبى فى الحقيقة، شيخ الوقت أبو عثمان المغربى رحمة الله عليه.

كان من أكابر أرباب الطريقة، ومن جملة أصحاب الرياضة. وكان آية فى مقام الذكر والفكر. وله خَطْرَة فى أنواع العلوم. وهو صاحب تصانيف. وكان قد أدرك كثيراً من المشايخ، وصحب النهرجورى وأبا الحسن الصائغ.

كان إماماً للحرم مدة. ولم يكن هناك أحد مثله فى علو الحال، وصحة الحكم بالفراسة، وقوة الهيبة. وعاش مائة وثلاثين سنة.

قال: نظرت إلى نفسى فى مثل هذا العمر، فلم أجد شيئا ـ كان قد بقى من مرحلة الشباب ـ سوى الأمل.

يروى أنه فى بداية حاله اعتزل عشرين سنة فى البوادى، لم يكن يسمع خلالها آدمياً. حتى ذابت بنيته من المشقة والرياضة، وصارت

عيناه كسم الخياط، وتحول عن صورة الآدميين. وجاءه الأمر من الحق - بعد عشرين سنة - بأن يصحب الخلق. فقال لنفسه: فلأبدأ بصحبة أهل الله ومجاورى بيته، ليكون ذلك أكثر بركة، فقصد مكة. وعلم المشايخ بمجيئه بقلوبهم؛ فخرجوا لاستقباله، فوجدوه وقد تبدلت صورته، وفى حال لم يكن قد بقى عليه فيها شيء سوى الرمق. فقالوا: يا أبا عثمان! لقد عشت عشرين سنة على هذه الصفة التى أعجزت آدم وذريته فى أمرك، قل لنا لم ذهبت؟ وماذا رأيت؟ وماذا وجدت؟ ولم عدت؟ فقال: ذهبت بسكر، ورأيت آفة السكر، ولقيت يأساً، ورجعت بالعجز. كنت قد ذهبت؛ حتى أبلغ الأصل. ولم تصل يدى - فى النهاية - إلا إلى الفرع. فنودى: يا أبا عثمان! طف حول الفرع، واثمل فى الحال؛ فبلوغ الأصل ليس شأنك، والصحو الحقيقى فيه. وعدتُ الآن. فقال جميع المشايخ: يا أبا عثمان! حرام على المعبرين من بعدك أن يعبروا عن الصحو والسكر؛ لأنك أنصفت كل الأنصاف.

يروى أنه قال عن حاله فى بداية المجاهدة: مر بى وقت، إن ألقى بى من السماء إلى الأرض، لكان أحب إلى من تناول الطعام، أو التطهر من أجل الصلاة؛ لأن ذكرى كان غائباً، وغيبة الذكر تلك أشد على من الآلام جميعها، وأصعب. وتسرى علىّ أمور فى حال الذكر، يعدها الآخرون كرامة. ولكنها بالنسبة لى أكبر من الكبائر .وكنت أريد ألا أنام قط؛ حتى لا أكف عن الذكر.

يروى أنه قال: كنت مع أبى الفارس[١٩٢] مرة، وكانت ليلة عيد، ولم ينم هو. فجال بخاطرى: إن كان هناك دهن بقرة، لكنت أعد طعاماً لحبيب الله ـ عز وجل ـ هذا. ورأيت أبا الفارس كان يقول أثناء نومه: دعك من دهن البقر، وكان يكررها ثلاث مرات للتأكيد. فأيقظته، وقلت: ما هذا الذى كنت تقوله؟ قال: رأيت فى المنام أننا كنا فوق مرتفع، وكأننا أردنا مشاهدة الله عز وجل، وقد امتلأت القلوب بالهيبة وكنت أنت بيننا، لكن كان فى يدك دهن البقر. فكنت أقول لك: اترك هذا الدهن أى أنه حجابك.

يروى أنه قال: لم أرغب فى النوم ليلاً من شدة حلاوة الذكر؛ فلجأت إلى حيلة، وكنت أجلس على حجر منحدر بمقدار قدم أسفل الوادى، حتى إن غلبنى النوم، أهوى من فوقه، وأتحطم. وغلبنى النوم، وكنت أجد نفسى نائماً! فهل يستطيع المستلقى على مثل هذا الحجر الصغير، المعلق فى الهواء، النوم.

يروى أن رجلاً قال يوماً: ذهبت إلى أبى عثمان، وقلت فى نفسى: لعله يشتهى علىّ شيئاً؟ فقال أبو عثمان: لا يكفى الناس أن آخذ منهم، حتى يريدوا مسألتى إياهم.

يروى أن أبا عمرو الزجاجى[١٩٣] قال: قضيت عمراً فى خدمة الشيخ أبى عثمان، ووصل بى الحال إلى أننى لم أستطع البقاء بدونه لحظة. فرأيت فى المنام ليلة أن رجلاً قال لى: يا فلان! إلى متى يمنعك أبو عثمان عنا؟ وإلى متى تنشغل به، وتعرض عنا؟ فجئت يوماً، وقلت لمريدى الشيخ: لقد رأيت بالأمس مناماً عجيباً. فقال

الأصحاب: وقد رأى كل منا مناماً الليلة. لكن قل أنت أولاً: ماذا رأيت؟ فقص أبو عمرو منامه. فأقسم الجميع قائلين: لقد رأينا المنام ذاته، وسمعنا الصوت ذاته من الغيب. ثم فكر الجميع قائلين: كيف نخبر الشيخ بهذا الكلام لما يخرج من البيت؟ وفجأة فتح باب البيت، وخرج الشيخ متعجلاً، وكان حافى القدمين من شدة العجلة ولم تكن لديه فرصة لينتعل نعله. ثم التفت إلى الأصحاب، وقال: ما دمتم سمعتم ما قال؛ فلتعرضوا عن أبى عثمان الآن، واتجهوا للحق، ولا تدفعوا بى للتفرقة.

يروى أن الإمام أبا بكر فورك(١٩٤) قال: سمعت أبا عثمان المغربى، يقول: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلما قدمت بغداد، زال ذلك عن قلبى، فكتبت إلى أصحابنا بمكة: إنى أسلمت الآن إسلاماً جديداً.

يروى أن أبا عثمان قال لخادمه يوماً: لو قال لك أحد: أين معبودك؟! إيش تقول؟ قال: أقول حيث لم يزل. قال: فإن قال: أين كان فى الأزل؟ إيش تقول؟ قال: أقول حيث هو الآن.

يروى أن عبدالرحمن السلمى، قال: دخلت على أبى عثمان المغربى، وواحد يستقى الماء من البئر على بكرة، فقال: يا أبا عبدالرحمن، أتدرى ما تقول البكرة؟ فقلت: لا، فقال: تقول: الله، الله.

قال: من ادعى السماع، ولم يسمع صوت الطيور، وصرير الباب، وتصفيق الرياح، فهو فقير مدع.

ومن أقواله: يصير العبد في مقام الذكر مثل بحر، تنبع منه الجداول في جميع الأماكن بتقدير الله. وليس هناك سلطان عليه سوى الله تعالى يرى الكون بأسره، ولا يخفى عليه شيء قط في السماء أو الأرض أو الملكوت، حتى النملة التي تسعى في الكون.وهنا تتجلى حقيقة التوحيد. ويتلذذ بالذكر إلى حد أنه يرغب في الفناء، ويتمنى الموت؛ لأنه لا يطيق تذوق تلك الحلاوة.

يروى: أن الأستاذ أبا القاسم القشيري قال: لم يكن أبو عثمان يطيق لذة الذكر. فكان يخرج من الخلوة، ويفر. وقال مرة ينبغي على الذاكر أن يمزج «كلمة لا إله إلا الله» بطعمه. وبقوة هذه الكلمة وسلطانها، يبعد عن قلبه كل ما يشغله من خير أو شر، ويجزُ رأس ذلك الخيال بصمصام الغيرة هذا. فوراء هذا كله الحق تعالى.

وقال: من أنس بمعرفة الله تعالى وذكره، لا يقضي الموت على أنسه، بل يزيد من أنسه وراحته؛ لأن أسباب التوتر قد زالت، وبقيت المحبة الخالصة.

وقال: هناك دليلان على (وجود) الجناب الأعظم الرفيع: النبوة والحديث. وقد انتهت النبوة، ولختتم الأنبياء. الآن بقي الحديث، وسبيله المجاهدة والذكر. وهم يضنون بهذا العمر الرخيص في مقابل مثل هذا الوصال. فيا أيها المسكين! ماذا أصابك فافتديت هذا الرخيص بالفراق الدائم؟ ولماذا هانت المروءة إلى هذه الدرجة؟!

وقال: من اختار الخلوة على الصحبة، ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار، إلا ذكر ربه. وخالياً من جميع الإرادات، إلا رضا

ربه. وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب. فإن لم يكن بهذه الصفة؛ فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية.

وقال: العاصى خير من المدعى؛ لأن العاصى - أبداً - يطلب طريق توبته، والمدعى يتخبط فى حبال دعواه.

وقال: من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء، ابتلاه الله بموت القلب.

وقال: من مد يده إلى طعام الأغنياء - بشره وشهوة - لا يفلح أبداً. وليس يعذر فيه إلا المضطر.

وقال: من اشتغل بأحوال الناس، ضيع حاله.

وقيل له: إن فلاناً مسافر! فقال: يجب أن يسافر من عند هواه، وشهوته، ومراده؛ فإن السفر غربة، والغربة ذلة، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

وسئل عن الخلق، فقال: قوالب وأشباح تجرى عليهم أحكام القدرة. وخلقت قلوب الخلائق بجانبين: جانب عالم الملكوت، وجانب عالم الشهادة. وتلك المعارف هى خطوط من أوج القلوب فى جانب الملكوت. وتنعكس صور تلك المعارف المقدسة على الجانب الآخر، والعكس بالعكس. فيطلع على ثمانية عشر ألف عالم. وتنعكس تلك الحقائق - التى هى ضياء نور - مثل الأشعة على جانب عالم الشهادة، وتسمى بالمعرفة.

وسئل عن المنقطعين عن الطريق، ولأى شيء انقطعوا؟ فقال: لأنهم أخلوا بالنوافل والسنن والفرائض.

وسئل عن الصحبة، فقال خير الصحبة أن توسع على أخيك المسلم بما تؤثره لنفسك، ولا تطمع فيما له، وترضى بجفاه وتنصفه، ولا تطلب منه الإنصاف، وتطيعه، ولا تعده تابعاً لك، وتعظم ما يصلك منه، وتستكثره، وتحقر ما يصله منك، وتستقله.

وقال: أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه فى هذه الطريقة: المحاسبة، والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال: الاعتكاف حفظ الجوارح تحت الأوامر.

وقال: لا يعرف الشيء من لا يعرف ضده. لذلك لا يصح لمخلص إخلاصه إلا بعد معرفته الرياء، ومفارقته له.

وقال: من حمل نفسه على الخوف قنط، ومن حمل نفسه على الرجاء تعطل، ولكن من هذه مرة، ومن هذه مرة.

وقال: العبودية اتباع الأمر فى مشاهدة الأمر.

وقال: الشكر معرفتك عجزك، والنعمة من كمال الشكر.

وقال: التصوف قطع العلائق، ورفض الخلائق، والاتصال بالحقائق.

وقال: علامة الشوق: محبة الموت فى حال الراحة.

وقال: الغيرة عمل المريدين، فأما أهل الحقائق فلا.

وقال: يستنير العارف بأنوار العلم، ويرى بها عجائب الغيب.

وقال: الربانى يتناول الطعام فى أربعين يوماً. والصمدانى يتناوله فى ثمانين يوماً.

وقال: مثل مجاهدة المرء فى تصفية القلب، مثل رجل يؤمر باجتثاث شجرة، فلا يستطيع مهما فكر. فيقول: أصبر، حتى أقوى وكلما تمهل فى اجتثاثها، تصير الشجرة أقوى، ويصير هو أضعف، ويصعب عليه اقتلاعها.

وقال: من آمن من الأولياء، فهو من الأولياء.

وقال: الولى قد يكون مشهوراً، ولا يكون مفتوناً.

يروى أنهم أحضروا الطبيب، لما مرض أبو عثمان فقال: إنما مثلى ومثل أطبائى كأخوة يوسف ويوسف كان يوسف. مدبراً بالقدرة، وإخوته يدبرون فيه وأنّى يغنى تدبير الخلق من تدبير القدرة؟!

يروى أنه رغب فى السماع عند الوفاة، وأوصى بأن يصلى عليه الإمام أبو بكر بن فورك. وقال هذا، ومات.

عليه الرحمة

ذكر أبى القاسم النصر آبادى[١٩٥] رحمة الله عليه

هوالعارف بالعشق، والمعرفة، وبحر الشوق والمكرمة. هو المجرب المحنك، والواهن الضعيف. هو أسير عالم الحرية، قطب الوقت أبو القاسم النصر آبادى عليه الرحمة.

كان رفيع الشأن، وحاز مكانة كبيرة، وكان شريفاً بين الأصحاب. وكان أوحد زمانه، ومشاراً إليه ـ فى عهده ـ فى أنواع العلوم خاصة فى الروايات العالية، وعلم الحديث، وكان له مصنف فيهما.

وله فى الطريقة آراء سديدة، ووله وشوق شديد. وكان أستاذ جميع أهل خراسان بعد الشبلى. وكان هو نفسه مريداً للشبلى، وكان قد أدرك الروذبارى والمرتعش، ورأى كثيراً من المشايخ الكبار. ولم يكن لأحد قط من متأخرى ذلك الوقت مكانته فى تحقيق العبادة. وكان فى الورع والمجاهدة، والتقوى والمشاهدة، بلا مثيل. وأقام فى مكة مجاوراً. وأخرجوه من مكة بسبب حال الشوق والمحبة والحيرة الذى كان قد غلبه.

كان قد عقد زناراً يوماً، وأخذ يطوف فى معبد المجوس. فقيل له: ما هذا الحال؟ فقال: حرت فى أمرى، فكثيرا ما بحثت عنه فى

الكعبـة، ولم أجـده الآن أبحث عنه فى الدير، لعلى أجد رائحـة له. وهكذا بقيت عاجزاً، ولا أعلم، ماذا أفعل؟

يروى أنه ذهب إلى يهودى يوماً، وقال: أيها السيد: أعطنى نصف دانق فضة؛ حتى أشرب فقاعاً من هذا الدكان. الخلاصة، جاءه أربع مـرات، وطلب منه نصف درهم. وكـان اليـهـودى يطرده فى غلظة وقسوة. ولم يغضب قط. وكل مرة كان يأتى فيها، كان يشعر ببهجة وسعادة بالغة. فتعجب اليهودى من صبـره على شدته وغلظته وقسوته، وقال: أيها الفقير! أى رجل أنت حتى تحتمل كل هذا الجفاء والقسوة من أجل نصف درهم، ولا تبرح المكان؟! قال النصر آبادى: ينتقل الفقراء من مكان لآخر وتجرى عليهم أمور فى بعض الأحيان، ولا يستطيع الجبل حمل أحمالهم. ولما سمع اليهودى ذلك، أسلم فى الحال.

يروى: أنه رأى خلقاً فى الطواف يوماً، انشغلوا بالأمـور الدنيـوية، وكانوا يتبادلون الحديث؛ فذهب، وأحضر جمرة نار وحطب فسئل: ماذا تفعل؟ قال: أريد أن أحرق الكعبة؛ حتى يفرغ الخلق من أمرها، ويتجهون إلى الله.

يروى أن رياحاً كانت تهب على الحرم وكان الشيخ قد جلس فى مواجهة الكعبة. وكانت أستار الكعبة جميعها قد رقصت بسبب تلك الرياح. فتـواجد الشيخ لذلك الحـال، ونهض من مكانه، وقـال: أيتـهـا العروس الحسناء! ارفعى رأسك، فقد جلست فى وسط المكان، وأنت

تتدللين مثل عروس، وقد ضحى الآلاف من الخلق بأراوحهم - تحت شوك أم غيلان - ظمأى وجوعى اشتياقاً لجمالك. فما هذا الدلال؟ فإنه إن قال لك «بيتى» مرة، فقد قال: «عبدى» سبعين مرة.

يروى أن الشيخ حج أربعين مرة متوكلاً. ورأى كلباً فى مكة يوماً، وقد أصابه الجوع والعطش والضعف. ولم يملك الشيخ شيئاً يمنحه له، فقال: من يشترى أربعين حجة برغيف؟ فجاء رجل، واشترى الأربعين حجة برغيف. وأشْهَدَ على ذلك. وقدم الشيخ ذلك الرغيف إلى الكلب. فشاهد حكيم محنك ذلك؛ فخرج من زاوية، ولكم الشيخ، وقال له: أيها الأحمق! هل ظننت أنك أبليت، ومنحت (ثواب) أربعين حجة فى مقابل رغيف! وقد باع أبى الجنة بحبتين من القمح! وفى هذا الرغيف أكثر من ألف حبة، فلما سمع الشيخ هذا، انزوى خجلاً، وشعر بالحرج.

يروى أنه أصيب بالحمى - مرة - على جبل الرحمة. وكانت الحرارة شديدة كما هو الحال فى الحجاز. فجاءه أحد أصحابه، وكان قد خدمه فى العجم. فوجده مصاباً بالحمى، وقد ارتفعت حرارته. فقال: أيها الشيخ! ألك حاجة؟ فقال له: تلزمنى شربة ماء بارد. سمع الرجل هذا الكلام، وأصابته حيرة، وأدرك أنه لن يجد هذا الطلب فى قيظ الحجاز هذا. فعاد، وأخذ يفكر. وكان فى يده إناء. وبينما كان يمضى فى الطريق، غامت الدنيا، وأخذت تمطر بَرَداً فى الحال. فعلم الرجل أن هذه كرامة للشيخ. وكان البَرَد يتجمع أمام الرجل. وكان

الرجل يضعه فى الإناء؛ حتى امتلأ. وذهب به إلى الشيخ، فقال له: من أين أتيت به فى مثل هذا القيظ؟ فقص الرجل الواقعة. ولم يعجب الشيخ قوله: هذه كرامة. فقال: أيتها النفس! كونى كما أنت، يلزمك ماء بارد، ولا تنسجمين مع النار الملتهبة. ثم قال للرجل: عد، فقد تحقق مرادك. واحمل الماء؛ فلن أشرب منه، فحمل الرجل الماء.

يروى أنه قال: ضعفت فى البادية مرة، فأيست من نفسى، فوقع بصرى على القمر، وكان ذلك بالنهار، فرأيت مكتوباً عليه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١٩٦) فقويت عزيمتى من ذلك الحديث.

يروى أنه قال: كنت فى الخلوة، فنوديت فى سرى: من منحك هذه الجرأة، حتى تتباهى فى حضرتنا، وتدعى فى محلتنا؟ فسوف نبتليك ببلاء، تفتضح به فى الدنيا! فأجبت: إلهى! إن لم تسامحنى - بكرمك - فى هذا الادعاء، لما عدت عن هذا الغرور والادعاء. فنوديت من الحضرة: سمعت كلامك، وقبلته.

وقال: ذهبت مرة لزيارة موسى صلوات الله عليه. فكنت أسمع من كل ذرة من ذرات ترابه: أرنى، أرنى.

وقال: كنت أمضى فى مكة يوماً، فرأيت رجلاً وقع على الأرض، وكان يرتعد. فأردت أن أقرأ «الحمد» عليه لعله ينجو من هذا البلاء. فجأة انبعث صوت صريح من بطنه، وترامى إلى سمعى [فحواه]: دعك من هذا الكلب، فإنه عدو أبى بكر رضى الله عنه.

يروى أنه كان يعظ فى مجلس يوماً فدخل شاب مجلسه، وجلس، ومضت فترة. فانطلق سهم من قوس الشيخ، وأصاب ذلك الشاب. فلما أصيب الشاب، صاح: انتهى. ونهض من المكان، وأسرع إلى المنزل. ولما أقبل على أمه، وقد اصفَر وجهه. سألته حين رأت هذا: هل أصابك مكروه؟ فقال: اسكتى، فقد تجاوز الأمر ما تظنين. وانتظرى، حتى أبقى فى البيت ساعة. ثم احضرى حمالين أو ثلاثة، حتى يأخذونى، ويحملونى إلى المقابر. وامنحى قميصى للمغسل، وقبائى لحفار القبر. ودعك من ربابتى، وقولى له: موتى كما عشتى. قال هذا، ودخل البيت، وأسلم الروح.

يروى أنه قيل للشيخ: إن علياً القوال يشرب الخمر بالليل، ويحضر مجلسك بالنهار. وعلمه الشيخ على الوصف الذى يقولون، لكنه لم يسمع لكلامهم. واتفق أن الشيخ كان يمشى يوماً، فوجد علياً مطروحاً فى موضع من شدة السكر. فلما رأى الشيخ ذلك من بعيد، تجاهله. فقال واحد من القوم للشيخ: «ها هو على القوال». فقال له الشيخ: احمله على رقبتك، وخذه إلى بيتك. ففعل الشيخ.

ويروى عنه أنه قال: أنت بين نسبتين: نسبة إلى آدم، ونسبة إلى الحق. فإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى ميادين الشهوات، ومواضع الآفات؛ لأن النسبة إلى الطبيعة، لا قيمة لها. وإذا انتسبت إلى الحق، بلغت مقامات الكشف والبرهان والعصمة والولاية. فهذه نسبة إلى آفة البشرية. وهذه نسبة إلى حق العبودية. ونسبة آدم منقطعة يوم

القيامة. ونسبة العبودية قائمة دائماً، ولا يتطرق إليها التغير. ولما ينسب العبد نفسه إلى الحق يصدق عليه قول الملائكة: «أتجعل فيها وما للتراب ورب الأرباب» وحين ينسب نفسه إلى نفسه، يكون أهلاً لقول الحق تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَجْزَنُون﴾(١٩٧).

وقال: أثقال الحق لا يحملها إلا مطايا الحق كما قال النبى ﷺ: إن لله تعالى أفراساً يركبهن جميعا.

وقال: من صحت نسبته إلى الحق تعالى، لا تؤثر فيه منازعة الطبع، ووسوسة الشيطان.

وقال: من تمكن من ذكر الحق تعالى، ليس مضطراً. والمضطر من ليست لديه وسيلة يذكر بها الحق تعالى.

وقال: من دل المريدين - فى هذا الطريق - بالعلم، أفسدهم. ومن دلهم بالسر والحياة، أرشدهم إلى الحياة.

وقال: ما ضل أحد فى هذا الطريق، إلا بفساد الابتداء؛ فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء.

وقال: إذا بدا لك شيء من بوادى الحق، فلا تلتفت - معه - إلى جنة ولا إلى نار، وإذا رجعت عن ذلك الحال، فعظم ما عظمه الله تعالى.

وقال: الراغب فى العطاء لا مقدار له؛ والراغب فى المعطى عزيز.

وقال: العبادات إلى طلب الصفح، والعفو عن تقصيرها، أقرب منها إلى طلب الأعواض، والجزاء بها.

وقال: موافقة الأثر حسن، وموافقة الأمر أحسن. ومن وافق الحق ـ فى لحظة أو خطرة ـ فإنه لا تجرى عليه بعد ذلك مخالفة بحال.

وقال: إذا أخبر عن آدم ـ بصفة آدم ـ قال ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ﴾(١٩٨) وإذا أخبر عنه ـ بفضله عليه ـ قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(١٩٩).

وقال: وصف الحق تعالى أصحاب الكهف ـ فى كلامه ـ بالفتوة؛ لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة.

وقال: الحق تعالى غيور، ومن غيرته: أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه.

وقال: الأشياء أدلة منه، ولا دليل عليه سواه.

وقال: يمكن إدراك المعرفة باتباع السنة، وقرب الحق تعالى بأداء الفرائض، والمحبة بالمواظبة على النوافل.

وقال: من لا يحظى بأدب النفس، لا يمكن أن يحظى بأدب القلب. ومن لا يحظى بأدب القلب، كيف يمكنه أن يحظى بأدب الروح؟ ومن لا يحظى بأدب الروح، كيف يحظى بقرب الحق تعالى؟ بل كيف يمكن أن يطأ بساط الحق ـ جل وعلا ـ إلا من كان قد تأدب بفنون الآداب، وكان أميناً فى السر والعلانية.

قيل له: إن بعض الناس يجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم فى رؤيتهن. فقال: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر والنهى باق،

والتحليل والتحريم مخاطب بهما. ولن يجترئ على الشبهات إلا من يتعرض للمحرمات.

وقال: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وقيل له: أكان لك ما كان للمشايخ؟ فقال: لا. لكننى أشعر بالعجز والحسرة لذلك.

وسئل ما كرامتك؟ فقال: شردت من نصر آباد إلى نيسابور، وألقى بى إلى الشبلى وفى كل سنة كان ألفان أو ثلاثة آلاف رجل يهتدون إلى الله تعالى بفضلى، وأنا فان.

وقيل له: ما حرمتك؟ قال: أن أنزل من فوق المنبر، وألا أتفوه بهذا الكلام؛ لأننى لا أرى نفسى جديراً بقوله.

وقيل له: ما التقوى؟ فقال: أن يتقى العبد ما سوى الله عز وجل.

وسئل عن معنى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢٠٠) فقال: من شكر نعمة الحق تعالى، زادت نعمته، ومن شكر المنعم، زادت محبته ومعرفته.

وسئل: أتحظى بشىء من المحبة؟ فقال: صدقتم، ولكنى أحترق بها.

وقال: المحبة عدم الخروج من الفقر بالحال الذى كنت عليه.

وقال: محبة توجب حقن الدماء، ومحبة توجب سفك الدماء.

وقال: أهل المحبة واقفون مع الحق على مقام، إن تقدموا، غرقوا، وإن تأخروا، حجبوا.

وقال: الراحة ظرف مملوء من العتاب.

وقال: من وجد القلب، ظهرت بركاته على البدن. ومن وجد الروح، ظهرت بركاتها على القلب.

وقال: سجنك نفسك. فإذا خرجت منها، وقعت فى راحة أبدية. فاذهب حيثما شئت.

وقال: كثيراً ما طفت حول العالم، ولم أجد هذا الحديث فى دفتر قط، إلا فى ذل النفس.

وقال: التذكر أوله التمييز، وآخره سقوط التمييز.

وقال: للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق.

وقال: من انتابه حالهم (الصوفية)، لا يبق له أثر ولا قرار.

وقال: قل لمن أراد أن يبلغ محل الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقال: الإشارة من رعونات الطبع، لا يستطيع أن يخفيها فى السريرة؛ لأنها تظهر فى الإشارة.

وقال: المروءة شعبة من الفتوة، وهو الإعراض عن الكونين، والأنفة منهما.

وقال: التصوف نور من الحق، يدل عليه. وخاطر منه، يشير إليه.

وقال: الرجاء يحرك إلى الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصى، والمراقبة تؤديك إلى طرق الحقائق.

وقال: الزهد حقن دماء الزاهدين، وسفك دماء العارفين.

يروى عن الرسول ﷺ أنه قال: يحمل الملائكة بعض (تراب) المقابر يوم القيامة، وينثرونه فى الجنة دون حساب. وقال الرسول عليه السلام: البقيع من بينها. وبحكم هذا الحديث، حفر الشيخ أبو عثمان المغربى رحمة الله عليه ـ الذى سبق ذكره ـ قبراً لنفسه فى البقيع، وجهزه؛ ليدفن فيه إذا مات. ومضت فترة. وحدث أن وصل أبو القاسم النصر آبادى إلى هناك، ورأى ذلك القبر. فسأل: لمن حفر هذا القبر؟ قالوا: لقد حفره أبو عثمان المغربى لنفسه. وحدث أن الشيخ أبا القاسم كان قد حفر لنفسه قبراً فى البقيع؛ ليدفن فيه، وكان يهتم به. رأى الشيخ أبا القاسم النصر آبادى يوماً، فقال له: ربما كان رجل قد حفر لنفسه قبراً هنا. فرأى فى المنام ليلة: أن نعوشاً كانت ترفع فى الهواء، وتحضر. فسأل، ما هذا؟ فقيل له: من لم يكن من أهل هذه القبور، ويؤتى به إلى هنا ، يُرفع من المكان، ويحمل إلى مكان آخر. ومن دفن فى مكان آخر، وكان من أهل هذه القبور، يعاد إليها. وها هى النعوش تُحمل وتُحضر. ثم قال: يا أبا عثمان! سوف أدفن أنا فى هذا القبر الذى حفرته أنت. وسيكون قبرك فى نيسابور. فحزن أبو عثمان لهذا الكلام. ثم حدث أن أخرج من البيت، وقدم

إلى بغداد، ولسبب ما اتجه من بغداد إلى الرى، ومن الرى إلى نيسابور، وتوفى فى نيسابور، ودفن فى الحيرة. لكن ذلك المنام الذى يذكر عن الشيخ أبى القاسم يمكن أن يكون رجلاً آخر رآه، لا النصر آبادى، والروايات مختلفة فى ذلك.

ويروى أن الأستاذ إسحق الزاهد كان يكثر من الحديث عن الموت، وكان زاهد خراسان. وكان الشيخ أبو القاسم النصر آبادى يجادله، ويقول: يا أستاذ! لِمَ تتحدث عن الموت، ولا تتحدث عن الشوق والمحبة؟

لما حانت وفاة الشيخ أبى القاسم. كان فى المدينة. وكان رجل من نيسابور يقوم على خدمته. فقال له: قل للأستاذ إسحق حين ترجع إلى نيسابور: يقول النصر آبادى كل ما قلته عن الموت صحيح؛ فالموت أمر صعب. ففكر فى الموت دائماً، واذكره.

يروى أنه لما توفى أبو القاسم، دفن فى ذلك القبر الذى كان أبو عثمان المغربى قد حفره.

يروى أن أحد المشايخ رآه فى المنام بعد وفاته، فقال له: ماذا فعل الله بك أيها الشيخ؟ فقال: عوتبت عتاب الأشراف، ثم نوديت: يا أبا القاسم! أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال، فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بالأحد.

رحمة الله عليه

ذكر أبي العباس النهاوندي[201] رحمة الله عليه

هو محتشم الزمان، والمحترم بين الأخيار. هو كعبة المروءة، وقبلة الفتوة. هو الحكيم الشيخ أبو العباس النهاوندي رحمة الله عليه.

كان أوحد عهده، ومن جلة الأصحاب. وله في التمكين قدم راسخة، وفي الورع والمعرفة شأن عظيم.

يروى أن الشيخ قال: في البداية، لما أقدمت على هذا الأمر، أُشير علي بالمراقبة.

ويروى عنه، أنه قال في بداية سلوكي للطريق، كنت قد طأطأت رأسي في تلابيبي اثنتي عشرة سنة، حتى بدت لي فلذة القلب.

وكان قد جرى على لسانه ذات مرة: يرجو العالم بأسره أن يكون الحق معهم لحظة. وأنا أرجوه أن يتركني لنفسي لحظة، ويعيدني إليّ. فأي شيء أكون أنا؟ ومن أين أنا؟ ولا تزول هذه الرغبة قط.

ومن أقواله: اكثروا الجلوس إلى الله، وأقلوه إلى الخلق.

وقال: آخر الفقر، أول التصوف.

وقال: التصوف ستر الحال، وبذل الجاه للإخوان.

يروى أن درويشاً جاءه يوماً، وقال: أيها الشيخ! ادع لى. فقال: ليسعد الله تعالى أوقاتك.

يروى أن الشيخ كان يجيد حياكة القلانس، وكان يشتغل بهذا العمل أحياناً، وكل قلنسوة كان يحيكها، لم يكن يبيعها بأكثر من درهم أو درهمين. فكان يعطى درهماً لذلك الرجل الذى كان يبيعها؛ ليمنحه لأول رجل يصادفه. وكان ينفق الدرهم الآخر على الطعام، وكان يأتى إلى الزاوية، ويتناوله مع الدراويش. بعد ذلك كان يواصل عمله، ويحيك قلنسوة أخرى.

يروى أن مريداً ثرياً كان للشيخ، ووجبت عليه الزكاة، فجاء إلى الشيخ يوماً، وقال: أيها الشيخ! لمن أمنح الزكاة؟ قال: لمن يطمئن له قلبك. مضى ذلك الرجل، فرأى درويشاً ضريراً على قارعة الطريق، كان ظمآناً، وكان يستجدى الناس، وبدا عليه الفقر. فاطمئن إليه قلبه، لأنه ضرير، ويستحق الزكاة. فاخرج كيس ذهب خالص، وأعطاه له. قبض الضرير عليه بيده، ووزنه، فوجده ثقيلاً، فعرف أنه ذهب، وسر. ومضى الرجل، وفى الصباح مر على هذا المكان فى طريقه، فرأى ذلك الضرير يقول لضرير آخر بالأمس مر رجل من هنا، ومنحنى ذهباً خالصاً، فذهبت إلى الحان الفلانى، ولهوت مع الغانية فلانة من الليل وحتى الصباح. لما سمع مريد الشيخ ذلك، اضطرب، ومثل أمام الشيخ، وأراد أن يتحدث عن حال الضرير. كان الشيخ قد باع قلنسوة، فأعطاه درهماً ـ كالعادة ـ وقال: اذهب، وامنحه لأول رجل يصادفك. أخذ المريد الدرهم، ومضى. وكان أول من صادفه

علوياً، فمنحه الدرهم بسرعة. أخذ العلوى الدرهم، ومضى. فقال الرجل: تمهل؛ حتى يتعقبه، ويرى فى أى شىء سينفق هذا الدرهم؟ وتعقبه. ووصل العلوى إلى خرابة، ودخل فيها، وسحب حجلة ميتة من تحت ردائه، وألقى بها فى الخرابة، وخرج. قال المريد: أيها الفتى، بالله عليك، قل الصدق. ما هذا الحال؟ وما هذه الحجلة الميتة التى ألقيتها هنا. فقال له اعلم، أننى إن بحت بما حل بى، فقد شكوت من الحق تعالى، لكن مادمت أقسمت على بغليظ الإيمان، ينبغى على البوح لك. إننى رجل فقير، ولدى عيال، ولم نجد الطعام أنا وزوجتى وأولادى منذ سبعة أيام. وقلت: إن صبرت أنا وزوجتى، فلن يصبر الأطفال. وهذا الطير مباح لهم فلأحمله، حتى يتناولوه. وكان يشق على ذل السؤال، أو أن استجدى الغير من أجل النفس. وكنت أقول: إلهى! إنك تعلم حالى وحال عيالى، وتعرفه. وقد وصل العوز إلى غايته. ولا يطيب لى استجداء الناس. وفى أثناء ذلك الدعاء منحتنى أنت هذا الدرهم. ولما وجدته حلالاً، ذهبت، وألقيت بهذا الطائر. والآن أحمله، وانفقه على الطعام. فتعجب الرجل، وقال: ما أعجب هذا الحال. ثم مثل أمام الشيخ، وقبل أن يحكى له، قال الشيخ: أيها الرجل! يبدو أنك تتعامل مع المحتسب، وتبيع، وتشترى مع الظالمين؛ ولا جرم أن المال الذى جمعته كان من حرام، وتذهب زكاته لمثل هذا الرجل الذى يشرب الخمر. فأصل المعاملة رعاية الدخل والإنفاق. وأن كل ما تتصدق به ينبغى أن يكون مثل هذا الدرهم الذى كسبته، واستحقه العلوى لاجرم. وقد وصل الحق إلى المستحق.

يروى أن مجوسيا كان قد سمع: أنه يوجد بين المسلمين كثير من أصحاب الفراسة. فسافر من هناك إلى دار السلام، وارتدى مرقعة، وسار فى الطريق متشبهاً بالمتصوفة، وكان يمسك بعصا، حتى دخل خانقاه الشيخ أبى العباس القصاب. وكان الشيخ رجلاً صارماً فلما وقع نظره عليه، قال: من هذا الغريب؟ وما شأنه بالعارفين؟ قال المجوسى: انكشف الأمر، وخرج من الخانقاه. واتجه إلى خانقاه الشيخ أبى العباس النهاوندى، ونزل فيها. فطم الشيخ بأمره، ولم يقل شيئاً، واهتم به كثيراً، حتى أعجب المجوسى بحسن خلقه، وأقام هناك أربعة أشهر، كان يتوضأ - خلالها - معهم، ويصلى، وبعد أربعة أشهر عزم على الرحيل. فهمس الشيخ فى أذنه قائلاً: ليس من المروءة أن تأتى، وتأكل العيش والملح مع الفقراء، وتصحبهم، ثم تمضى كما جئت، أى تأتى غريباً، وتمضى غريباً. فأسلم المجوسى فى الحال، وأقام فى الخانقاه، وسلك الطريق، ووصل فيه إلى حد أن الأصحاب اتفقوا على أن يجعلوه خليفة للشيخ بعد وفاته.

رحمـة الله عليه

ذكر الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير[٢٠٢] رحمة الله عليه

هو الفانى المطلق، والباقى بالحق. هو المحبوب الإلهى، والمعشوق اللامتناهى. هو عزيز المملكة، وبستان المعرفة. هو عرش فلك السير، قطب العالم أبو سعيد بن أبى الخير قدس الله سره.

كان سلطان الأكابر والمشايخ جميعاً فى عهده. ولم تذكر عن أحد قط مثل هذه الكرامات والرياضات التى كانت له. ولم يحظ شيخ قط بمثل هذا القدر من الشرف الذى كان له.

بلغ الكمال فى أنواع العلوم، وقيل كذلك: إنه كان قد حفظ ثلاثين ألف بيت من الشعر فى بداية أمره، وله حظ وافر فى علم التفسير والأحاديث والفقة وعلم الطريقة. وبلغ أقصى غاية فى إدراك عيوب النفس ومخالفة الهوى. وله شأن عظيم فى الفقر والفناء والذل والتحمل. وكان آية فى اللطف والموافقة خاصة فى الفقر؛ لهذا قيل: كل مكان يذكر فيه كلام أبى سعيد، تطرب فيه القلوب؛ لأنه لم يبق من أبى سعيد شيئاً مع بقاء أبى سعيد. ولم يقل أنا أو نحن قط، بل كان يقول هم. وأنا (الكاتب) أقول: أنا ونحن بدلاً من هم؛ حتى يفهم الكلام. ويدعى والده أبو الخير، وكان عطاراً.

يروى أن أباه كان نديماً للسلطان محمود الغزنوى، كما أنه كان قد شيد قصراً، ونقش على جدرانه جميعها صورة محمود وجنوده وأفياله. كان الشيخ طفلاً، فقال: يا بابا! ابن لى داراً . وكتب أبو سعيد على جدران تلك الدار جميعها الله. فقال له أبوه: لماذا تكتب هذا؟ فقال: إنك تكتب اسم سلطانك، وأنا أكتب اسم سلطانى. فسر والده، وندم على ما كان قد فعله، ومحا تلك النقوش، واهتم بأمر الشيخ.

يروى أن الشيخ قال عندما كنت أتعلم القرآن، اصطحبنى والدى إلى صلاة الجمعة. وفى الطريق إلى المسجد قابلنا الشيخ أبا القاسم الجرجانى، وكان من المشايخ الكبار. فقال لأبى: لا يمكن أن أرحل عن الدنيا وأنا أرى مقام الولاية خالياً، والفقراء ضائعين. والآن وقد رأيت ولدك، اطمأننت أن العالم سيكون له نصيب من هذا الصبى. ثم قال: لما تفرغ من الصلاة، أحضره إليه. بعد الصلاة أخذنى أبى إلى الشيخ، وجلسنا . وكانت هناك كوة مرتفعة جداً فى تلك الصومعة. فقال لأبى: ارفع أبا سعيد على كتفك، ليأتى برغيف من تلك الكوة. فرفعنى والدى، ووضعت يدى فى الطاق، وانزلت الرغيف. وكان رغيف شعير ساخن جداً إلى حد أن يدى أحرقتنى من سخونته . قسمه الشيخ إلى نصفين، وأعطانى نصفاً، وقال: كله، وأكل هو النصف الآخر ولم يعط أبى شيئاً. لما أخذ أبو القاسم الرغيف، فاضت عينه بالدمع. قال أبى: كيف لا تعطنى نصيباً منه لأتبرك به! فقال أبو القاسم: منذ ثلاثين سنة وذلك الرغيف فى تلك الكوة. وكنا قد وعدنا بأن من يصير هذا الرغيف ساخناً فى يده،

سوف يستقيم هذا الأمر به. الآن، أبشر؛ فهذا الرجل سوف يكون ابنك. ثم قال: احفظ كلماتنا هذه : «لئن ترد همتك مع الله طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس» وقال لى الشيخ مرة أخرى: يابنى! هل ترغب فى التحدث إلى الله؟ فقلت: نعم. قال: قل هذا الشعر فى الخلوة:

إننى لا أستطيع القرار دونك لحظة

ولا أستطيع إحصاء نعمتك على.

إن صارت كل شعرة على جسدى لسانًا

ما استطعت شكر واحد من ألف من نعمك.

فكنت أردد هذين البيتين كل يوم، حتى تيسر لى الطريق إلى الحق ببركة هذين البيتين.

وقال: كنت قادماً من الكُتَّاب يوماً وكان هناك رجل ضرير، دعانى إليه، وقال: أى كتاب تقرأ؟ قلت: الكتاب الفلانى. فقال: لقد قال المشايخ: «حقيقة العلم ما كشف على السرائر»، ولم أكن أعرف مامعنى الحقيقة؟ وماذا يكون الكشف؟ وبعد ست سنوات تعلمت فى مرو على يد عبدالله الحصرى. ولما توفى، تعلمت - خمس سنوات أخرى - على يد الإمام القفال(٢٠٣) كما أننى كنت منشغلاً طوال الليل بالعمل، وفى التكرار طوال النهار. حتى جئت إلى الدرس مرة، وقد أحمرت عيناى. فقال القفال: انظروا! بأى أمر انشغل هذا الفتى ليلاً؟ وكان يسيىء الظن بى. فجلست، وأنصت، وطأطأت رأسى خجلاً،

وكنت أردد الذكر فى كهف، وكان الدم يسيل من عينى؛ لأن الأستاذ قال لى - يوماً - كلاماً بهذا المعنى.

وذهبت من مرو إلى سرخس، وتعلقت بأبى على الزاهد، وكنت أصوم ثلاثين يوماً، واتعبد.

وقال: ذهبت - يوماً - إلى الشيخ لقمان السرخسى، فرأيته جالساً على تل يخيط قطعة جلد بالية، وربطها على خشبة وأوتار، وكأنها رباب، وقد ألقيت القاذورات حوله. وكان من عقلاء المجانين، ولما وقعت عيناه على، أخذ بعض القاذورات، وقذفنى بها. فكشفت له صدرى، وتلقيتها عن طيب خاطر. وقلت له: اضرب بالرباب. فقال لى: يابنى! لقد خطتك مع هذه الرقعة. فقلت: الأمر لك. فكان يسرجها، وقال: لقد خطتك هنا. ثم نهضت. فأمسك بيدى، وكان يصطحبنى. وفى الطريق قابلنا الشيخ أبا الفضل حسن - الذى كان أوحد عهده - فقال: يا أبا سعيد ليس هذا هو الطريق الذى تسلكه، فامض فى طريقك. ثم وضع يدى فى يد الشيخ لقمان، وقال: ارع هذا الفتى؛ لأنه منكم. فتعلقت به. وقال الشيخ أبو الفضل: يابنى! إن المائة والأربعة وعشرين ألف نبى الذين أرسلوا، كانت لهم جميعاً كلمة واحدة. وقد أمروا بأن يقولوا للخلق: الله واحد، فأقروا بوجوده، وأطيعوه. والرجال الذين أدركوا هذا المعنى، كانوا يرددون هذه الكلمة، حتى صاروا هذه الكلمة، وبدت عليهم، فأصبحوا فى غنى عن قولها. واستغرقوا فى هذه الكلمة. وشغلنى هذا القول، حتى حرمنى النوم فى تلك الليلة وفى اليوم التالى، ذهبت إلى الدرس.

وكان أبو على يفسر هذه الآية: «قل الله ثم ذرهم» وفى تلك اللحظة فُتح باب فى صدرى، وغبت عن نفسى. ورأى الإمام أبو على ما طرأ على من تغير، فقال: أين كنت بالأمس؟ فقلت: عند الشيخ أبى الفضل. فقال لى انهض الآن، فحرام عليك أن تترك ذلك الدرس إلى هذا. فذهبت إلى الشيخ والهاً حائراً لهذا الكلام، فلما رآنى الشيخ قال: «مستك شدة» فلا تعرف ما أمامك أو خلفك! فقلت: يا شيخ! بم تأمر؟ فقال: ادخل، افن فى هذه الكلمة؛ فهذه الكلمة ستفعل بك الكثير. فاستغرقت فى هذه الكلمة فترة. فقال لى الشيخ: الآن تغزو الجيوش صدرك، وتأسرك؛ فانهض، واختل. ثم اعتزلت فى زاوية ثلاثين سنة، وضعت خلالها القطن فى أذنى، وكنت أقول: الله الله وكلما غلبنى النوم أو الغفلة، ظهر لى من أمام المحراب زنجى مهيب وفى يده حربة من نار، وصرخ فى قائلاً: قل الله. فأخذت كل ذرة من ذرات كيانى تردد: الله، الله.

يروى أنه ملك ثوباً واحداً فى هذه المدة، وكلما تمزق، خاط عليه رقعة، حتى بلغ وزنه عشرين مناً. وكان صائم الدهر ، وكان يفطر كل ليلة برغيف من الخبز. ولم يكن ينام - ليلاً أو نهاراً - طوال هذه المدة، وكان يغتسل لكل صلاة، ويتجه إلى الصحراء، ويأكل العشب. وكان أبوه يبحث عنه، ويحمله إلى البيت، فكان يفر ثانية، ويتجه إلى الصحراء.

يروى أن أبا الشيخ قال: كنت أغلق الباب بالسلاسل، وانتظر حتى ينام، وكنت أقول: لقد نام. وكنت أنام أيضاً. واستيقظت من النوم -

ذات ليلة - فى منتصف الليل، فلم أر أبا سعيد. وكنت أبحث عنه، ولم يكن فى الدار. وكان الباب لا يزال مغلقاً بالسلاسل. فراقبته عدة ليال. فكان يدخل الدار عند الفجر فى هدوء، ويرتدى ثياب النوم. ولم أظهر له شيئاً. وكنت أرقبه ليلة، كلما كان يسير، كنت أتبعه. حتى وصل إلى رباط، ودخل مسجد، وأغلق الباب،ووضع خشبة خلفه. وكنت أرقبه من الخارج. ووقف للصلاة فى زاوية ذلك المسجد. ولما فرغ من الصلاة. كان هناك بئر، فربط قدميه بحبل، ووضع الخشبة على فوهة البئر، وعلق نفسه، وأخذ يقرأ القرآن، حتى ختمه فى السحر. عندئذ خرج من البئر، وانشغل بالضوء فى الرباط. فعدت إلى المنزل، ونمت مطمئناً، حتى دخل، ونام كعادته فى كل ليلة. ثم قمت، وتركته. وبعد ذلك أيقظته كالعادة، وذهبت للصلاة مع الجماعة. وبعد ذلك راقبته عدة ليال، فكان يواظب على ذلك قدر استطاعته، ويقوم على خدمة الفقراء، ويتسول من أجلهم، ويصحبهم.

يروى أنه كان - إن اعترضته مشكلة - يذهب إلى سرخس فى الحال، معلقاً فى الهواء فيما بين السماء والأرض، ويسأل الشيخ أبا الفضل فيها. وفى أحد الأيام قال مريد للشيخ أبى الفضل: إن أبا سعيد يأتى معلقاً فيما بين السماء الأرض. فقال الشيخ: أرأيت ذلك؟ قال: نعم. فقال له: إنك لن تموت حتى يكف بصرك. وكف بصره فى أواخر عمره.

يروى أن الشيخ أبا الفضل أرسل أبا سعيد إلى عبدالرحمن السلمى؛

فارتدى الخرقة على يديه. وعاد إلى أبى الفضل. قال الشيخ: الآن تم الأمر، وينبغى عليك الرحيل إلى ميهنة؛ لتدعو الخلق إلى الله.

يروى: أن أبا سعيد طاف فى الصحراء سبع سنوات أخرى، وكان يقتات من نباتاتها، ويرافق السباع، وكان فانياً خلال هذه المدة، ولم تؤثر فيه حرارة أبو برودة حتى هبت ريح صرصراً وعاصفة ثلجية يوماً خيف معها أن يصاب الشيخ بضرر فقال: لا يخلو هذا من سر؛ فاتجه إلى العمران، حتى وصل إلى قرية، فرأى منزلاً، وقد أشعلت عجوز وشيخ النار، وكانا قد أعدا طعاماً . سلم الشيخ، وقال: أتريدان ضيفاً؛ قالا: نعم. دخل الشيخ، وشعر بالدفء، وأكل شيئاً، واستراح، واستند إلى حائط، واستغرق فى النوم. فسمع صوت رجل كان يقول: إن فلاناً كان يأكل العشب عدة سنوات، ولم يسترح أحد قط هكذا. ثم قيل له: اذهب، فإننا لسنا فى حاجة لك واختلط بالناس؛ حتى يطمئن قلبك.

ولما عاد الشيخ إلى ميهنة، تاب خلق كثير على يديه. وسكب جيرانه جميعاً الخمر، ووصل بهم الأمر إلى حد أنهم كانوا يشترون قشرة بطيخ وقعت من يده بعشرين ديناراً. وبالت دابته مرة، فمسحوا ببولها رؤوسهم ووجوههم.

وقال: دفنا الكتب جميعها، وشيدنا فوقها دكاناً. إن أعطيت أو اشتريت، كنت انتظر المنة بإمكان الرجوع إلى المسألة. من وقد بقيت لنا، ولم نبق نحن فنوديت من زاوية المسجد: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾(٢٠٤). فظهر نور فى صدرى، وكشفت الحجب. فأنكرنا من

كان قد قَبِلنا، ووصل بهم الأمر إلى أنهم ذهبوا إلى القاضى، وشهدوا على كفرى، واطلقوا على مانى فى كل أرض دخلتها. ولم يكن ينبت فيها نبات بشؤم ذلك. وكنت قد جلست فى المسجد يوماً، فاعتلت النساء الأسطح، ونثرت الرماد على رأسي. ونوديت: أو لم يكف بربك. وامتنع الناس عن صلاة الجماعة، وقالوا: لقد جن هذا الرجل! وحدث أن كل من كان فى المدينة، كان يحتفظ بقبضة قمامة، وينتظر، حتى أصل إلى ذلك المكان، فيلقيها على رأسى.

وقال: عزمت على زيارة الشيخ أبى العباس القصاب؛ فقد كان نقيب المشايخ. وكان الشيخ أبو الفضل قد توفى، وكنت أمضى فى قبض تام، فرأيت شيخاً فى الطريق، كان ينثر البذور، اسمه أبو الحسن الخرقانى. فلما رآنى، قال: إن ملأ الحق تعالى العالم بالذرة، وخلق طائراً، وأشعل فى صدره نار هذا الحديث، وقال له: إنك لن تصل إلى مرادك، حتى يأكل هذا الطائر كل ما فى العالم من الحب، وستكابد هذه الحرقة والألم، يا أبا سعيد! ليس هناك وقت لهذا الكلام، فزال حال القبض عنى، وانفرجت الأزمة.

يروى أنه ذهب إلى أبى العباس القصاب فى آمل، وظل هناك مدة. فمنحه أبو العباس زاويةً فى مواجهة زاويته، وكان الشيخ يقيم فيها دائماً، وينشغل بالمجاهدة والذكر، ويثبت عينيه على ثقب بالباب، ويراقب أحوال الشيخ أبى العباس. كان الشيخ أبو العباس قد احتجم ذات ليلة، وانفتح العِرق، فتلوث ثوبه. فخرج (أبو سعيد) من زاويته مسرعاً، وضمد عرقه، وأخذ ثوبه، وأعطاه ثوبه، فارتداه.

وغسل ثوب أبى العباس، وجففه فى الليل، وحمله إليه. فقال له الشيخ أبو العباس: هو لك فالبسه، ثم منحه رداءه بيده، فارتداه أبو سعيد. وفى الصباح، رأى الأصحاب أبا سعيد مرتدياً ثوب الشيخ، والشيخ مرتدياً ثوب أبى سعيد. فتعجبوا! فقال أبو العباس: لقد كانت كل الهبات بالأمس من نصيب هذا الفتى الميهنى، باركه الله. ثم قال لأبى سعيد: عد، واذهب إلى ميهنة، فسوف يرفعون هذا العلم على باب بيتك فى غضون أيام. وعاد الشيخ بمائة ألف فتح بحكم الإشارة.

يروى أن الشيخ ارتاض رياضة شاقة إلى حد أنه فى الوقت الذى كان قد تزوج فيه، وأنجب، كان منشغلاً بالرياضة. وقال: إننى لم فعل ما ينبغى على فعله؛ حتى ينكشف لى الحجاب كلية، ويتحطم الصنم. وكنت ـ ذات ليلة ـ فى البيت مع جماعة، وقلت لأم أبى طاهر(٢٠٥) أن تربط قدمىَّ بوثاق محكم، ففعلت، وجعلت رأسى إلى أسفل، ومضت، وأغلقت الباب. وكنت أقرأ القرآن، وقلت: أختمه وأنا على هذا الحال. وفى النهاية سال الدم على وجهى، وخفت أن تصيب عينى آفة، فقلت: لا فائدة. لابد لى من ختمه سواء أصيبت عينى، أو لم تصب. وسال الدم من عينى على الأرض، وكنت قد وصلت إلى الآية: «فسيكفيكهم الله». وفى الحال، زال هذا الأمر، وتحقق المراد.

وقال: كان هناك جبل وتحته غار. من كان ينظر فيه، كان يفزع. فذهبت إلى هناك، وقلت لنفسى: إن سقطتِ هنا، متِ؛ فلا تنامى،

ولتختمي القرآن. فجأة سجدت، وغلبني النوم، فسقطت. ولما استيقظت، رأيت نفسي في الهواء، فطلبت النجدة؛ فرفعني الحق تعالى إلى قمة الجبل.

يروى أنه كان قد نزل تحت شجرة صفصاف، ونصب خيمة، وكانت جارية تركية تدلك له قدمه، وقد وضع كأس شراب بجوار فراشه. وكان مريد قد ارتدى ثوباً من الجلد، ووقف في الشمس الحارقة، فكانت عظامه تتكسر من حرارة الشمس، وكان العرق يتصبب منه، حتى نفذ صبره، وفكر قائلاً: إلهي! إنه عبدك وينعم بالعز والرفاهية. وأنا عبدك، ولكني فقير ومسكين وعاجز. أدرك الشيخ ذلك في الحال، فقال: أيها الفتى! لقد ختمتُ القرآن ثمانين مرة وأنا مطأطأ الرأس، ومعلق في هذه الشجرة التي ترى. وعلى هذا النحو كان يربي المريدين.

يروى أن ابن سيد مر بمجلسه، وسمع كلامه، فتأثر به، وتاب. وانفق كل ما ملك من ذهب وفضة ومتاع في سبيل الشيخ. فأنفقها الشيخ كلها - في ذلك اليوم - على الفقراء، ولم يدخر شيئاً قط لغد. ثم أمر ذلك الفتى بالمداومة على الصوم والذكر، وقيام الليل، وتنظيف المرحاض لمدة سنة، وإعداد الطوب اللبن. وأمره برعاية الحمام، وخدمة الفقراء في العام التالي. وأمره بالتسول في عام آخر. وكان الناس يملأون له الزنبيل عن طيب خاطر؛ لأنهم كانوا يعتقدون فيه. بعد ذلك احتقره الناس، ولم يعطوه شيئاً. وكان الشيخ قد قال للأصحاب أيضاً: ألا يلتفتوا إليه، ويطردوه، ويجافونه، ولا يحتكون

به. وكان يتأذى منهم طوال اليوم. لكن الشيخ أحسن إليه، ثم أخذ فى مضايقته بعد ذلك، ووبخه أمام الجمع، وزجره، وطرده، وظل على هذا الحال. وحدث أن تسول المريد ثلاثة أيام متتالية، ولم يمنح زبيبة. ولم يكن قد أكل خلال هذه الأيام الثلاثة، ولم يفطر؛ لأن الشيخ كان قد أمر بألا يمنح شيئاً فى الخانقاه. وفى الليلة الرابعة، عقد مجلس سماع فى الخانقاه، وكانت الأطعمة الشهية قد أعدت وقال الشيخ للخادم: لا تمنحه شيئاً. وقال للمريدين: لا تسمحوا له (بالدخول)، إن جاء. فعاد ذلك الفتى فارغ الزنبيل، خجلاً. وقد غلبه الجوع ثلاثة أيام بلياليها، وانتابه ضعف. فاتجه إلى المطبخ، فلم يسمحوا له. ولما وضعوا المائدة، لم يفسحوا له مكاناً، فكان يقف. ولم يهتم به الشيخ أو أصحابه. ولما فرغوا من الطعام، نظر إليه الشيخ، وقال: أيها الملعون المطرود التعيس، لماذا لا تذهب إلى عملك؟ وضربوا الفتى الضعيف الجائع، وأخرجوه، وأغلقوا باب الخانقاه. فيئس الفتى من الخلق كلية، وقد ضاع ماله وجاهه، ولم يحظ بالقبول، أو يفز بالدين، وولت الدنيا عنه. فدخل مسجد وهو فان وعاجز، وعفر وجهه بالتراب، وقال: إلهى! إنك تعلم، وترى كيف طردت، ولم يقبلنى أحد، ولن يرحمنى إلا أنت، ولن ألوذ إلا بك، وكان ينتحب، ويبلل أرض المسجد بدم عينيه. فانتابه حال فجأة، وآلت إليه تلك السعادة التى كان ينشدها، فمثل وغلبه السكر. نادى الشيخ أصحابه فى الخانقاه قائلاً: أضيئوا الشمع؛ حتى نمضى. وكان الشيخ وأصحابه يذهبون إلى ذلك المسجد. فرأى الشاب وقد عفر وجهه بالتراب، وأخذ يذرف الدمع. ولما رأى الشيخ والأصحاب،

قال: أيها الشيخ! ما هذا الإزعاج الذى سببته لى، فقد أخرجتنى من حال انتابنى. فقال له الشيخ: عليك أن تأكل، وكل ما وجدته، نحن شركاء فيه. قال الشاب: أيها الشيخ! أطاوعك قلبك على أن تجافينى كل هذا الجفاء؟ قال الشيخ: يا بنى! لقد يئست من الخلق جميعهم. وكان أبو سعيد حجاب بينك وبين الله، ولم يبق لك خبر عن هذا الصنم قط. وهكذا استطعت رفع ذلك الحجاب من أمامك، وقهرت نفسك، فانهض الآن، بارك الله فيك.

يروى عن حسن بن المؤدب ـ الذى كان خادم الشيخ الخاص ـ أنه قال: كنت فى نيسابور لتجارة. ولما سمعت عن صيت الشيخ، ذهبت إلى مجلسه. فلما وقع نظره على قال: تعال، فإن لى شأن مع طرتك. وكنت منكراً للمتصوفة. فطلب ـ فى آخر المجلس ـ ثوباً لفقير. فوقع فى قلبى أن أعطيه عمامتى. فقلت: لقد جاءتنى هذه العمامة هدية من آمل، وقيمتها عشرة دنانير. ثم تراجعت. وكرر الشيخ الطلب، ففكرت أن أعطيه العمامة؛ لكننى عدلت عن الفكرة. وتكرر الأمر مرة ثالثة. وكان رجل قد جلس بجوارى، فقال أيها الشيخ! أيتحدث الله إلى العبد؟ قال الشيخ: لقد تحدث الله تعالى إلى هذا الرجل الجالس بجوارك ثلاث مرات من أجل عمامة. وهو يقول لا أعطيها له؛ فثمنها عشرة دنانير، وقد جاءتنى هدية من آمل. فلما سمعت هذا الكلام، ارتعدت، فذهبت إلى الشيخ، وخلعت ثوبى، وتبت، ولم يبق فى ضميرى أى إنكار، وبذلت كل ما أملك من مال فى سبيل الشيخ، ووقفت نفسى على خدمته.

يروى أن شيخاً قال: ذهبت لتجارة فى شبابى، وفى الطريق إلى مرو، تقدمت القافلة، وغلبنى النوم، فانتحيت ناحية، ونمت. ومضت القافلة، وظللت نائماً، حتى طلعت الشمس. فنهضت من مكانى، ولم أر أثراً للقافلة. وكان الطريق كله حصى، فأسرعت مسافة، ثم ضللت الطريق، وفقدت صوابى، ولما أفقت، تخيرت اتجاها، حتى توهجت الشمس. وأجهدنى الجوع والعطش، ولم أقو على المسير ثانية. ولما طلع النهار، وصلت إلى صحراء وعرة، وبلغ بى الجوع والعطش غايته، واشتدت الحرارة، فيئست، واستسلمت للموت، ثم حاولت أن أعتلى ربوة، ونظرت فى أرجاء الصحراء، فرأيت خضرة من بعيد؛ فقوى عزمى، واتجهت إلى تلك الناحية. فوجدت عين ماء، فشربت، وتوضأت، وصليت. ولما غربت الشمس، ظهر رجل، واتجه إلى الماء، فرأيته رجلاً طويل القامة، أبيض اللون، له لحية، وقد ارتدى مرقعة. وجاء إلى حافة الماء، وتوضأ، وصلى، ومضى. فقلت فى نفسى: لماذا لم أتحدث معه؟ ثم انتظرت، حتى عاد عند صلاة العصر. فتقدمت إليه، وقلت: أيها الشيخ! أغثنى من أجل الله، فإننى من نيسابور، وانفصلت عن القافلة، وصرت على هذا الحال. فأمسك بيدى. ورأيت أسداً قادماً من تلك الصحراء، قام بخدمته. فوضع الشيخ فمه على أذن الأسد، وهمس فيها شيئاً، ثم أجلسنى فوقه، وقال: أغمض عينيك، فإذا ما وقف، فانزل عنه. فأغمضت عينى، وأخذ الأسد فى المسير، وقطع مسافة ثم توقف. فنزلت عنه، وفتحت عينى، ومضى الأسد. ولم أكد أسير خطوات حتى وجدت نفسى فى بخارى . وكنت أمر يوماً بباب خانقاه، فرأيت خلقاً غفيراً، فسألت

عما حدث، فقيل لى: لقد جاء الشيخ أبو سعيد. وذهبت أنا أيضاً، ونظرت، فكان هو ذلك الرجل الذى أجلسنى فوق الأسد. فالتفت إلى، وقال: لا تفش سرى لأحد مادمت حياً. وكل ما يرى فى الخراب، لا يقال فى العمران. فلما قال هذا، صحت صيحة، وفقدت صوابى.

يروى أنه ما إن جاء الشيخ إلى نيسابور، حتى رأى ثلاثون رجلاً من أصحاب أبى القاسم القشيرى - فى تلك الليلة - فى المنام: أن الشمس كانت تغرب. ورأى الأستاذ ذلك المنام أيضاً وفى اليوم التالى ذاع خبر فى المدينة: أن الشيخ أبا سعيد وصل. فأخذ الأستاذ عهداً على مريديه بألا يذهبوا إلى مجلسه، فلما جاء الشيخ أبو سعيد، ذهب المريدون - الذين كانوا قد رأوا المنام - إلى مجلسه جميعاً. فغضب الأستاذ، ولم يذهب لزيارة الشيخ، وقال على المنبر: إن الفرق بينى وبين أبى سعيد هو أن أبا سعيد يحب الله، والله تعالى يحب أبا القاسم. فأبو سعيد ذرة، وأنا جبل. أُبلغ الشيخ بهذا الكلام، فقال: إننى لا شىء وهو الجبل والذرة. فأبلغوا الأستاذ بما قاله الشيخ فى حقه، فأنكر ذلك القول، وقال على المنبر: من ذهب إلى مجلس أبى سعيد، كان مهجوراً أو مطروداً. وفى الليلة ذاتها رأى المصطفى عليه الصلاة والسلام فى المنام قادماً. فسأله: إلى أين تذهب يا رسول الله؟ فقال: إلى مجلس أبى سعيد. فمن لا يذهب إلى مجلسه؛ يكون مهجوراً أو مطروداً. ولما استيقظ الأستاذ من النوم حائراً، قصد الذهاب إلى مجلس الشيخ. فنهض، ليتوضأ وأخذ فى الاستبراء من خارج الملابس، وهذه ليست سنة. ثم قام، وقال للجارية: انهضى، واسرجى الجواد. ثم ركب فى الصباح، وقصد مجلس الشيخ. فكان يسمع

ضجيج كلاب يتنازعون معاً. قال الأستاذ: ماذا حدث؟ فقيل له: لقد جاء كلب غريب؛ فاتجهت إليه كلاب المحلة، وأخذت تتنازع معه. فقال الأستاذ فى نفسه: لا ينبغى أن أكون كلباً، وأتنازع مع غريب، بل يجب على إكرام الغريب والذهاب إلى الشيخ، ولما دخل من باب المسجد، اندهش الخلق. وكان الأستاذ ينظر، فيرى سطوة الشيخ وعظمته. فجال بخاطره إن هذا الرجل ليس أكثر منى فضلاً وعلماً، ونحن متساويان فى المعاملة، فمن أين حاز هذا الإعزاز؟ أدرك الشيخ ذلك بالفراسة، فالتفت إليه، وقال: أيها الأستاذ! يستفسر عن هذا الحال من لا يستبرئ مخالفاً للسنة، ويقول للجارية انهضى، واسرجى الجواد. فاستولى عليه الذهول والفرح. ولما نزل الشيخ من المنبر، اتجه إلى الأستاذ، وتعانقا. فعدل الأستاذ عن إنكاره، وتشاورا فى الأمر. وصعد الأستاذ المنبر مرة أخرى، وقال: من لا يذهب إلى مجلس أبى سعيد، يكون مهجوراً ومطروداً. وإن كنت قد قلت خلاف ذلك فى البداية، فإننى أقول هذا الآن.

يروى أن الأستاذ أبا القاسم كان ينكر السماع، وكان يمر بباب خانقاه الشيخ يوماً، وكان السماع يعقد فى الخانقاه. فجال بخاطر الأستاذ: هكذا انتشر قوم حاسرى الرؤوس حفاة الأقدام، عدالتهم باطلة فى الشرع، ولا يؤخذ بشهادتهم. فأرسل الشيخ - فى الحال - رجلاً فى أثر الأستاذ؛ ليقول له: متى رأيتنا فى صف الشهود؟ حتى يستمعوا إلى الشهادة أو لا يستمعوا.

يروى أن امرأة الأستاذ أبى القاسم - التى كانت ابنة الشيخ أبى على الدقاق - استئذنت زوجها أن يسمح لها بالذهاب إلى مجلس

الشيخ. فقال لها الأستاذ: ضعى على رأسك خرقة بالية؛ حتى لا يعرف أحد من أنت؟ فى النهاية، جاءت، وجلست على السطح بين النساء. وكان الشيخ يعظ فقال أثناء الكلام: سمعت هذا عن أبى الدقاق، وهاكم جزءاً من أجزائه هنا. فغابت المرأة ـ التى سمعت هذا الكلام ـ عن الوعى، ووقعت من السطح، فقال الشيخ: إلهى! ارفعها إلى السطح ثانية، فظلت معلقة فى الهواء فى مكانها، حتى جذبتها النسوة إلى السطح.

يروى أن إماماً كان فى نيسابور، كان يدعى أبو الحسن التونى، وكان ينكر الشيخ كثيراً، كما أنه كان يلعنه، ولم يكن قد ذهب إلى خانقاه الشيخ طيلة إقامته بنيسابور. فقال الشيخ يوماً: اسرجوا الجواد، لنذهب لزيارة أبى الحسين التونى، كان الجمع ينكز على الشيخ أن يذهب لزيارة رجل يلعنه! ومضى الشيخ مع الجماعة، وفى الطريق خرج منكر، ولعن الشيخ، فعزم الجمع على إيذائه، فقال لهم الشيخ: هونوا عليكم، فربما رحمه الله بسبب هذه اللعنة، فقالوا: كيف؟ قال: إنه يظن أننى على باطل، فهو يلعن ذلك الباطل من أجل الله. ولما سمع المنكر هذا الكلام، تعلق بجواد الشيخ، وتاب. وقال أرأيتم أى أثر يكون للعنة تلعنوها من أجل الله؟ ولما اقتربوا، أرسل الشيخ رجلاً ليخبر أبا الحسن أن الشيخ قادم لتحيته. فذهب المريد، وأخبره. فلعنه أبو الحسن التونى، وقال: أى شأن له بى؟ ينبغى عليه أن يذهب إلى الكنيسة، فمكانه هناك. عاد المريد، وأخبره بما حدث. فأدار الشيخ عنان الجواد، وقال: «بسم الله» هكذا ينبغى أن أنفذ ما أمر به الشيخ. واتجه إلى الكنيسة. وكان النصارى قد انشغلوا بأمرهم، ولما رأوا

الشيخ، التفوا حوله، وقالوا: لأى أمر جئت؟ وكانوا قد جعلوا صورة مريم وعيسى قبلة لهم. فنظر الشيخ إلى الصورة، وقال ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٢٠٦]. إن كان دين محمد حقاً، فليسجد الاثنان ـ فى هذه اللحظة ـ لله. فوقعت الصورة على الأرض فى الحال، بحيث كان وجههما نحو الكعبة. فضج النصارى، وخلع أربعون منهم الزنار، وأسلموا. التفت الشيخ إلى الجمع، وقال: من سار وفق إشارة الشيوخ، حظى ببركات ذلك الشيخ. فأبلغوا أبا الحسن التونى بما حدث، فانتابه حال عظيم، وقال هاتوا المحفة، واحملونى إلى الشيخ فحملوه إلى الشيخ. وكان يصرخ، وسقط أمام الشيخ، وتاب، وصار مريداً له.

يروى أن القاضى صاعد[٢٠٧] كان قاضياً لنيسابور، وكان منكراً للشيخ، وكان قد سمع أن الشيخ قال: إن أبيح دم العالم بأسره، لا آكل إلا حلالاً. فشوى القاضى يوماً حملين ممتلئين متشابهين ـ على سبيل الامتحان ـ أحدهما من مال حلال، والآخر من مال حرام، وأرسلهما للشيخ، ثم ذهب إليه. وحدث أن لحق بعض الأتراك السكارى بهؤلاء الغلمان، وأخذوا الوعاء ـ الذى كان فيه الحمَل الحرام ـ منهم بالقوة، وأكلوه. دخل غلمان القاضى من باب الخانقاه، ووضعوا الشواء أمام الشيخ. وكان القاضى ينظر إليهم غاضباً. فقال الشيخ: اطمئن أيها القاضى؛ فقد وصلت الجيفة للكلاب، والحلال إلى أهله. فخجل القاضى، وعاد عن إنكاره.

يروى: أن الشيخ رأى ثملاً قد وقع، فقال له: اعطنى يدك. فقال: اذهب أيها الشيخ، فالعون ليس شأنك، والله معين المساكين، فسر الشيخ.

يروى أن الشيخ خرج مع مريد إلى الصحراء. وكان فى تلك الصحراء ذئب مفترس، قصد الذئب الشيخ فجأة. فرفع المريد حجراً، وقذفه به. فقال الشيخ: ماذا تفعل؟ لا يمكن إيذاء حيوان من أجل عزيز. وقال: إن وضعت الجنات الثمانية فى مقابل ذرة فناء، لأبى سعيد، لانمحت جميعها، وزالت.

قال: الطرق إلى الحق بعدد ذرات الموجدات، ولكن ليس هناك طريق أقرب وأفضل من العمل على راحة إنسان. وقد سلكت هذا الطريق.

يروى: أن فقيراً قال له أين أجد الله، فقال الشيخ: وأين بحثت عنه، ولم تجده؟ إنك إن خطوت خطوة صادقة فى سبيل الطلب، تراه فى كل شيء تنظر إليه.

يروى أن وفاة الشيخ اقتربت، فقال: لقد أُخبرت بأن الناس سوف يأتون لهذا المكان، ليروك. لذا سوف نسترك؛ حتى يأتوا إلى هنا، ويرونا.

وقال: لقد رحلت، وأورثتكم ثلاثة أشياء: الكنس، والغسل، والقيل والقال.

وقال: سيكون مائة ألف ـ غداً ـ بلا طاعة. ويعلمها الله لهم. فقيل له: من هم؟ فقال: قوم أنكروا كلامنا.

يروى أنه كان يعظ، ويطأطأ رأسه، ويعقد حاجبيه، وكان الجمع يبكى، ثم امتطى الجواد، وذهب إلى الأماكن التى كان قد اختلى فيها ليلاً ونهاراً، وودعها.

يروى: أن خواجه أبا طاهر ابن الشيخ، كان يكره الذهاب إلى الكُتاب بشدة، وكان ينفر من المدرسة. وقال الشيخ يوماً: من يخبرنى بوصول المريدين المسافرين، ألبى له ما يريد. سمع أبو طاهر هذا الكلام، فاعتلى سطح الخانقاه، فرأى مجموعة من الدراويش قادمين، فأخبر الشيخ. فقال له الشيخ: ماذا تريد؟ فقال: ألا أذهب إلى المدرسة. فقال له: لا تذهب. قال: لا أذهب أبداً. فطأطأ الشيخ رأسه، وقال: لا تذهب ولكن اذكر ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾(٢٠٨). سر أبو طاهر، وحفظ «إنا فتحنا».

ولما توفى الشيخ، وانقضت عدة سنوات، تراكمت الديون على أبى طاهر، ذهب إلى إصفهان، وكان حاكمها خواجه نظام الملك ـ وأعزه نظام الملك إعزازاً لا يمكن وصفه. وكان هناك علوى فى ذلك الوقت، أنكر المتصوفة بشدة، فلام نظام الملك قائلاً: إنك تعطى أموالك لجماعة لا يعرفون الوضوء، ولا حظ لهم من العلوم الشرعية، وهم حفنة من الجهلة، تعلمت على يد الشيطان. فقال نظام الملك: ماذا تقول؟ إنهم يعرفون كل شيء، وينشغلون بأمر الدين على الدوام. وكان العلوى قد سمع أن أبا طاهر لا يحفظ القرآن، فقال: إن أبا طاهر هو أفضل الصوفية اليوم، وهو لا يحفظ القرآن. قال نظام الملك: سوف أدعوه. وتختار أنت سورة من القرآن، ليقرأها . بعد ذلك فأقبل أبو طاهر مع جماعة من المشايخ والصوفية. فال نظام الملك للعلوى: أى سورة تريد أن يقرأ؟ فقال: سورة «إنا فتحنا»، فأخذ أبو طاهر يقرأها، وهو يصيح، ويبكى. فلما انتهى. خجل ذلك العلوى. وسر نظام الملك، ثم سأله عن سببب البكاء والصياح! فحكى له أبو طاهر

حكاية أبيه من البداية إلى النهاية. فانظر الرجل الذى يرى قبل سبعين سنة من وفاته أن معترضاً سوف يعترض على واحد من أبنائه، كيف تكون درجته! وزاد اعتقاده فيه، لما كان قد قاله.

يروى عن الشيخ أبى على البخارى أنه قال: رأيت الشيخ فى المنام جالساً على عرش، فقلت: يا شيخ! ماذا فعل الله بك؟ فابتسم، وحرك رأسه ثلاث مرات، وقال: ألقى بالكرة، وحطم صولجان الخصم، وكان يقذفها من هذه الناحية إلى تلك وفق مراده.

والسلام والإكرام

ذكر الشيخ أبى الفضل بن الحسن[٣٠٩] رحمة الله عليه

هو حامل الأمانة، وعامل الديانة. هو العزيز بلا زلل، والخطير بلا خلل، هو المفتون بحب الوطن، الشيخ أبو الفضل الحسن رحمة الله عليه.

كان أوحد الزمان، ولطيف الدنيا. وحاز فى التقوى والمحبة والمعنى والفتوة درجة عالية، وفاق الحد فى الكرامة والفراسة، وكان مشاراً إليه فى المعارف والحقائق، وكان سرخسياً، وكان شيخ أبى سعيد بن أبى الخير.

يروى أنه كلما كان ينتاب الشيخ أبو سعيد حال القبض، كان يقول: أسرجوا الجواد حتى نذهب إلى الحج. وكان يأتى إلى قبره، ويطوف، حتى يزول القبض. وكل مريد لأبى سعيد كان يفكر فى الحج، كان يرسله إلى قبر الشيخ أبى الفضل، ويقول له: زر ذلك القبر، وطف حوله سبع مرات، حتى يتحقق مرادك.

يروى: أن رجلاً سأل الشيخ أبا سعيد قدس الله سره: بما أدركت كل هذه الفتوحات؟ فقال: كنت أسير يوماً على شاطىء النهر، وكان

الشيخ أبو الفضل يسير على الشاطىء الآخر. فوقع نظره على. وكل هذه الفتوحات كانت بفضل تلك النظرة.

يروى أن الإمام الخرامى قال: كنت طفلاً، واعتليت شجرة توت، وكنت أشذبها. وكان الشيخ أبو الفضل يمر، ولم يرنى. فأدركت أنه غائب عن نفسه، وحاضر مع الحق بقلبه، فرفع رأسه بحكم البسط، وقال: يا إلهى العظيم! لم تنعم على بدانق - منذ سنة - حتى أصلح شعرى، هكذا تفعل مع الأحبة؟ فرأيت أغصان الشجرة جميعها وأوراقها ذهباً فى الحال. وقال الشيخ: يا للعجب! فقد قوبل قولنا بالإعراض. ألا يمكن التحدث إليك بقلب مفتوح؟

إن تحدثت ثملاً من الثمالة، فلماذا ربطت ناقتك بقافلتنا.

يروى إن شاباً والهاً كان فى سرخس، ولم يكن يصلى. فقالوا له: لماذا لا تصلى؟ فقال: أين الماء؟ فأخذوا بيده، وحملوه إلى بئر، وأرشدوه إلى الدلو. فأمسكك به ثلاثة عشر يوماً بلياليها قال الشيخ أبو الفضل: ينبغى إعادته إلى بيته، فهو بمنأ عن الشرع.

يروى أن الشيخ لقمان السرخسى جاء إلى أبى الفضل يوماً، فرآه وفى يده جزء. فقال له عن أى شىء تبحث فى هذا الجزء؟ قال: عن الشىء ذاته الذى تركته أنت فقال: ولماذا هذا الخلاف إذن؟ قال: إنك ترى الخلاف، فتسألنى عما أبحث. فاستيقظ من السكر، وضق باليقظة، حتى يزول الخلاف، وتعرف ماذا تريد أنا وأنت!

يروى أن رجلاً جاء إلى الشيخ أبى القفل، وقال: رأيتك فى المنام بالأمس ميتاً، ومحمولاً على نعش. فقال الشيخ: اسكت، لقد رأيت هذا المنام لنفسك؛ فهم لا يموتون أبداً. «من عاش بالله لا يموت أبداً».

يروى عن الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير، أنه قال: ذهبت إلى سرخس، وقلت للشيخ أبى الفضل: أريد أن أسمع منك تفسير: ﴿يحبهم ويحبونه﴾(٢١٠) فقال له: حين يحل الليل، فالليل حجاب الأسرار. ولما حل الليل، قال اقرأ أنت حتى أتذكر قال: فقرأت (يحبهم ويحبونه)، ففسرها سبعمائة تفسير، لم يكرر تفسير منها، ولم يشبه أحدها بآخر. حتى طلع الصبح، فقال: مضى الليل، ولم نتحدث حتى الآن عن الحزن والسرور، ولم ينته حديثنا بعد ـ فقلت: ما السر؟ قال: هو أنت. قلت: وما سر السر؟ قال: هو أنت. قلت وما سرسر السر؟ قال: هو أنت أيضاً.

يروى أنهم قالوا للشيخ: إن الأمطار لا تسقط، فتساقط الثلج قطعاً كبيرة فى تلك الليلة، فقالوا له فى اليوم التالى: ماذا فعلت؟ قال: أكلت عويشة. أى أننى قطب، وحين أسعد، تسعد الدنيا موافقه لى.

يروى أنهم قالوا له: ادع لهذا السلطان، لعله يشفى. فهو ظالم، ففكر برهة، وقال: إن هذا الدعاء يبدو فى نظرى تافهاً، فلا تنظروا إليه على أنه عظيم. فالماضى لا يذكر، والمستقبل لا ينظر، وما فى الوقت يعتبر.

وقال: حقيقة العبودية شيئان: حسن الافتقار إلى الله تعالى، وهذا من أصل العبودية، وحسن الاقتداء برسول الله، وهو الذى ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة.

يروى أنه لما اقتربت وفاته، قالوا: أندفنك فى المكان الفلانى حيث يدفن المشايخ والسادات؟ فقال: إياكم. فمن أنا حتى تدفنونى

إلى جوار مثل هؤلاء القوم. إننى أريد أن أدفن أعلى ذلك التل حيث يدفن المعربدون والمحتالون. فادفنونى معهم؛ فهم أقرب إلى الرحمة. وغالباً ما يمنح الماء للظمأى.

رحمة الله عليه

ذكر الإمام محمد الباقر[210] عليه الرحمة

هو حجة أهل المعاملة، وبرهان أرباب المشاهدة. هو إمام أولاد النبى، والمصطفى من أحفاد على. هو صاحب الباطن والظاهر، أبو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه. ولأن هذه الطائفة بدأت بجعفر الصادق، وهو من أبناء المصطفى عليه الصلاة والسلام. فسوف تختم برجل منهم أيضاً، وهو محمد الباقر رضى الله عنه.

يقال: إن كنيته أبو عبدالله، وكان يسمى بالباقر. واختص بدقائق العلوم ولطائف الإشارات، وله كرامات مشهورة بالآيات الباهرة والبراهين الزاهرة. ويذكر أنه قال فى تفسير هذه الآية. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[211] . من شغلك عن مطالعة الحق، فهو طاغوتك. فانظر بأى شىء حجبت، وعجزت عن إدراكه واترك ذل الحجاب، حتى تحظى بالكشف الأبدى. فالمحجوب ممنوع، والممنوع لا ينبغى عليه أن يدعى القرب.

يروى أن أحد خاصته سأله كيف تقضى الليل؟ فقال: لما يمضى هزيع من الليل، ويفرغ من أوراده، يرفع صوته مناجياً، ويقول: إلهى

وسيدى! أقبل الليل، وانتهت ولاية تصرف الملوك، وظهرت النجوم، ونام الخلق، وهدأت أصوات الناس، وهرب الناس من باب الخلق، واختفت رغائبهم، وأغلقوا الأبواب من أجل النوم، ووكلوا بها حراسهم، وتخلى كل ذى حاجة إليهم عن حاجته. يا إلهى! أنت الحى، الباقى، العليم، البصير. لا تجوز عليك سنة ولا نوم. ومن لا يعرفك بهذه الصفة، لا يقر بنعمتك. أنت الإله الذى لا يجوز عليك رد السائل إذا دعاك مؤمن. يا إلهى! لما أذكر الموت والقبر والحساب. كيف أطلب منك نصيباً من الدنيا؟ إننى أدعو أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب، وفى حال الحساب عيشاً بلا عقاب. كان يقول هذا، ويبكى. حتى قال له رجل ذات ليلة: يا سيدى! إلام تتكلم؟ فقال له: يا صديقى! لقد ضاع ليعقوب ولد، فبكى عليه السلام حتى كف بصره، وابيضت عيناه. وأنا فقدت عشرة رجال من أجدادى ـ أى الحسين وقبيلته فى كربلاء ـ فلا أقل من أن تبيض عيناى على فراقهم. وهذه المناجاة فى العربية فصيحة جداً، لكننى جئت بمعانيها الفارسية تجنباً للإطالة، منعاً للتكرار. وختمت الكتاب بذكره تبركاً. قال هذا، وأسلم الروح للحق. رضى الله عنه وعن أسلافه، وحشرنا الله مع أجداده، ومعه آمين يا رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين، ونجنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

الحواشى والتعليقات

٩٩ ـ إبراهيم الخواص:

هو أبو إسحق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص. أصله من سامراء، ولكنه أقام بالرى. كان ذا شأن عظيم فى التوكل، وله تصانيف طيبة فى معاملات هذه الطريقة. مات بجامع الرى سنة ٢٩١هـ.

انظر ترجمته فى: صفة الصفوة: جـ٤، (ص ٩٠)، طبقات الشعرانى: جـ١، (ص ٧٧)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٣٦)، طبقات الصوفية (ص ٢٨٤)، كشف المحجوب: جـ١، (ص ٣٦٥).

١٠٠ ـ حامد الأسود:

يقال إن اسمه الصحيح هو أبو حامد، وهو من معاصرى الخواص، وأصحابه المقربين.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٥).

١٠١ ـ بلاد ساغون:

المقصود بلا ساغون. وقد كانت عاصمة تركستان. السابق: نفس الصفحة.

١٠٢ ـ أبو الحسن العلوى:

يقال إنه: أبو الحسن محمد الهمدانى، وكان معاصراً للشيخ جعفر الخلدى، مات سنة ٣٩٥ هـ. السابق نفس الصفحة.

١٠٣ ـ سورة الطلاق، آية (٣).

١٠٤ ـ ممشاد الدينوري:

من كبار مشايخ الصوفية، وأحد فتيان الجبال. كان عظيم الحال، ظاهر الفتوة. مات سنة ٢٩٩هـ.

انظر ترجمته في: طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٨١)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٤١)، طبقات الصوفية: (ص ٣١٦).

١٠٥ ـ أبو بكر الشبلي:

اسمه دلف بن جعفر، وقيل: دلف بن جحدر، وقيل: جحدر بن دلف، وقيل: دلف بن جعبرة، وقيل: دلف بن جبعوية ،وقيل اسمه جعفر بن يونس. وهو خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد. كان أوحد زمانه حالاً وظرفاً وعلماً. تفقه على مذهب الإمام مالك، وتاب في مجلس خير النساج. وكتب للحديث ورواه. وعاش سبعاً وثمانين سنة، وفات ببغداد سنة ٣٣٤هـ.

انظر ترجمته في : صفة الصفوة: جـ٢، (ص ٢٩٤)، طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٨٢)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٤٨)، طبقات الصوفية: (ص ٣٣٧).

١٠٦ ـ سورة الأنبياء، آية (٩٨).

١٠٧ ـ سورة التوبة، آية (١٢٨).

١٠٨ ـ سورة الزمر، آية (٥٣).

١٠٩ ـ سورة الأعراف، آية (٩٩).

١١٠ ـ سورة الحج، آية (١١).

١١١ ـ سورة الإنسان، آية (٨).

١١٢ ـ سورة الإسراء، آية (٨٦).

١١٣ ـ سورة طه، آية (٤١).

١١٤ ـ سورة الأعراف، آية (١٤٣).

١١٥ ـ سورة الأعراف، آية (٩٩).

١١٦ ـ سورة الأنعام، آية (٩١).

١١٧ ـ سورة ص، آية (٧٨).

١١٨ ـ أبو نصر السراج:

هو أبو نصر عبدالله بن على السراج الطوسى. كان من أبناء الزهاد، واشتهر بالفتوة والمروءة، وهو من تلامذة جعفر الخلدى، وأبى بكر محمد بن داود الدقى، وأحمد بن محمد السايح. ألف كتاب «اللمع فى التصوف». ومات سنة ٣٧٨هـ.

انظر: صادق نشأت: ترجمة تاريخ التصوف فى الإسلام للدكتور قاسم غنى، مراجعة: د. أحمد ناجى القيسى، د. محمد مصطفى حلمى، مكتبة النهضة العربية ١٩٧٠م، (ص ٢٨٩).

١١٩ ـ ابن سالم:

هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن سالم البصرى، المشهور بـ «ابن سالم».

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٧).

١٢٠ ـ أبو العباس القصاب:

هو أحمد بن محمد بن عبدالكريم القصاب الآملى. عرف بعلو الحال، وصدق المقال، وكثرة البراهين والكرامات. كان مريداً لأبى محمد الجريرى، وشيخاً لأبى سعيد بن أبى الخير. ومات فى أواخر القرن الرابع الهجرى.

انظر: كشف المحجوب، جـ١، (ص ٣٧٦).

١٢١ ـ شيخ ميهنه:

المقصود: الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير، وسبق التعريف به.

١٢٢ ـ أبو على الدقاق:

هو أبو على الحسن بن محمد بن على الدقاق. كان إمام فنه، ومنقطع النظير فى زمانه، وذا بيان صريح، ولسان فصيح فى كشف طريق الله تعالى. ومات بنيسابور سنة ٤٠٥هـ.

انظر ترجمته فى: كشف المحجوب، جـ١ (ص ٣٧٧).

١٢٣ ـ أبو على شابوى أو شبويه:

اسمه محمد بن عمرو المروزى، وكان من أصحاب أبى العباس السيارى.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٧).

١٢٤ ـ سورة طه، آية (٧٣).

١٢٥ ـ سورة المائدة، آية (٥٤).

١٢٦ ـ الفقاع:

نوع من الشراب أشبه بالبوظة المصرية.

د. إبراهيم الدسوقى شتا: المعجم الفارسى الكبير، المجلد الثالث س ـ ك، مكتبة مدبولى، القاهرة، (ص ٢٠٣٦).

١٢٧ـ المِسح:

الكساء من شعر. ثوب الراهب.

١٢٨ ـ سورة القمر، آية (٥٥).

١٢٩ ـ سورة الزمر، آية (٣٦).

١٣٠ ـ أبو سعيد الخركَوشى:

هو عبدالملك بن أبى عثمان النيسابورى من محلة خركَوش التابعة لنيسابور. مات سنة ٤٠٧ هـ. وينسب إليه كتابا «الزهد» و «دلائل النبوة».

د. استعلامى: حواش تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٧).

١٣١ ـ سورة آل عمران، آية (١٦٩).

١٣٢ ـ سورة البقرة، آية (٢٨٦).

١٣٣ ـ سورة البقرة، آية (٢٢٢).

١٣٤ ـ الأعراف آية (٩٩).

١٣٥ – الشيخ الهروى:

المقصود الشيخ عبدالله الأنصاري ،وهو من كبار مشايخ الصوفية، وله مؤلفات بالعربية والفارسية، ورسائله بالفارسية هي: زاد العارفين، الهي نامه، وكنز السالكين، وقلندر نامه، وطبقات الصوفية . وهو ترجمة على السلمي باضافات، توفي سنة ٤٨١هـ.

د. إبراهيم الدسوقي شتا: المعجم الفارسي الكبير، المجلد الثاني س ـ ك، (ص ١٨٨٦).

١٣٦ ـ أبو بكر الصيرفي:

اسمه محمد بن عبدالله من فقهاء المذهب الشافعي، وتلميذ ابن سريج. ويقال إن الرواية خاطئة؛ لأن عصر الصيرفي لا يتفق وتتلمذه على يد الدقاق.

د. استعلامي حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٨).

١٣٧ ـ أبو الحسن الخرقاني:

هو علي بن جعفر من أهل خرقان التابعة لبسطام. ومن كبار صوفية القرنين الرابع والخامس. مات سنة ٤٢٥هـ.

السابق: نفس الصفحة.

١٣٨ ـ الأوتاد:

هم أربعة رجال موجودون في جهات الدنيا الأربعة. وهم بمنزلة أركان العالم الأربعة وبواسطتهم يحفظ الله الدنيا، وهم: عبدالرحمن في المشرق، وعبد الودود في المغرب، وعبدالرحيم في الجنوب، وعبدالقدوس في الشمال. وإذا مات واحد منهم، حل نائبه محله.

انظر: د. سيد جعفر سجادي: فرهنك اصطلاحات وتعبيرات عرفاني كتابخانه طهوري، چاپ چهارم تابستان ١٣٧٨، (ص ١٥٥).

١٣٩ ـ الأبدال:

يقول صاحب النفحات في بيان حالهم: إن للأرض سبعة أقاليم، يحافظ على كل إقليم منها عبد من عباد الله، يطلق عليه البدل. ويقول القيصري: الأبدال يستطيعون الظهور بأشكال وصور مختلفة؛ لأنهم تحرروا من القيود المادية، ورفعوا حجب الظلمة. وبصفة عامة يطلق على سبعة من أولياء الله الأبدال، ومرتبتهم أدنى من مرتبة القطب. وقيل أربع من أخلاق الأبدال:

استقصاء الورع، وتصحيح الإرادة، وسلامة الصدر للخلق، والنصيحة لهم.

انظر: السابق، (ص ٤٧).

١٤٠ ـ القطب:

المرشد الأكبر لأهل الطريقة والحقيقة. وهو من أولياء الله، وأهل للحل والعقد. أوكله الحق تعالى بإرشاد الخلق وهدايتهم.

انظر: السابق، (ص ٦٤١).

١٤١ ـ عضد الدولة:

هو عضد الدولة الديلمي المعروف. حكم بغداد لسنوات، وقرئت الخطبة باسمه.

١٤٢ ـ سورة النساء، آية (٥٩).

١٤٣ ـ سورة الأعراف، آية (١٩٨).

١٤٤ ـ كلانه وكلابه وكلات وكلا:

جميعها تعني قلعة. وربما كان لفظ «قلعة» هو معرب هذا اللفظ. ولكنها في هذا الموضع اسم خاص؛ لأن هذا اللفظ بصوره المختلفة أطلق على قرى إيران كثيراً.

د. استعلامي: حواشي التذكرة، (ص ٨٧٨).

١٤٥ ـ سورة النجم، آية (٩).

١٤٦ ـ سورة الصافات، آية (١٦٤).

١٤٧ ـ سورة آل عمران، آية (١٨).

١٤٨ ـ سورة البروج، آية (١٢).

١٤٩ ـ سورة الأعراف، آية (١٧٢).

١٥٠ ـ سورة الأنفال، آية (١٧).

١٥١ ـ سورة الأعراف آية (١٤٣)

١٥٢ – سورة البقرة، آية (١١٥).

١٥٣ ـ سورة الأنعام، آية (٩١).

١٥٤ ـ سورة النجم، آية (١٠).

١٥٥ ـ محمد بن الحسين:

نعرف من الصوفية المشاهير المعاصرين للشيخ الخرقانى محمد بن الحسين النيسابورى فقط، أى أبا عبدالرحمن السلمى، صاحب الطبقات. إن كان هو من قصده الكاتب، كانت الرواية غير صحيحة؛ لأنه مات قبل الخرقانى بثلاث عشرة سنة.

د. استعلامى: حواشى التذكرة، (ص ٨٧٩).

١٥٦ ـ إبراهيم الشيبانى:

هو أبو إسحق إبراهيم بن شيبان القرميسينى. كان متمسكاً بالكتاب والسنة، ملازماً لطريقة المشايخ والأئمة. وحظى بشأن عظيم فى الورع والتقوى. وقال عنه عبدالله بن منازل: إبراهيم بن شيبان حجة الله على الفقراء، وأهل الأدب والمعاملات.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ١، (ص ١٩٠)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٦٣)، طبقات الصوفية: (ص ٤٠٢).

١٥٧ ـ طولون:

أحد غلمان حاكم بخارى فى عهد المأمون، أُرسل هدية للمأمون، وتقلد المناصب العالية فى الخلافة. واشتهر ابناؤه أيضاً وكان من بينهم أحمد بن طولون والى مصر، وأنشأ المسجد المعروف بمسجد بن طولون فى القاهرة. وهو المقصود فى النص، لأن طولون لم يعاصر إبراهيم بن شيبان.

انظر د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٧٩، ٨٨٠).

١٥٨ ـ أبو بكر الصيدلانى:

من صوفية القرن الرابع الهجرى. ولا نعرف على وجهه الدقة هل هو محمد بن مصباح، الذى يكنى بأبى جعفر، أم عبدالله بن أحمد الصيدلانى الذى توفى سنة ٣٩٨، أو أنه واحد غيرهما.

السابق: (ص ٨٨٠).

١٥٩ ـ أبو حمزة البغدادى:

هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي البزاز. من أولاد عيسى بن أبان. وكان ينتمي إلى حسن المسوحي. وكان من كبار المشايخ، ومتكلميهم. وكان فقيهاً عالماً بالقرآن والتفسير. وكان يعظ في مسجد الرصافة في بغداد قبل وعظه في مسجد المدينة. مات سنة ٢٨٩هـ.

انظر ترجمته في: طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٧٩)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٣٩)، طبقات الصوفية: (ص٢٩٥)، كشف المحجوب: جـ١، (ص ٣٦٦).

١٦٠ ـ رصافة ورصافية:

اسم محلة في بغداد. وسميت الكثير من المناطق في مدن العراق والشام بهذا الاسم.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٠).

١٦١ ـ اللكام:

جبل في لبنان، كان العارفون ومشايخ الصوفية يعتزلون فيه، وهو ذاته جبل لبنان.

السابق: نفس الصفحة.

١٦٢ ـ أبو عمرو النجيد:

هو أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم بن خالد السلمي. كان من أكبر مشايخ وقته. سمع الحديث، ورواه، وأسنده. مات بمكة سنة ٣٦٦هـ.

انظر ترجمته في: طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٩٥)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص١٧١)، طبقات الصوفية: (ص ٤٥٤).

١٦٣ ـ أبو الحسن الصائغ:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الصائغ الدينوري. كان من كبار المشايخ. وكان كبير الهيبة، يهابه كل من رآه. وأسند الحديث. أقام بمصر، ومات بها سنة ٣٣٠هـ.

انظر ترجمته في: صفة الصفوة: جـ٤، (ص ٧٣)، طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٨٢)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٤٢)، طبقات الصوفية (ص ٣١٢).

١٦٤ ـ سورة التوبة، آية (١١٨).

١٦٥ ـ أبو بكر الواسطي:

هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى. أصله من فرغانة، وأقام بمرو. كان عالماً بالأصول، وعلوم الظاهر. ولم يتكلم أحد فى التصوف مثل كلامه. مات بمرو بعد سنة ٣٢٠هـ.

انظر ترجمته فى: حلية الأولياء: جـ١٠، (ص ٣٤٩)، طبقات الشعرانى: جـ١، (ص ٧٩)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٤٠)، طبقات الصوفية: (ص ٣٠٢)، كشف المحجوب: جـ١، (ص ٣٦٦).

١٦٦ ـ سورة النحل، آية (٢١).

١٦٧ ـ سورة آل عمران، آية (١٦٩).

١٦٨ ـ سورة يوسف، آية (٢١).

١٦٩ ـ سورة النور، آية (٤٠).

١٧٠ ـ سورة الفرقان، آية (٧٠).

١٧١ ـ سورة لقمان، آية (٢٨).

١٧٢ ـ سورة المؤمنون، آية (١٠٨).

١٧٣ ـ سورة التوبة، آية (٣٠).

١٧٤ ـ أبو على الثقفى:

هو أبو على محمد بن عبدالوهاب الثقفى. كان إماماً فى أكثر علوم الشرع، وبه ظهر التصوف فى نيسابور. وكان أحسن المشايخ كلاماً فى عيوب النفس، وآفات الأعمال. مات سنة ٣٢٨هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ١، (ص ٨٥) الرسالة القشيرية: جـ١، (ص١٥٣)، طبقات الصوفية: (ص ٣٦١).

١٧٥ ـ جعفر الخلدى:

هو أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخواص. بغدادى المولد والمنشأ. كان أفتى المشايخ، ومن قدماء الصوفية، ومتبحراً فى فنون هذا العلم، وله كلام عال فى كل فن، وقد ربط كل مسألة بحكاية، ونسبها إلى غيره؛ تجنباً للرعونة. سمع الحديث، وأسنده، ورواه. مات ببغداد سنة ٣٤٨هـ.

انظر ترجمته فى: صفة الصفوة: جـ٢، (ص ٣٠٣)، طبقات الشعرانى جـ١، (ص ٩٤)،

طبقات الصوفية: (ص ٤٣٤)، كشف المحجوب: جـ١ (ص ٣٦٨).

١٧٦ ـ أبو علي الروذباري:

هو أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور. أصله من بغداد، وسكن مصر، وصار شيخها. كان عالماً فقيهاً، وحفظ الحديث، وأسنده. توفي بمصر ٣٢٢هـ.

انظر ترجمته في: صفة الصفوة: جـ٢، (ص ٢٩٣)، طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٨٤)، طبقات الصوفية: (ص ٣٥٤).

١٧٧ ـ أبو الحسن الحصري:

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري. بصري الأصل، سكن بغداد، وكان شيخ العراق ولسانها، وأستاذ العراقيين له لسان في التوحيد يختص هو به. مات ببغداد سنة ٣٧١هـ.

انظر ترجمته في: طبقات الشعراني: جـ١، (ص ١٩٨)، الرسالة القشيرية:جـ١، (ص ١٨٣)، طبقات الصوفية: (ص ٤٨٩).

١٧٨ ـ سورة يونس، آية (٣٢).

١٧٩ ـ أحمد بن نصر:

يقال إنه: أبو بكر أحمد بن الزقاق الكبير المصري. من معاصري الجنيد، وتوفي قبل الحصري بسنوات.

د. استعلامي حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٢).

١٨٠ ـ سورة فاطر، آية (١٠).

١٨١ ـ أبو إسحق شهريار الكازروني:

اسمه إبراهيم بن شهريار الكازروني، فارسي الأصل والمولد. نشأ في كازرون، وكان مريداً للفيروز آبادي. وصحب كثيراً من رجال الحديث، وتوفي سنة ٣٨٨هـ.

د. إسعاد عبدالهادي قنديل: ترجمة كشف المحجوب، جـ١، (ص٣٨٨) في الهامش.

١٨٢ ـ أبو عمرو بن علي:

هو أبو عمرو علي بن محمد بن علي بن بشار. كان من معاصري الجنيد والنوري.

١٨٣ ـ خورشيد المجوسي:

يقال إن خورشيد كان اسم جد أبي إسحق الثالث؛ لأن اسمه هو: شهريار بن زادا نفرخ بن خورشيد.

د. استعلامي: حواشي تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٣).

١٨٤ ـ القاضي طاهر:

يقال إنه: أبو الوفا طاهر بن إبراهيم معاصر عضد الدولة. كان رجلاً مشهوراً في تاريخ آل بويه، وشاوره عضد الدولة في واقعة سنة ٣٦٧هـ المتعلقة بمقتل بختيار بن معز الدولة.

السابق: (ص ٨٨٣).

١٨٥ ـ أبو الفضل الديلمي:

هو عباس بن حسين الشيرازي، الذي اشتهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في حكم الأسرة البويهية. وكان متعصباً في الدين.

١٨٦ ـ سورة المنافقون، آية (٤).

١٨٧ ـ سورة النحل، آية (١٢٨).

١٨٨ ـ سورة الإسراء، آية (٧).

١٨٩ ـ سورة إبراهيم، آية (٣٧).

١٩٠ ـ أبو العباس السياري:

هو أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدي ابن بنت أحمد بن سيار. كان من أهل مرو، وشيخهم، ومحدثهم، وفقيهم. وكان عالماً بعلوم الظاهر والباطن. وتكلم في علوم التوحيد بلسان الجبر. كتب الحديث، ورواه، وأسنده. مات سنة ٣٤٢هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء: جـ١٠، (ص ٣٨٠)، طبقات الشعراني: جـ١، (ص ٩٤)، الرسالة القشيرية، جـ١، (ص ١٦٨)، طبقات الصوفية: (ص ٤٤٠) ،كشف المحجوب: جـ١

(ص ٣٦٩).

١٩١ ـ أبو عثمان المغربى:

هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى. كان من كبار أهل التمكين، وكان ذا حظ وافر فى فنون العلم، وصاحب رياضات وسياسات. أقام بالحرم الشريف مدة، وكان شيخه. مات بنيسابور سنة ٣٧٣هـ.

انظر ترجمته فى : طبقات الشعرانى: جـ١ (ص ١٩٧)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٧٩)، طبقات الصوفية: (ص ٤٧٩)، كشف المحجوب: جـ١، (ص ٣٧٠).

١٩٢ ـ أبو الفارس:

يقال إنه تصحيف «أبو الفوارس»، وهى كنية الشاه الكرمانى.

د. استعلامى: حواشى التذكرة، (ص ٨٨٤).

١٩٣ ـ أبو عمرو الزجاجى:

هو محمد بن إبراهيم بن يوسف الزجاجى النيسابورى، من عارفى القرن الثالث الهجرى، توفى ٢٤٨ هـ.

السابق: نفس الصفحة.

١٩٤ ـ أبو بكر فورك:

هو محمد بن الحسن، من علماء النحو والأدب والأصول، والواعظين. توفى فى إصفهان سنة ٤٠٦هـ.

١٩٥ ـ أبو القاسم النصر آبادى:

هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه النصر آبادى. نيسابورى الأصل، والمنشأ، والمولد. وكان شيخ خراسان فى وقته. وكان أوحد المشايخ فى وقته علماً وحالاً. يرجع إلى أنواع من العلوم: من حفظ السير وجمعها، وعمل التواريخ، وعلم الحقائق. أقام بنيسابور، وخرج ـ فى آخر عمره ـ إلى مكة، وأقام بالحرم مجاوراً. ومات بمكة سنة ٣٦٧هـ.

انظر ترجمته فى: طبقات الشعرانى: جـ١، (ص ٩٧)، الرسالة القشيرية: جـ١، (ص ١٨١)، طبقات الصوفية (ص ٤٨٤)، كشف المحجوب: جـ١، (ص ٣٧١)، شذرات الذهب: جـ٣،

(ص ٥٨).

١٩٦ ـ سورة البقرة، آية (١٣٧).

١٩٧ـ سورة الزخرف، آية (٦٨).

١٩٨ ـ سورة طه، آية (١٢١).

١٩٩ ـ سورة طه، آية (١٢٢).

٢٠٠ ـ سورة إبراهيم، آية (٧).

٢٠١ ـ أبو العباس النهاوندى:

من صوفية القرن الرابع الهجرى، توفى سنة ٣٧٠هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٥).

٢٠٢ ـ أبو سعيد بن أبى الخير:

سبق التعريف به.

٢٠٣ ـ الإمام القفال:

المقصود: أبو بكر القفال المروزى، واسمه أحمد بن عبدالله. وكان من فقهاء الشافعية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٥).

٢٠٤ ـ سورة فصلت، آية (٥٣).

٢٠٥ ـ أبو طاهر:

ابن الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير.

٢٠٦ ـ سورة المائدة، آية (١١٦).

٢٠٧ ـ القاضى صاعد:

هو صاعد بن محمد بن أحمد النيسابورى، كان فقيه الحنفية، وتولى منصب القضاء فى

نيسابور. ألف كتاب «الاعتقاد» . وتوفى سنة ٤٣٢هـ.

د. استعلامى: حواشى تذكرة الأولياء، (ص ٨٨٥) .

٢٠٨ ـ سورة الفتح، آية (١) .

٢٠٩ـ أبو الفضل بن الحسن:

هو أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى. كان عالماً بالتفسير والروايات، وتمذهب بمذهب الجنيد فى التصوف. توفى قبل سنة ٤٣١هـ.

انظر د. إسعاد عبدالهادى قنديل: ترجمة كشف المحجوب، جـ١ ، (ص ٥٨، ٥٩، ٦٠) .

٢١٠ ـ الإمام محمد الباقر:

هو أبو جعفر محمد بن الحسين بن على بن أبى طالب، ويلقب بالباقر. كان مخصوصاً بدقائق العلوم، ولطائف الإشارات فى كتاب الله عز وجل، وكانت له كرامات مشهورة، وآيات زاهرة، وبراهين نيرة.

كشف المحجوب:جـ١ ، (ص ٢٨١، ٢٨٢) .

٢١١ ـ سورة البقرة، آية (٢٥٦) .

المراجع

اولا: المراجع العربية:

١ ـ أبو الحسن على بن عثمان الجلابى الهجويرى: كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق د. إسعاد عبدالهادى قنديل، بيروت ١٩٨٠م.

٢ ـ أبو عبدالرحمن السلمى: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣ ـ أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠هـ، الجزء الثالث.

٤ ـ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى: الرسالة القشيرية، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

٥ ـ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصبهانى: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لبنان، بدون تاريخ.

٦ ـ جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزى: صفة الصفوة، ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧ ـ عبدالوهاب الشعرانى: الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار فى طبقات الأخبار، القاهرة، مكتبة محمد المليجى الكتبى وأخيه.

٨ ـ د. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، راجعه أحمد ناجي القيسي، د. محمد مصطفى، مكتبة النهضة العربية، ١٩٧٠م.

٩ ـ محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي الخير: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، ترجمة د. إسعاد عبدالهادي قنديل، مراجعة د. يحيى الخشاب، بدون تاريخ.

ثانياً : المراجع الفارسية:

١ – فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، بسعى واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون، ليدن ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٥م.

٢ – فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، بررسى، تصحيح متن، توضيحات د. محمد استعلامى، چاپ دوم ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

ثالثاً: المعاجم:

١ – د. إبراهيم الدسوقي شتا: المعجم الفارسي الكبير، القاهرة، مكتبة مدبولي.

٢ – د. سيد جعفر سجادى: فرهنك اصطلاحات وتعبيرات عرفانى، كتابخانه طهورى، چاپ چهارم، تابستان ١٣٧٨ هـ. ش.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg